

السُّرُورُ الْمُنْوِيَّةُ
السُّرُورُ الْمُبَارَكَةُ



جهاز الإذاعة والتلفزيون المصري

السيسي والثورة
بالذكرى العاشرة
السبعين

سلسلة المعارف التعليمية

السيرة النبوية المباركة



دار المعرفة الإسلامية الثقافية

الكتاب: السيرة النبوية المباركة

إعداد: مركز المعرفة للتأليف والتحقيق

إصدار: دار المعرفة الإسلامية الثقافية

تصميم وطباعة: DB(UK)
009613 336218

الطبعة الأولى - 2018م

ISBN 978-614-467-046-0

books@almaaref.org.lb

00961 01 467 547

00961 76 960 347

سلسلة المعارف التعليمية

السيرة النبوية المباركة



دار المعارف للعلوم الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

13	المقدمة
15	الدرس الأول: شبه الجزيرة العربية الجغرافية والتاريخ
17	تمهيد
17	جغرافية شبه جزيرة العرب
18	حياة العرب في شبه الجزيرة العربية
25	الدرس الثاني: قبيلة قريش النشأة والهوية
27	تمهيد
27	أقسام العرب
29	ظهور قبيلة قريش
30	مكانة قريش بين العرب
31	أعمال قصي في مكة
32	زعامة قريش بعد قصي بن كلاب
33	حكم عبد المطلب بن هاشم في مكة
34	مصير الرفادة والسوقية بعد عبد المطلب
34	حملة أبرهة
39	الدرس الثالث: النبي محمد بن عبد الله ﷺ (الولادة والنشأة)
41	تمهيد
41	النسب الشريف
42	ولادته ﷺ
43	رضاعته ﷺ
44	كافالة أبي طالب للنبي ﷺ
44	فترة شبابه
47	زواج خاتم النبيين ﷺ
51	الدرس الرابع: البعثة النبوية (١) نزول جبرائيل - الدعوة السرية
53	تمهيد
53	الإعداد الإلهي للنبي ﷺ قبل البعثة
54	ظهور جبرائيل على النبي ﷺ وأول صلاة
55	البعثة النبوية

56.....	الدعوة السرية إلى الإسلام
57.....	النواة الأولى للمسلمين
63.....	الدرس الخامس: البعثة النبوية (2) نزول القرآن - الدعوة العلنية
65.....	تمهيد
65.....	البعثة النبوية ونزول القرآن
67.....	بداية نزول القرآن الكريم
68.....	إعلان الدعوة الإسلامية
70.....	موقف قريش من الدعوة العلنية
70.....	إسراء والمراج
75.....	الدرس السادس: قريش ومواجهة الدعوة النبوية (1)
77.....	تمهيد
77.....	الصد عن الدعوة النبوية
78.....	البيان العام الثالث بعد هلاك المستهزئين
79.....	الصد عن الدعوة في موسم الحج
79.....	ظلم المشركين للمستضعفين من المسلمين
80.....	تحليل عام للموقف بعد إعلان الدعوة
82.....	قريش توسط أبا طالب
85.....	الهجرة إلى الحبشة وتصعيد المواجهة مع الشرك
89.....	الدرس السابع: قريش ومواجهة الدعوة النبوية (2)
91.....	تمهيد
91.....	إسلام حمزة بن عبد المطلب
93.....	الحصار في شعب أبي طالب
95.....	وأنذر عشيرتك الأقربين
98.....	عام الحزن
99.....	هجرة النبي ﷺ إلى الطائف
103.....	الدرس الثامن: يثرب قاعدة تأسيس الدولة الإسلامية
105.....	تمهيد
105.....	التعريف بمدينة يثرب
106.....	أسباب الهجرة إلى يثرب
107.....	لماذا اختار رسول الله ﷺ المدينة المنورة؟
108.....	بداية دخول الإسلام إلى يثرب

اللقاء الأول للخرج بالنبي ﷺ في موسم العمرة	110
البيعة والقاعدة الشعبية المناصرة	111
الدرس التاسع: الهجرة إلى يثرب	115
تمهيد	117
هجرة المسلمين إلى يثرب	117
المؤامرة على حياة النبي ﷺ	119
التحضير للهجرة النبوية وإيشار الإمام علي علیه السلام	119
فشل المؤامرة القرشية	121
الهجرة النبوية	122
هجرة علي بن أبي طالب علیه السلام	124
المسجد الأول في الإسلام: «قباء»	125
رسول الله ﷺ في يثرب	126
الدرس العاشر: التنظيمات الأولى للدولة الإسلامية	129
تمهيد	131
المسجد النبوي مركز قيادة الدولة	131
معالجة أسس البناء الاجتماعي الداخلي	132
إرساء أسس النظام السياسي للدولة	136
إرساء أسس بناء القوة العسكرية للدولة	137
الدرس الحادي عشر: معركة بدر (1)	143
تمهيد	145
موقع بدر: الهوية والجغرافيا	145
الأسباب المؤدية إلى وقوع معركة بدر	146
تحرّك جيش المسلمين نحو بدر	147
إجراءات أبي سفيان لحماية القافلة	148
النبي ﷺ يتحرّك أخبار قافلة قريش	150
خيارات النبي ﷺ بعد إفلات القافلة	150
إجراءات النبي ﷺ الداخلية استعداداً للمعركة	151
أهداف استشارة النبي ﷺ أصحابه	152
إجراءات النبي ﷺ المعنية والعسكرية يوم اللقاء في بدر	152
الدرس الثاني عشر: معركة بدر (2)	157

159.....	تمهيد
159.....	رسول الله ﷺ ومحاولة التهدئة
161.....	القتال والاشتباك
163.....	هزيمة المشركين في بدر
163.....	إجراءات النبي ﷺ بعد معركة بدر
165.....	نتائج معركة بدر وأثارها
166.....	عوامل النصر في معركة بدر
الدرس الثالث عشر: اليهود والإخلال بنظام الدولة الإسلامية (بني القينقاع - بنو النضير).....	
171.....	
173.....	تمهيد
173.....	بروز وخفاء ظاهرة النفاق
174.....	نجاح سياسة النبي ﷺ في مواجهة المنافقين
175.....	محور اليهود
176.....	أسباب إخراج النبي ﷺ اليهود من المدينة
180.....	حصار بنى النضير
182.....	نتائج المعركة
الدرس الرابع عشر: معركة أحد (1) (اختبار الطاعة والولاء)	
185.....	
187.....	تمهيد
187.....	تعريف عامٌ بالمعركة
188.....	استعدادات قريش للمعركة
189.....	جيش المشركين إلى أحد
189.....	استعدادات المسلمين للمعركة
192.....	المواجهة بين المسلمين والمشركين
196.....	محاولة أبي سفيان في اكتساب النصر
197.....	الحفاظ على المدينة
الدرس الخامس عشر: معركة أحد (2) (النتائج والآثار، غزوة دومة الجندل)	
199.....	
201.....	تمهيد
201.....	نتائج معركة أحد وأثارها
205.....	غزوة دومة الجندل
206.....	الخروج إلى دومة الجندل
207.....	رسول الله ﷺ في دومة الجندل
209.....	الدرس السادس عشر: معركة الخندق(1)

211	تمهيد
211	تعريف بالمعركة
212	تحالف قوى الشرك ضد المسلمين
213	التخطيط النبوى لمواجهة الأحزاب
218	جيش الأحزاب والمفاجأة الكبرى
218	تحليل الموقف العام للمعركة
220	النبي ينتزع زمام المبادرة
223	الدرس السابع عشر: معركة الخندق (2) (الهزيمة النهاية لقوى الشرك).
225	تمهيد
225	يهود بنى قريطة والخطر الداخلى
227	خريطة الدفاع النبوية
229	الاشتباك والاقتتال
230	رسول الله وتفتت معسكر الأعداء
231	نهاية جيش الأحزاب
237	الدرس الثامن عشر: حماية المدينة وتفتت جبهة قريش (يهود بنى قريطة).
239	تمهيد
239	الاستراتيجية النبوية في قلب موازين القوى في المنطقة
246	نتائج الحرب
247	الدروس المستفادة من غزوة بنى قريطة
251	الدرس التاسع عشر: حماية المدينة وتفتت جبهة قريش وقوة اليهود.
253	تمهيد
253	غزوة بنى المصطلق
255	القضاء على قوى اليهود الأخرى
257	ضبط الوضع العام للأعراب حول المدينة
261	الدرس العشرون: استدراج قريش نحو صلح الحديبية (موازين القوى بين رسول الله ﷺ وقريش).
263	تمهيد
263	إعلان التوجّه إلى العمارة
264	استعداد قريش للحرب
265	المفاوضات وتبادل الرسل
266	خطّة عمل النبي ﷺ
267	قريش تتجّر الموقف

268.....	قبول قريش بأصل التفاوض
268.....	كتابة معاهدة صلح الحديبية
270.....	نتائج صلح الحديبية
270.....	بيعة الرضوان (تجديد الولاء والعهد)
الدرس الواحد والعشرون: استثمار صلح الحديبية باتجاه قلب موازين القوى	
275.....	تمهيد
275.....	فتح خيبر
280.....	أسباب انتصار المسلمين في خيبر
281.....	آثار ونتائج فتح خيبر
281.....	يهود قدك ووادي القرى وتيماء
الدرس الثاني والعشرون: الدعوة الإسلامية خارج المدينة المنورة وعمرة القضاء	
285.....	تمهيد
287.....	انتشار الإسلام في البلدان والقبائل العربية
287.....	غطfan وخzاعـة والدخول في الإسلام
288.....	دعوة شعوب العالم إلى الإسلام
289.....	عمرة القضاء والعودة إلى مكة
الدرس الثالث والعشرون: الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، معركة مؤتة	
297.....	تمهيد
299.....	محاولة التمدد ناحية الشمال
299.....	أهداف غزوة مؤتة
300.....	تجهيز الجيش الإسلامي
302.....	مجريات المعركة
303.....	الهزيمة والعودة إلى المدينة
305.....	نتائج معركة مؤتة
الدرس الرابع والعشرون: قريش تنهي حركة الصراع مع النبي ﷺ (نقض صلح الحديبية) ...	
309.....	تمهيد
311.....	قريش تنقض صلح الحديبية
311.....	خzاعـة تستنصر رسول الله ﷺ
315.....	خطـة تحرك النبي ﷺ لفتح مكة

319.....	رحمة النبي ﷺ وعفوه
الدرس الخامس والعشرون: الفتح المبين (فتح مكة)	
323.....	تمهيد
323.....	السياسة النبوة في فتح مكة
324.....	أحداث فتح مكة
328.....	الدخول إلى مكة
328.....	النبي يدخل المسجد الحرام
329.....	نتائج فتح مكة
الدرس السادس والعشرون: معركة حنين (1)	
335.....	تمهيد
335.....	سرايا إنهاء مظاهر الشرك
338.....	معركة حنين
340.....	المعركة والقتال
الدرس السابع والعشرون: معركة حنين (2) حصار الطائف وثقيف	
347.....	تمهيد
347.....	حصار الطائف
348.....	الخطط العسكرية في تشديد الحصار على الطائف
350.....	أهل الطائف يعلنون إسلامهم
351.....	قضية السبايا والأسرى
352.....	تقسيم الغنائم والأموال
354.....	دروس وعبر من معركة حنين
355.....	العودة إلى المدينة
الدرس الثامن والعشرون: غزوة تبوك (سرايا الدعوة والتبلیغ والردع)	
359.....	تمهيد
359.....	سرايا الدعوة والتبلیغ والردع
360.....	رسائل النبي ﷺ إلى اليمن
362.....	غزوة تبوك
363.....	العقبات التي سبقت غزوة تبوك
364.....	خطوات النبي في الحفاظ على المدينة

365.....	خطوات النبي ﷺ وأعماله في تبوك
367.....	النتائج العامة لغزوة تبوك
367.....	محاولة اغتيال النبي ﷺ
368.....	تهدم مسجد الضرار
371.....	الدرس التاسع والعشرون: عام الوفود وتصفيّة الوجود الوثني داخلاً الجزيرة
373.....	تمهيد
373.....	السياسة العامة لرسول الله ﷺ مع الوفود
375.....	بعثة الإمام علي عليه السلام إلى اليمن
376.....	مصالحة أهل نجران
378.....	إعلان البراءة من المشركين
383.....	الدرس الثلاثون: رسول الله ﷺ ومستقبل الدولة الإسلامية
385.....	تمهيد
385.....	حجّة الوداع: الأسباب الدينية والهدف التاريخي
387.....	رسول الله ﷺ في مكة
389.....	غدير خم والبيعة للإمام علي عليه السلام
395.....	الدرس الواحد والثلاثون : رحيل المصطفى ﷺ
397.....	تمهيد
397.....	جيش أسامة وخلافة الإمام علي عليه السلام
400.....	ملابسات كتابة وصيّة رسول الله ﷺ
402.....	رسول الله ﷺ في جوار الله
403.....	الإمام علي عليه السلام واستكمال إجراءات الدفن

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين،
وبعد...

لقد بعث رسول الله ﷺ، والناس في ضلاله عمياً، وجاهليّة جهلاً، والعالم يموج
بألوان مختلفة من الشرك والظلم والتخلّف والانحدار، وفي صدارة العالم دولتان، هما:
دولة الفرس، ودولة الروم، ومن وراء هؤلاء يهود غضب الله عليهم لضياع الدين بينهم،
واتّخاذهم أحبارهم أرباباً من دون الله. ولم يكن العرب أحسن حالاً من هذه الأمم
والشعوب؛ فقد كانت أحوال القبائل داخل الجزيرة العربية مفككة الأوصال، تغلب عليها
النزعية القبلية والطبيعة العنصرية. أمّا أحوال العرب الاجتماعية فقد كانت في الحضيض،
يُغيّر بعضهم على بعض، فيقتلون ويسبون، ويخوضون الحروب لأتفه الأسباب، يَئدون
البنات خشية العار، ويقتلون الأولاد خشية الفقر والافتقار...

فقد كان فيهم من الدنيا والرذائل ما ينكره العقل والمنطق، لكنّهم حافظوا على جملة
من الأخلاق تميّزوا بها عن سائر الأمم حينئذ، كالوفاء بالعهد وعزّة النفس والشجاعة
والكرم...

ولهذا، عندما نتأمّل أهداف البعثة النبوية، نجد أنّ نبيّ الإسلام محمداً ﷺ قد عمل
على تربية الفرد والمجتمع على الإيمان بالإله الواحد على مستوى العقيدة والفكر،
والالتزام العمليّ في الحياة الفردية والاجتماعية على مستوى الشريعة والفقه، إضافةً
إلى تعميم مكارم الأخلاق، فقد رُوي عنه ﷺ، في حديث مشهور، أنّه قال: «إنما بعثتُ

لأتمم مكارم الأخلاق»⁽¹⁾; فإنّ البعثة قد وُجدت في هذا العالم لأجل هذا الهدف، من أجل تعميم المكارم الأخلاقية، والفضائل الروحية وتكميلها عند الناس. ولهذا، فإنّ الله سبحانه يخاطب النبي ﷺ في أوائل البعثة قائلاً: «وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ»⁽²⁾; أي إنّ الرسول ﷺ كان على درجة من الاستعداد يجعله قادرًا على تلقّي الوحي الإلهي، وهذا الأمر يعود إلى ما قبل البعثة.

وإنّ سيرة النبي الأكرم ﷺ، في مرحلة السنوات العشر لحاكمية الإسلام في المدينة، تُعدّ من ألمع عهود الحكم طيلة التاريخ البشري، ولا نقول ذلك جزافاً، وإنما يجب التعرّف إلى هذا العهد القصير والمليء بالنشاط، والذي له تأثيرٌ خارقٌ على تاريخ البشرية. وإنّ المرحلة المدنية هي الفصل الثاني من عصر رسالة النبي، فهي تمثل سنّي إرساء قواعد النظام الإسلامي وبناء نموذج الحكم الإسلامي لجميع أبناء البشرية على مرّ التاريخ الإنساني في مختلف الأعصار والأمصار. وهذا النموذج الكامل، لا نجد له نظيراً في أيّ حقبة أخرى. وبمقدورنا، من خلال إلقاء نظرة على هذا النموذج الكامل، تحديد المعالم التي ينبغي للبشر والمسلمين الحكم على الأنظمة والناس من خلالها. هذا الكتاب، «السيرة النبوية المباركة»، سلسلة دروس تحليلية في السيرة النبوية وتاريخ صدر الإسلام، نقدمه للأساتذة والطلاب الأعزاء وفق منهجية تراعي حاجات المتعلمين، وتقديم مادة علمية غنية للمعلمين، وقد استندنا في إعداد الكتاب وتحقيق موارد الاختلاف فيه إلى المصادر التاريخية المشهورة عندنا؛ لجسم المورد وإعطاء الرأي الصحيح فيه وفق هذه المصادر.

والحمد لله رب العالمين

مِرْكَزُ الْمَعْارِفِ لِلتَّأْلِيفِ وَالْحَقِيقَةِ

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان، ج 10، ص 86.

(2) سورة القلم، الآية 4.

الدرس الأَخْرَى

شِبَهُ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ الجغرافيا والتاريخ

أَهْدَافُ الدَّرْسِ

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف جغرافيا شبه الجزيرة العربية.
2. يشرح ملامح النظام الاجتماعي والسياسي في شبه الجزيرة العربية.
3. يتعرّف على الحياة الدينية عند العرب في شبه الجزيرة العربية.

تمهيد

إن قراءة التاريخ لمجتمع ما تتطلب أن يتم التعرّف إلى البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ذلك المجتمع؛ لأن كثيراً من الأحداث التاريخية التي تتعلق بذلك المجتمع، تتعلق بالطبيعة الجغرافية التي يعيش فيها، من جبال وسهول ووديان ومناطق أخرى.

إضافة إلى ذلك، لا بد من الاطلاع على الحياة السياسية والاجتماعية والدينية التي كان يعيشها ذاك المجتمع؛ لأن كثيراً من العادات والتقاليد والأعراف مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بكل تلك الحياة التي ينطوي عليها المجتمع، فتؤثر فيه وفي أبنائه، وهذا ما يشمل عملياً معتقداته، وأفكاره الدينية، والسياسية، والاجتماعية والنفسية.

وهنا، في معرض تعرّفنا إلى تاريخ العرب في شبه الجزيرة العربية، لا بد من إطالة على جغرافية شبه الجزيرة العربية، ومعتقدات العرب، وعاداتهم الاجتماعية والسياسية.

جغرافية شبه الجزيرة العربية

تقع في الجنوب الغربي من آسيا، على مساحة تبلغ ثلاثة ملايين كيلومتر مربع تقريباً، تحيطها المياه من الجهات الثلاث، فهي شبه جزيرة. يحدها من الغرب البحر الأحمر، ومن الجنوب المحيط الهندي وخليج عُمان، ومن الشرق الخليج الفارسي، وتترامى أطرافها من جهة الشمال حتى تتصل بالفرات، وبادية الشام، وبادية السماوة⁽¹⁾.

وتنقسم شبه الجزيرة إلى أقاليم ومناطق جغرافية مختلفة، وهي:

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة النهضة، بغداد، 2001، ط1، ج1، ص140 - 143.

1. تهامة على طول الساحل الممتد من العقبة إلى حدود اليمن، المحاذي للبحر الأحمر.
2. الحجاز أو جبال السراة، وهي المنطقة الوسطى، شرقيًّا تهامة، وتمتدّ من الشمال إلى الجنوب.
3. هضبة نجد، حيث ينبعـطـ الحجاز شرقاً، وتنحدر الهضبة تدريجياً، حتّى تصل إلى الشواطئ الشرقيّة المعروفة بالعروض، وهي بلاد اليمامة والبحرين، وتمتدّ من البصرة إلى عُمان، وتشمل الآن الكويت، والإحساء، وجزر البحرين وقطر.
4. اليمن وحضرموت ومهرة.
5. الربع الخالي: ثاني أكبر صحراء في العالم، وتحتلُّ الثالث الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة. ويتجزأ الربع الخالي حالياً بين أربع دول، هي: السعودية، واليمن، وعُمان والإمارات.

حياة العرب في شبه الجزيرة العربية

مررت شبه الجزيرة العربية بفترة زمنية قاتمة من الناحية الفكرية والثقافية والاجتماعية، عبر عنها القرآن الكريم بـ«الجاهلية». وقد استُخدِمَ هذا المصطلح في الإسلام، فُعِرِفتْ تلك الفترة بـ«العصر الجاهلي».

«الجاهلية» اصطلاحٌ مستحدثٌ ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق على حال ما قبل الإسلام تمييزاً وتفریقاً عن الحال الذي صار عليه العرب بظهور الرسالة، على النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم، من إطلاق لتسمياتٍ جديدة للعهود القائمة، والكيانات الموجودة بعد ظهور أحداث تزلزلها، وتتمكن منها، وذلك لتمييزها وتفریقها عن العهود التي تسمّيها أيضاً بتسميات جديدة. ونجد في التسميات التي تطلق على العهود السابقة ما يدلّ ضمناً على شيء من الإذراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان⁽¹⁾. وقد استخدم القرآن الكريم هذا المصطلح في إشارة إلى الجاهلية من نواحٍ عدّة فكرية، وثقافية، واجتماعية وغيرها، وهي:

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ج 1، ص 37.

قال تعالى: ﴿يَظْلَمُونَ بِاللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ ظَنَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾⁽¹⁾.

قال تعالى: ﴿أَفَحُکْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقْنُونَ﴾⁽²⁾.

وقال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾⁽³⁾.

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيمَةَ حَمِيمَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾⁽⁴⁾.

وقد أطلق القرآن الكريم هذا المصطلح على حياة العرب قبل الإسلام؛ ليشخص طبيعة هذه المرحلة الحضارية والعقائدية، ول البعضها في صفة أخواتها من جاهليات الأمم والشعوب الأخرى. ولم يطلق هذا المصطلح نتيجةً لجهلهم بالعلوم والمعارف، لأنهم كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة، ولا لأنهم كانوا أمّة متخلفة في الحياة المدنية، أو لأنهم كانوا يتصفون بالمخاخرة بالأنساب والتباھي بالأحساب، وغير ذلك من الخلال التي كانوا يتصفون بها، بل أسمائهم جاهليين لصدق انتظام المفهوم الجاهلي في عُرف الإسلام عليهم. وحقيقة هذا المصطلح هي عبارة عن مرض حضاري، وحالة فكرية ونفسية، تعتري الأفراد والشعوب والأمم في كلّ عصر وجيء، وإنّ مظاهر الحياة الجاهلية مشابهة لغيرها من العصور تماماً رغم فواصل الزمان والمكان⁽⁵⁾.

أولاً: الحياة المجتمعية

1. النظام القبلي:

القبيلة هي وحدة اجتماعية سياسية اقتصادية أساسية قائمة بذاتها، لها جيشها، ولواءها، ورئيسها ومناطق تحركها، وعيشها، وإعلامها الذي هو شاعرها. ويدعى أفرادها انحدارهم من أب واحد حتى لو كان هذا الأب بعيداً جداً، ويعيشون حياة مشتركة هي عبارة عن امتلاك مرعى ومرتع مشترك.

(1) سورة آل عمران، الآية 154.

(2) سورة المائدة، الآية 50.

(3) سورة الأحزاب، الآية 33.

(4) سورة الفتح، الآية 26.

(5) الشيخ عدنان فرحان آل قاسم، دروس في السيرة النبوية، دار السلام، بيروت، لبنان، 2011م، لا. ط، ج 1، ص 128.

وتُعدّ المسؤولية مشتركة بين أفراد القبيلة في الدفاع عنها. وقد أورثت هذه المسؤولية المشتركة لأفراد القبيلة في الحروب الداعية والهجومية حالة من الشجاعة والإقدام والجلد عند أفراد القبائل لا يملكونها أهل المدن بصورة عامة.

2. التعصب:

كان الإحساس المشترك بالدفاع عن المصالح الحيوية هو المسؤول عن بروز سمة التعصب في المجتمع الجاهلي، وهو حالة من التضامن الوثيق بين أفراد القبيلة الواحدة، في الأمور الاقتصادية والمعيشية، ما لبثت أن تحولت إلى أمر معنوي روحي؛ كالشعور بالاعتزاز والفخر، والشرف بالانتماء إلى القبيلة.

3. التحالفات:

كانت الإجارة وعقد التحالفات من الأمور الشائعة بين العرب. وقد عُرف من التحالفات المشهورة «حلف الفضول» الذي حضره النبي ﷺ، و«حلف المطبيين» ضد «حلف لعقة الدم»⁽¹⁾، و«حلف خزاعة» مع عبد المطلب. ولعل سبب هذا الحلف يعود إلى أنّ بنى أمية قد ناصبوا هاشمًا وأبناءه العداء في حياة هاشم نفسه، فتأسس حلف بنى هاشم وبنى المطلب وخزاعة ضدّ بنى نوفل وبنى عبد شمس⁽²⁾. وقليلة هي القبائل التي لم تدخل في أحلاف، ولذلك سميت باسم «جمرات العرب».

ثانيًا: الحياة الدينية

1. عبادة العرب للأصنام والكواكب:

شاعت بين العرب في الجاهلية عبادة الأصنام والجِنْ والكواكب، لكن ذلك لم يقض على الاعتقاد بالصانع الذي خلق الكون والحياة. فعلى الرغم من أنّ كثيراً من العرب لا يعتقدون بالمعاد، والحياة بعد الموت: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هُلْ نَدْلُكُمْ عَلَى رَجْلٍ﴾**

(1) البغدادي، محمد بن حبيب، المتنمقي في أخبار قريش، صححه وعلق عليه: خورشيد أحمد فاروق، ل.ن، ل.م، ل.ت، ل.ط، ص190.

(2) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، ربيع الأربع ونصوص الأخبار، تحقيق عبد الأمير مهنا، الناشر: مؤسسة الأعلمي، 1992م، ط1، ج1، ص155.

يُبَشِّرُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلَّ مُرْقَتٍ إِنَّكُمْ لَفِي حَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ
جِنَّةً بِلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾⁽¹⁾، إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدونَ
بِوُجُودِ اللَّهِ وَخَالقِيهِ، لَكُنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدونَ أَنَّ عِبادَتَهُمْ لِلأَصْنَامِ تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ زَلْفِي
وَهُوَ الشَّرُّ⁽²⁾.

2. عبادة اليهود والنصارى:

لقد قَدَّمت القبائل اليهودية إلى شبه الجزيرة العربية، واستقررت في المدينة المنورة، وذلك عندما هربت من الاضطهاد الروماني⁽³⁾.

وتَرَكَّ اليهود في شمال الجزيرة العربية، في منطقة واسعة أطلق عليها «وادي القرى»، مركزها «يثرب» التي كانت محطة مهمة على طريق التجارة الكبير الممتد من الشام إلى اليمن عبر صحراء الحجاز. وكان بنو قريظة وبنو القينقاع وبنو النضير من أكبر قبائلهم، وخبير من أعظم حصونهم. وعمل اليهود على نشر تعاليم التوراة في المناطق التي سكنا فيها، فانتشرت اليهودية في جنوب الجزيرة العربية، حيث اعتنقها الكثير من القبائل في اليمن، إضافة إلى المتهودين في الحجاز، مثل: بني عكرمة، وبني عمر، وبني عوف...، وغيرهم.

وكانت النصرانية شبه معدومة في الحجاز، لولا وجود قليل في نجران استمر إلى ما بعد ظهور الإسلام، ولكنه لم يلعب دوراً مهماً في حقبة ظهور الإسلام.

(1) سورة سباء، الآيات 7 و8.

(2) غالباً ما يكون الصنم والوثن على صورة إنسان، ويُعمل عادة من حجارة أو من خشب، أو ذهب أو فضة. ويروى في أخبار العرب أيام الجاهلية أنّ عمرو بن لحي، كبير خزاعة، عندما كان يتولى أمر البيت، سافر إلى الشام، وحمل معه منها الصنم (هبل) ووضعه على الكعبة. وكان أول صنم وضع عليها، ثم أتبعه بغيره. ولقد حفظ لنا تاريخ العرب في الجاهلية عدداً كبيراً من أسماء هذه الأصنام كما ورد ذكر بعض منها في القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّذِتِ وَالْأَغْرَى وَمَنْتَهَا الْثَالِثَةُ الْأُخْرَى﴾، (سورة النجم، الآيات 19 و20). وكانت قريش تعتبر اللات والعزى ومنة بنات الله ﴿أَلَكُمُ الْدَّرْكُ وَلَهُ الْأَنْتَ﴾، (سورة النجم، الآية 21). راجع: هاشم بن السائب الكلبي، كتاب الأصنام، نشر مكتبة كتبية، إيران، 1364هـ لـاط، ص 29، اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، 1960م، لـاط، ج 1، ص 100.

(3) راجع: البستاني، المعلم بطريس، دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، ج 11، ص 659.

ثالثاً: العلوم والحياة الثقافية:

كانت علومهم مبنية على الحدس والتخيّم، متوازنة عن مشايخ الحجّ وعجائذه. ولقد أوضح الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام مستواهم العلمي والثقافي، وأنهم كانوا يعيشون في ظلمات الجهل، والحيرة، والضياع. قال عليهما السلام: «بعثه الناس ضلال في حيرة، وخطابون في فتنة، قد استهولتهم الأهواء، واستزللتهم الكربلاء، واستخفّتهم الجاهليّة الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاء من الجهل»⁽¹⁾. وكانوا في أغلبيّتهم الساحقة أميين، لا يعرفون القراءة والكتابة أصلًا، إلّا من شدّ منهم.

رابعاً: الحياة السياسية⁽²⁾:

لقد ولد في قلب الصحراء المئات من الأفخاذ والبطون والقبائل المتناحرة، فنشأ بينها ما يُسمى في مصطلحات اليوم «توازن في القوّة»، فسيطر على شبه الجزيرة جوًّ من توازن الرعب، فلا تستطيع قبيلة أن تحسم الأمر لمصلحتها وتنشئ سلطة أمنية مرکزيّة، ولم تكن هناك سلطة مرکزيّة حاكمة من خارج الإطار القبليّ، بل انعدمت إمكانية ذلك في هكذا بيئة اجتماعية، وانعدمت بالتالي إمكانية قيام وحدة عسكريّة سياسية تفرض نفسها على كلّ جزيرة العرب.

ويعتبر هذا من أعظم العناصر التاريخية التي أزالت المانع أمام انتشار رسالة الإسلام. وقد رافق عدم قيام سلطة مرکزيّة في جزيرة العرب قيام سلطتين مرکزيّتين من أكبر السلطات في التاريخ، ألا وهما: فارس وبيزنطة، اللتان وقفتا عند تخوم جزيرة العرب، فلم تدخل تحت هيمنتهما، إذ كانت الصحراء عنصراً دفاعياً طبيعياً يقف مانعاً في وجه أيّ محاولة لاقتحام الجزيرة. كل ذلك جعل هذه المنطقة الصحراوية مستقلة وبعيدة عن التأثير السياسي للدول الكبرى.

(1) عبده، الشيخ محمد، شرح نهج البلاغة، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1412هـ ط1، الخطبة 91. ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، مطبعة أمير، قم، 1413هـ ط1، ج1، ص154، مرتضى العاملی، السيد جعفر، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، قم، إيران، دار الحديث، 1426هـ ط1، ج2، ص24.

(2) سيأتي في الدرس اللاحق بعض ملامح الحياة السياسية لقريش في عهد قصي بن كلاب وعبد المطلب.

خامساً: الحياة الاقتصادية:

كان أولاد عبد مناف أول من عقد لقريش صفقات تجارية مع الدول المجاورة. فقد أبرم هاشم اتفاقاً مع بيزانس إمبراطور الروم في الشام، وأخذ عهداً من ملك الغساسنة للمتجارة مع الشام، بينما عقد عبد شمس (الابن الآخر لعبد مناف) اتفاقاً مشابهاً مع النجاشي الأكبر ملك الحبشة، ومضى نوبل (الابن الثالث لعبد مناف) إلى بلاد فارس، فوقع مع خسروان إمبراطور الفرس عقداً تجاريًّا، في الوقت الذي اختار فيه مُطلب (وهو الابن الرابع لعبد مناف) الدولة الحميرية بصفتها طرفاً تجاريًّا يتعامل معه، فأبرم مع ملكها «أبرهة» معاهدة تجارية مماثلة للمعاهدات التي عقدها إخوهه الثلاثة؛ وتتضمن رواية الطبرى لهذه القصة نقطة مهمة؛ حيث قال: «فانتشروا من الحرم»؛ أي خرجوا من مكَّة وانطلقوا منها إلى الخارج. وهكذا ساهمت زعامةبني عبد مناف الأربعه⁽¹⁾ في ظهور نظام «الإيلاف»، محور الحياة السياسية والاقتصادية في مكَّة⁽²⁾.

(1) وهم: هاشم، عبد شمس، نوبل، المطلب. راجع: الطبرى، محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: نخبة من العلماء الأجلاء، دار الأعلمى، بيروت، لبنان، 1983، ط.4، ج.2، ص.12.

(2) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج.2، ص.180. المسعودى، علي بن الحسين، مروج الذهب، نشر دار الأندرس، بيروت، لبنان، 1965، ط.1، ج.1، ص.193، وج.2، ص.33. البلاذى، أحمد بن يحيى بن جابر، أنساب الأشراف، مؤسسة الأعلمى، بيروت، 1974م، ط.1، ج.1، ص.38 و59.

المفاهيم الرئيسية

- يقع شبه الجزيرة العربية في الجنوب الغربي من قارة آسيا، وينقسم إلى أقاليم ومناطق جغرافية مختلفة، من أبرزها: سهل تهامة، الحجاز، هضبة نجد، اليمن، صحراء الربع الخالي.
- الجاهلية اسم مستحدث ظهر بظهور الإسلام، ويطلق على حال العرب قبل الإسلام؛ تمييزاً وتفريقاً عن الحال التي صار عليها العرب بظهور الإسلام وقد استخدمه القرآن في آيات عدّة.
- لقد تنوّعت الحياة الاجتماعية عند العرب، وكان من أبرزها: النظام القبلي الذي كان يحكم كلّ النظام العائلي والسياسي والاجتماعي عند العرب، وبرزت لديهم حالة التعصب، وإنشاء التحالفات.
- شاعت بين العرب عبادة الأصنام والجِن والكواكب على نحو الشرك، ولم يقض ذلك على الاعتقاد بالصانع والخالق، فكانوا يعبدونها بنحو تقربهم إلى الله زلفى.
- كان في شبه الجزيرة العربية بعض الأديان السماوية الأخرى؛ كاليهودية التي كانت متمركزة في يثرب، والنصرانية التي سكنت في بلاد نجران.
- كانت علومهم مبنية على الحدس والتخمين، وكانوا يعيشون حالة الجهل والضياع.
- لم يكن في وسط شبه الجزيرة العربية سلطة مركبة تحكم في مقايد بلاد الحجاز، بل إنّ النظام القبلي السائد ساعد كثيراً على تحكم النظام القبلي بمقاييس الحكم السياسي في المنطقة.
- لقد كانت قريش تمتّع بقدرة اقتصادية قوية؛ فقد عقد أبناء عبد مناف صفقات تجارية مع القبائل والدول المجاورة، من خلال تأمين طرق التجارة، ونقل البضائع شمالاً وجنوباً، حتى بات لهم تجارة تُعرف برحلة الشتاء والصيف.

الدرس الثاني

قبيلة قريش النشأة والهوية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعْدُّ أقسام العرب.
2. يعرّف مكانة قبيلة قريش وظروف ظهورها.
3. يشرح أعمال قصي في مكة.
4. يتعرّف إلى أسباب ونتائج حملة أبرهة على مكة.

تمهيد

نشأت قريش في وسط شبه الجزيرة العربية، وكانت من أشهر القبائل العربية وأعلاها منزلة. وترجع هذه القبيلة في نسبها إلى عرب الشمال إلى النبي الله إسماعيل عليه السلام عن طريق حفيده عدنان، ويتحدر النبي محمد عليه السلام من هذه القبيلة العربية. بعد أن تأسست هذه القبيلة شكلت لنفسها كياناً سياسياً استمر حتى عهد رسول الله عليه السلام. وقد لعبت قريش دوراً محورياً في الحياة السياسية والدينية في مكة المكرمة، وممّا أعطاها هذه الميزة سكناها بجوار البيت العتيق، إذ إنّ العرب كانوا يعظمون البيت، ويحترمون جيرانه وخدماته. وقد امتازت بذلك قريش عن غيرها من سائر العرب؛ لأنّها تحصّنت بجواره.

أقسام العرب

1. العرب الجنوبيون أو القحطانيون:

هم الذين سكنوا اليمن وحضرموت، فأسسوا المدن والحضارات. ويطلق عليهم مصطلح «العرب العاربة»، وهم العرب الأصليون، أولاد يعرب بن قحطان. والقبائل القحطانية هي ما عُرفت في التاريخ بالقبائل اليمنية التي هاجرت من اليمن إلى الشمال، وأشهرها وأكبرها قبيلة قضاعة⁽¹⁾ وبطونها⁽²⁾.

(1) يرى بعض المؤرخين أنها تنسب إلى حمير بن مالك بن عمرو بن مرّة بن زيد، راجع: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 201.

(2) نهد، جهينة، عذرة، سلیح، كلب، القين، تونخ، راجع: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 202، 203، القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1407 هـ ط 1، ج 1، ص 316.

2. العرب الشماليون أو العدنانيون:

أي العرب المستعربة، وهم من غير الأصل العربيّ، بل استعربوا، وجدهم هو إسماعيل ابن النبيّ إبراهيم الذي سكن مكّة مع أمّه هاجر، ثمّ تزوج من قبيلة جرهم، ثمّ تناسلت ذريته إلى أخاد وقبائل وبطون سكنت كلّها في شمال شبه الجزيرة العربيّة، في الحجاز ونجد.

عدنان هو أحد أحفاد إسماعيل⁽¹⁾، ومن ثم يتّصل بحفيد آخر هو نزار؛ حيث تفرّعَت منها مجموعتان كبريتان، هما:

المجموعة الأولى: تنتسب إلى مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان. وهذه المجموعة من أكبر القبائل العدنانية، وتتصدّرها كنانة⁽²⁾ التي نزلت في أطراف مكّة، وإليها تنتسب قبيلة قريش؛ حيث ترجع إلى نضر بن كنانة⁽³⁾، وهو الجدّ الثاني عشر من أجداد النبيّ الأكرم ﷺ. وقد تجمّع وتظاهر وتشكّل جمعهم في زمان فهر بن مالك بن النضر، وهو الجدّ العاشر، ثمّ بعده حصل تفرق القبائل في ما بينهم. ويرجع نسب الرسول ﷺ وأهل البيت علیهم السلام، وكذلك خلفاءبني أميّة، وبني العباس، وأكثر زعماء المسلمين في صدر الإسلام، إلى بطون قبيلة قريش.

المجموعة الثانية: ربيعة، وتنسب إلى ربيعة بن نزار، وأشهر بطونها عنزة⁽⁴⁾، وعبد القيس⁽⁵⁾.

(1) يقول بعض النسّابين إنّ عشرين أباً بين إسماعيل وحفيده عدنان. وآخر يجعلهم أربعين، راجع: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 222، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبدأ والخبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، لات، ط 4، ج 2، ص 298.

(2) كنانة بن مدركة بن إلياس بن مضر، راجع: الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج 2، ص 188.

(3) الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج 2، ص 189.

(4) عنزة بن أسد بن ربيع، راجع: البلاذري، أنساب الأشراف ج 1 ص 20. الدكتور جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1 ص 482.

(5) عبد القيس بن قصي بن دعمي بن جديلة بن أسد، راجع: ابن حزم، عليّ أحمد بن سعيد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1983، ص 278.

ظهور قبيلة قريش

كانت قبيلة جرهم قد جاءت إلى مكة مع قبيلة قطروا من اليمن، بعد أن تدرجت مكة، وأصبحت مدينة كبيرة، وتكثر أولاد إسماعيل. ويبدو أن أهل مكة لم يكونوا قد اشتغلوا بعد بالتجارة، ويبدو أن هؤلاء الزوار الذين كانوا يتواجدون إلى مكة بهدف الزيارة وتأدية المراسيم العبادية المتبعة، كانوا في الوقت نفسه يقدمون بعض الأموال والهدايا إلى الكعبة، فكانت هذه الأموال سبباً جوهرياً في وقوع النزاع بين هاتين القبيلتين، فكل واحدة تريد السيطرة والاستئثار بالمنافع، وحسمت نتيجة الصراع لصالح جرهم⁽¹⁾. وبعد أن سيطرت جرهم على مكة، لم تبادر إلى طرد أبناء إسماعيل من هذه المنطقة، بل قامت بتوثيق العلاقة معهم، وإيجاد الصلات المختلفة التي من شأنها أن تشدهم وتقرب في ما بينهم، وقد عمدوا إلى إبرام معاهدة صلح معهم، والتزم الفريقان بمحاجتها بحفظ حرمة المدينة.

في هذا الوقت، كانت حالة أولاد إسماعيل قد تدهورت، فتحولوا من حاكمين لهذه البلدة إلى محكومين فيها؛ حيث كانت جرهم تبدو أقل عدداً، وقد استأثرت بجميع الموارد لنفسها، وعاشت حياة متفرقة دب فيها الفساد والتهتك، وزيادة الإتاوات المالية المفروضة على الزوار، وببيع بعض الحلوي والهدايا الثمينة التي كانت توضع في الكعبة⁽²⁾. ثم بدأت الاعتراضات تُشار إليها من قبيلة خزاعة⁽³⁾، فحشدت حولها المعارضين، وفي مقدّمتهم قبيلة بكر بن عبد مناة، وانضم إليها كذلك أولاد إسماعيل الذين ضاقوا ذرعاً بتصرّفات «جرهم»، فاستطاعت خزاعة أن تهزم جرهم، وأن تحل محلّها، وأن تسيطر على الموارد الكبيرة التي كانت تأتيهم دونما عناء⁽⁴⁾.

(1) ابن هشام، الحميري، السيرة النبوية، محمد محبي الدين عبد الحميد، الناشر: مكتبة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، مصر، 1963، ل.ط. ج 1، ص 73.

(2) ابن حجر، شهاب الدين العسقلاني، فتح الباري، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1300هـ ط 2، ج 6، ص 286.

(3) إحدى القبائل اليمنية التي هاجرت إلى مكة وسكنت فيها.

(4) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج 2، ص 10.

كانت السلطة تنتقل في خزاعة بالوراثة إلى أن وصلت إلى آخر زعيم لهم، وهو حليل بن حبشيّة. ويبدو أن هذا الرجل لم يُنجب سوى الإناث، وكانت «حبّي» إحدى بناته، قد تزوّجها قصيّ بن كلاب⁽¹⁾، فجعل حليل سданة البيت إلى أحدبني خزاعة، وكان سكيراً يقال له أبو غبشان، فاشتراها قصيّ منه بزق خمر، أو عبر وصيّة له من عمه⁽²⁾. وهكذا، بعد أن خضعت مكة بضعة قرون لنفوذ القبائل اليمينية المهاجرة، استأثر بنو إسماعيل بقيادة قصيّ، في أعقاب القضاء على سيطرة «خزاعة»، آخر هذه القبائل⁽³⁾.

مكانة قريش بين العرب

أكسبت سدانة قريش البيت العتيق شرفاً ومكانة. وكانت قريش من نسل إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، فمنحها اتصالاً نسبها بهما نفوذاً وخطراً عند العرب الذين يعتبرون الأنساب مصدر شرف وسؤدد؛ لأنهم يتعرضون للغارارات والسببي، الأمر الذي جعل لديهم حساسية خاصة تجاه هذا الأمر.

ولأن قريشاً كانت تحمي أداء شعائر الحج التي هي من بقايا الحنيفية، فقد أصبح الناس ينظرون إلى قريش نظرة فيها الكثير من الاحترام والتقديس والإكبار. كل ذلك جعل العرب يعتبرون مكة حرمًا يأمن من لجا إليه، حتى أن أحدthem قد يلتقي فيها بقاتل ولده، أو أبيه، فلا يؤذيه، ولا يستطيع أن يثأر منه.

وبعدما أصبحت السданة للبيت بيد قريش، اكتسبت بذلك مكانة ونفوذاً واحتراماً وتقديساً وإكباراً في نفوس العرب. كما اكتسبت قوّة في الاقتصاد والتجارة. فوفر وجود الكعبة بكل قداستها لدى القبائل العربية في شبه الجزيرة لقريش زعامه روحية واحتراماً بين قبائل العرب قاطبة. ثم جاءت واقعة الفيل وفشل الهجوم العسكري الذي شنه أئمّة على مكة من أجل هدم الكعبة، فعزّزت هذه الواقعة من مكانة قريش وزعامتها الروحية، خاصة وأن مفاتيح الكعبة وسدانة البيت كانا بيد قبيلة قريش، والتي حصلت على ألقاب

(1) المسعودي، مروج الذهب، ج 2، 175.

(2) الباقوفي، تاريخ الباقوفي، ج 1، ص 239، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 205.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج 1، ص 49.

عديدة تنطوي على بعض القداسة من قبيل: «آل الله»، «جيران الله» و«سكن حرم الله».

وهكذا وجدت قريش نفسها في موقع فريد بين القبائل العربية⁽¹⁾.

وبسبب هذا الموقع الفريد لقريش، فقد سعت إلى تعزيز نفوذها وفرض سيطرتها على القبائل الأخرى⁽²⁾.

وبسبب تجارتها إلى الشام وإلى اليمن وإلى الخليج الفارسي، اكتسبت قريش علاقة خاصة بالزعamas السياسية المسيطرة على هذه البلدان؛ كالقياصرة والأكاسرة، فنجد أنَّ هاشم بن عبد مناف ينادم قيس، وأنَّ أباً سفيان يقابل قيس، وعلى علاقة خاصة بأخيه ثيودوروس. وهكذا، تظافرت الأسباب والعوامل المساعدة، النسبيَّة والدينية، والسياسية والاقتصادية؛ لجعل قريشاً سيدة العرب بلا منازع، حتَّى أنَّ رسول الله ﷺ قال: «الناسُ تَبَعُّ لِقَرِيشٍ، بَرُّهُمْ تَبَعُّ لِبَرِّهَا، وَفَاجِرُهُمْ تَبَعُّ لِفَاجِرِهَا»⁽³⁾.

أعمال قصيٌّ في مكة

1. جمع ذرية إسماعيل، وإسكانهم حول الكعبة ونشوء قبيلة قريش:

لم تكن حول الكعبة المعظمة دورٌ مشيدٌ، أو جدرٌ محيطة بالمسجد الحرام. فلما آلت الأمور إلى قصيٍّ وأصبح هو سيد مكة، وبided مفتاح الكعبة، جمع قومه من ذرية إسماعيل وأمرهم أن يبنوا في حول الكعبة بيوتاً من جهاتها الأربع، وشكلت إعادة تجمُّعهم حدثاً تاريخياً، فسمُّوا هذا التجمع «تقرضاً».

(1) بشواري، مهدي، تاريخ الإسلام، تعرِيب: خليل العاصمي، الناشر: المجمع العالمي لأهل البيت ع، قم، إيران، 2007م، ط1، ص.52

(2) ابن سعد، محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج1، ص.72.

(3) ابن حزم، أبو محمد علي أحمد بن سعيد، الإحکام في أصول الأحكام، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1403هـ ج7، ص988، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ الخلفاء، تحقيق: لجنة من الأدباء، مطبوع معموق إخوان، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ص101.

2. تأسيس دار الندوة:

دار الندوة هي عبارة عن مكان لاجتماع القوم، وقد أسسها قصيّ، وانتدى قريشاً للاجتماع فيها، فعرفت بـ «دار الندوة». وتعتبر أول نظام شبه تعاوني بين الفعاليات الأكثر نفوذاً في قريش، وفيها كانت تجتمع قريش للحكومة، والقضاء، والشورى، وتُتخذ القرارات وتحدد المواقف، وتقضي أمرها، بما يعبر عن المصلحة المشتركة، إضافة إلى مسؤوليات أخرى، مما جعلها أداة منظمة للشؤون الحياتية المختلفة في مكة⁽¹⁾.

3. وضع الضرائب:

فرض قصيّ ضرائب مالية على الداخلين إلى مكة من غير أهلها، وكان يعشرون من دخل إلى مكة سوى أهلها⁽²⁾.

4. مناصب الدّجّ:

جعل قصيّ حراسة الكعبة وخدمتها والسهر عليها والوقوف على أبوابها مسؤولة مستقلة، أسمتها «الحجابة»، ثم أمر جماعة آخرين بالقيام بشؤون سقاية الحاج.

زعامة قريش بعد قصيّ بن كلاب

شاء قصيّ استمرار صيغة الحكم الوراثي في مكة مع أبنائه، مهياً ابنه البكر «عبد الدار» زعيماً لمكة من بعده، فأسنده إليه جميع هذه المناصب⁽³⁾، على الرغم مما كان يشار إليه من ضعف شخصيته، وتفوق إخوته عليه، لا سيما «عبد مناف» الذي اشتهر في حياة أبيه، وبذا أكثر جدارة بالزعامة من بعده⁽⁴⁾.

كان هاشم وعبد شمس ونوفل والمطلب جميعاً أبناء عبد مناف، وقد سيطروا على التجارة الخارجية. ولم يطل الوقت حتى قام هؤلاء الذين ورثوا نفوذ أبيهم وطموحه،

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج 2، ص 184، الأزرقى، محمد بن عبدالله، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدى الصالح ملحس، نشر: انتشارات الشريف الرضى، قم، إيران، 1411هـ ط 1، ج 1، ص 19.

(2) الأزرقى، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج 1، ص 82.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 1، ص 136 – 137.

(4) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 184، البلاذرى، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج 1، ص 53.

بانقلابهم ضدّبني عبد الدار، وانتزعوا منهم السلطة الفعلية، وذلك بزعامة كبيرهم عبد شمس؛ حيث تحولت الرفادة والسقاية في الحج إلى هاشم، ثم إلى ابنه عبد المطلب⁽¹⁾.

حكم عبد المطلب بن هاشم في مكة

اسمه شيبة بن هاشم، وكان حجّة، ومن أوصياء إبراهيم عليه السلام⁽²⁾. رفض عبد المطلب عبادة الأصنام⁽³⁾، ووحد الله تعالى⁽⁴⁾.

وقد بلغ عبد المطلب الحد الإيماني الأعلى بعد ولادة حفيده محمد عليه السلام؛ حيث سمع ورأى الكثير من العلامات الدالة على نبوته عليه السلام بأم عينيه، وشهد وعاين الكثير من الكرامات والدلائل القطعية فيه.

وكانت قريش تستسقي بعد المطلب، وكان يسمى سيد قريش⁽⁵⁾، وإبراهيم الثاني لإيمانه وأخلاقه، والتوفيق الإلهي له. وقد روي عن رسول الله عليه السلام أنه قال: «إن الله يبعث جدي عبد المطلب أمّة واحدة عليه سماء أو هيئة الأنبياء وزعي أو هيبة الملوك»، «وابهة الأشراف»⁽⁶⁾.

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج 2، ص 180.

(2) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، الاعتقادات في دين الإمامية، تحقيق: عصام عبد السيد، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط 2، ص 110، العلامة المجلسى، محمد باقر، بحار الأنوار، تحقيق: عبد الرحيم الربانى الشيرازى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، 1983م، ط 3، ج 15، ص 117، وج 17، ص 142، وج 35، ص 138.

(3) الحلى، علي بن برهان، السيرة الحلبية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ل.ط، ج 1، ص 7، السيوطى، تاريخ الخلفاء، ص 41.

(4) الشيخ الصدوق، محمد بن علي، الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفارى، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامى التابعة لجماعة المدرسين، قم، إيران، ل.ط، ص 313. الباقوى، تاريخ الباقوى، ج 2، ص 10.

(5) السيرة النبوية والآثار المحمدية، دحلان، ج 1، ص 23، تاريخ ابن الوردي، ج 1، ص 92.

(6) الباقوى، تاريخ الباقوى، 2، ص 14، الشيخ الكلينى، محمد بن يعقوب، الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفارى، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، 1363هـ ش، ط 5، ج 1، ص 447، ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن محمد، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربية، 1959م ط 1، ج 14، ص 68.

مصير الرفادة والسكنية بعد عبد المطلب

ولم يكن لعبد المطلب من الأولاد حينها سوى الحارت، فشرعا معاً في حفر البئر، ومثل هذا العمل لا يجد عادة التأييد المطلوب من الناس في مراحله الأولى، بسبب عدم اطمئنانهم إلى النتائج، ولم تشد قريش عن هذه القاعدة، واكتفت تقريباً ب موقف المتفرّج. أمّا بعد أن عثر عبد المطلب على بعض النفائس التي كانت مخبأة هناك، فقد تغيّر ذلك الموقف تماماً، وأبدت قريش حماساً شديداً للمساهمة في مشروع الحفر. وبعد أن ادعّت شراكتها في تلك النفائس، وسّعت مطامعها، فطالبت بحصة خاصة لها في ماء البئر وفي موارده الأخرى، وقد ترك هذا الموقف آثاراً عكسية في نفس عبد المطلب، وأثار سخطه وامتعاضه.

وصارت الرفادة بعد عبد المطلب لولده الزبير، ثم لـ «أبي طالب»⁽¹⁾، ولم يكن له مال، فاستدان من أخيه العباس بن عبد المطلب عشرة آلاف درهم فأنفقها. فلما كان العام المقبل سأله أن يسلفه خمسة عشر ألف درهم، فقال له: «إنك لم تقض ما لي عليك، وأنا أعطيك ما سألت على إنك إن لم تُعد إلي جميع مالي في قابل فأمر الرفادة والسكنية إلى دونك»، فأجابه إلى ذلك. فلما كان الموسم الثالث، ازداد أبو طالب عجزاً وضعفاً ولم يتمكّن من النفقة، فصارت الرفادة والسكنية إلى العباس، وأبراً أبا طالب مما له عليه⁽²⁾.

حملة أبرهة

كانت الإمبراطورية الرومانية تسعى إلى فرض سيطرتها على سواحل المحيط الهندي والبحر الأحمر؛ لتأمين الطريق أمام القوافل التجارية العائدة إليها، وكانت تحاول ضمن هذا المسعى أن تجد لها موطن قدم داخل شبه الجزيرة العربية. وقد شجّعتها مسيحية ملك الحبشة على ذلك، ووُجدت فيه فرصة مهمّة لبسط النفوذ.

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 11.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج 1، 57.

استمر حكم أبرهة لجنوب شبه الجزيرة العربية مدة أربعين عاماً تقريباً. وكان أبرهة قد بلغ في حكمه لليمن من القوة والهيمنة درجة جعلت أباطرة عصره يتسابقون لخطب وده والفوز برضاه، فكان سفراوهم يتواجدون عليه الواحد بعد الآخر، وكان ذلك من الأمور التي سجلها أبرهة وتركها في تاريخه⁽¹⁾.

بعد أن استتبّت الأمور لأبرهة في جنوب شبه الجزيرة العربية، أخذ يفكّر في غزو شمال شبه الجزيرة العربية والجهاز لإخضاعها إلى سيطرته.

وكان أبرهة قد دأب منذ استيلائه على اليمن على نشر الديانة المسيحية، فكان من أعماله بناء كنيسة في «صنعاء» سمّاها «القليس»، من أجل أن يحول إليها أنظار سكان شبه الجزيرة العربية جميعاً، ويجعلها كعبة جديدة لهم.

ولمّا فرغ أبرهة من بنائها، أرسل إلى نجاشي الحبشة يقول: «إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمتنٍ حتى أصرف إليها حاجَّ العرب»⁽²⁾. فلما تحدّث العرب بذلك كبر عليها، فأقدم رجلٌ منبني فقيم بن عديّ بن عامر بن ثعلبة على تدنيس القليس ببعض القاذورات، وبلغ أبرهة ذلك، فقال: «من صنع هذا؟»، فقيل: «صنعه رجلٌ من أهل هذا البيت الذي تحجّ إليه العرب في مكة لما سمع من قولك: أصرف إلى حاجَّ العرب».

فغضب أبرهة غضباً شديداً، وأقسم ليسيرن إلى البيت فيهدمه، وجهز جيشه وأعدّ نفسه إعداداً جيداً للقيام بهذه الحملة، وسار أبرهة إلى مكة على رأس جيش كبير من الأحباش، تتقدّمهم الفيلة.

ولمّا اقترب أبرهة من مكة، كان جلّ قريش قد خرجوا إلى الجبال، فاستولى أبرهة على أموال وممتلكات قريش، وأصاب مئتي بعير لعبد المطلب، فلما أتاه عبد المطلب، عظمه أبرهة وهابه وأجله وقال له: «سلني يا عبد المطلب»، فأبى أن يسأله إلا إبلًا له،

(1) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ج.3، ص 483 فما بعد.

(2) الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 1 ص 550، هشام بن محمد بن السائب الكلبي، كتاب الأصنام، ص 47، الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1997م، ل.ط، ج 4، ص 449.

فأمر بردّها عليه، ثم قال أبرهه لترجمانه: «قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتكم، ثم زهدت فيك حين كلّمتني، أتكلّمني في إبلك وتترك بيّنا هو دينك ودين آبائك قد جئتْ لهدمه؟! ألا تسألني الرجوع؟»، فقال عبد المطلب: «أنا رب هذه الإبل، وللبيت رب سيمنعه منك»⁽¹⁾.

ثم عاد عبد المطلب إلى مكة، وأقام في الحرم، وقال: «والله لا أُبرح من حرم الله، أبتغي العز في غيره، ولا أعود بغير الله». فجلس عند البيت قائلاً: «اللهم إن المرأة يمنع رحله فامنع حلالك». وقال: «لا يصل إلى هدم البيت؛ لأن لهذا البيت رباً يحميه ويحفظه»⁽²⁾. ولما تهياً أبرهه للهجوم على مكة، وأمر جيشه بالهجوم لهدم البيت، بر克 الفيل في المغمسم⁽³⁾، وضربوه فأبى، وكانوا كلما وجّهوه إلى اليمين وإلى باقي الجهات يتوجّه، إلا أنّهم كلما وجّهوه نحو مكة كان يبرك.

ثم أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أمثال الخطاطيف، مع كل طير منها ثلاثة أحجار، فقذفthem بها، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك، وخرج من سلم مع أبرهه هارباً يبتدرؤن الطريق الذي جاؤوا منه، وكانوا يتسلطون خلال خروجهم، وأصيب أبرهه في جسده، فقدموا به إلى صناعه، فما مات حتى اندفع صدره⁽⁴⁾.

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصدر سابق، ج 1، ص 220.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 33، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 1، ص 253، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 1، ص 554.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 188.

(4) ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، لبنان، 1966م، ل.ط، ج 1، ص 343، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 77.

المفاهيم الرئيسية

- قسم العلماء العرب إلى قسمين، الأول: العرب الجنوبيون؛ وهم الذين سكنوا بلاد اليمن، ويطلق عليهم العرب القحطانيون والعرب العاربة، وهم أبناء يعرب بن قحطان، والقسم الثاني العرب الشماليون؛ وهم العرب المستعربة؛ أي من غير الأصل العربي، وجدهم هو نبي الله إسماعيل عليه السلام.
- من أهم فروع أبناء نبي الله إسماعيل عليه السلام حفيده عدنان، الذي يُنسب إليه العدنانيون، ثم يتصل بحفيده آخر هو نزار، والذي يتفرّع منه مضر، وهو من أكبر القبائل العربية، والذي يتحدر منه كنانة الذي تنسب إليه قبيلة قريش، ويتفرّع منه مجموعة أخرى، وهي ربيعة وبطونها الأخرى.
- بعد مجيء قبيلة جرهم وقطوراً من بلاد اليمن إلى مكة، سيطرت هذه القبيلة على مقاليد الحكم في مكة، ثم تحولت إلى عامل زعزعة لهذا الاستقرار، فانتقل الحكم إلى قبيلة خزاعة، والتي تناقلت إدارة مكة في ما بينها بعامل الوراثة.
- وصلت مقاليد الحكم إلى قصي بن كلاب، الذي استطاع أن يعيد مقاليد الحكم إلى أبناء إسماعيل عليه السلام، وأرجع الزعامة المفقودة منهم، وسيطر على إدارة مكة.
- بعد أن تسلّم قصي بن كلاب مقاليد الحكم قام بأعمال عدّة، وهي أنه: جمع ذرية إسماعيل عليه السلام، أسس دار الندوة، وضع الضرائب، استحدث مناصب الحجّ.
- استمرّت الولاية على مكة المكرّمة بعد قصي في أبنائه، وذلك عبر الوصية بالحكم، حيث أوصى إلى ابنه عبد الدار، ثم انتقلت الزعامة إلى أبناء أخيه عبد مناف، الذين سيطروا على مقاليد الحكم.
- بعد انتقال الزعامة السياسية إلى أبناء عبد مناف استمرّت الرفادة والسكنية في أبنائه: هاشم ثم عبد المطلب، ثم حفيده أبو طالب.
- تعرّضت الكعبة لمحاولة هدم من قبل أبرهة، الذي فشل في محاولته، بقدرة الله سبحانه وتعالى، عندما أرسل تعالى على جيشه طيوراً أبابيل.

الدرس الثالث

النبيّ محمد بن عبد الله (الولادة والنشأة)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف تاريخ وظروف ولادة النبي ﷺ ومراحل طفولته.
2. يشرح نشاط النبي ﷺ ودوره في فترة شبابه.
3. يتعرّف إلى زواج النبي ﷺ من خديجة ؓ.

تمهيد

تعتبر الشخصية النبوية من أهم الشخصيات التي مررت على التاريخ البشري، وذلك نظراً لخصوصيات عدّة امتازت بها هذه الشخصية الكريمة، بدءاً من النسب ال祟يم، مروراً ب حياته قبل نبوته، حتّى وصوله إلى مرحلة النبوة الخالدة.

وقد نشأ رسول الله ﷺ في مجتمع جاهلي على كل المستويات. وعلى الرغم من ذلك، كانت شخصيته متميزة وبارزة، وقد خالفت كل أنماط الحياة في ذاك المجتمع الجاهلي، واتسمت شخصيته المباركة في مكّة المكرّمة برجاحة العقل، وحسن السيرة، وعلو الأخلاق الفاضلة، حتّى لُقبَ بـ«الصادق الأمين».

وكان رسول الله ﷺ شخصية فاعلة على المستوى الاجتماعي؛ فقد عمل في التجارة، ثم انتقل إلى الحياة الزوجية وكوّن أسرة كريمة، والتي تعتبر منارة للأسر الإسلامية.

النسب الشريف

هو أبو القاسم محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، شيبة الحمد، ابن هاشم، والذي ينتهي نسبه الشريف إلى نبي الله إسماعيل عليه السلام ابن نبي الله إبراهيم⁽¹⁾. وقد كان جميع آبائه موحدين مؤمنين على دين الحنيفية الإبراهيمية، بل كان فيهم

(1) هو أبو القاسم محمد ﷺ، بن عبد الله، بن عبد المطلب، شيبة الحمد، ابن هاشم، بن عبد مناف، بن قصيّ، بن كلاب بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن مالك، بن فهر، بن نضر، بن كانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

الصَّدِيقُونَ مِنْ أَنْبِيَاءِ مَرْسُلِينَ أَوْ أَوْصِيَاءِ مَعْصُومِينَ^(١)، وَفَقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِي يَرْزُكَ حَيَنَ تَقُومُ ۚ وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجَدَيْنَ﴾^(٢)، وَوَفَقًا لِلرَّوَايَةِ الْمَرْوِيَّةِ عَنْ أَئُمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «مَا زَالَ اللَّهُ يَنْقِلُهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلَى نَبِيٍّ حَتَّىٰ أَخْرَجَهُ مِنْ صَلْبِ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ»^(٣). وَأَمَّا أُمُّهُ فَهِيَ آمِنَةُ بُنْتُ وَهْبٍ بْنُ عَبْدِ مَنَافٍ، بْنُ زَهْرَةٍ، بْنُ كَلَابٍ. وَقَدْ كَانَتْ مُسْلِمَةً^(٤).

ولادته

ولد خاتم النَّبِيِّنَ ﷺ بعد 571 عَامًا عَلَى مِيلَادِ عِيسَى ابْنِ مَرِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فِي عَامِ الفَيْلِ. وَكَانَتْ ولادَتُهُ بَعْدَ هُجُومِ جِيشِ الْفَيْلِ بِخَمْسِينَ لَيْلَةً، فِي مَكَّةِ الْمَكْرُومَةِ، فِي مُنْزَلِ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُوبِ، فِي شَعْبَ بْنِ هَاشَمَ أَوْ شَعْبَ أَبِيهِ طَالِبٍ، قَبْلَ وَفَاتَهُ أَبِيهِ بْشَهْرِيْنِ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ ولَدَ يَوْمَ الْجَمْعَةِ فِي السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ.

صَاحَبَتْ ولادَتُهُ حَوَادِثٌ مُخْتَلِفةٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَخَاصَّةٌ فِي الشَّرْقِ الَّذِي كَانَ مَهْدَ حَضَارَةِ ذَلِكِ الْعَصْرِ، لِتَبْنَى عَنْ وَلِيدِ جَدِيدِ سُوفِ يَحْطُمِ طَوَاغِيْتِ عَصْرِهِ، وَيَقْضِي عَلَى كُلِّ تَلْكَ الْعَادَاتِ وَالسُّنُنِ الْبَالِيَّةِ؛ لِيُقْيِمَ عَلَى أَنْفَاقِهَا أَسْسَ التَّقْدِيمِ وَالرَّقِيْبِ الْبَشَرِيِّ. فَاضْطَرَبَ إِيَّوْنَ كَسْرَى أَنُو شِيرَوْنَ فِي تَلْكَ الْلَّيْلَةِ؛ حِيثُ سَقَطَتْ أَرْبَعُ عَشَرَةَ شَرْفَةً مِنْ شَرَفَاتِهِ، وَكَانَتْ الْأَنْظَارُ مَشْدُودَةً إِلَى ذَلِكَ الإِيَّوْنَ، وَإِلَى صَاحِبِهِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، حِيثُ كَانَتْ تَرَى فِيهِ مَثَلًا أَعْلَى لِلْقَدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ الَّذِي لَا يَزُولُ^(٥).

(١) الشِّيخُ الْمَفِيدُ، مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ، أَوَّلُ الْمَقَالَاتِ، دَارُ الْمَفِيدِ، بَيْرُوتُ، لَبَّانُ، 1993م، طِّ2، صِّ12، الشِّيخُ الصَّدُوقُ، تَصْحِيحُ اِعْتِقَادَاتِ الْإِمَامِيَّةِ، صِّ67، الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ، التَّفْسِيرُ الْكَبِيرُ، دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ، الْعَرَبِيَّةِ، لَاتِ، طِّ3، صِّ24، طِّ3، صِّ173، الْعَالَمَةُ الْمَجْلِسِيُّ، بَحَارُ الْأَنْوَارِ، جِ5، صِّ117، اِبْنُ كَثِيرُ، الْبَدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ، جِ2، صِّ281.

(٢) سُورَةُ الشَّعْرَاءِ، الْآيَاتُ 218 - 219.

(٣) الشِّيخُ الصَّدُوقُ، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، الْخَصَالُ، تَصْحِيحُ وَتَعْلِيْقُ: عَلِيٌّ أَكْبَرُ الْغَفارِيُّ، مَوْسِيَّةُ النَّشْرِ الْإِسْلَامِيِّ، قَمُّ، إِيَّرَانُ، 1403هـ لَاطِ، صِّ483 الْوَاقِيُّ، مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ، فَتوْحُ الشَّامُ، دَارُ الْجَبَلِ، بَيْرُوتُ، لَاتِ، لَاطِ، جِ2، صِّ23.

(٤) الْعَالَمَةُ الْمَجْلِسِيُّ، بَحَارُ الْأَنْوَارِ، جِ5، صِّ117، لِلتَّوْسِعَ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ، راجِعٌ: السِّيَّدُ جَعْفَرُ مَرْتَضَى الْعَالَمِيُّ، الصَّحِيحُ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ، جِ2، صِّ75.

(٥) الشِّيخُ الْكَلِينِيُّ، الْكَافِيُّ، جِ1، صِّ440، الشِّيخُ الصَّدُوقُ، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ، كَمَالُ الدِّينِ وَتَمَامُ النَّعْمَةِ، تَصْحِيحُ وَتَعْلِيْقُ:

عَلِيٌّ أَكْبَرُ الْغَفارِيُّ، مَوْسِيَّةُ النَّشْرِ الْإِسْلَامِيِّ، قَمُّ، إِيَّرَانُ، 1405هـ لَاطِ، صِّ192. الصَّدُوقُ، مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْأَمَالِيُّ، تَحْقِيقُ: مَوْسِيَّةُ الْبَعْثَةِ، قَمُّ، إِيَّرَانُ، 1417هـ طِّ1، صِّ158، صِّ356، الْعَقُوبِيُّ، تَارِيْخُ الْيَعْقُوبِيِّ جِ2، صِّ8، لِلتَّوْسِعَ حَوْلَ الْمَوْضُوعِ، راجِعٌ: السِّيَّدُ جَعْفَرُ مَرْتَضَى، الصَّحِيحُ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ، جِ2، صِّ142.

(ضاعه)

كان أشراف مكة قد اعتادوا على تسليم أطفالهم إلى المراضع اللواتي كن يسكن البادية. وكانت أمّه قد أرضعته أياماً قبل أن تأتي حليمة السعدية لأخذه، بعد أن اختارت لها آمنة على غيرها^(١). ويبدو أنها تركت الكلمة الأخيرة والقرار في ذلك لجده عبد المطلب؛ لأنّه يقوم مقام أبيه، فأحالتها عليه. دخلت عليه حليمة وهو جالس بالصفاء، وكان له سرير منصوب عند الكعبة يجلس عليه للقضاء بين الناس، فلما أتته قالت له: «نعمت صباحاً أيها السيد»، فقال لها: «من أين أنت أيتها المرأة؟»، قالت: «من بني سعد. أتينا نطلب رضيعاً نتعيش من أجرته، وقد أرشدت إلينك». فقال: «نعم، عندي ولد لم تلد النساء مثله أبداً، غير أنه يتيم من أبيه، وأنا جده أقوم مقام أبيه، فإن أردت أن ترضعيه دفعته إليك، وأعطيتك كفایتك»^(٢)، فسررت حليمة، وتسلّمته من أمّه، وانطلقت إلى ديارها^(٣).

وفي تلك السنة، كان القحط قد أصاب بني سعد، ومسّهم الضر والشقاء، ولكن ما إن وصل محمد ﷺ إلى تلك الديار حتّى بدأت البركة والخير يغمران منزل حليمة، فقد سمنت أغذامها بعد الهزال، وزاد لبناها بعد النضوب^(٤).

وحين أبصر نور مكة لم يبصر أباه عبد الله، ثم شاء الله سبحانه أن يعوضه عن حنان الأمومة حنانه ورعايته الفريدة، وأن تتوّف آمنة وهو لم يتجاوز السادسة من عمره الشريف عندما كان يصحبها في سفر إلى يثرب؛ لزيارة أخواله بني عدي بن النجار ليتعرّف إليهم. فقد مرضت وتوفيت في طريق العودة إلى مكة في قرية تدعى «الأبواء»، فبقى رسول الله ﷺ يتيمًا لا أب له ولا أم، فاحتضنته أم أيمن، وسلمته إلى جده عبد المطلب.

(١) جلال الدين السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، كفاية الطالب الليب في خصائص الحبيب، طبع في حيدرآباد الدكن، الهند، نشر: دار الكتاب العربي، 1320، ل.ط، ج 1، ص 57، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 15، ص 264.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 15، ص 373، 385.

(٣) ابن سعد الطبقات الكبرى، ج 1، ص 111، المقرئي، أحمد بن علي، إمتحان الأسماع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1999، ط 1، ج 4، ص 88.

(٤) الباعوفي، تاريخ الباعوفي، ج 2، ص 10، الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 1، ص 573، للتوصّة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملی، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 2، ص 147.

كفالۃ أبي طالب للنبي ﷺ

بقي هذا حاله حتى أدركت عبد المطلب الوفاة، ومحمد ﷺ عمره ثمانى سنين، فبعث إلى أبي طالب، وقال له: «يا أبو طالب، انظر أن تكون حافظاً لهذا الوحيد...»، يا أبو طالب، إن أدركت أيامه؛ فاعلم أني كنت من أبصر الناس وأعلم الناس به، فإن استطعت أن تتبعه فافعل، وانصره بسانك ويدك ومالك؛ فإنه والله سيسودكم، ويملك ما لم يملك أحدٌ منبني آبائي...»، فكفله أبو طالب.

كان أبو طالب يضمّه إلى نفسه، لا يفارقه ساعة من ليل ولا نهار، وكان ينام معه حتى لا يأتمن عليه أحداً⁽¹⁾. أضف إلى ذلك أنّ أبو طالب كان أقرب إخوته وأكرمهم، وأعظمهم مكانة في قريش. فنشأ النبي ﷺ عزيزاً مكرماً في بيت عمّه أبي طالب، وكانت فاطمة بنت أسد زوجة أبي طالب (أم الإمام علي) تفيض عليه من حبّها وحنانها⁽²⁾.

فترحة شبابه

1. رحلته إلى الشام:

رافق خاتم النبيين عمّه أبو طالب في رحلة تجارية إلى الشام. وكان أبو طالب من أهل التجارة والثروة⁽³⁾، وقد بلغ آنذاك الثانية عشرة. ولدى وصول القافلة إلى مدينة بصرى، نزلوا قريباً منها، فدعاهم إلى الطعام راهب يدعى «بحيرى»، فرأى النبي ﷺ، وبعد أن دار حوار بينهما، أخبر الراهب عمّه أنه نبي هذه الأمة، وأصرّ عليه أن يرجعه إلى مكة⁽⁴⁾.

(1) الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام التعمة، مصدر سابق، ص171 ، 172 .

(2) الشيخ الصدوق، محمد بن علي،الأمالي، تحقيق ونشر: مؤسسة البعثة، قم، إيران، 1417 هـ ط1، ص391، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص241. البيعوبى، تاريخ البيعوبى، ج2، ص14، للتوصعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج2، ص174.

(3) ابن قتيبة الدينورى، المعارف، ج1 ص33.

(4) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج1، ص121، للتوصعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج2، ص174.

2. النبي ﷺ في حلف الفضول:

لم يتردد النبي ﷺ وأبو طالب والهاشميون في الاستجابة إلى تجديد حلف المطبيين. فبعد منصرف قريش من حرب الفَجَار، دعا الزبير بن عبد المطلب إلى حلف الفضول، وعقد الاجتماع في دار عبد الله بن جدعان، وغمسوه أيديهم في ماء زمز، وتحالفوا وتعاقدوا على نصرة المظلوم، والتأسي بالمعاش، والنهي عن المنكر، والمحالفون على ذلك هم بطون هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة، وتيم⁽¹⁾. وقد كان من أهم دوافعه العامل الفطري والإنساني. ولذلك أثني عليه خاتم النبيين ﷺ بعد نبوته، وأمضاه. وقد رُوي أنّه ﷺ قال بعد أن استقررت دولته في المدينة، وأصبحت عزيزة الجانب: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به لأجبت»⁽²⁾.

3. خاتم النبيين ووضع الحجر الأسود:

بعد غزوة أُبْرَهَة في عام الفيل بخمس وثلاثين سنة، جاء الكعبة سيل جارف تجاوز الردم، والذي كان قد وضع ليمعن من مثل ذلك، فدخلها وصَدَعَ جدرانها. فاتفقت قريش على هدمها، وإعادة بنائها، وأعدوا لذلك نفقة طيبة، ليس فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة مما أخذوه غصباً، أو قطعوا فيه رحماً، أو انتهكوا فيه حرمة، أو ذمة⁽³⁾. وبدأت كل قبيلة تجمع الحجارة على حدة، ويقولون إن النبي ﷺ قد شارك في جمع الحجارة. ولما بلغ البناء موضع الحجر الأسود، وقع بينهم الخاص، فإذا كل بطن يريد أن ينال شرف رفعه إلى موضعه، وكاد أن يؤدي الأمر بهم إلى السيف، حتى تواعدوا بالقتال⁽⁴⁾،

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 129، مصعب بن عبيد الله الزبيري، نسب قريش، دار المعارف، مصر، 1953م، ص 383، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 293.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 142، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 291-293، دحلان، أحمد زيني، السيرة النبوية والأثار المحمدية، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ت، وط، ج 1، ص 53، الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الألغاني، دار إحياء التراث، لات، لاط، ج 16، ص 66.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 206، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 301.

(4) المصدر نفسه، ج 1، ص 209، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 129.

ثم اجتمعوا في المسجد، فتشاوروا واتفقوا على أن يكون أول داًخـل على الاجتماع هو الحكم بينهم. وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون النبي أـول داـخلـهـ. فـلـمـ رـأـوهـ قالـواـ: «هـذـاـ الأمـيـنـ، رـضـيـنـاـ، هـذـاـ مـحـمـدـ». وـقـدـ كـانـواـ يـتـحاـكـمـونـ إـلـيـهـ ﷺـ فـيـ الجـاهـلـيـةـ؛ لـأـنـهـ كـانـ لاـ يـدارـيـ، وـلـاـ يـمـارـيـ⁽¹⁾.»

فـلـمـ أـخـبـرـوـ بـالـأـمـرـ طـلـبـ ثـوـبـاـ، أـوـ بـسـطـ إـزـارـهـ، ثـمـ أـخـذـ الـحـجـرـ، وـضـعـهـ فـيـ بـيـدـهـ، ثـمـ طـلـبـ مـنـهـ أـنـ يـأـخـذـ كـلـ مـنـهـ بـنـاحـيـةـ مـنـ الثـوـبـ، ثـمـ رـفـعـوـهـ جـمـيـعـاـ، فـفـعـلـوـاـ، فـلـمـ حـادـوـاـ مـوـضـعـهـ أـخـذـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ بـيـدـهـ، فـوـضـعـهـ مـكـانـهـ⁽²⁾.

4. تجارتـهـ معـ السـيـدةـ خـدـيـجـةـ بـنـتـ خـوـيـلـدـ:

أـصـبـحـ مـحـمـدـ ﷺـ شـابـاـ، وـأـخـذـ اـسـمـهـ يـحـتـلـ مـكـانـاـ مـرـمـوـقاـ فـيـ أـوـسـاطـ قـرـيـشـ، فـُـعـرـفـ بـصـدـقـ الـحـدـيـثـ، وـعـظـمـ الـأـمـانـةـ، وـكـرـمـ الـأـخـلـاقـ. وـفـيـ السـنـةـ الـخـامـسـةـ وـالـعـشـرـينـ، كـانـ قـافـلـةـ قـرـيـشـ التـجـارـيـةـ تـتـهـيـأـ لـلـسـفـرـ إـلـىـ الشـامـ، فـاتـصـلـتـ خـدـيـجـةـ بـنـتـ خـوـيـلـدـ بـرـسـوـلـ اللـهـ ﷺـ، وـعـرـضـتـ عـلـيـهـ أـنـ يـضـارـبـهاـ فـيـ تـجـارـتهاـ، فـقـبـلـ. فـاسـتـدـعـتـ غـلامـهـاـ مـيـسـرـةـ، وـأـمـرـتـهـ أـنـ يـلـازـمـ مـحـمـدـ ﷺـ، وـيـقـومـ عـلـىـ خـدـمـتـهـ.

ثـمـ إـنـ هـذـهـ الرـحـلـةـ كـانـتـ عـمـيـمـةـ الـخـيـرـ وـالـبـرـكـةـ مـنـ جـوـانـبـ عـدـيـدـةـ، فـهـيـ قـدـ دـرـتـ رـبـحـاـ وـفـيـراـ عـلـىـ النـبـيـ ﷺـ وـخـدـيـجـةـ، وـأـظـهـرـتـ شـخـصـيـتـهـ بـصـورـةـ أـجـلـىـ عـنـ زـمـلـاءـ السـفـرـ منـ قـرـيـشـ⁽³⁾.

(1) الحلبي، السيرة الحلبية، مصدر سابق، ج 1، ص 145.

(2) ابن شهر آشوب، محمد بن علي، مناقب آل أبي طالب، تحقيق: لجنة من أساتذة النجف الأشرف، الناشر: المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، 1956م، ل.ط، ج 2، ص 278. السيد ابن طاووس، علي بن موسى، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام، قم، إيران، 1399هـ ط 1، ص 16، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 204.

(3) الطبراني، سليمان بن أحمد، كتاب الأولئ، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان، بيروت، لبنان، 1403هـ ط 1، ج 1، ص 161، وقيل في السنة السابعة والثلاثين، راجع: الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، دار الكتاب، بيروت، لبنان، 1967، ط 1، ج 9، ص 219.

زواج خاتم النبيين ﷺ

لقد كانت رحلة النبي ﷺ في تجارتة مع خديجة إحدى مقدمات الزواج الميمون، ولكن لم يكن من السهل على خديجة أن تصارح النبي ﷺ بذلك، مع ما هي عليه من الشخصية المتينة، والمكانة المحترمة بين نساء قريش. فبعثت صديقتها وصاحبة سرّها نفيسة بنت منية إليه؛ لتبثح معه حول موضوع الزواج، وتنظر رأيه في ذلك. فأجابها محمد ﷺ: «ليس عندي ما أتزوج به». قالت: «فإنْ كُفيتِ ذلك... ألا تجيب؟». فأشارت عليه بخديجة بنت خويلد التي أرسلت معها أن تقول له: «إنّي قد رغبت فيك لقرباتك، وشرفك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك وصدق حديثك». وكانت خديجة يومئذ أوسط قريش نسبياً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل شخص من قومها كان حريصاً على خطبتها لو قدر على ذلك⁽¹⁾.

وقد تقدّم رسول الله للزواج منها، فخرج معه عمّه أبو طالب ﷺ من أهل بيته ونفر من قريش، إلى عمّها عمرو بن أسد؛ لأنّ أباها خويلد بن أسد كان قد قُتل في حرب الفجّار، وقيل إنه كان حياً، وإنّ أبي طالب دخل عليه؛ فخطب ابنته لابن أخيه، فوافق الأَب، وتمّ الزواج المبارك.

وقد خطب أبو طالب، فقال: «الحمد لله ربّ هذا البيت الذي جعلنا من ذريّة إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضي معدّ⁽²⁾، وجعلنا حفظة بيته وسُواس حَرَمه⁽³⁾، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكّام على الناس، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن فيه، ثم إنّ ابن أخي هذا محمداً بن عبد الله لا يوزن به رجل من قريش إلّا رجح به، ولا يقاس به رجل إلّا عظم عنه، ولا عدل له في الخلق، وإن كان في المال قلّ؛ فإنّ المال رفُّ جارٍ، وظلُّ زائل، وأمْرٌ حائل، ومحمد من عرفتم قرابته، قد خطب خديجة بنت خويلد، والمهر علىَّ في مالي الذي سألتموه عاجله وآجله، وهو والله، بعد هذا

(1) هارون، عبد السلام، تهذيب سيرة ابن هشام، ص 37.

(2) أي معدنة، وأصله.

(3) أي القائمين بخدمته.

له نبأ عظيم، ودين شائع، ورأي كامل، وخطر جليل جسيم»⁽¹⁾. ولكن خديجة عادت، فضمنت المهر في مالها، فقال بعض الناس: «يا عجبًا! المهر على النساء للرجال؟!». فغضب أبو طالب، وقال: «إذا كانوا مثل ابن أخي هذا، طلبت الرجال بأعلى الأثمان، وأعظم المهر، وإن كانوا أمثالكم لم يزوجوا إلا بالمهر الغالي»⁽²⁾. وقيل إن رسول الله ﷺ نفسه قد أمهراها عشرين بكرة⁽³⁾، ولعل ذلك كان بواسطة أبي طالب.

وكان عمر السيدة خديجة ظاهرًا خمسة وعشرين سنة، وكانت لا تزال بكرًا، ولعلها بقى كذلك لسوءدها وشرفها؛ لأنها لم تجد كفؤًا لها في قريش حتى عرفت النبي ﷺ. ولو قارناً هذا الموقف للسيدة خديجة بنت خويد بموقف أبناء جحش، لوجدنا زينب وحمنة وأخاهما، يغضبون حين عرض عليهم النبي ﷺ تزويج زينب بزيد بن حارثة، معتبرين أن ذلك يحطّ من شأنهم، وسمّعت زينب بنت جحش، وهي تقول: «أنا سيدة أبناء عبد شمس»⁽⁴⁾. وفي بعض الروايات، أنها قالت لرسول الله ﷺ عن زيد: «لا أرضاه، وأنا أيم قريش»⁽⁵⁾.

وزينت بنت جحش هي قوشية عاديّة من بطون قريش ومع هذا رفضت أن تتزوج من أعرابيّ، وهذا ما يؤكّد الاستغراب مما يزعمونه من أن خديجة كانت متزوجة قبل رسول الله ﷺ ب الرجلين من أعراببني تميم، مع أنها كانت أعظم قدراً وأشرف نسبياً، وأجلّ موقعاً من زينب بنت جحش. فكيف رضيت هذه المرأة الشريفة العاقلة، والتي

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 5، ص 374. الشيخ الصدوق، محمد بن علي، من لا يحضره الفقيه، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم، قم، إيران، ل.ا.ت، ط 2، ص 413. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 20.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج 5، ص 375.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 201. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1976م، ل.ا.ت، ج 1، ص 263. دحلان، السيرة النبوية والآثار المحمدية، ج 1، ص 107.

(4) محب الدين الطبراني، أحمد بن عبدالله، الس茅ط الشمین، حلب، سوريا، ت، وط، ص 129.

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ج 8، ص 101.

كان كل أشراف وأمراء قريش حريصين على الزواج منها⁽¹⁾، بأن تتركهم جميعاً، ثم تختار أعرابياً مجهولاً منبني تميم، ليكون زوجاً لها، وأباً لأولادها؟!
 ورُزق رسول الله من هذا الزواج ثلاثة أولاد؛ ابنان هما القاسم والطاهر اللذان ماتا في مكة قبلبعثة، وهما طفلان، وابنة واحدة هي فاطمة عليها السلام، وأمّا زينب ورقية وأم كلثوم فلم يكن بناهه عليها السلام، بل كنّ ربيباته⁽²⁾.

(1) أبو القاسم الكوفي، علي بن أحمد بن موسى بن الإمام الجواد عليه السلام، الاستغاثة، ل.د، ل.ت، ل.ط، ج 1، ص 68، الصالحي الشامي، محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد، تحقيق: الشيخ عادل عبدالموجود - الشيخ علي

موضوع، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1993م، ط 1، ج 9، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 358.

(2) ابن شهير آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 138، ولمزيد من الاستفادة في هذا الموضوع راجع: السيد جعفر مرتضى، بنات النبي أم ربائبه، وال الصحيح من السيرة، ج 2، ص 129، وج 6، ص 24.

المفاهيم الرئيسية

- ينتهي نسب النبي محمد ﷺ إلى نبي الله إسماعيل عليهما السلام . وقد كان آباءه جميعاً طاهرين، فيهم الصدّيقون من أنبياء مرسلين أو أوصياء معصومين.
- ولد رسول الله ﷺ في 17 من شهر ربيع الأول في سنة 571 م في عام الفيل.
- ارتفع رسول الله ﷺ من أمّه آمنة بنت وهب أياماً، ثم انتقل إلى البادية كعادة العرب في نقل أبنائهم إليها، فارتفع رسول الله ﷺ من حليمة السعدية، وبعد فترة ظهر في تلك القبيلة الخير الكثير والوفير بوجود رسول الله ﷺ .
- أبصر رسول الله ﷺ النور، وكان والده قد توفي، فعاش في كفالة جده عبد المطلب، وبعد مرور ثمانى سنوات توفي جده، فانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب، فكفل رسول الله ﷺ حتى توفي في السنة العاشرة للبعثة.
- حفلت حياة النبي محمد ﷺ في فترة الشباب بالعديد من الحوادث المهمّة؛ فقد شارك رسول الله ﷺ عمه أبي طالب في رحلة تجارية إلى بلاد الشام، وفي فترة الشباب أيضاً شارك رسول الله ﷺ في حلف الفضول الذي دعا إليه حلف المطيبين. وهذا الحلف كان يسعى لرفع الظلم عن الناس.
- عُرف رسول الله ﷺ في قريش بالصادق الأمين، وأنه لا يماري ولا يداري أحداً. وانطلاقاً من ذلك، فقد حُكم رسول الله ﷺ في قضية وضع الحجر الأسود مكانه، بعدما اختلفت قبائل قريش في ذلك، فعمل رسول الله ﷺ على حلّ هذا النزاع بوضع رداء، وحمل الحجر الأسود من قبل كل قبيلة.
- بعدما ذاع صيت النبي ﷺ في قريش، دعته السيدة خديجة عليها السلام لمضاربتها في تجاراتها إلى بلاد الشام، وقد ربحت تلك التجارة ربحاً وفيراً، ففرحت السيدة خديجة عليها السلام بذلك، وكان ذلك من مقدّمات الزواج بينهما.
- تزوج رسول الله ﷺ من السيدة خديجة عليها السلام ، وأنجب منها ولدين والسيدة الزهراء عليها السلام .

الدرس الرابع

البعثة النبوية (1)

نزول جبرائيل - الدعوة السرية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف ظروف ظهور جبرائيل على النبي ﷺ وبعثته المباركة.
2. يشرح خطوات ومراحل الدعوة السرية.
3. يحلّل دور إسلام النخبة الأولى من المسلمين وثبات موقف أبي ذرٍ.

تمهيد

إِنَّ اللَّهَ سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا يَصْطَفِي مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِخَصَائِصِ فَذَّةٍ، تَجْعَلُهُ قَادِرًا عَلَى أَدَاءِ الْمَهَامِ الْكَبِيرِ الْمُوكَلَةِ إِلَيْهِ، وَتَحْقِيقَهَا بِالنَّحْوِ الْأَكْمَلِ. وَالْأَنْبِيَاءُ الْعَظَامُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ هُمُ الْمَصْدَاقُ الْأَبْرَزُ لِهَذَا الاصْطِفَاءِ الْإِلَهِيِّ الرِّبَانِيِّ. فَلَا بدَّ أَنْ يَكُونَ الْمَرْسَلُ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى مَسْتَوْعِبًا لِلرِّسَالَةِ وَأَهْدَافِهَا، وَقَادِرًا عَلَى أَدَاءِ الدُّورِ الْمُطَلُوبِ مِنْهُ عَلَى مَسْتَوِيِّ تَلْقِيِ الْوَحْيِ، وَتَبْلِيغِهِ وَتَبْيَانِهِ وَتَطْبِيقِهِ، وَصَيَانتِهِ وَالدِّفاعِ عَنْهُ، وَهَذَا مَا يَتَطَلَّبُ الْعِلْمُ وَالْبَصِيرَةُ وَالْعِرْفُ، وَسَلَامَةُ النَّفْسِ، وَالصَّبْرُ وَالْإِسْتِقَامَةُ، وَالشَّجَاعَةُ، بَلْ وَالْقُدْرَةُ عَلَى إِدَارَةِ شَؤُونِ الْأَمْمَةِ الَّتِي يَنْطَلِقُ مِنْهَا، وَيُنْشَرُ دُعُوتُهُ فِي أَصْقاعِ الْأَرْضِ.

وَقَدْ تَجَسَّدَتْ تَلْكَ الصَّفَاتُ الْرِّبَانِيَّةُ وَالْقِيَادِيَّةُ فِي شَخْصِيَّةِ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَكَانَتْ سِيرَتُهُ قَبْلَ النَّبُوَّةِ مَلِيَّةً بِالْمَوَاقِفِ الَّتِي تَكَشَّفَ عَنْ سُرِّ تَلْكَ الشَّخْصِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، حَتَّى صَدَعَ بِالنَّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ، وَابْتَدَأَ تَأْسِيسَ دُولَتِهِ فِي شَبَهِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

الإعداد الإلهي للنبي ﷺ قبلبعثة

كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَدْءِ أَمْرِهِ مَحْدُثًا مَسْدُدًا مُؤْمِنًا مُوحِدًا، يَعْبُدُ اللَّهَ، وَكَانَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَكْمَلُهُمْ خَلْقًا وَخُلْقًا وَعُقْلًا. فَعَنِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَصْفِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهَ بِهِ مِنْ لَدْنِ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمُ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ، لِيَلِهِ وَنَهَارِهِ»⁽¹⁾. وَرُوِيَ أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: **﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾** إِلَّا

(1) الشريف الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبد، دار النهضة، الناشر: دار الذخائر، قم، إيران، 1412 هـ ط 1، الخطبة القاسعة رقم 192، ص 137.

مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿١﴾ لَيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسْلَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطُوا بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا⁽¹⁾.

فقال ﷺ: «يوكِل الله تعالى بأنبائه ملائكة يحصون أعمالهم، ويؤدون إليه تبليغهم الرسالة، ووكل بمحمد ﷺ ملگاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع، يرشده إلى الخيرات، ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق، وهو الذي كان يناديه: «السلام عليك يا محمد، يا رسول الله ﷺ»، وهو شاب لم يبلغ درجة الرسالة بعد»⁽²⁾.

ظهور جبرائيل على النبي ﷺ وأول صلاة

كان رسول الله ﷺ يغدو كل يوم إلى غار حراء؛ يصعده وينظر من قلله إلى آثار رحمة الله، وإلى أنواع عجائب رحمته، وبدائع حكمته، وينظر إلى أكتاف السماء، وأقطار الأرض والبحار، والمفاوز والفيافي، فيعتبر بها. ولما أتى عليه ﷺ سبع وثلاثون سنة، نظر إلى شخص يقول له: «يا رسول الله!»، فقال له: «من أنت؟»، قال: «أنا جبريل، أرسلني الله إليك ليتّخذك رسولاً...»⁽³⁾.

وكان الإمام علي بن أبي طالب ﷺ يألف رسول الله ﷺ، ويكون معه في مجئه وذهابه لا يفارقها، وكان عمره آنذاك سبع سنين. فدخل عليه وهو يصلي، فقال: «يا أبا القاسم ما هذا؟»، قال: «هذه الصلاة التي أمرني الله بها». فعلم رسول الله ﷺ الوضوء والصلاحة، فكان ثاني من صلى، وسبق الناس كلهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، وإلى الصلاة بسبعين سنين، وكان يسمع الصوت ويبصر الضوء سبعين سبعاً⁽⁴⁾.

وكذلك، فإن رسول الله ﷺ عندما جاء أهله بشيراً بالرسالة، آمنت به السيدة خديجة ﷺ، فكان لا يصلي قبلبعثة، إلا رسول الله، وعلى خديجة، وكانت أول صلاة صلّاها علي ﷺ مع رسول الله ﷺ الظهر ركعتين⁽⁵⁾.

(1) سورة الجن، الآيات 26 - 28.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، ج 13، ص 207.

(3) الشيخ الطبرسي، الفضل بن الحسن، إعلام الورى، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، إيران، 1417 هـ ط 1، ص 36.

(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، ج 1، 15.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، مصدر سابق، ج 8، ص 279.

وكان النبي إذا حضرت الصلاة يخرج إلى شعاب مكة، مستخفياً من قومه، ويخرج معه عليٌّ فيصلٰيَن الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعاً⁽¹⁾.

وروي عن الإمام الباقي عَلَيْهِ السَّلَامُ، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكُوْةَ وَأَرْكُوْمَعَ الرَّكِعَيْنَ﴾⁽²⁾، قال: «نزلت في رسول الله وعلي بن أبي طالب وهما أول من صلى وركع»⁽³⁾. وعن الإمام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «قال رسول الله ﷺ: نزلت على النبوة يوم الاثنين، وصلى عليٌّ معي يوم الثلاثاء»⁽⁴⁾.

البعثة النبوية

بعد أن أعد الله نبيه محمداً ﷺ وهيأه لحمل الرسالة، وأداء الأمانة الكبرى، وإنقاذ البشرية، اختاره الله سبحانه نبياً ورسولاً للبشرية جماء، وأنزلت النبوة عليه، وبعثه الله إلى خلقه رحمةً للعالمين⁽⁵⁾.

أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، في السابع والعشرين من شهر رجب. فقد رُوي عن الحسن بن راشد، قال: قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ولا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب، فإنه اليوم الذي أنزلت فيه النبوة على محمد ﷺ»⁽⁶⁾.

وبعد تلقّيه ذلك البيان الإلهي، عاد إلى أهله مستبشرًا مسروراً بما أكرمه الله به، مطمئناً إلى المهمة التي أوكلت إليه.

ولقد أحاطت بالبعثة النبوية روايات وأساطير وخرافات، فلم يكن رسول الله ضعيفاً

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 1، ص 263.

(2) سورة البقرة، الآية 43.

(3) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج 1، ص 296.

(4) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 38، ص 246.

(5) الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 149، الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، تهذيب الأحكام، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، إيران، 1364هـ، ط 3، ج 1، ص 438.

(6) الشيخ الكليني، الكافي ج 2، ص 149، الشيخ الصدوقي، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 90، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 1، ص 438، الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، الألماني، تحقيق: مؤسسة البعثة، الناشر: دار الثقافة، قم، إيران، 1414هـ، ط 1، ص 28.

ومهزوزاً إلى الدرجة التي يظن فيها نفسه مجنوناً، وأراد أن يرمي بنفسه عن شاهق، وأن خديجة هي التي هدّأته! فكانت أعقل منه، وحاشا لرسالة السماء أن تحتاج أيضاً إلى مثل ورقة بن نوفل لكي يقنع النبي بـأنه رسول هذه الأمة!!

بل من الثابت أن البيئة والظروف المحيطة بالنبي ﷺ حينبعثة هيأته لل مهمة الكبرى، ولرؤيته ﷺ لجبرائيل وتلقّي الوحي، فقد رُوي عن زرارة، قال: قلت لأبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ: كيف لم يخف رسول الله فيما يأتيه من قبل الله أن يكون ذلك مما ينزع به الشيطان؟، فقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا اتَّخَذَ عَبْدًا رَسُولًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ، فَكَانَ يَأْتِيهِ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِثْلَ الَّذِي يَرَاهُ بَعْيَنِه»⁽¹⁾.

الدعوة السرية إلى الإسلام

مكث رسول الله ﷺ، بعد أن بُعث نبياً، في مكة ثلاثة سنين، متخفياً خائفاً على الدعوة من قريش وجبروتها وطغيانها يتربّق، ولا يظهر أمره علناً إلى الناس⁽²⁾. وعلى ما يبدو، فإن النبي ﷺ، على الرغم من أن دعوته للناس بقيت سرية، فقد أظهر حقيقة الأمر، وأعلن أنه نبيٌّ مرسل من الله تعالى، ولم يخف ذلك، ولم تكن ردّة فعل المشركين خلال الدعوة السرية على إعلانه أنه نبيٌّ مرسل ذات بال، فلم يهتمّ المشركون كثيراً لذلك، بل عدوه تطرّقاً منبني هاشم، وادعاء للنبيّة منهم. ولكن قريشاً بقيت تستطلع الأخبار التي أصبحت حديث الساعة في مجالسها؛ فاستمرّت تلك المرحلة الأولى من الدعوة السرية ثلاثة سنوات بأمن وأمان، حتى كثُر المسلمين، واضطروا للخروج إلى الشعاب والجبال لأداء الصلاة؛ فارتَفعت إمكانية الصدام مع قريش، وحصلت بعض الاحتكاكات الطفيفة بين الطرفين.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار ج 18 ص 262، للتوضيح حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملٰ، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 2، ص 289.

(2) الشيخ الصدوقي، إكمال الدين، مصدر سابق، ص 189 و 197.

وفي أواخر الدعوة السرية، تعمّد النبي ﷺ الصلاة علّنا في المسجد الحرام، قرب الكعبة، ربّما لأجل أن يستدرج من يريد أن يعرف الحقيقة، فقد ظهر هو وعلى علیه السلام وخدیجة على الملا، في صلاة جماعة علنية في المسجد الحرام⁽¹⁾.

النواة الأولى للمسلمين

1. تشكيل المجموعات الأولى:

اكتتم النبي ﷺ في أول البعثة ثلاثة سنين، لا يعلن دعوته، لاشتداد الأمر عليه. ولهذا، كانت الخطوة الأولى له هي إيجاد نخبة مسلمة مؤمنة من القبائل والبطون المختلفة بصمت وهدوء؛ بحيث يستطيع تربيتها وإعدادها وتأهيلها لكي تصمد في معركة الدفاع عن العقيدة. فكان لا يدعو إلا آحاداً ممن يرجو منهم الإيمان، فيدعوهם خفية، ويسرّ إليهم الدعوة، أو يترك لكل من يحتك به ويسأله حرية الانضمام الطوعي والاختياري.

وكان عليّ بن أبي طالب علیه السلام، وخدیجة أول من أجاب⁽²⁾، ثم أسلم زيد بن حارثة، ثم أسلم جعفر بن أبي طالب، وزوجته أسماء بنت عميس، وعقيل⁽³⁾ وعبيدة ابنا الحارت⁽⁴⁾، ومصعب بن عمير⁽⁵⁾ وبلال، والزبير بن العوام، وخالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة بنت خلف بن أسعد⁽⁶⁾، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود⁽⁷⁾، وعتبة بن

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، 38، الشيخ المفید، محمد بن محمد، الإرشاد، تحقيق: مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث، الناشر: دار المفید، بيروت، لبنان، 1993هـ ط2، ص30. أبو جعفر الإسکافی، محمد بن عبد الله، المعيار والموازنة، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودی، ل.د. ل.ن، 1981م، ط1، ص66، القاضی النعمان، النعمان بن محمد، شرح الأخبار، تحقيق: السيد محمد حسين الجلاّلی، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسین بقم، قم، إیران، 1414هـ ط2، ج1، 179.

(2) الشيخ الصدق، کمال الدين وتمام النعمة، ص189، الحكم النیسابوری، محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحین، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج3، ص136، الخطیب البغدادی، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دراسة وتحقيق: مصطفی عبد القادر عطا، دار الكتب العلمیة، بيروت، لبنان، 1997م، ط1، ج2، ص81.

(3) ابن سید الناس، محمد بن عبد الله، عيون الأثر، مؤسسة عز الدين، بيروت، لبنان، 1986م، ل.ط، ج1، ص124، .128.

(4) اليعقوبی، تاريخ الیعقوبی، مصدر سابق، ج2، ص27.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص232.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج2، ص60.

(7) ابن سید الناس، عيون الأثر، ج1، ص129.

غزوان⁽¹⁾، وعبيدة بن الحارث بن المطلب⁽²⁾.

وبعد أن أسلم ثلاثة عشر رجلاً، انطلق عثمان بن مظعون، هو وجماعة حتى أتوا رسول الله ﷺ، فعرض عليهم الإسلام وأنبلهم بشرائعه، فأسلموا جميعاً، وذلك قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقام⁽³⁾.

كذلك أسلم خباب بن الأرت، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعبد الله بن مسعود، وخنيس بن حداقة بن قيس، وعمرو بن عنبرة السلمي، وعامر بن ربيعة العنزي، وحاطب بن الحرش بن معمر، وامرأته فاطمة بنت المجلل، والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب بن أزهر بن عبد عوف وامرأته رملة بنت أبي عوف بن صبيرة، وغيرهم⁽⁴⁾.

وبعد هذه المرحلة الدقيقة والحساسة، خشي رسول الله ﷺ وقوع الصدامات بين المسلمين وقريش، فاختار دار الأرقام ليصلّي أصحابه فيها. وبعد شهر، أعلن الأمر، فلم يكن في دار الأرقام سرية بالمعنى الدقيق.

2. إسلام أبي ذر وثبات الموقف:

كان أبو ذر الغفارى رابع أو خامس من أسلم، وكان يتأله في الجاهلية، ويقول: «لا إله إلا الله، ولا يعبد الأصنام»⁽⁵⁾. سمع بمبعث النبي ﷺ، فأرسل أخاه ليستقصي له الخبر، فرجع إليه، ولم يشف له غليلاً. فذهب هو بنفسه إلى مكة، وكره أن يسأل عن النبي ﷺ علانيةً، ورأه على ﷺ مضطجعاً في ناحية المسجد الحرام، فعرف أنه غريب، فاستضافه ثلاثة أيام لا يسأله عن شيء، ثم سأله أبو ذر عن النبي ﷺ، فأخذه

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج 2، ص 222.

(2) سير أعلام النبلاء، الذهبي، مصدر سابق، ج 1، ص 144.

(3) ابن سعد، الطبقات، ج 3، ص 393، ابن الأثير، محمد بن محمد، أسد الغابة، نشر: انتشارات إسماعيليان، طهران، إيران، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ل.ا.ت، ل.ا.ط، ج 3، ص 598، ابن حجر، أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1415 هـ ط 1، ج 2، ص 464.

(4) راجع: ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 1، ص 128، الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، إشراف وتخریج: شعيب الأرنؤوط، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1993، ط 9، ج 1، ص 144.

(5) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 4، ص 164، الحاكم التنباني، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 342، ابن حجر، والإصابة في تمييز الصحابة، ج 4، ص 63، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج 5، ص 186.

إليه بصورة سرية، حتّى لا يلتفت المشركون إلى طبيعة تحركاته وأهدافه؛ حيث أمره أن يتبعه، فإن رأى ما يخاف منه عطف كأنه يريد أن يقضي حاجة، أو يصلح نعله.

لقد اعتمد أبو ذر على دعوة على عليه السلام، واستجاب له ونزل ضيفاً عليه، فقد رأى فيه حكمة وروية. كان على عليه السلام يريد المحافظة على سلامه أبي ذر، ولكنّه كان حريصاً أيضاً على أن لا يلتفت نظر المشركين إلى أنه كان يقوم بمهمة تعريف الناس إلى النبي عليه السلام من أجل إدخالهم في الإسلام. وهكذا اعتنق أبو ذر الدين الجديد، وكان أول من أحبّ علياً بن أبي طالب من المسلمين، وأول من عرف مقامه و شأنه بعد رسول الله عليه السلام؛ وكان من أوائل من عُدّ من موالي على عليه السلام وشيعته.

وبعد أن أسلم أبو ذر، قال لرسول الله عليه السلام بعد أن مكث في مكة قليلاً، وقرأ شيئاً من القرآن: «يا نبّي الله، ما تأمّنني؟»، فقال له رسول الله عليه السلام: «ترجع إلى قومك حتّى يبلغك أمري». فقال أبو ذر: «والذّي نفسي بيده، لا أرجع حتّى أصرخ بالإسلام في المسجد». وكأنّ أصل أن يفعل ذلك كان مسماً، ولكن النبي عليه السلام كان يخاف على المسلمين الأوائل أن يُقتلوا، فقال لأبي ذر: «إنّي أخاف عليك أن تقتل!»، فقال أبو ذر: «لا بُدّ منه، وإن قتلت!». فخرج إلى المسجد الحرام، ونادى بأعلى صوته: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّ محمداً رسول الله». ولم تكن المواجهة بعد قد وقعت بين قريش وبين النبي عليه السلام، فرأيت في تصرّفه تحدياً لها، واعتداءً على شرفها وكربياتها، فقام إليه المشركون، وضربوه حتّى أضجعواه، فأتى العباس، وأكبّ عليه، وقال: «ويحكم، ألستم تعلمون أنه من غفار، وأنّ طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟»، فتركوه، ولكنّه عاد في اليوم الثاني إلى مثل ذلك، فخلّصه العباس. ولكنّ أبو ذر بخطوته العلنية تلك قد درساً للجميع، وباكراً جداً، أنه يمكن كسر حاجز الخوف، ومواجهة الأخطار، وتحدي طغيان قريش وجبروتها.

ولمّا ضرب أبو ذر، جاء إلى النبي عليه السلام فقال: «يا رسول الله، أمّا قريش فلا أدعهم حتّى أثار منهم، ضربوني». فخرج حتّى أقام بعسفان، وكلّما أقبلت عير لقريش، يحملون الطعام، ينفر بهم على ثنية غزال، فتلقي أحمالها، فجمعوا الحنط، ويقول أبو ذر لقومه: «لا يمسّ

أحد حبّة حتّى تقولوا: لا إله إلا الله، فيقولون: «لا إله إلا الله»، ويأخذون الغرائر. وحسب نص آخر، كان أبو ذر رجلاً شجاعاً، يتفرد وحده بقطع الطريق، ويغير على الصرم في عمایة الصبح على ظهر فرسه، أو على قدميه. فكان يعرض لعيارات قريش، فيقطّعها، ويقول: «لا أرد إليكم منها شيئاً، حتّى تشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله». فكان على ذلك حتّى هاجر رسول الله، ومضى بدر، وأحد، ثم قدم فأقام في المدينة.

وهكذا، لقّن أبو ذر قريشاً درساً قاسياً، وعلّمها أنها لا تستطيع أن تتعامل مع الآخرين كما يحلو لها وكما تشتهي؛ لأنّهم يستطعون أن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يضغطوا عليها، وأسلم على يده نصف قبيلته غفار^(١).

(١) راجع: ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٤، ص ١٦٣، البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، ١٩٨١م، لاط، ج ٢، ص ٢٠٦، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣٤، الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحیحین، ج ٣، ص ٣٣٩، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص ٦٣. حلية الأولياء، ج ١، ص ١٥٨ و ١٥٩، ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، الاستيعاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٢م، ط ١، ج ٤، ص ٦٣. للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملی، الصحيح من سیرة النبي الأعظم، ج ٣، ص ٧٨.

المفاهيم الرئيسية

- أعد الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ لتقبل أعباء النبوة وثقلها، فكان رسول الله ﷺ مسددًا مؤيداً مؤمناً، وكان أفضل الخلق وأكملهم، وقد قرن الله تعالى به منذ أن خلق ملكاً عظيماً يرشده إلى الخيرات، ومكارم الأخلاق، ويصدّه عن الشرّ ومساوئ الأخلاق.
- بُشر رسول الله ﷺ بالنبوة وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً، وكان في تلك الفترة مبشرًا غير مبعوث إلى الأمة، وبعد أن أكمل الأربعين سنة بعث للأمة رسولًا ونبيًا.
- بعد أن بُشر رسول الله ﷺ بالنبوة أخبر الإمام علي عليه السلام بذلك، فأمن به وصدقه، وكذلك أخبر زوجه خديجة؛ فآمنت به وصدقته، فكان أول من صلّى في الإسلام رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام والسيدة خديجة عليها السلام.
- بعث رسول الله ﷺ رسولاً ونبياً بعد أن بلغ سن الأربعين، وقد تلقى البيان الإلهي، فعاد إلى أهله مستبشرًا مسروراً بما أكرمه الله من الرسالة والنبوة.
- مررت الدعوة الإسلامية بمرحلتين، الأولى: الدعوة السرية، والثانية: الدعوة العلنية، وهي مرحلة إشهار الدعوة بين جميع الناس.
- عمل رسول الله ﷺ على تشكيل النواة الأولى للمجتمع الإسلامي في مكة المكرمة؛ فقد آمن به العديد من الناس كزيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب وزوجه، وعقيل، وغيرهم الكثير، ثم انتقل رسول الله ﷺ بعد ذلك لدار الأرقام، بن أبي الأرقام وكان يجتمع بال المسلمين فيه.
- بعد أن شاع بين الناس ظهورنبي في قريش، وصلت الأخبار إلى قبيلةبني غفار، التي يرجع إليها أبو ذر الغفارى الذي كان يتآلله في الجاهلية. وبعد انتشار الخبر أرسل أخاه لتقصي الحقائق، ثم ذهب بنفسه إلى مكة، حتى التقى بالإمام علي عليه السلام الذي أوصله إلى النبي ﷺ، فأعلن إسلامه، وجهر به داخل مكة المكرمة.

الدرس الخامس

البعثة النبوية (2)

نزول القرآن - الدعوة العلنية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف تاريخ نزول القرآن وكيفيته.
2. يشرح مراحل الدعوة العلنية ودورها في انتشار دعوة الإسلام.
3. يفهم معنى الإسراء والمعراج وأثرهما على الدعوة.

تمهيد

لقد ربط الله سبحانه وتعالى بين بعثة الأنبياء العظام وبين الدليل الذي يقدمونه إلى الناس؛ ليكون الحجّة الدامغة على صدق دعواهم، وصحة مقالتهم. وقد كانت حجّة النبي ﷺ القرآن الكريم.

والقرآن الكريم، في كثير من آياته، يوثق حركة رسول الله ﷺ في نشره للدعوة الإسلامية. وقد كان بدء نزول القرآن الكريم حدثاً عظيماً، ما أدى إلى زعزعة استقرار قريش؛ لأنّه كشف كثيراً من الأحداث السابقة على رسول الله ﷺ، وجذب الكثيرين من أبنائها نحو الإسلام عندما كانوا يستمعون إلى تلاوات النبي ﷺ لآياته النيرة.

ثم إنّ البعثة النبوية المباركة في مكّة المكرّمة أدت إلى أن يحصل تغييرٌ جذريٌ في نظره قريش إلى رسول الله ﷺ، واعتباره شخصاً يقوم بتهديد حلم قريش وجبروتها، ويمسُّ مكانتها وعرشها في أعين العرب والناس جميعاً.

البعثة النبوية ونزول القرآن

هناك علاقة نشأت بين البعثة النبوية والقرآن الكريم. فالقرآن هو المعجزة الخالدة التي أتى بها رسول الله ﷺ، وكانت حجّته ودليله على صدق دعواه، إلا أنّ نشوء هذه العلاقة وقع الخلاف حول بدئه، فهل بدأت الدعوة النبوية وبدأ نزول القرآن الكريم مباشرة، أم أنّ نزول القرآن الكريم قد تأخر عن بداية الدعوة، فانطلق رسول الله ﷺ بدعوته، ثم بعد فترة بدأ القرآن الكريم بالنزول، وبعدها بدأ رسول الله ﷺ يقرأه ويتلوه على مسامع المسلمين، وعلى مسامع قريش؟ وقد تعددت الآراء في ذلك:

فقد ذهب المشهور إلى أن هنالك اقتراناً بين البعثة النبوية ونزول القرآن الكريم. فقد بدأت البعثة النبوية وببدأ نزول القرآن الكريم على رسول الله ﷺ، وكان أول ما نزل عليه من القرآن الكريم الآيات الخمس الأولى من سورة العلق⁽¹⁾.

وقد ورد من طرق أهل البيت ع رواية واحدة تقرن البعثة بنزول القرآن، وتدل على أن الآيات الأولى هي الآيات الخمس الأول من سورة العلق، وأنها نزلت في بداية البعثة، في اليوم السابع والعشرين من رجب، وهي الرواية التي وردت في التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري⁽²⁾.

والأصح أن البعثة النبوية لم تقرن بنزول القرآن الكريم، فلم ينزل عليه القرآن الكريم إلا بعد فترة ثلاث سنين، كان النبي ﷺ خلالها يكتم أمره عن ملأ الناس، ويدعو الله بطريقة شبه سرية، فإن الأخبار التي وردت عن أئمة أهل البيت ع في أول ما نزل من القرآن لا تقيد ببداية البعثة. وقد ورد عن الإمام الباقر ع في قوله سبحانه: «مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَ»⁽³⁾، قال: «ذلك أن أول سورة نزلت كانت آقراً باسِمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»⁽⁴⁾، ثم أبطأ جبرئيل عن رسول الله ﷺ، فقالت خديجة: «لعل ربّك قد تركك فلا يرسل إليك؟، فأنزل الله تبارك وتعالى: «مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَ»⁽⁵⁾. وعن الإمام الصادق ع: «أول ما نزل على رسول الله ﷺ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ آقراً بِاسِمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»، وأخر ما نزل عليه: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ»⁽⁶⁾.⁽⁷⁾

(1) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سابق، ج 2، ص 282.

(2) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري ع، تحقيق: مدرسة الإمام المهدي ع، الناشر: مدرسة الإمام المهدي ع، قم، إيران، 1409هـ ط 1، ص 156، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 206.

(3) سورة الضحى، الآية 3.

(4) سورة العلق، الآية 1.

(5) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، تصحيح وتعليق: السيد طيب الموسوي الجزائري، مؤسسة دار الكتاب، قم، إيران، 1404هـ ط 3، ج 2، ص 428.

(6) سورة النصر، الآية 1.

(7) الشيخ الكافي، ج 2، ص 628. الشيخ الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا ع، تصحيح وتعليق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، 1984م، ل.ط. ج 2، ص 6.

ومن ثم لم يكن المشركون يؤذونه، سوى بطعنات لسانية؛ حيث لا يرون من شأنه ما يُخشى على دينهم.

بداية نزول القرآن الكريم

بدأ نزول القرآن حينما بلغ رسول الله من العمر ثلاثة وأربعين سنة، في شهر رمضان المبارك، بعد بعثته عليه السلام بثلاث سنوات في شهر رجب، أي بعد انتهاء الفترة السرية للدعوة⁽¹⁾.

ثم إن الروايات الواردة عن أهل البيت، والقائلة إنَّه عليه السلام قد بعث في شهر رجب تدل على أنَّه صار نبِيًّا في شهر رجب. وحينما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾⁽²⁾ كيف كان، وإنما أنزل القرآن في طول عشرين سنة؟ فقال: «إنه نزل جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور، ثم نزل من البيت المعمور إلى النبي في طول عشرين سنة»⁽³⁾. فهنا موافقة الإمام على أنَّه نزل خلال عشرين سنة، ويؤيد هذه الرواية أيضًا من طرق أهل العامة من نزول الوحي على الرسول عليه السلام وهو ابن ثالث وأربعون سنة⁽⁴⁾.

فبدء نزول القرآن الكريم كان متأخرًا عن النبوة بثلاث سنين، فإذا كانت مدة نزول القرآن على النبي عشرين عامًا، ومدة مكث النبي بعد النبوة في مكة ثلاثة عشرة سنة، فسوف يكون بدء نزول القرآن بعد النبوة بثلاث سنين، إذ لا شك في أنَّ القرآن كان ينزل عليه حتى عام وفاته⁽⁵⁾.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 460، محمد بن مسعود العياشي، تفسير العياشي، الناشر: المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، إيران، ل.ت. ل.ط، ج 1، ص 80، الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، ص 101، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 4، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 34.

(2) سورة البقرة، الآية 185.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 66، الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 628، الشيخ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، ص 56.

(4) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 292، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 2، ص 610.

(5) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 387، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 127، اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ج 2، ص 23، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: سعيد المنذوب، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1996م، ط 1، ج 1 ص 045، معرفة، التمهيد في علوم القرآن، ج 1، ص 82.

والظاهر أنْ أمره تعالى لرسول الله ﷺ بأن ينذر عشيرته الأقربين أولاً⁽¹⁾، بعد أن نزل عليه قوله تعالى: «وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»⁽²⁾، ثمْ أمره تعالى له ﷺ بالجهر بالدعوة ثانياً، بقوله تعالى: «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمِرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»⁽³⁾، كان بعد الثلاث سنوات الأولى من الدعوة⁽⁴⁾.

إعلان الدعوة الإسلامية⁽⁵⁾

بعد أن نزلت الآيات الأولى من القرآن الكريم وانتشرت بين المسلمين، أخذ المشركون من أهل مكة يفسدون بينهم أنَّ محمداً قد جن⁽⁶⁾، فنزلت الآيات الثلاث الأولى⁽⁷⁾ من سورة نون، ثم جاءه جبرئيل بسورة الضحى⁽⁸⁾، وكانت السورة الثالثة في التنزيل⁽⁹⁾، وفيها أمره الله تعالى أن يحدِّث بما أنعم الله عليه من دينه، وبما أنزل الله عليه وأمره به⁽¹⁰⁾، وأن يبلغ ما أرسل به. وهكذا انتهت مرحلة السرية والكتمان، وابتدأت الدعوة العلنية من خلال عقد ثلاثة بيانات لإعلان الدعوة الإسلامية. وهذه البيانات الثلاثة كان منها اثنان في بداية الدعوة، والثالث بعد فترة زمنية. وسوف نوجّل البيان الثالث إلى مكان صدوره، وسنأتي على ذكر البيانات الأولى، وهما:

(1) راجع: السيد جعفر مرتضى العاملٰي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 2، ص 244، السيد هاشم معروف الحسني، سيرة المصطفى، ص 133.

(2) سورة الشعرا، الآية 214.

(3) سورة الحجر، الآية 94.

(4) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 428.

(5) للتوعية حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملٰي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 3، ص 52.

(6) ابن شهرآشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج 1 ص 297.

(7) البلاذري، أنساب الأشراف، مصدر سابق، ج 1، ص 110.

(8) الشيخ الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: مجموعة من العلماء، مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان، 1995، ط 1، ج 10، ص 764، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 257، مجير الدين الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد، الأئس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تقديم وتعريف: محمد بحر العلوم، الناشر: المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، 1968، ل.ط، ج 1، ص 178.

(9) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 33. قوله تعالى في آخر السورة: «وَأَمَّا بِنَعْمَةِ رَبِّكَ فَهَدَى».

(10) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 428. للتوعية حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملٰي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 2، ص 299، ج 3، ص 7.

1. البيان العام الأول للدعوة العلنية العامة:

بعد أن أمر رسول الله ﷺ بإعلان دعوته إلى الناس، صعد ﷺ الصفا، وقال بصوت عالٍ: «يا صدّاحاً!»⁽¹⁾، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: «ما لك؟». قال: «أرأيتمكم إن أخبرتكم أن العدو مصّحكم أو ممسّيكم ما كنتم تصدقونني؟». قالوا: «بلى»، ثم قال: «... أيها الناس، إن الرائد لا يكذب أهله، ولو كنت كاذباً لما كذبتم، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم حقاً خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتون كما تنامون، ولتبغثون كما تستيقظون، ولتحاسبون كما تعملون، ولتجرون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً. وإنكم أول من أنذرتم»⁽²⁾. وقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء قبل هذا، ولكن الخوف تملّكتها هذه المرة، وهي تسمع ذلك الإنذار القوي. فبادر أحد قادة الكفر، وهو أبو لهب، إلى تبديد تلك المخاوف فوراً، إذ قال لرسول الله ﷺ: «تبّا لك، أهذا دعوتنا؟»، وتفرق على أثرها الناس.

2. البيان العام الثاني للدعوة العلنية العامة:

في أوائل السنة الرابعة لبعثته ﷺ، وبعد أن أنزل عليه القرآن بشهرين تقريباً، قام خاتم النبيين ﷺ بالأبْطح قبل موسم الحجّ، فقال: «إني رسول الله، أدعوكم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضرّ، ولا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت»⁽³⁾. وجعل ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب، فسمعت وفود العرب في الموسم بأمره⁽⁴⁾، فكان إذا أتاهم، قالوا: «كذاب، امض عننا».

(1) هي كلمة كانت العرب تطلقها كلما أحست بخطر، أو بلغها نباً مُرعب، فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الخطر.

(2) الخوارزمي، الموفق بن أحمد، المناقب، تحقيق: الشيخ مالك المحمودي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1414 هـ ط 2، ج 1، ص 46.

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج 2، ص 344.

(4) العياشي، تفسير العياشي، ج 2، ص 272، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 304.

موقف قريش من الدعوة العلانية

لَمْ بادِأ رَسُولُ اللَّهِ قَوْمَهُ بِالْإِسْلَامِ، لَمْ يَبْعُدْ عَنْهُ قَوْمَهُ، وَلَمْ يَرْدُوا عَلَيْهِ، وَلَمْ تَتَحرَّكْ قَرِيشٌ لِلضَّغْطِ عَلَيْهِ، بَلْ اكْتَفَتْ بِالسُّخْرِيَّةِ وَالْاسْتَهْزَاءِ، حَتَّى أَخَذَ النَّبِيِّ يَتَعرَّضُ لِلْآلَهَةِ قَرِيشٍ، وَيَعِيبُهَا وَيَسْفِهُ أَحْلَامَهَا، وَيَتَحدَّثُ عَنْ ضَلَالِ آبَائِهَا، وَيَنْدَدُ بِعِبَادَةِ الْحَجَارَةِ، فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ وَأَعْظَمُوهُ، وَعَادُوهُ وَأَجْمَعُوا عَلَى خَلَافَهُ وَعِدَاتِهِ⁽¹⁾، وَاتَّهَمُوهُ بِالْجُنُونِ:

﴿أَقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِنْنَةً﴾⁽²⁾، وَأَنَّهُ شَاعِرٌ: **﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّرَبَصُ بِهِ رَبِّ الْمُتُنُونِ﴾⁽³⁾**، وَكَاهِنٌ: **﴿وَلَا يَقُولَ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁴⁾**، وَسَاحِرٌ وَكَذَابٌ: **﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءُهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكُفَّارُونَ هَذَا سَحِيرٌ كَذَابٌ﴾⁽⁵⁾**.

الإِسْرَاءُ وَالْمَعْرَاجُ

أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ صلوات الله عليه وسلم إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَعُرِّجَ بِهِ إِلَى السَّمَاوَاتِ⁽⁶⁾. وأَشَارَتِ الرِّوَايَاتُ الْوَارِدَةُ عَنْ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام إِلَى ذَلِكَ، وَبَيَّنَتْ سَبِبَهُ وَعُلُّتَهُ. فَقَدْ سَأَلَ يُونُسَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبَا الْحَسْنِ مُوسَى بْنَ جَعْفَرٍ عليهم السلام: «لَأَيِّ عَلَّةٍ عَرَجَ اللَّهُ بْنَنِي عليهم السلام إِلَى السَّمَاوَاتِ، وَمِنْهَا إِلَى سَدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَمِنْهَا إِلَى حَجَبِ النُّورِ، وَخَاطَبَهُ وَنَاجَاهُ هُنَاكَ، وَاللَّهُ لَا يَوْصِفُ بِمَكَانٍ؟».

فَقَالَ الْإِمَامُ الْكَاظِمُ عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَوْصِفُ بِمَكَانٍ، وَلَا يُجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَكِنَّهُ عَزٌّ وَجَلٌ أَرَادَ أَنْ يُشَرِّفَ بِهِ مَلَائِكَتَهُ، وَسَكَانَ سَمَاوَاتِهِ، وَيُكْرَمُهُ بِمَشَاهِدَتِهِ، وَيُرِيهِ مِنْ

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 1، ص 319.

(2) سورة سباء، الآية 8.

(3) سورة الطور، الآية 30، وراجع: سورة الأنبياء، الآية 5.

(4) سورة الحاقة، الآية 42.

(5) سورة ص، الآية 4.

(6) اختلافوا في أن الإِسْرَاءُ وَالْمَعْرَاجُ حدثا في ليلة واحدة، أو كُلُّ على حدة. فمنهم من زعم أن الإِسْرَاءَ حدث في اليقظة والمعراج في المنام، وأخرون قالوا مرَّةً بروحه مناماً ومرَّةً ببدنه وروحه يقطنه، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 93. وتحدث عن أن الإِسْرَاءُ وَالْمَعْرَاجَ كانَ بِالْبَدْنِ لَا بِالنُّومِ، راجع: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج 10، ص 137.

عجائب عظمته؛ ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحان الله تعالى عما يصفون»⁽¹⁾.

وإليك بيان بعض تفصيل هاتين الحادثتين:

1. الإسراء:

بعد ثلاث سنين من مبعث النبي ﷺ، أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، جسداً وروحًا في ليلة واحدة، فقد صلّى رسول الله ﷺ العشاء الآخرة في بيته لأبي طالب، ثم نام عندها تلك الليلة. فلما كان قبيل الفجر، أيقظهم رسول الله ﷺ، فلما صلّى الصبح وصلّوا معه، قال: «يا أمّ هانئ، لقد صلّيت معكم العشاء الآخرة، كما رأيت، بهذا الدار، ثم ذهبت إلى بيت المقدس فصلّيت فيه، ثم ها أنا قد صلّيت معكم الآن صلاة الغداة كما ترين».

فلما خرج رسول الله إلى الناس أخبرهم، وقال لقريش: «إنّ الله قد أُسْرَى بي في هذه الليلة إلى بيت المقدس، فعرض عليّ محاريب الأنبياء وأيات الأنبياء».

فعجبوا، وكذبوا أبو جهل والمشركون، وقالوا: «ما آية ذلك يا محمد؟ فإنّا لم نسمع بمثل هذا قط! أخبرنا عما رأيت». فجعل يخبرهم بما سأله، وقالوا: «فأخبرنا عن عيرنا» - وكانت عيرهم في تجارة - فأخبرهم عن كامل تفاصيلها، فبهتوا، ولم يؤمنوا ولم يزدّهم ذلك إلا عتواً⁽²⁾.

(1) الشيخ الصدوقي، محمد بن علي، علل الشرائع، تقديم: السيد محمد صادق بحر العلوم، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، العراق، 1966، ل.ط، ج 1، ص 132.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 52، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 13، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص 78، الشيخ الصدوقي، الألماني، ص 131، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 6، ص 610، وج 10، 261، قطب الدين الرواندي، سعيد بن هبة الله، الخرائج والجرائح، تحقيق: مؤسسة الإمام المهدي (ع)، قم، إيران، 1409 هـ ط 1، ج 1، ص 141.

وعندما أُسرى بالنبي إلى بيت المقدس، عُلِّم جبرائيل النبي الأذان والإقامة بعد أن فرضت عليه الصلاة⁽¹⁾. وبعد أن عاد النبي إلى مكة، علمهما لعلي بن أبي طالب، ثم علمهما للمسلمين واحداً واحداً، فكانوا يؤذنون ويقيمون، ولكن من دون رفع أصواتهم بالأذان.

2. المراجـع:

في شهر رمضان، في السنة الخامسة للبعثة⁽²⁾، والثانية لنزول القرآن، ويظهر في إحدى ليالي القدر، التاسعة عشرة أو الحادية والعشرين، عُرِج برسول الله، جسداً وروحًا إلى السماء، فصعد به جبرائيل إلى السماء الدنيا، ورأى عجائبه وملكتها، وأدخله الجنة، ورأى النار وسمعها، ووصل إلى سدرة المنتهى⁽³⁾.

وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة النجم، وفيها: ﴿وَالنَّجْمٌ إِذَا هَوَى﴾⁽⁴⁾. وقد رُوي أنَّ المقصود بالنجم رسول الله، و﴿إِذَا هَوَى﴾ أي لما أُسرى به إلى السماء. فهو قسم برسول الله ورد على من أنكر المراجـع⁽⁵⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 5، الشيخ الصدوق، الأimalي، ص 371، المفضل بن عمر، توحيد المفضل، مؤسسة الوفاء، بيروت، لبنان، 1984م، ط 2، ص 176، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 1، ص 197، السيد المرتضى، علي بن الحسين، تزييه الأنبياء، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1989م، ط 2، ص 121.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 379، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 5، ص 87، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 169، محب الدين الطبرى، أحمد بن عبد الله، ذخائر العقبى، الناشر: مكتبة القدسى، القاهرة، مصر، ل.ات، ل.ط، ص 36، الذهبى، محمد بن أحمد، ميزان الاعتدال، تحقيق: محمد علي الbagawi، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1963م، ط 1، ج 2، ص 297.

(3) مسلم النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، دار الفكـر، بيروت، لبنان، ل.ات، ل.ط، ج 1، ص 79، ابن حجر، فتح الباري، ج 6، ص 452.

(4) سورة النجم، الآية 1.

(5) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 343، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 10، ص 260، للتتوسيع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملـي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 3، ص 149.

المفاهيم الرئيسية

- تعدد الآراء حول اقتران البعثة بالقرآن الكريم أو عدمه، فالمشهور هو الاقتران؛
بدعوى أن أول آيات نزلت على رسول الله ﷺ هي من سورة العلق، وكان نزولها
في بداية البعثة، إلا أن هذا القول لا يمكن الاعتماد عليه؛ لأن الوارد عن أهل
البيت ﷺ حول الاقتران ورد فقط في كتاب تفسير القرآن الكريم المنسوب
إلى الإمام الحسن العسكري ع، ولم تثبت نسبة الكتاب إليه، ثم إنّ ما ورد
عن أهل البيت حول نزول الآيات القرآنية ليس مقيداً ببداية البعثة.
- لقد نزل القرآن الكريم بعد البعثة بثلاث سنوات؛ أي عندما بلغ رسول الله من
العمر ثلاثة وأربعين سنة، في شهر رمضان المبارك، وقد نزل القرآن الكريم في مدة
عشرين سنة فقط.
- بعد مرور ثلاثة سنوات من عمر الدعوة الإسلامية أمر رسول الله ﷺ بإعلان
دعوته، فنزلت عليه الآيات الثلاث الأولى من سورة نون، ثم أعلن الدعوة علانية،
وذلك بثلاثة بيانات، فقد كان البيان الأول سنة ثلاثة وأربعين، وكان البيان الثاني
سنة أربع وأربعين.
- لم تتحرك قريش في بادئ الأمر للضغط على النبي ﷺ، بل اكتفت بالسخرية
والاستهزاء، حتى أخذ النبي يتعرض لآلهة قريش ويعييها، ويسفه أحلامها، حتى
تطورت الأمور، واستخدمت قريش كلّ الوسائل من أجل صدّ النبي ﷺ عن دعوته.
- وأشارت روايات أهل البيت ﷺ إلى الإسراء والمعراج، فقد أُسْرِيَ بالنبي ﷺ إِلَى أَن
المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وقد حاولت قريش تكذيب النبي ﷺ إِلَى أَن
رسول الله ﷺ أخبرها بحقائق حول المسجد وعن إحدى قوافلها فأيقنت بالخبر.
- كان من جملة ما حصل مع النبي ﷺ المعراج الذي حصل في شهر رمضان في
السنة الخامسة للبعثة، فقد عرج برسول الله ﷺ جسداً وروحًا إلى السماء، وأنزل
الله تعالى في القرآن الكريم ما يثبت ذلك في سورة النجم.

الدرس السادس

قريش ومواجهة الدعوة النبوية (١)

من بداية الصد عن الدعوة النبوية
إلى الهجرة إلى الحبشة

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أساليب قريش في الصد عن الدعوة النبوية.
2. يشرح دور أبي طالب في دعم الدعوة الإسلامية وبثها.
3. يتعرّف إلى ظروف وأهداف الهجرة إلى الحبشة.

تمهيد

لم تتصور قريش أن دعوة النبي محمد ﷺ يمكن أن تنتشر بين الناس بشكل متسرع، وإنما اعتبرت أن دعوته هي عبارة عن حركة شخصية لا تتخطى بأكثر الأحوال خصوصبني هاشم. ولذا لم تقم بأي تحرك في مواجهة الدعوة الإسلامية يمكن أن يصنف في خانة المواجهة الفعلية والقوية لإنها حركة رسول الله ﷺ.

إلا أن دعوة رسول الله ﷺ أخذت بالتوسيع والانتشار بشكل سريع، فاعتقدت قريش أنها بدهايتها تستطيع أن تشنى رسول الله ﷺ عن رسالته، فذهبت إلى التخطيط والمواجهة بطرق عدّة، وقد استغلت كل الظروف والمناسبات لتحقيق مآربها كموسم الحجّ مثلاً. وعلى الرغم من كل المواجهة الشرسة والقوية من قبل قريش، إلا أنها عجزت عن أن تشنى الرسول ﷺ وأصحابه عن الاستمرار في نشر الرسالة الإسلامية.

الصد عن الدعوة النبوية

استهزأت قريش برسول الله ﷺ وآذته، وكانوا يوكلون به صبيانهم وعيبيدهم، فيلقونه بما لا يحب. وكان أشهر هؤلاء المستهزئين من صناديد قريش الوليد بن المغيرة المخزومي، والأسود بن عبد يغوث الزهري، وكان معهما آخرون⁽¹⁾. واستمرت المواجهة بين النبي ﷺ من جهة والشرك من جهة أخرى، طوال أيام الدعوة النبوية في مكة. وقد نزلت في هذه المجموعة من المشركين آيات من الكتاب العزيز؛ لأنهم هم

(1) الخوارزمي، المناقب ج 1، ص 73، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 24، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 7 ص 14، وج 10 ص 35، وج 19 ص 308، العياشي، تفسير العياشي، ج 2، ص 252، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 378، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 71-76، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 277، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 6، ص 133، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 65.

الذين كانوا يقودون عملية المواجهة مع رسول الله ﷺ بكل أشكالها، ومنها ما قام به أبو لهب - عم النبي ﷺ - فقد لعب دوراً كبيراً في الصد عن الدعوة، مظهراً العداء الحاد الشديد للنبي ﷺ، فهو أول من واجه رسول الله ﷺ حينما صعد إلى الصفا، وأنذر قريشاً الإنذار الأول، وقال لهم: «إِنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد!»، فقال أبو لهب: «تَبَّا لك، أَلْهَا دَعُوتَنَا جَمِيعاً؟!»⁽¹⁾.

وكان يؤذى النبي ﷺ ويلاحقه ويسيء إليه، منذ أوائل أيام الإعلان عن الدعوة. فقد روى طارق المحاربي، قال: «بینا أنا بسوق ذي المجاز، إذ أنا بشاب يقول: أَيُّها الناس، قولوا لا إِلَه إِلَّا الله تفلحوا. وإذا ب الرجل خلفه يرميه، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه، ويقول: يَا أَيُّها الناس إِنَّه كَذَابٌ، فَلَا تَصْدِقُوهُ». فقلت: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هُوَ مُحَمَّدٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَهَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، يَزْعُمُ أَنَّهُ كَذَابٌ»⁽²⁾.

وكانت امرأته، أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، تتم على رسول الله؛ أي تنقل أحاديثه إلى الكفار، وكانت لها قلادة فاخرة من جوهر أرادت إنفاقها في عداوة رسول الله، وكانت تحمل الشوك والغضا⁽³⁾؛ فتطرحت في طريق رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة، فوصفها الله تعالى بحملة الحطب، وأنزل الله تعالى سورة المسد.

البيان العام الثالث بعد هلاك المستهزئين

انطلق الرسول في موسم الحج، فقام على حجر إسماعيل في مطاف المسجد الحرام، وهو أجمع مجتمع الحج، وأشرف مواقفه، فقال: «يَا مُعْشِرَ قَرِيشٍ، يَا مُعْشِرَ الْعَرَبِ، أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّيْ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَمْرُكُمْ بِخَلْعِ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ، فَأَجِيبُونِي تَمْلِكُو بَهَا الْعَرَبُ وَتَدِينُ لَكُمُ الْعِجْمَ، وَتَكُونُو مَلُوْكًا فِي الْجَنَّةِ». فاستهزأوا منه، وقالوا: «جُنْ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ»⁽⁴⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 7، ص 357، الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الناشر: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1966، ج 4، ص 296.

(2) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 10، ص 476، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 24.

(3) شجر من الأثاث خشبي من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ.

(4) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 379، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص 106.

الصد عن الدعوة في موسم الحج

حينما أتى ثاني موسم للحج أو العمرة بعد إعلان الدعوة العامة، في السنة الخامسة للبعثة، أتت وفود العرب إلى مكة، وكانوا قد سمعوا بأمر رسول الله ﷺ، وبلغ صدى الدعوة بينهم حداً؛ بحيث احتار المشركون في كيفية مواجهتهم لها في الموسم، فاجتمع بعض المستهزئين من قريش - أبو جهل، وزمعة بن الأسود، وعمرو بن هشام، وحويطب بن عبد العزى - وتشاوروا في أمر النبي، فقال أبو جهل: «هو مجذون»، وقال زمعة: «هو شاعر»، وقال حويطب: «هو كاهن». ثم أتوا الوليد بن المغيرة وعرضوا ذلك عليه، وكان ذا سنّ فيهم، فقال لهم: «يا معاشر قريش! إنه قد حضر هذا الموسم. وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًّا واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم ببعضٍ، ويرد قولكم ببعضه ببعضًا». وقال لهم: «إن أقرب القول فيه أن تقولوا هو ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرأة وأبيه، وبين المرأة وأخيه، وبين المرأة وزوجها، وبين المرأة وعشيرتها». فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبيل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا لهم أمره⁽¹⁾.

ظلم المشركون للمستضعفين من المسلمين

مارس المشركون ظلماً عظيماً على كلّ من أسلم، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين من استضعفوه منهم، فجعلوا يحبسونهم ويعدّبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرميهم على رمضاء مكة إذا اشتدّ الحر، ليفتونهم عن دينهم؛ فمنهم من كان يصمد أمام فتنتهم ويواجه اعتداءهم، ويعصمه الله منهم، ومنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه. فلجلأ رسول الله ﷺ إلى تنظيم المسلمين في مجموعات، وكلّ مجموعة في مكان. في كلّ مجموعة رجل قويٌ يستطيع المجابهة والدفاع عن الآخرين، فكان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلمَا، عند الرجل به قوّة، فيكونان معه، ويصيّبان من طعامه⁽²⁾.

(1) مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 6، ص 257، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 174.

(2) ابن الأثير، أسد الغابة ج 5، ص 54، محب الدين الطبرى، أحمد بن محمد، الرياض النبرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج 2، ص 277.

وكانوا يخرجون بعمّار بن ياسر، وبأبيه وأمه، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم في رمضان مكّة. وكان رسول الله يمرّ بهم، فيقول لهم: «اصبروا آل ياسر، فإنّ موعدكم الجنة»⁽¹⁾. وكان أميّة بن خلف الجمحى يُخرج بلال بن رباح إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكّة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ويقول له: «لا تزال هكذا حتّى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى!»، فيقول: «أحد أحد». وقد اشتري رسول الله ﷺ عامر بن فهيرة وبلاً وأعتقهما، ولذلك عُدّ بلال من موالي النبي ﷺ⁽²⁾.

تحليل عام للموقف بعد إعلان الدعوة

1. الخشية من إلغاء مكانة مكّة المعنويّة والاقتصاديّة:

إنّ السبب الحقيقيّ للحرب الضروس التي شنتها قريش على محمد ﷺ، لم يكن في سبّه لآبائهم ولآلهتهم، بل كان كامناً في دعوته إلى التوحيد، والتي سوف تلغي عبادة الأصنام، فتفقد مكّة حينئذ تلك السمة التي حصلت عليها بسبب البيت أساساً، وبسبب وجود أصنام العرب فيها، لا وهي كونها حرماً آمناً، وتفقد بالتالي مركزها التجاري؛ حيث كانت مكّة سوقاً لعرب تهامة والجaz ونجد، مما حول رؤسائها وشيوخها إلى تجّار وأغنياء كبار ذوي سطوة ورأي وواجهة على مستوى شبه الجزيرة العربيّة.

2. الاختلال في ميزان القوى بين الإسلام والشرك:

إنّ نظرة أوليّة إلى ميزان القوى بين النبيّ وأصحابه المسلمين من جهة، وقريش من جهة أخرى، سوف تُظهر اختلالاً واضحاً وحاداً لمصلحة قريش. فقد شكّل المعasker المعادي الثقل القبلي والمالي؛ إذ كان مؤلّفاً من رؤوس قريش وممثلي بطونها وأغناها وأقواها، فقد كان على رأسه أبو الحكم بن المغيرة.

(1) الهيثمي، مجمع الزوائد، مصدر سابق، ج 9، ص 293.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 339، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 255، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 171.

وقد اتّسمت حالة إعلان الدعوة بالتأثُّر البالغ بميزان القوى هذا. فقد كان قرار النبيٍّ تحاشي الاصطدام الدمويٍّ مع قريش؛ خشية أن يؤدّي ذلك إلى استفزاز وإثارة نزعة الحرب، وسفك الدماء عندها، بعد أن تحصل على ذريعة ذلك من قتال محمد وأصحابه.

3. بقاء قريش تحت سقف الضغط وعدم وصولها إلى سفك الدماء:

بقي النبيٍّ ومن معه في موقف سلبيٍّ تماماً من ناحية الدفاع، في الوقت الذي كانت فيه قريش في موقف الهجوم والتنكيل والتعذيب من دون أن تصعد في موقفها، وتحسم الأمر. إذ لم تكن ترى خطراً جدياً في البداية على مصالحها الكبرى، وإن كانت قد أخذت تضيق ذرعاً بالدعوة الإسلامية، وخاصة عندما لاحظت ازدياد أعداد الذين أخذوا يعتنقون الدين الجديد، فأخذ خوفها من زوال مركزها التجاري يزداد ويكبر. كما أنها لم تكن متفقة على التشديد ضد المسلمين، فقد كان كثيرٌ منهم من بطون قريش نفسها، ومن أولاد كبارهم ورؤسائهم، ولم يكن من السهل إلحاق الأذى بشخص ذي عشيرة قوية، فكان أيّ عمل من هذا القبيل يحتاج إلى مشورة مع أشرافهم، وبالتالي يحتاج إلى اتفاق. وأيّ خلل في حصول الإجماع على إيذاء شخص مسلم ينتمي إلى عشيرة قوية، فإنَّ ذلك كان يمنع إيذاءه؛ لأنَّ العصبية القبلية كانت لا تزال قوية إلى الدرجة التي كان يمكن أن تؤدّي إلى نزع دمويٍّ باهظ الثمن.

ولم تصل قريش إلى مرحلة السيف وحسم الأمر إلا في السنة الثالثة عشرة للبعثة، بعد انكشاف بيعة الأوس والخزرج للنبي ﷺ على النصرة. فقد كان معنى ذلك بنظرها دخول النبيٍّ ورسالته مجالاً اقتصادياً وتجارياً وحياتياً خطراً عليها، ألا وهو التحالف مع قبيلتين قويتين تمسكان طريقها التجاري إلى الشام، وتشكلان منافساً قوياً لها. فحاوت قريش المبادرة إلى الهجوم السريع؛ فانكشف النبيٍّ من جهة عشيرةبني هاشم، خصوصاً أنَّ أبا لهب كان هو المرشح لزعامتها، فوضع النبي ﷺ نفسه في دائرة المبادرة السريعة إلى الخروج والهجرة، والالتجاء إلى قاعدة آمنة بعيدة عن سطوة قريش المباشرة.

وكان أبو طالب، والحمزة، وبنو هاشم، وحفاؤهم خلفهم، يشكلون رادعاً يحمل احتمالات انفجار حرب داخلية، سوف تتضرر قريش منها كلها، وسوف يقع الضرر ثقلياً على تجارها وأغنيائها. فلم يكن سهلاً؛ وقريش تنظر بحذر إلى تربص القبائل بها في الخارج، أن تقوم بتفجير وضعها الداخلي.

4. دور أبي طالب في إيجاد القوة في الموقف الإسلامي:

من أجل حماية الجنين الإسلامي، أبقى رسول الله ﷺ إيمان عمّه أبي طالب سرياً، ولم يجعله يسلك سبيل حمزة عمّه الثاني، ولو فعل ذلك لخرج أبو طالب عن كونه رمزاً من رموز قريش، ولأصبح كبقية المسلمين، ولخرج عن دائرة القدرة على حماية المسلمين، وكان من الممكن أن يؤدي ذلك إلى أزمة كبيرة تجرّ بني هاشم، وبالتالي حلفاءهم، إلى حرب صعبة مبكرة كان رسول الله لا يريدها.

فقد احتاج النبي ﷺ في بداية المرحلة الجنينية إلى الدعوة، وهي مرحلة تأسيس النخبة، والإعلان عنها إلى عنصر القوة الكامن في تلك العلاقات السائدة، والتي كانت من القوة بمكان. فقد كانت محترمة، ويعدّ الخروج عنها من الانحرافات الشاذة. فما تمتلكه هذه العلاقات السائدة من عنصر القوة ومن القبول والرسوخ في العقل الجماعي والاجتماعي، جعل النبي ﷺ مضطراً إلى ترك عمّه أبي طالب ضمن شبكة هذه العلاقات، حتى يبقى ما له من مركز القوة الذي تعطيه إياه هذه العلاقات نفسها.

قريش توسيط أبي طالب

لما أظهر رسول الله الدعوة، ورأى قريش أنّ عمّه أبي طالب يحذب عليه، ويحتضنه، ويحميه، توجّهت شطّره، وهي تعتقد أنّ أبي طالب مثل ما هي عليه من خلاف مع النبي. وكان أبو طالب آنذاك زعيم بني هاشم ورئيسهم المطلق، لذلك حضر سادة قريش بصورة جماعية، فدخلوا على أبي طالب، وقالوا: «أنت شيخنا وكبيرنا، وقد أتيناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك، فإنه آذانا، وسفه أحلامنا، وشتم آلتنا، وعاب ديننا، وضلّ آباءنا، وأفسد شبابنا، وفرق جماعتنا! فإنّما أن تكفّه عنا، وإنّما أن تخلي بيننا وبينه، فادعه ومره،

فليكِ عن آلتنا، ونکف عن إلهه! فإن كان الذي يحمله على ذلك العدم، جمعنا له مالاً حتى يكون أغنى رجل في قريش ونمّلكه علينا!».

ولكنَ أبو طالب قال لهم قولًا رفيقاً، ورددُهم رداً جميلاً حكيماً، فانصرفوا عنه. ثم عاودوا الكرّة عليه، وحضرّوا عنده مهدّدين هذه المرة، فقالوا له أجمع: «يا أبو طالب، إنَ لك سنًا وشرفاً ومنزلة فينا، وإنَ قد استنهينا من ابن أخيك فلم تنه عنّا، وإنَ والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيوب آلتنا، حتى تكفه عنّا، أو ننزاله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين».

فأدرك حامي الرسول الوحيد، بذكائه وفطنته، أنه يتوجّب عليه أن يصبر أمام جماعة ترى وجودها ومصالحها في خطر. من هنا، عمد إلى مسامتهم وملاطفتهم، ووعد بأن يبلغ ابن أخيه محمداً كلامهم. وقد كانت هذه محاولة من أبي طالب لتسكين غضب تلك الجماعة الغاضبة وإطفاء ثائرتهم، وتهذّب خواطرهم، لتنتم معالجة هذه المشكلة بعد ذلك بطريقة أصح وأفضل. ثم بعث إلى رسول الله ﷺ فدعاه. حضر رسول الله ﷺ ودخل، وقال: «السلام على من اتبع الهدى»، ثم جلس. فأخبره أبو طالب بما جاؤوا به. وقال: «يا ابن أخي! إن هؤلاء قومك يسألونني؟» قالوا: «دعنا وألّهتنا ندعوك وإلّهك!»، فاستعبر رسول الله، وقال: «والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى ينفذه الله أو أمضي دونه (ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك فيه)! ولكن هل لهم في كلمة خير لهم من هذا، يعطونني كلمة يسودون بها العرب ويظلون أعناقهم، ويدين لهم بها العجم، ويكونون ملوّغاً في الجنة؟».

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقال أبو جهل: «نعم! لله أبوك! نعطيك ذلك وعشرين كلمات! وما هذه الكلمة؟»، فقال لهم رسول الله: «تشهدون أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله». فوضعوا أصابعهم في آذانهم، وخرجوا وهم يقولون: «ندع ثلاثة وستين إلهاً، ونعبد إلهاً واحداً! ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، إن هذا إلّا اختلاق».

وقال عقبة بن أبي معيط الأموي: «اثبتو على عبادة آل هتكم، واصبروا على دينكم، وتحملوا المشاق لأجله، فإن هذا الذي نراه من زيادة أصحاب محمد أمر يراد بنا من زوال نعمة أو نزول شدة».

وأقبل أبو طالب، بعد خروج تلك الجماعة من عنده، على رسول الله ﷺ وقال: «امض لأمرك، فوالله، لا أخذلك أبداً».

فعاودت قريش الكرةثالثة متبعة طريقاً ملتوياً، فمشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة، وقالوا له: «يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتي في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي فرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم فقتله، فإنما هو رجل!!».

فكشف أبو طالب مكرهم هذا، وقال: «والله، لبيس ما تسوموني! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله، ما لا يكون أبداً».⁽¹⁾

ثم اتّخذ أبو طالب قراراً دفاعياً استعداداً للاحتمالات الخطرة، فأمربني هاشم بحماية النبي ﷺ.

وهنا توّر الوضع العام في داخل مكة، فهابت قريش وحدة موقفبني هاشم، ولم تشا تصعيد الموقف ضدّهم لما سوف يجرّه ذلك من توسيع رقعة الخلاف ليشمل حلفالمطيبين وحلف عبدالمطلب مع خزاعة، فآخرت اتباع طرق أخرى؛ كالضغط على النبي نفسه بمحاولة إهانته والإساءة إليه شخصياً؛ كإلقائه التراب على رأسه، أو إلقاء سلا⁽²⁾ جزور وفرثه عليه وهو قائم يصلي، ولكن أبا طالب كان لهم بالمرصاد، ف يأتي غاضباً، ويأمر حمزة، فيمرّر السلا على سبالهم جميعاً، وقد ألقى الله الرعب في قلوبهم⁽³⁾.

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 67، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 54، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 173.

(2) المشيمة.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 285، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 326، الشيخ الطبرسى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 342، الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 642. للتتوسيع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 3، ص 78.

الهجرة إلى الحبشة وتصعيد المواجهة مع الشرك

حاول المشركون الضغط على من تبع النبي ﷺ من المسلمين المستضعفين، وائتمروا أن يفتنوهم عن دينهم. ولما اشتدّ أذى المشركين على الذين أسلموا، وفتّن منهم من فتن، وأمام هذا الوضع الصعب الذي واجهه المسلمون ممّن ليس له عشيرة تمنعه، والذي استمرّ لمدة سنتين حتّى السنة الخامسة للبعثة⁽¹⁾، وقد كادت قريش أن تحرز انتصاراً ولو من جهة الحدّ من انضمام الناس إلى الدين الحنيف خوفاً من التعذيب⁽²⁾، رأى رسول الله ما ب أصحابه من البلاء، فقرر القيام بحركة تراجع ظاهريٌّ؛ يرفع فيها الضغط عن المسلمين. ورأى أنَّ خير مصدق لسعة أرض الله لهم، والتي أذن الله بالهجرة إليها، هو الحبشة، فأمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة، وقال: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنَّ بها ملگاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتّى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»⁽³⁾.

فكانت أول هجرة في الإسلام⁽⁴⁾. وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة للبعثة النبوية. وحتّى لا تتصدّى قريش للمهاجرين، فقد هاجر المسلمون إلى الحبشة على دفعات⁽⁵⁾، فخرجوا متسللين سراً، حتّى انتهوا إلى الشعيبة، فركبوا في سفينة حملتهم إلى أرض الحبشة بنصف دينار. وكان عثمان بن مظعون الجمحيُّ أميراً على الدفعة الأولى⁽⁶⁾.

ثم خرجت الدفعة الثانية، وكان على رأسها جعفر بن أبي طالب، والذي جعله رسول

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج 18، ص 412.

(2) العلامة الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، ل.ت، ل.اط، ج 17، ص 231.

(3) الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1987م، ط 1، ج 1، ص 184.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 213، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ج 3، ص 360.

(5) ابن كثير، السيرة النبوية، ج 2، ص 17، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 67 وص 72، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 345.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 322، الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 330.

الله ﷺ أميراً على كل المهاجرين. وما إن وصلت إلى البحر، واستقلت السفينة إلى الحبشة حتى خرجت قريش في آثارهم، ولكن لم يدركوا منهم أحداً⁽¹⁾. فكان جميع من لحق بأرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً أو سبعين⁽²⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 204، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 69، الشيخ الطبرسى، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص 43، اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ج 2، ص 29.

(2) راجع: الحبلى، السيرة الحلبية، ج 1، ص 321، العلامة المجلسى، بحار الأنوار، ج 18، ص 412، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 176، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 3، ص 241.

المفاهيم الرئيسية

- عملت قريش خلال وجود النبي ﷺ في مكة المكرمة على صد الناس عن الإسلام، وعمل كبراؤها على صد الناس ونفيهم عن الالتحاق برسول الله ﷺ. وكان من أبرزهم أبو لهب وامرأته، وكان أبو لهب من أشد المعارضين لرسول الله ﷺ، وأكثر الناس أذية له حتى نزلت فيه وفي زوجه سورة في القرآن الكريم.
- بعد أن أعلن رسول الله ﷺ دعوته، وانتشر خبره في قريش والقبائل المجاورة، استغل فرصة موسم الحجّ، ليدعو عامة الناس إلى دعوته.
- استخدمت قريش أسلوب الظلم والتعسّف والبطش في مواجهة المسلمين، وثنיהם عن الالتحاق برسول الله ﷺ. فقد عمّدت قريش والقبائل الأخرى إلى تعذيب المسلمين، وكان من أبرز من سقط شهيداً تحت التعذيب: ياسر وزوجه.
- يمكن تحليل الوضع العام لقريش بعد إعلان الدعوة بخشيتها من إلغاء مكانها، والاختلال في ميزان القوى بين الإسلام والشرك، وبقاء قريش تحت سقف الضغط وعدم صولها إلى سفك الدماء.
- بعد أن انتشر أمر رسول الله ﷺ وذاع صيته في البلاد الإسلامية، ورأى قريش أن أبا طالب هو المحامي عن رسول الله ﷺ، قررت أن تتوجه إليه، لعلها تجد غايتها عنده، فحاوت مرات عديدة أن تتوسط أبا طالب لثنى النبي ﷺ عن الاستمرار في دعوته، وعرضت عليه حلولاً عدّة، إلا أن أبا طالب كان موقفه واضحًا وصريحًا في حماية النبي ﷺ والدفاع عنه بكل قوة وشجاعة.
- بعدما اشتدّ أذى المشركين للMuslimين، رأى رسول الله ﷺ أن يتراجع ظاهريًا أمام قريش، فقرر تهجير بعض المسلمين إلى الحبشة؛ لوجود ملك عادل فيها، فهاجر المسلمون على شكل مجموعات إلى أرض الحبشة، فكانت أول هجرة في الإسلام في السنة الخامسة للبعثة.
- عيّن رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب أميراً على المهاجرين إلى الحبشة.

الدرس السابع

قريش ومواجهة الدعوة النبوية (2) من إسلام حمزة إلى الهجرة إلى الطائف

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى ظروف إسلام حمزة بن عبد المطلب وآثار ذلك على المشركين.
2. يشرح أهداف قريش من محاصرة النبي ﷺ وبني هاشم في الشعب.
3. يبيّن أهداف النبي ﷺ من إنذار عشيرته وتقديم علي رضي الله عنه خليفة له.
4. يعرف آثار وفاة أبو طالب وخدیجة على الإسلام، وسبب هجرته ﷺ إلى الطائف.

تمهيد

قامت قريش بكلٌّ ما تملك من وسائل إعلامية وسياسية بمحاولة وقف جماح الدعوة الإسلامية المباركة، محاولة بذلك صد النبي ﷺ عن الاستمرار في دعوته من جهة، ومن جهة أخرى منع الناس من الالتحاق بركب الدعوة الجديدة التي تغيير المعلم الدينية والسياسية والاجتماعية في المنطقة.

لم يمنع موقف أبي طالب الصلب، وهجرة المسلمين إلى الحبشة، وثبات المسلمين وصبرهم، من دخول بعض الشخصيات الجديدة في الإسلام؛ كالحمزة، مما أثر في قريش تأثيراً بالغاً. فقررت قريش أن تقوم بأخر إجراء يمكن لها أن تقوم به، وهو المقاطعة الكاملة لبني هاشم لوقفهم بجانب النبي ﷺ ودعوته التي نسفت كلَّ أحلام قريش وجريدةتها، حتى أجبرت النبي ﷺ على محاولة الخروج خارج مكة المكرمة لاستكشاف الأوضاع عن القبائل العربية الأخرى كثيف في الطائف.

ومن جهة النبي ﷺ، كانت تلك الفترة فترة تحُّدٌ وصمود واستمرارية للعمل في وجه قريش، حتى البدء بالعمل لتأسيس مشروع الإمامة من بعده، وفترة حزن وتألم لفقده المحامي عن الدين، وكذلك الداعم المعنوي والمالي للإسلام وهما: أبو طالب، والسيدة خديجة.

إسلام حمزة بن عبدالمطلب

في السنة السادسة للبعثة، أسلم حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم، أبو عمارة، عم النبي ﷺ، وأحد وجهاء قريش وسادتها في الجاهلية.

وفي سبب إعلان إسلامه أن أبو جهل مر برسول الله عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضييف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ. ثم انصرف عنه أبو جهل. ولمّا وصلت أنباء ذلك للحمزة، احتمله الغضب، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه، حتّى إذا قام على رأسه رفع القوس فضرب بها رأسه؛ فشجّه شجّة منكرة، ثم احتمله، فجلد به الأرض. ثم قال: «أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فرد ذلك عليّ إن استطعت!». فقام رجال منبني مخزوم إلى حمزة؛ لينصروا أبي جهل، فقالوا لحمزة: «ما نراك إلا قد صبأت؟».

فقال حمزة: «نعم، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وما يمنعني، وقد استبان لي منه أنه رسول الله، والذي يقوله حق؟ فوالله، لا أنزع، فامنعني إن كنت صادقين». فقال أبو جهل: «دعوا أبا عمارة، فإني والله، قد سببت ابن أخيه سبّا قبيحاً». فلما أسلم حمزة، قالت العرب: اليوم عزّ محمد، وإن حمزة سيمعنـه، وعرف المشركون من قريش أن رسول الله قد عزّ وامتنع، وأن حمزة سيمعنـه، فشقّ ذلك عليهم، وكفوا عن بعض ما كانوا يسيئون به إلى المسلمين، وعن بعض ما كانوا ينالون من رسول الله، وعدلو عن المنابذة إلى المعاتبة، وأقبلوا يرغبونـه في المال والأنعام، ويعرضونـه عليه الأزواج. وقال حمزة للنبي ﷺ: «فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله، ما أحب أن لي ما أظلته السماء، وأتّي على ديني الأول».

فكان إسلام الحمزة تطواراً نوعياً، عزّ القدرة الداعية عند النبي، وأرعب قريشاً. خصوصاً أن إعلان حمزة لإسلامه جاء مقرروناً بالتحدي، وإظهار القوّة والقدرة على التصدّي، إذ ردّ صاع أبي جهل صاعين في مجلس عامٍ من مجالس قريش، مما زرع الخوف في مفاصلهم، وكان حمزة أعزّ فتى في قريش وأشدّهم شكيمة⁽¹⁾.

(1) ولد في مكة سنة 54 ق ه ونشأ فيها، واستشهد في المدينة سنة 3 ه وانقضى عقبه، راجع: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980م، ط. 5، ج. 2، ص. 278، ابن هشام، السيرة النبوية، ج. 1، ص. 189، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ج 1 ص 122، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 72، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 2، ص 332، للتوضّع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 3، ص 277.

الحصار في شعب أبي طالب

1. قريش تعلن المقاطعة:

من أجل التهرب من تحمل المسؤولية الشخصية في مواجهة حمزة بن عبد المطلب، اجتمع أربعون من وجهاء قريش في دار الندوة، وكتبوا في ما بينهم صحيفةً: أن لا يواكلوا بني هاشم، ولا يكلّموهم، ولا يبأيغوهـم، ولا يزوجـوهـم، ولا يتزوجـوهـمـنـهـمـ، ولا يحضرـوا معـهـمـ، حتـىـ يـدـفـعـواـ إـلـيـهـمـ «رسـولـ اللهـ» ليـقـتـلـوهـ، وأـنـهـمـ يـدـ وـاحـدةـ عـلـىـ مـحـمـدـ، يـقـتـلـونـهـ غـيـلةـ أوـ صـرـاـحـاـ. وـخـتـمـواـ الصـحـيـفـةـ بـأـرـبـاعـينـ خـاتـمـاـ، خـتـمـهـاـ كـلـ رـجـلـ مـنـ رـؤـسـاءـ قـرـيـشـ بـخـاتـمـهـ، وـعـلـقـوهـاـ فـيـ الـكـعـبـةـ⁽¹⁾.

وقد أشار أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى صحيفة المقاطعة في خطبة له، قال: «فتعاقدوا أن لا يعاملونا ولا يناكحونا، وأوقدت الحرب علينا نيرانها، واضطربـونـاـ إـلـىـ جـبـلـ وـعـرـ، مـؤـمـنـاـ يـرـجـوـ الثـوابـ، وـكـافـرـنـاـ يـحـامـيـ عنـ الأـهـلـ، وـلـقـدـ كـانـتـ القـبـائـلـ كـلـهاـ اـجـتـمـعـتـ عـلـيـهـمـ، وـقـطـعـواـ عـنـهـمـ الـمـارـةـ وـالـمـيـرـةـ، فـكـانـواـ يـتـوـقـعـونـ الـمـوـتـ جـوـعاـ، صـبـاحـاـ وـمـسـاءـ، لـاـ يـرـونـ وـجـهـاـ وـلـاـ فـرـجـاـ، قـدـ اـضـمـحـلـ عـزـمـهـمـ، وـانـقـطـعـ رـجـأـهـمـ».

وكان بدء حصار الشعب متزامناً أو متقارباً مع بداية الهجرة إلى الحبشة، وكان في نهاية السنة الخامسة وبداية السادسة، واستمر إلى السنة العاشرة، ف تكون مدته أربع سنين⁽²⁾.

2. رسول الله ﷺ وبنو هاشم في قلب المقاطعة:

أمام هذا القرار الخطير في المواجهة، جمع أبو طالب بنى هاشم، وحلف لقريش بالبيت والركن والمقام والمشاعر في الكعبة: «لئن شاكت محمدًا شوكة لأثنين عليكم»⁽³⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 234، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 79.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 254، علي بن إبراهيم القرمي، تفسير القرمي، ج 1، ص 380، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ج 1، ص 126، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص 326، الخوارزمي، المناقب، ج 1، ص 65.

(3) علي بن إبراهيم القرمي، تفسير القرمي، مصدر سابق، ج 1، ص 380.

وكان أبو طالب يحرس النبي ﷺ في الليل والنهار، فإذا جاء الليل وأخذ النبي ﷺ مصحعه، ونامت العيون، جاء أبو طالب؛ فأنهضه عن فراشه، وأضجع عليًّا مكانه وأضجع النبي ﷺ في موضع آخر، ثم قام بالسيف عليه ورسول الله نائم، فلا يزال الليل كله هكذا⁽¹⁾.

وبقوا في الشعب أربع سنين، لا يجسرون على الخروج منه، ولا يأمنون إلَّا في الموسم، ولا يشترون ولا يبايعون إلَّا في الموسم، وكان يقوم في مكة في كل سنة موسمان: موسم العمرة في رجب، وموسم الحجّ في ذي الحجّة. فكان إذا جاء الموسم، خرج بنو هاشم من الشعب، فيحاولون الاستفادة من قدوم الناس من غير قريش للشراء منهم أو لبيعهم، ولكن قريشاً كانت تدعى الناس إلى مقاطعتهم، إما بالترهيب وإما بالترغيب. ثم لا يجسر أحد منهم أن يخرج إلى الموسم الثاني، فأصابهم الجهد بذلك. وكان عليًّا بن أبي طالب أثناءها يأتيهم بالطعام سرًا من مكة⁽²⁾.

وكان أبو العاص بن الربيع، وهو ختن رسول الله على رببيته زينب، يجيء بالغير في الليل عليها البر والتمر إلى باب الشعب، ثم يصبح بها فتدخل الشعب. ولذا، قال رسول الله ﷺ: «لقد صاهرنا أبو العاص، فأحمد صهرنا، لقد كان يعمد إلى العير، ونحن في الحصار، فيرسلها في الشعب ليلاً»⁽³⁾.

وكان رسول الله ﷺ يخرج في كلّ موسم، ويدور على قبائل العرب، يدعوهם إلى الإسلام، وكانت قريش تواجهه، وتمنع العرب من الاتصال به⁽⁴⁾.

3. انتهاء حصار الشعب:

في أواخر أيام الحصار في شعب أبي طالب، وبعد أن أتى على رسول الله ﷺ في الشعب أربع سنين، بعث الله على صحيفة قريش دابة الأرض؛ فلحسست جميع ما فيها

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج 1، ص 57.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 236، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ، ج 2، ص 75.

(3) الشيخ الطبرى، إعلام الورى بأعلام الهدى، مصدر سابق، ج 1، ص 548.

(4) اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، مصدر سابق، ج 2، ص 36.

من قطيعة رحم وظلم وجور، وتركت اسم الله، ونزل جبرئيل على النبي ﷺ، وأخبره بأنَّ الله بعث على صحيفهم الأرضة، فلحستها⁽¹⁾.

فأخبر النبي أبا طالب، ثم جمع أبو طالب رهطه، وانطلق به حتَّى دخل عليهم في المسجد، والمشركون من قريش في ظلِّ الكعبة.

قال ﷺ: «والله، يا معاشر قريش، قد جئتكم في أمر لعلَّه يكون فيه صلاح وجماعة، فاقبلوا ذلك مُنَا، إِنَّ ابْنَ أخِي أَخْبَرْنِي وَلَمْ يَكُنْ بْنِي، أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَخْبَرَهُ بِحَالِ صَحِيفَتِكُمْ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَعَثَ عَلَيْهَا الْأَرْضَةَ، فَلَمْ تَدْعُ فِيهَا ظَلَّمًا وَقَطِيعَةً وَبَهْتَانًا إِلَّا أَكْلَتَهُ، وَبِقِيَّ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَلْمَ صَحِيفَتِكُمْ، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ ابْنَ أخِي، فَانْتَهُوا عَنْ قَطِيعَتِنَا، وَانْزَلُوا عَمَّا فِيهَا، وَارْجِعُوْا عَمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الظَّلْمِ وَقَطِيعَةِ الرَّحْمَمِ، وَإِنْ كَانَ كَادِبًا دَفَعْتُهُ إِلَيْكُمْ تَقْتُلُونَهُ».

فأتوا بها - وهم لا يشكُون أنَّهم سيدفعون رسول الله إليهم إذا نشروها - وفكوا الخواتيم ونشروها، ثم نظروا، فإذا فيها «باسم الله».

وعند ذلك، اجتمع سبعة نفر من قريش من بنى عبد مناف وبنى قصيٍّ، ورجال من قريش ولدتهم نساء بنى هاشم على نقض الصحيفة.

ورجع أبو طالب إلى الشعب، وخرج منه هو والنبي ورهطه وقد أصابهم الجهد الشديد، وخالفوا الناس⁽²⁾. وهكذا انتهى حصار الشعب، وانتصر الإسلام في مواجهة قريش مجدداً.

وأنذر عشيرتك للأقربين

هذه هي الخطوة الأولى في طريق معركة الإمامة بعد النبوة، وقد فتحها الله تعالى، وسنَّ عليًّا عليه السلام يوم ذاك ستة عشر عاماً، في حدود السنة السادسة للبعثة،

(1) قطب الدين الرواوندي، قصص الأنبياء، ص329.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج، 2، ص16، قطب الدين الرواوندي، قصص الأنبياء، ص330، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص 51 - 52، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج، 3، ص327.

حينما كان النبي ﷺ وبنو هاشم محاصرين في الشعب، وبما أنّ بنى هاشم تأخروا في الانضمام جمِيعاً إلى الإسلام، فقد أراد الله عزّ وجلّ توجيه الإنذار إليهم. كذلك أراد الله تعالى أن يحدِّد الوصيُّ وال الخليفة بعد النبي ﷺ، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁽¹⁾.

فدعى رسول الله ﷺ عليًّا عليه السلام، فقال له: «يا عليٌّ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمْرَنِي أَنْ أَنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ»، فدعاه عشيرتي الأقربين، فادعهم ليأتوا، واصنع لنا - يا عليٌّ - صاعاً من طعام».

فخرج أمير المؤمنين علیه السلام، وقال لهم: «أجيروا رسول الله إلى غداء في الغد في منزل أبي طالب». فأكلوا وشربوا حتى أنهوا، وكانوا كلّما أكلوا أو شربوا بقي الطعام والشراب على حاله. ولما فرغوا، قال أبو لهب: «... وإنّ ابن أبي كبشة⁽²⁾، إِنَّ هَذَا لَهُ السُّحُورُ الْمُبِينُ!». فسكت رسول الله يومئذ ولم يتكلّم. فتصدى له أبو طالب، ثمّ خاطب رسول الله ﷺ قائلاً: «يا ابن أخي، إذا أردت أن تدعوا إلى ربّك فأعلمـنا حتى نخرج معك بالسلاح»⁽³⁾.

ثم دعاهم رسول الله ﷺ من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب⁽⁴⁾. وبعد أن فرغوا من طعامهم خاطبـهم النبي، منفذـاً أمرـه تعالى، ولم يبدأـهم بالدعوة إليه وإلى رسالته، بل إلى بيـعتـه على أن يكونـ أحدـهم خـليفـته بـعدهـ، ثمـ أـنـذـرـهـمـ إنـ لمـ يـسـتـجـيبـواـ لهـ، فـقاـلـ: «ـيـاـ بـنـيـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ، إـنـيـ نـذـيرـ لـكـمـ مـنـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ، إـنـيـ أـتـيـتـكـمـ بـمـاـ لـمـ يـأـتـ بـهـ أـحـدـ مـنـ الـعـرـبـ، فـإـنـ تـطـيـعـونـيـ تـرـشـدـوـ، وـتـفـلـحـوـ، وـتـنـجـحـوـ، ... وـتـعـلـمـوـ، يـاـ بـنـيـ عـبـدـ الـمـطـلـبـ، أـنـ اللـهـ أـمـرـنـيـ أـنـ أـنـذـرـ عـشـيرـتـيـ الـأـقـرـبـينـ...، وـإـنـكـمـ عـشـيرـتـيـ الـأـقـرـبـونـ⁽⁵⁾، إـنـ اللـهـ لـمـ يـبـعـثـ رـسـوـلـاـ إـلـاـ جـعـلـ لـهـ أـخـاـ وـوزـيـرـاـ وـوـصـيـاـ وـوـارـثـاـ مـنـ أـهـلـهـ، وـقـدـ جـعـلـ لـيـ

(1) سورة الشعرا، الآية 214.

(2) هو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان، شبهوه به، كما في النهاية للجزري.

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج 2، ص 27.

(4) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 7، ص 356.

(5) فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، تحقيق: محمد كاظم، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، طهران، إيران، 1990م، ط 1، ص 303، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 212.

وزيرًا كما جعل للأنبياء قبله...، فأيكم (يسبق إليها) يقوم فيباعني على أنه أخي في الله، وزيري ووارثي دون أهلي، ووصيٍّ وخليفي (في أهلي)، ويكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيٌّ بعدي؟! ومع ذلك يكون لي يدًا على جميع من خالفني؛ فأتّخذه وصيًّا وولياً وزيراً، يؤدي عني ويبلغ رسالتي، ويقضي ديني من بعدي وعداتي مع أشياء أشتطرتها؟!». فأمسك القوم. فأعادها ثلاث مرات ويسكتون، ويشب فيها عليٌّ عليه السلام، فلما سمعها أبو لهب، قال: «تبًا لك يا محمد، ولما جئتنا به، ألها دعوتنا؟!».

ثم قام عليٌ عليه السلام وهم ينظرون إليه كلهم، فقال: «يا رسول الله، أنا لها، أنا أؤازرك على هذا الأمر»⁽¹⁾.

فقال رسول الله: «يا أبا الحسن أنت لها»⁽²⁾، قضي القضاء وجف القلم، يا علي، اصطفاك الله بأولها، وجعلك ولـي آخرها».

ثم قال: «يابني عبد المطلب، هذا أخي ووارثي ووصيٍّ وزيري وخليفي فيكم»⁽³⁾ بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا»⁽⁴⁾. فقام القوم يقولون لأبي طالب: «قد أمرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام»⁽⁵⁾.

(1) الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، مصدر سابق، ج 1 ص 323.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 216، القندوزي، سليمان بن إبراهيم، بناية المودة، تحقيق: سيد علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة، ل.ب، 1416هـ ط 1، ج 1، ص 222، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 22.

(3) القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 1، ص 106، الشیخ الطبری، إعلام الورى بأعلام الهدى، ج 1، ص 322، الطبری، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 319، الطبری، محمد بن جریر، جامع البيان، ضبط وتوثيق وتخریج: صدقی جمیل العطار، دار الفکر، بیروت، لبنان، 1995م، ل.ط، ج 19، ص 74، ابن کثیر، البداية والنهاية، ج 3، ص 40، ابن کثیر، السیرة النبویة، ج 1، ص 459، فرات بن إبراهیم، تفسیر فرات الكوفی، ص 113.

(4) الشیخ الطوسي، الأمالی، ص 583، فرات بن إبراهیم، تفسیر فرات الكوفی، ص 301. الطبری، جامع البيان، ج 19، ص 74-75، ابن کثیر، شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 210. السیوطی، عبد الرحمن بن أبي بکر، الدر المنشور في التفسیر بالتأثیر، دار المعرفة، بیروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج 3، ص 561، ابن کثیر، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 63.

(5) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 18، ص 179. للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضی العاملی، الصحيح من سیرة النبي الأعظم، ج 3، ص 152.

عام الحزن

1. وفاة أبي طالب:

في آخر السنة العاشرة للبعثة، وهي السنة التي انتهى فيها حصار بني هاشم في الشعب، وبعد خروجه من الشعب بشهرين، في السادس والعشرين من شهر رجب⁽¹⁾، دخل رسول الله على أبي طالب وهو يجود بنفسه، فمسح جبينه الأيمن أربع مرات، وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثم قال: «يا عم، ربّيت صغيراً، وكفلت يتيمًا، ونصرت كبيراً، فجزاك الله عنّي خير الجزاء». وتوفي أبو طالب وله من العمر ستُّ وثمانون سنة⁽²⁾. واشتدّ له جزعه، وأمر علياً بتغسيله وتوكفينه، ثم مشى بين يدي سريره، وجعل يعرض له ويقول: «وصلتك رحم، وجزيت خيراً»⁽³⁾.

2. وفاة السيدة خديجة:

ثم توفيت السيدة خديجة عليها السلام بعده بثلاثة أيام⁽⁴⁾، أو قبله بخمس وثلاثين ليلة في شهر رمضان سنة عشرة من النبوة⁽⁵⁾. ولما توفيت خديجة، جعلت فاطمة تتعلق برسول الله، وهي تبكي وتقول: «أين أمي؟ أين أمي؟». فنزل جبرئيل وقال: «قل لفاطمة: إن الله تعالى بنى لأمك بيّنا في الجنة من قصب، لا نصب فيه ولا صخب»⁽⁶⁾. دفنتها رسول الله بالحجون، ونزل في حفرتها⁽⁷⁾.

(1) محمد آبادي، حسن الميرجهاني، مصباح البلاغة في مشكاة الصياغة، ل.د، 1388هـ، ل.ط، ص566.

(2) الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص52، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص330 ، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج1، ص35.

(3) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج2، ص28-29.

(4) وقيل: بشهر واحد، راجع: ابن كثير، البداية والنهاية، ج3، ص127، الحلبى، السيرة الحلبية، ج1، ص346، المسعودى، علي بن الحسين، التنبىء والإشراف، دار صعب، بيروت، لبنان، ل.ت، ص200. وقيل: توفيت قبله بخمس وثلاثين ليلة، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج1، ص171.

(5) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، مصدر سابق، ص53.

(6) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج2، ص28-29.

(7) الأربلي، علي بن عيسى، كشف الغمة، دار الأضواء، بيروت، لبنان، 1985م، ط2، ج2، ص139.

وبوفاة خديجة التي كانت له وزير صدق على الإسلام يشكوا إليها، ووفاة عمّه أبي طالب الذي كان له عضًّا وحرزاً في أمره، ومنعة وناصرًا على قومه، اجتمع بذلك على رسول الله حزنان حتّى عُرف ذلك فيه، وسمّي ذلك العام عام الحزن⁽¹⁾.

وهنا، استشعرت قريش الضعف في جهة النبي، فعادت تحاول إلحاق الأذى به، وأخذت تضيق عليه الخناق، واشتدّت أذيّتها له، فاضطُرَّ إلى البحث عن حلول جديدة من أجل فتح الآفاق أمام الدعوة، وإخراجها من محاصرة قريش.

هجرة النبي ﷺ إلى الطائف

خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف⁽²⁾ من أجل أن ينشر دعوته فيها، ويجد فيها النصر والمؤازرة والمنعة من قومه، وكان يرافقه في هذه الهجرة عليٌّ رضي الله عنه وزيد بن حارثة. وكانت هذه الرحلة بداية جديدة في سياساته في الدعوة إلى الدين الحنيف. ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، فجلس إليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام، والقيام معه على من خالفه من قومه. ولكنّهم بدلًا من أن يقبلوا دعوته، أغروا به سفهاءهم وعيدهم، فأخذوا يصيرون به ويسبّونه، ولولا الإمام عليٌّ رضي الله عنه الذي دافع عنه، لأصابه منهم أذىً كبيرًا⁽³⁾.

ثم عاد رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة، وقد غاب ﷺ عن مكة في هذه الهجرة أربعين يومًا⁽⁴⁾. وتكشف هذه الهجرة عن أنّ توجّه النبي ﷺ إلى الطائف بعد إعراض

(1) الشيخ الطوسي، الأمالي، ص259، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص317؛ ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج1، ص173، للتوسيع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج3، ص358.

(2) تقع الطائف على بعد سبعين كيلو متراً تقريباً من مكة، وكانت موطنًا لقبيلة من قبائل هوازن، وهي ثقيف.

(3) الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص80.

(4) العياشي، تفسير العياشي، ج1، ص257. الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص172.

أهل مكّة عنه، دليل على حرص النبي ﷺ على هداية الناس، واستمراره في دعوته للإسلام، وعدم اليأس من استجابة الناس.

ثم إنّ هجرته ﷺ إلى الطائف لم تتحقّق إمكانية فتح منفذ للدعوة في قبيلة ثقيف، حيث رفضت ثقيف الانسياق مع دعوة النبي ﷺ بسبب علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية مع قريش، أو كان رفضهم بسبب عدم رغبتهم في التخلّي عن آلهتهم في الوقت الذي كانت فيه قريش تعاند محمّداً في الدفاع عن آلهتها، ومعنى تخلّيهم قد يكون بنظرهم بقاء قريش سيدة الأصنام دونهم.

لقد كانت رحلة الطائف المحاولة الأخيرة للخروج من مكّة من دون ضمانة أكيدة. ولذلك فقد دأب على الاتّصال بالقبائل خلال موسم الحجّ. وبهذه الطريقة فشا أمر الإسلام، وانتشرت أخباره في أنحاء شبه جزيرة العرب، إلى أن التقى صدفة خلال تكراره الاتّصال بقبائل العرب ببعض أهل يثرب من الأوس والخزرج كما سيأتي^(١).

(١) للتوضّع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملـي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٤، ص ٧٣.

المفاهيم الرئيسية

- كان الحمزة أحد وجهاء قريش، وكان لإسلامه أثر نوعي في تقوية جانب النبي ﷺ على جانب قريش.
- لقد استخدمت قريش كل الوسائل في محاربة النبي ﷺ حتى وصلت بها الأمور إلى إعلان المقاطعة الشاملة والكاملة لكل المسلمين كما في حصار الشعب.
- لقد كان بدء الحصار في الشعب متزامناً مع بداية الهجرة للخشنة، وقد استمرّ مدة أربع سنوات تقريباً.
- بعد إعلان المقاطعة جمع أبو طالب بنى هاشم، وأعلن أمم الجميع دفاعه المستميت عن رسول الله ﷺ.
- خلال الحصار عمل الإمام علي عليه السلام على محاولة جلب الطعام والشراب خفية من دون معرفة قريش بذلك، وكان يفعل ذلك أيضاً أبو العاص بن الربيع.
- انتهى حصار الشعب بعد أن أبلغ الوحي رسول الله ﷺ بأن الله سلط على صحيفه قريش الأرض، فأخبر أبو طالب قريشاً بذلك، فتبين لهم صدق دعوى النبي ﷺ، ففكوا عنهم الحصار.
- لم ينقطع النبي ﷺ عن دعوته رغم الحصار، فقد نزل عليه الوحي بإذار العشيرة، فجمع كل بنى هاشم لدعوتهم إلى الإسلام، ثم قرن دعوته بإعلان الإمام علي عليه السلام خليفة له.
- في أواخر السنة العاشرة للبعثة توفي أبو طالب، ثم توفيت السيدة خديجة عليهما السلام، فحزن رسول الله ﷺ كثيراً، وسمى هذا العام «عام الحزن».
- سعى رسول الله ﷺ لنشر دعوته خارج مكة، لعله يجد مكاناً يكمل فيه دعوته، فخرج إلى الطائف إلا أنهم لم يقبلوا بهذه الدعوة، بل آذوا رسول الله ﷺ، فعاد إلى مكة من دون أن تتحقق تلك الرحلة الهدف في تأمين مكان آخر للدعوة الإسلامية.

الدرس الثامن

يُثْرِبُ قَاعِدَةَ تَأْبِيَّيْنِ الْوَلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

أَهْدَافُ الدَّرْسِ

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يحلّ ظروف وأسباب الهجرة إلى يثرب.
2. يعرف الخطوات التي بذلها النبي ﷺ لتوحيد الأوس والخزرج تحت راية الإسلام.
3. يشرح معنى البيعة وأثارها على قوّة الإسلام ومنعنه.

تمهيد

بعد ثلات عشرة سنة منبعثة، وصل النبيٌّ مع قريش إلى طريق مسدود، فقد آمن من آمن منها، وبقي غيرهم على شركه وع纳ده. ولم يعد ممكناً الحصول من مكة على المزيد، فلم يبقَ من جدوى بعد في الصبر على الأذى والتحمُّل طالما أنه لا يوجد أمل في إيمان آخرين من قريش.

فبدأت مرحلة فجر الدعوة المكية بالأقوال، وأشرقت مرحلة الحفاظ على المكاسب الإيمانية التي حصلت، وإنقاذهَا من التدمير من قبل قريش، فلا بد من البحث عن مكان آمن تنتقل إليه الدعوة الإسلامية. وكانت مدينة يثرب من المدن التي يمكن أن يتطلع إليها رسول الله ﷺ؛ لوجود بعض المؤهلات التي يمكن من خلالها احتضان الإسلام والمسلمين فيها.

التعريف بمدينة يثرب

تعتبر مدينة يثرب من المدن التاريخية القديمة، ويرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد، وقد وجد في الآثار المكتشفة ورود اسم يثرب فيها، وكان يطلق عليها أثرب ويثرب⁽¹⁾.

تقع مدينة يثرب على بعد 400 كلم تقريباً إلى الشمال من مكة، في بسيط من الأرض مكشوف من سائر الجهات، في صرّة سبخة من الأرض، كثيرة المياه والشجرات والدوحات، وأقرب الجبال إليها من الشمال جبل أحد. وإلى الشرق من يثرب يقع بقيع

(1) الحموي، معجم البلدان، ج 7، ص 227، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 4، ص 128.

الغرقد، ويقع جبل عَيْر في جنوبها الغربي، وإلى الجنوب قرية قباء، وإلى الجنوب منها تقع قرية الفرغ، ووادي العقيق في ما بينها وبين الفرع⁽¹⁾.

وقد ورد اسم «يُثْرَب» في القرآن الكريم عند تعرّضه لما ي قوله المنافقون بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۚ وَإِذْ قَاتَلَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَأْهَلُ لَيْثَرَبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجُعواً وَيَسْتَعْذِذُنَ فَرِيقٌ مِنْهُمُ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾⁽²⁾.

أسباب الهجرة إلى يُثْرَب

يمكننا تحديد بعض الأسباب التي دفعت رسول الله ﷺ لفتح آفاق جديدة للدعوة الإسلامية خارج مكة المكرمة، وهي:

1. قريش ترفض الإسلام: لقد سعى رسول الله ﷺ جاهداً إلى نشر الإسلام في مكة المكرمة، وكان حريصاً على هداية قريش والقبائل العربية المجاورة إلى الإسلام، إلا أن قريشاً رفضت الإسلام رفضاً قاطعاً، وواجهته بشتى الوسائل المتاحة، فلم يعد الناس يقبلون الإسلام في مكة، فلا بد من البحث عن مكان آخر لنشر الإسلام فيه.

2. أذية النبي ﷺ: عندما أعلن رسول الله ﷺ دعوته في مكة المكرمة، واجهته قريش بشتى الوسائل والأساليب، وتعرّض رسول الله ﷺ للابتلاء الشديد، والمحن العصبية، فقد آذاه قومه بكل أنواع الإيذاء، واستخدموا معه كل ما استطاعوا للقضاء على الإسلام.

3. أذية المسلمين: إن القاعدة الشعبية التي يرتكز عليها الإسلام تعرضت هي الأخرى لأشد وأقسى أنواع العذاب من قبل قريش، فها هم عائلة آل ياسر يمثلون نموذجاً على ذلك، فقد تعرضوا لأقسى أنواع العذاب من الضرب والإهانة، وشدة التعذيب، وغيرها.

(1) الحموي، معجم البلدان، ج 7، ص 227

(2) سورة الأحزاب، الآيات 12 و13.

لماذا اختار رسول الله ﷺ المدينة المنورة؟

1. مقومات الدولة في يُثرب:

إنّ مدينة يُثرب من المناطق التي تتوفّر فيها مقومات الدولة، من حيث الموقع الجغرافي، والموارد الطبيعية الكامنة فيها. فموقعها الجغرافي في وسط شبه الجزيرة العربية يوفر القدرة على الاتصال بجميع المناطق المحيطة بها في جميع الجهات. ومن جهة أخرى، قربها من مكة المكرمة، حيث توجد أقوى قوة تعادي رسول الله ﷺ، مما يسمح للنبي ﷺ بديمومة المرابطة لكلّ تحركات قريش داخل الجزيرة العربية، وارتباطها بالقبائل الأخرى.

إضافة إلى ذلك، فإنّ المدينة المنورة تتوافر فيها الموارد الطبيعية التي تسمح بتأمين مصادر العيش والحياة؛ فأرضها تصلح للزراعة، وبالتالي فتح مجال للتجارة والبيع، مما يؤمّن للمسلمين موارد الحياة المادية والمالية، وهي مناسبة جدًا للحياة، فأرضها ليست صخرية وجبلية، وليس صحراءً أيضًا، وهذا يساعد على إنشاء الدولة الإسلامية المرتقة.

2. السلطة السياسية:

إنّ تركيبة المدينة المنورة السياسية كانت لا تسمح بوجود قوة سياسية يمكن أن تواجه النبي ﷺ في تحركاته ودعوته. فالمدينة فيها الأوس والخزرج، وهما قبيلتان عربيتان متناحرتان، وفيها اليهود الذين يفتقدون السلطة السياسية في المدينة، وشغلهم الشاغل فقط التجارة، وإذكاء نار الفتنة بين الأوس والخزرج. هذا كلّه لا يؤهل أحداً للوقوف في وجه النبي ﷺ خلافاً لمكة التي ترتكز فيها قوة هي قريش.

3. البيئة الاجتماعية المساعدة:

إنّ الأجواء الاجتماعية التي كانت سائدة في المدينة المنورة بين الأوس والخزرج ساعدت النبي ﷺ على نشر دعوته بين هاتين القبيلتين بشكل سريع. فالإسلام يمنع التناحر والتباغض، ويرفع الظلم عن جميع أبناء المجتمع، وهذا كلّه كان مفقوداً عند

هاتين القبيلتين. ولذا دخل الإسلام سريعاً إلى يثرب، وانتشر فيها كما سيأتي، وهذا كلّه يساعد رسول الله ﷺ على تأسيس دولته في مدينة يثرب.

بداية دخول الإسلام إلى يثرب

كانت الحرب سجالاً بين الأوس والخزرج، وكانت قريش تمرّ على يثرب في طريقها التجاري إلى بلاد الشام. ولا شكّ في أنّ شعوراً بوجوب رد الجميل إلى قريش دفع بقبيلة الأوس إلى أن تبحث عن حليف عسكريٍّ لها في قريش ضدّ أختها الخزرج، فأرسلت الأوس وفداً بقيادة أنس بن رافع، فيه أبياس بن معاذ لطلب الحلف مع قريش ضدّ قومهم من الخزرج، ولكنَّ فألهم خاب من جهة، إذ لم تكن قريش لتدخل في هذه الأحلاف، وهي تحتاج إلى أمن قواقلها، وخاب من جهة أخرى، فقد ذهب الأوس يطلبون ناراً فعادوا بالإسلام، إذ سمع بهم رسول الله، فأتاهم وجلس إليهم، وعرض عليهم الإسلام، فأسلم أبياس بن معاذ، وطلب من الوفد أن يقتنص الفرصة فأبوا ذلك⁽¹⁾، ويظهر أنَّ هذا الوفد لم يشكّل بداية لانتشار الإسلام في يثرب.

ثمَّ شبَّت نار العداوة ثانية بين الأوس والخزرج، ولكنَّ هذه المرة تميَّزت بموقف غير طبيعيٍّ، ولا يتناسب مع طبائع الجاهليَّة. فقد رفض عبد الله بن أبي سلول، شيخ الخزرج، موقف قبيلته، وعدُّها ظالمة في حربها مع الأوس، وأعلنَّ أنه لن يشارك في هذه الحرب لأنَّ الخزرج ظالمة. فنشبت الحرب بينهما، وعرفت بحرب بعاث، انتصرت فيها الأوس، ولكنَّها حفظت له موقفه، فأصبح عزيزاً عند الأوس، ونشأت فكرة تكريمه بتنصيبه زعيماً على يثرب، وابتدائت إجراءات التنصيب.

في تلك المرحلة، خرج أسعد بن زرار، وذكوان بن عبد القيس الخزرجيان في أحد المواسم، يسألان قريشاً الحلف بينهم على الأوس، إلا أنَّهما فشلا في تحقيق ذلك. فقريش تحتاج إلى إيلاف مع الجميع لصون طريقها التجاري، ولا تغامر في الدخول في أتون الصراعات القبلية، فقد كانت تجارتها هي التي تحدد سياستها.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 1، ص 428.

وكان هذا الوفد قد وصل إلى مكة في أيام العمرة في رجب، في آخر سنوات الحصار في الشعب، وهي السنة العاشرة للبعثة. وكان رسول الله وبنو هاشم يغادرون منطقة الشعب حيث حاصرتهم قريش للطواف بالبيت، والاتصال بالوفود والتجار القادمين. كان النبي قد خرج مع مجموعة من بنى هاشم ليشهدوا الموسم، وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم كالنضير، وقريظة، وقينقاع أن هذا أوان نبي يخرج بمكة؛ يكون مهاجره إلى المدينة، لقتلهم به يا عشر العرب. فلما سمع أسعد بأخبار ظهور النبي ﷺ، وقع في قلبه ما كان قد سمعه من اليهود، فقال: «فَأَيْنَ هُو؟». دخل أسعد المسجد، وقد حشا أدنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول الله جالس في الحجر مع قوم من بنى هاشم، فنظر إليه نظرة فجازه. ولما كان في الشوط الثاني قال لرسول الله: «أَنْعَمْ صَبَاحًا». فرفع رسول الله رأسه إليه، وقال: «قد أبدلنا الله به ما هو أحسن من هذا تحية أهل الجنة: السلام عليكم».

فقال له أسعد: «إِنْ عَهْدَكَ بِهَا لِقَرِيبٍ، إِلَّا تَدْعُونِي مَحْمَدًا؟».

قال ﷺ: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأتي رسول الله، وأدعوكم إلى: ﴿فَلَّتَعَالَوْا أَتُلُّ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَلَا تَقْتُلُوا أُولَئِكُمْ مِنْ إِمْلَاقِنَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفَسَ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا بِالْقِسْطِ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشْدَهُ وَأَوْفُوا الْكَيْمَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَأَعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَنْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَدَكَّرُونَ﴾^(١).

فلما سمع أسعد بهذا، قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك رسول الله»^(٢). ثم رجع إلى المدينة، وكانت هنا البداية في انتشار الدعوة الإسلامية في مدينة يثرب.

(١) سورة الأنعام، الآيات 151 - 152.

(٢) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 9، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص 58، ابن هشام، السيرة النبوية ج 2، ص 77-80.

وإن كان هذا الوفد قد فشل في الحصول على حلف مع قريش، لكنه نجح في الحصول على نور الهدى، وعاد إلى يثرب وهو يحمل من دون أن يعلم مشروعًا لا يتناسب مع طموحات عبد الله بن أبي في الرعامة، ولم يخطر ببال أسعد وذكوان أنَّ طريقًا جديًّا قد فتحاه أمام الدعوة النبوية.

اللقاء الأول للخرج بالنبي ﷺ في موسم العمرة

في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية، وفي موسم الحج، ظهر أنَّ البذرة الصالحة لأسعد بن زراة قد نبتت في أرض يثرب المتلهفة للهدي والطمأنينة والخلاص، فعاد مع خمسة من الخرج الذين التقوا بخاتم النبيين في مِنْيٍ؛ حيث كان رسول الله ﷺ يعرض على القبائل دعوته، ويطلب منهم نصرته. فالتقى بهم في العقبة، وكانوا ستة رجال: أسعد بن زراة، وجابر بن عبد الله بن رئاب، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وعقبة وقطبة ابنا عامر. ويبدو أنَّ أسعد بن زراة كان قد كتم إسلامه هو وذكوان، وجاءا بالآخرين من الخرج وهما يخفيان عليهم إسلامهما، ثمَّ رتبوا اللقاء بينهم وبين رسول الله ﷺ، حتى يظهر كأنه وقع صدفة من دون إعداد مسبق. فقال لهم رسول الله ﷺ: «أفلا تجلسون أحدهم؟». قالوا: «بلى!»، فجلسوا إليه، ودعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: «والله إنَّه للنبي الذي كان يوعدكم به اليهود، فلا تسبقونَّكم إليه»، فصدقواه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا له: «إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ مثل ما بينهم، فحسى أن يجمع الله بينهم بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله بك فلا رجلاً أعزَّ منك»⁽¹⁾. ثمَّ انصرفوا عن رسول الله، وانتهت موسم الحج، وقفوا راجعين إلى قومهم في يثرب.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 77. الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 58، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 9. للتتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملـي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 4، ص 117.

البيعة والقاعدة الشعبية المناصرة

بعد أن دخل الإسلام إلى مدينة يُثْرِبُ وانتشر فيها، اعتمد رسول الله ﷺ على خطوة ثانية في تلك المرحلة. كانت هذه الخطوة ضرورية من أجل حماية الدعوة الإسلامية الناشئة. وقد تمثلت هذه الخطوة بأخذ البيعة من المسلمين في مدينة يُثْرِبُ، وكان رسول الله ﷺ يهدف من خلال ذلك إلى تأمين القاعدة الشعبية المناصرة له، والتي تستطيع أن تحمي دعوته المباركة، وتكون تلك الفئة الملجأ الذي سوف يتجه إليه المسلمون في وقت لاحق. وقد نجح رسول الله ﷺ في تحقيق هذه الخطوة من خلال عقد بيعتين مع الأنصار، هما:

١. بيعة العقبة الأولى:

في السنة الثانية عشرة منبعثة، وفى الموسم اثنا عشر رجلاً؛ اثنان منهم أوسيان، والباقيون من الخزرج. فالتقوا مع الرسول ﷺ في العقبة، وبابيعوه: «على أن لا يشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا بهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف، فإن وفوا فلهم الجنة، وإن غشوا من ذلك شيئاً فأمرهم إلى الله عز وجل، إن شاء عذب، وإن شاء غفر». وسميت هذه البيعة بيعة النساء؛ لأنها لم تشمل البيعة على الحرب.

ولما رجعوا إلى يُثْرِبُ، أرسل النبي ﷺ معهم مصعب بن عمير ليقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وألحق به ابن أم مكتوم^(١).

انتشار الإسلام في يُثْرِبُ بين البيعتين

نجح مصعب بن عمير، ومن معه ممن أسلم، في الدعوة إلى الله تعالى في أوساط أهل يُثْرِبُ، فما بقي دار من دور عمرو بن عوف في ذلك اليوم، إلا وفيه مسلم أو مسلمة.

(١) دحلان، السيرة النبوية، ج ١، ص ١٥١، الحلبـي، السيرة الحلبـية، ج ٢، ص ٩، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملـي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٤، ص ١٢٧.

وهكذا، أقام مصعب بن عمير في يثرب يدعو الناس إلى الإسلام، وكان يخرج في كل يوم يطوف فيه على مجالس الخزرج يدعوهم إلى الإسلام، حتى شاع الإسلام فيها وكثير، وأسلم الرجال والنساء، ودخل في الإسلام أشراف الأوس والخرج، وذلك لما عندهم من أخبار اليهود، باستثناء جماعة من الأوس⁽¹⁾.

عاد مصعب بن عمير إلى مكة في موسم الحجّ في السنة الثالثة عشرة للبعثة، وقد تقريره إلى النبي؛ فسرّ النبي بذلك سروراً عظيماً⁽²⁾. وكان قد أتى من يثرب إلى الموسم في هذا العام عدد كبير من أهلها، قدّروا بخمسين، بين مسلم ومشرك، وكان المسلمون ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين⁽³⁾.

2. بيعة العقبة الثانية:

في الموسم القادم، خرج جمّعٌ من الأوس والخرج وقدموا مكة، وكان أكثرهم مشركين على دينهم، وفيهم عبد الله بن أبي بن سلول، وفيهم ممّن أسلم بشر كثيرون جاؤوا مع حجاج قومهم. وكان رسول الله ﷺ نازلاً في دار عبد المطلب، في مني في أيام موسم الحجّ، ومعه عليّ رضي الله عنه وحمزة. فجاءهم رسول الله وتوعّد معهم على اللقاء في دار عبد المطلب في العقبة، في أواسط أيام التشريق ليلاً؛ إذا هدأت الرّجل، حتى إذا انكشف أمرهم، فإنّهم يكونون قد أتمّوا حجّهم، ويستطيعون مغادرة مكة من دون أن يستطيع أحد الضغط عليهم، وأمرهم أن لا ينتبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً حتى لا يلاحظ أحد حركتهم، ويرتاب في أمرهم.

فلما حجّوا إلى مني، وناموا مع قومهم المشركين في رحالهم، حتى إذا مضى ثلث الليل أخذوا يتسلّلون إلى المكان المتفق عليه، وهناك وجدوا النبيّ بانتظارهم ومعه عليّ بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، فدخلوا الدار، ولمّا اجتمعوا كانوا

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 70-93. الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 90. ابن كثير، السيرة النبوية، ج 2، ص 184. الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج 2، ص 14. ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 181.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 12، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى بأعلام الهدى، ص 59.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، مصدر سابق، ص 149.

ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين⁽¹⁾.

وبعد أن عرف النبي إجابتهم، أراد أن ينتخب منهم اثنى عشر نقيباً، من أجل تنظيم علاقاته بهم، ووضعهم أمام المسؤولية دائمًا عبر هؤلاء الكفلاء، فقال لهم: «أخرجوا إليّ منكم اثنى عشر نقيباً يكفلون عليكم بذلك، كما أخذ موسى من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيباً»⁽²⁾. فأشار جبرئيل عليه السلام إليهم، يدلّ رسول الله عليه السلام عليهم واحداً واحداً. فقال لهم رسول الله عليه السلام: «أبايعكم كبيعة عيسى ابن مريم للحواريين، كفلاء على قومكم، على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم».

فبایعوه على أن يمنعوه وأهله ما يمنعون منه أنفسهم، وأهليهم وأولادهم، وأن يؤوووهم، وينصروهم، وعلى السمع والطاعة، والنفقة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يقولوا في الله، ولا يخافوا لومة لائم، وأن لا ينazuوا الأمر أهله⁽³⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، مصدر سابق، ج 1، ص 220.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 12، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 299، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 162، السيرة النبوية، ابن كثير، ج 2، ص 193، الحلبـي، السيرة الحلبـية، ج 2، ص 176.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 2، ص 7، مسند أحمد بن حنبل، ج 5، ص 314، النسائي، أحمد بن شعيب، سنن النسائي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1930م، ط 1، ج 7، ص 138 و 139، البخارـي، صحيح البخارـي، ج 4، ص 156، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 194، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 97، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 2، ص 204، مسلم، صحيح مسلم، ج 6، ص 16، للتـوسـعة حول المـوضـوعـ، راجـعـ: السيد جعـفر مـرتـضـى العـالـميـ، الصـحـيـحـ من سـيـرةـ النـبـيـ الأـعـظـمـ، ج 4، ص 133.

المفاهيم الرئيسية

- إن هنالك العديد من الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ إلى ترك مكة، وهي:
 - أ. أن قريشاً رفضت الدعوة الإسلامية بالكامل، ولم ترض بها أبداً.
 - ب. تعرض شخص النبي ﷺ للأذية المباشرة من قبل قريش.
 - ج. أن المسلمين قد تلقوا الكثير من الظلم والاضطهاد من قبل قريش.
- لقد اختار رسول الله ﷺ يثرب لأسباب عده، وهي:
 - أ. إن مدينة يثرب تتمتع بخصائص بيئية تتوفّر من خلالها مقومات قيام الدولة.
 - ب. إن يثرب لا تحكمها قوّة سياسية وازنة، بل حكم قبليٌ بين الأوس والخزرج.
 - ت. البيئة الاجتماعية خصوصاً مع رؤية التناحر بين قبيلتي الأوس والخزرج.
- لقد انتشر الإسلام في مدينة يثرب من خلال وفد من قبيلة الأوس حضر إلى مكة من أجل أن يبحث عن حلف عسكريٍ مع قريش، فالتقى بهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وببدأ بذلك انتشار الإسلام في مدينة يثرب.
- في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية التقى رسول الله ﷺ بوفد من قبيلة الخزرج، وهذا ما ساعد على توسيعة القاعدة الشعبية في يثرب.
- بعد أن أسس رسول الله ﷺ النواة الأولى في يثرب، بدأ في المرحلة الثانية، وهيأخذ البيعة من المسلمين الجدد فيها، فعقد معهم بيعة العقبة الأولى وبايعوا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وهي البيعة التي لا تشتمل على الحرب والقتال.
- بعد عقد بيعة العقبة الأولى انتشر الإسلام سريعاً في يثرب، فقد أوفد معهم رسول الله ﷺ مصعب بن عمير الذي بدأ ينشر الإسلام فيها مع من آمن من أهلها، فانتشر الإسلام، وذاع في يثرب حتى دخل اسم رسول الله ﷺ كلّ بيت من بيوتها.
- في السنة الثالثة عشرة للبعثة عقد رسول الله ﷺ مع وفد المسلمين من الأوس والخزرج بيعة العقبة الثانية. وكان رسول الله ﷺ قد تواعد معهم علىأخذ البيعة بعيداً عن أنظار قريش.

الدرس التاسع

الهجرة إلى يثرب

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف المؤامرة على حياة النبي ﷺ.
2. يتعرّف إلى دور الإمام علي بن أبي طالب في الهجرة إلى يثرب.
3. يفهم أسباب بناء النبي ﷺ لمسجد قبا وأهدافه.

تمهيد

قبل بيعة العقبة، لم يكن يؤذن لرسول الله ﷺ في الحرب وقتال المشركين بعد، وإنما كان يؤمر بالدعاء إلى الله، والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل المعتمدي. وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه، وبين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً، منهم: من هو بأرض الحبشة، ومنهم من هو بيتر. وأدركت قريش أنَّ محمداً لن يسكت، وسوف يستمر بدعوته خارج مكَّة المكرمة، وهذا سوف يؤلِّب القبائل العربية ضدها، فلا بد من اتخاذ خطوة نهائية اتجاهه. ولذا قررت قريش تصفية النبي ﷺ جسدياً، إلا أنَّ القدرة الإلهية حمت النبي ﷺ، فجاءه الإذن الإلهي بضرورة التوجُّه إلى يثرب وترك مكَّة، فهاجر النبي ﷺ، ثم هاجر بعده الإمام علي عليه السلام والفواتم.

وكان وصول النبي ﷺ إلى قبة بداية تأسيس بعض معالم الإسلام ببناء المسجد في قبة، وبيان مكانة الإمام علي عليه السلام، حتى وصل إلى يثرب مبشرًا ببداية مرحلة جديدة من دعوته المباركة.

هجرة المسلمين إلى يثرب

لما أذن الله تعالى للنبي ﷺ فيأخذ البيعة من المسلمين للحرب، وبابيعه الحيَّان من الأوس والخزرج على الإسلام، والنصرة له ولم ين تبعه، وأوى إليهم من المسلمين، أمر الله تعالى المستضعفين من المؤمنين في مكَّة؛ والذين كان يؤذينهم المشركون

في مكّة بالهجرة عنها⁽¹⁾، فنزل قوله سبحانه: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءاْمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ قَائِمَيْ فَاعْبُدُون﴾⁽²⁾، فقالوا: «كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار ولا عقار، ومن يطعمنا ومن يسقينا؟»، فنزل فيهم⁽³⁾ قوله سبحانه: ﴿وَكَأَيْنَ مِنْ دَآبَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽⁴⁾. ثم ختمت السورة توصيتها المسلمين بالصبر والجهاد، بقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهُوا فِينَا لَتَهْدِيهِمْ سُبْلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽⁵⁾. فأمر رسول الله أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه في مكّة من المسلمين، بالخروج إلى يثرب والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأوس والخرج، وقال لهم: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قد جعل لكم إخوانًا، ودارًا تأمنون بها»⁽⁶⁾.

فكان رسول الله يأمر من تعذّبه قريش بالخروج إلى يثرب، فأخذوا يتسلّلون رجالاً فرجالاً، فيصيرون إلى يثرب، فينزل لهم الأوس والخرج عليهم ويواسونهم. وكانوا يخرجون أرسلاً (جماعاً)، واتّبعهم المشركون فآذوه واعتقلوهم، فمنهم من نجا منهم من قتل. وأقام رسول الله في مكّة ينتظر أن يأذن له ربّه في الخروج منها والهجرة إلى يثرب⁽⁷⁾.

ولم يختلف في مكّة أحدٌ من المهاجرين إلا من حبس أو فتن، إلا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام والفواطم⁽⁸⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، ج 8، ص 455.

(2) سورة العنكبوت، الآية 56.

(3) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 455، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 28.

(4) سورة العنكبوت، الآية 60.

(5) سورة العنكبوت، الآية 69.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص 321.

(7) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 58، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 321.

(8) ابن كثير، السيرة النبوية، ج 2، ص 227، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملی، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 4، ص 168.

المؤامرة على حياة النبي ﷺ

قررت قريش اتخاذ قرار نهائي بشأن النبي، خصوصاً بعد موت أبي طالب، وفقدان الناصر للنبي ﷺ⁽¹⁾. فتدعى إلى الاجتماع في دار الندوة، فالتأم حلف لعقة الدم من بنى عبد شمس ونوفل وعبد الدار، ومن كان في حلفهم، واستثنوا من كان هواه مع محمد من بطون قريش.

وخرج من كل بطن أناس، وانطلق ذوو الطول والشرف من قريش إلى دار الندوة ليأتموا في رسول الله ﷺ، وأسرّوا ذلك في ما بينهم. وكان ممن حضر أبو سفيان وأبو لهب، ومعاوية، وأبو جهل، وعمرو بن العاص، وصفوان بن أمية، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وغيرهم⁽²⁾. فأخذوا مجلسهم وتشاوروا، وكانت أمامهم اقتراحات عدّة: المواجهة، أو النفي، أو الحبس، أو القتل. وبعد نقاش مطول، تم الاتفاق على التصفية الجسدية لرسول الله ﷺ، ولكن على أن تشارك في قتله كل البطون من قريش - وتم تعيين أشخاص القتلة - وبالتالي يضيع دمه بين القبائل، ولا يجرؤ بنو هاشم وحلفاؤهم على طلب دمه والثار له، وسوف يوافقون في النهاية على القبول بالديمة⁽³⁾.

التحضير للهجرة النبوية وإيثار الإمام على ﷺ

بعد مكر قريش وتخطيطها لقتل النبي ﷺ، نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ بما كان من كيدهم، وأخبره الخبر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾⁽⁴⁾. ثم جاءه بأمر من الله في ذلك

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي 2 ص39، الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج2، ص25.

(2) ابن شبة النميري، عمر بن شبة، تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، دار الفكر، قم، إيران، 1410هـ ل.ط، ج.3، ص1138، الشيخ الصدوق، الخصال، ص366. القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ص356، الشيخ المفيد، محمد بن محمد، الاختصاص، تحقيق: علي أكبر الغفاري - السيد محمود الزرندي، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط2، ص165، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج19، ص28.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص332، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج1، ص273، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك ، ج2، ص68، ابن كثير، البداية والنهاية، ج2، ص229، للتوضيح حول الموضوع، راجع: السيد جعفر متضي العاملية، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج4، ص179.

(4) سورة الأنفال، الآية 30.

ووحيه، وما عزم له من الهجرة، ثم إن النبي ﷺ منع من بقي من أصحابه ولم يهاجر بعد من الخروج من داره في تلك الليلة⁽¹⁾. ثم دعا علياً بن أبي طالب عليهما السلام لوقته، فقال له: «يا علي، إن الروح هبط عليّ يخبرني أن قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلني، وإنَّ أُوحى إليّ عن ربِّي عزَّ وجلَّ أنَّ أهجر دار قومي، وأنْ أنطلق إلى غار ثور تحت ليتي، وإنَّ أُمرني أنَّ آمرك بالمبيت على مضجعي لتخفى بمبيتك عليهم أثري، فما أنت صانع؟».

فقال علي عليهما السلام: «أوَتَسْلَمْنَ بِمَبِيْتِي هُنَاكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ؟»، قال: «نعم».

فتباشم علي ضاحكاً، وأهوى إلى الأرض ساجداً شاكراً لما أنبأه به رسول الله من سلامته. فلما رفع علي عليهما السلام رأسه، قال لرسول الله: «امض بما أمرت، فداك سمعي وبصري، وسويداء قلبي، ومرني بما شئت، وإن توفيقك إلا بالله».

فقال له: «فارقد على فراشي، واشتمل ببردي الحضرمي، ثم إنني أخبرك، يا علي، أنَّ الله تعالى يمتحن أولياءه على قدر إيمانهم، ومنازلهم من دينه، فأشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، وقد امتحنك يا ابن عم، وامتحنني فيك بمثل ما امتحن به خليله إبراهيم والذبيح إسماعيل عليهما السلام، فصبراً صبراً، فإن رحمة الله قريبٌ من المحسنين».

ثم ضمه النبي ﷺ إلى صدره وبكي وجداً به، وبكي عليهما السلام لفارق رسول الله عليهما السلام. ولبث رسول الله بمكانه مع علي عليهما السلام، يوصيه ويأمره في ذلك بالصبر حتى صليا العشاءين⁽²⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 73، قطب الدين الراوندي، الخرائج والجرائم، ج 1 ص 144.

(2) الخوارزمي، المناقب، ص 73، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 133، أحمد بن حنبل، مسنده لأحمد، ج 1، ص 321، الحاكم الحسكتاني، عبيد الله بن أحمد، وشواهد التنزيل لقواعد التفضيل، تحقيق: الشيخ محمد باقر المحمودي، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران، 1990م، ط 1، ج 1، ص 99. الطبرى، تاريخ الأمم والملوک، ج 2، ص 100، النسائي، أحمد بن شعيب، تحقيق وتصحيح الأسانيد ووضع الفهارس: محمد هادي الأميني، خصائص أمير المؤمنين، مكتبة زينوى الحديثة، طهران، إيران، ل.ا.ت، ل.ط، ص 63، الهيثمي، مجمع الروايد ومنبع الفوائد، ج 9، ص 120، محب الدين الطبرى، ذخائر العقبي، ص 87، ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1415هـ ل.اط، ج 1، ص 186، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 4، ص 181.

فشل المؤامرة القرشية

لما أمسى الظلام، جاء الرصد من قريش؛ قد أطافوا بدار النبيٍّ ينتظرون أن ينتصف الليل، وتنام الأعين، ليدخلوا عليه. ونام عليٌّ عليه السلام في فراش النبيٍّ، واشتمل ببردٍ الحضرميٍّ، بينما كانت عيون الرصد من قريش تطوف بداره، وقد اجتمع القتلة في خارج الدار ينتظرون خروج النبيٍّ.

فجاء جبرئيل، وأخذ بيده رسول الله، فأخرجَه على قريش، وهو يقرأ هذه الآية:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبَصِّرُونَ﴾⁽¹⁾.

فمرّ رسول الله صلوات الله عليه وسلم من بينهم، ولم يشعروا به، ومضى وهم لا يرونَه، ووضع التراب على رؤوس المحاصرين لبيته⁽²⁾، وقال له جبرئيل: «خذ على طريق ثور»⁽³⁾، وكان ذلك في ليلة الخميس، أول ليلة من شهر ربيع الأول.

ثم أقبلوا يقذفون النائم - على أنه رسول الله صلوات الله عليه وسلم - بالحجارة، فجعل الإمام عليٌّ عليه السلام يتضور (أي يتلوى ويتقليب)، وقد لفَ رأسه في الثوب لا يخرجَه حتى أصبح، وهم يرون ولا يشكُّون أنه النبي صلوات الله عليه وسلم، حتى إذا برق الفجر، وأشفقوا أن يفضحهم الصبح، قال لهم قائل منهم: «خبتم وخسرتُم، قد والله مرّ بكم، فما منكم رجل إلا وقد جعل على رأسه تراباً!». قالوا: «والله ما أبصرناه!»، ثم هجموا، فلما بصر بهم عليٌّ عليه السلام قد انتضوا السيوف وأقبلوا عليه، شدّ عليهم عليٌّ عليه السلام، فأجفلوا أمامه وتبعصوه، فإذا هو على عليه السلام، ثم تركوه، وتفرقوا في طلب رسول الله⁽⁴⁾.

(1) سورة يس، الآية 9.

(2) أحمد بن حنبل، مسنون أحمد، ج 3، ص 103، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص 21.

(3) وهو جبل على طريق مني له سنام كستان الثور، راجع: علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 277، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 61.

الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 61، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص 335.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 3، ص 21 - 25، أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2001، ط 1، ج 2، ص 118 - 122، الطبرسي، تاريخ الأدم والملوك، ج 2، ص 102، الشيخ الطوسي، الأمالي، ج 2، ص 446، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 2، ص 127، السهيلي، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ج 2، ص 245، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 4، ص 272، البخاري، صحيح البخاري، ج 1، ص 184، النسائي، سنن النسائي، ج 2، ص 92، أحمد بن حنبل، مسنون أحمد، ج 3، ص 103، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملاني، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 4، ص 182.

الهجرة النبوية

1. طريق الهجرة:

خرجت قريش في طلب رسول الله ﷺ ورصدت عليه العيون، وكان فيهم رجلٌ من خزاعة، يقال له أبو كرز، يقفو الآثار، فقالوا له: «يا أبا كرز اليوم اليوم!»، فوقف بهم على حجرة رسول الله، فقال: «هذه قدم محمد، والله إنّها لأخت القدم التي في المقام⁽¹⁾». فما زال بهم حتّى أوقفهم على باب الغار، حيث كانت العنكبوت قد نسجت على باب الغار، وباضت في مدخله حمامنة وحشية⁽²⁾، فاستدلو من ذلك على أنَّ الغار مهجور، لم يدخله أحد، وإنّما لتخرق النسج، وتكسر البيض، ولم تستقرُّ الحمامنة الوحشية على بابه.

وأمهل أمير المؤمنين عלי بن أبي طالب رضي الله عنه إلى الليلة القادمة؛ فانطلق تحت جنح الظلام هو وهند بن أبي هالة حتّى دخلاً الغار على رسول الله ﷺ، ثمّ مكث رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، فكان علي عالي يأتيه بالطعام والشراب⁽³⁾.

2. الانطلاق نحو يثرب:

في ليلة يوم الأحد، الرابع من شهر ربيع الأول، انطلق النبي ﷺ إلى يثرب بعد أن استتر في الغار ثلاثة أيام، وكان وجوده فيه سرياً⁽⁴⁾، فأخذ به ابن أريقط، وكانت قريش قد جعلت لمن يأخذ رسول الله مئة من الإبل، فلحق سراقة برسول الله، طالباً غرته ليحظى بذلك عند قريش.

(1) مقام إبراهيم، وهي قدمه، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج 19، ص 51.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 61، ص 147، قطب الدين الرواندي، في الخرائق والجرائم، ج 1، ص 44، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 181 و 182، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 228، الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 374، الشيخ الطوسي، الأimalي ج 2، ص 61، وص 78.

(3) تاريخ الخميس، ج 1، ص 328. الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 374، الشيخ الطوسي، الأimalي، ص 469، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 62، السمهودي، علي بن أحمد المصري، وفاة الوفاء، ج 1، ص 237، الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 1، ص 570، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 131.

(4) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 190، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 84.

حتى إذا أمكنته الفرصة في نفسه، وأيقن أن قد ظفر ببغيته، قال رسول الله: «اللهم اكفي شر سراقة بما شئت»، فارتطم فرسه في الأرض وساحت قوائمه حتى تغيبت بأجمعها في الأرض، وحاول ذلك مراراً، وفي كل مرة ترطم قوائم فرسه حتى تغيب في الأرض، فرجع عنه.

فلما كان من الغد وافته قريش، فسألته عن رسول الله ﷺ. قال: «... قد نفست هذه الناحية لكم، ولم أر أحداً ولا أثراً، فارجعوا فقد كفيتكم ما ها هنا»⁽¹⁾.

3. على مشارف يثرب:

استمر النبي في هجرته حتى اقترب من يثرب. وكان أناس من المهاجرين قد قدموه على بنى عمرو بن عوف قبل قدوم رسول الله فنزلوا فيه، فنزل رسول الله ﷺ عندهم أيضاً. وفى رسول الله ﷺ ونزل في قباء مع زوال شمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، فصلى الظهر ركعتين⁽²⁾. ورفض رسول الله ﷺ دخول المدينة، قائلاً: «لست أريم حتى يقدم ابن عمِي، وأخي في الله عز وجل، وأحب أهل بيتي إلى فقد وقاني بنفسه من المشركين!».

وبقي رسول الله ﷺ ينتظر علياً عليه السلام، ويقول: «إني أنتظر علي بن أبي طالب وقد أمرته أن يلحقني، ولست مستوطناً منزلاً حتى يقدم علي، وما أسرعه، إن شاء الله»⁽³⁾. وانتشر في المدينة خبر وصول النبي ﷺ إلى قباء، وأنه سوف يمكث هناك بانتظار أخيه ووصيه علي بن أبي طالب، فاندفع المسلمون وأهلوهم ومنتبعهم يزورونه في قباء ويسلامون عليه، ويترشّرون برؤيته زرافات ووحداناً.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 219، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص 24 - 64، قطب الدين الرواندي، الخرائق والجرائح، ج 1، ص 145، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 4، ص 273.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 280، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 104.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 280، ابن الصباغ المالكي، علي بن محمد، الفصول المهمة، تحقيق: سامي الغريري، دار الحديث، قم، إيران، 1422هـ ط 1، ج 1، ص 35. الشيخ الطوسي، الأimalي، ص 83. الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص 66، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 64، ص 75، ص 106، ص 115.

هجرة علي بن أبي طالب ﷺ

1. الإمام علي عليه السلام يؤدي الأمانة:

كانت قريش في الجاهلية تدعو رسول الله بـ«الأمين»، فكانت تستودعه و تستحفظه أموالها وأمتعتها. فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوة وعشياً: «من كان له قبل محمد أمانة أو وديعة؛ فليأت فلنؤدّ إليه أمانته»؛ فأدّى علي عليه السلام أماناته كلّها⁽¹⁾.

وقال له أيضاً: «فإذا قضيت ما أمرتك من أمر؛ فكن على أهبة الهجرة إلى الله ورسوله، وسر إلى لقodium كتابي عليك، ولا تلبث»⁽²⁾.

2. الهجرة إلى يثرب:

لما أتى علياً عليه السلام كتاب رسول الله ﷺ تهياً للخروج، وعزم على الهجرة، فآذن من كان معه من ضعفاء المؤمنين، وأمرهم أن يتسللوا ويتحفظوا إذا ملا الليل بطن الوادي إلى ذي طوى⁽³⁾، وخرج علي عليه السلام بفاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب، وبات ليله في طريقه. فلما أصبح علي عليه السلام توجّه نحو المدينة⁽⁴⁾، وجعل أبو واقد يسوق بالراوح فاعنفهم، فقال علي عليه السلام: «ارفق بالنسوة، أبا واقد! إنّهن من الصعائف». قال: «إنّي أخاف أن يدركنا الطلب». فقال علي عليه السلام: «أربع عليك، فإنّ رسول الله قال لي: يا علي، إنّهم لن يصلوا من الآن إلينك بأمر تكرهه».

ويبدو أنّ قريشاً علمت بخروجه مع الفواطم، فلما شارف ضجنان أدركه الطلب، وكانت مجموعة المطاردة ثمانية فوارس من قريش مستلئمين متلثمين، فحاولوا اعتراف القافلة، فتمكن الإمام علي عليه السلام من مواجهتهم، فهربوا إلى مكة.

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 190، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 57.

(2) الشيخ الطوسي، الأimalي، ص 300، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 63.

(3) الشيخ الطوسي، الأimalي، ص 84، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 64.

(4) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج 2، ص 59.

ثم سار لوجهه يجوب منزلًا بعد منزل لا يفتر عن ذكر الله، وكذلك الفواطم وغيرهن ممن صحبه، حتى قدم المدينة في أواخر شهر ربيع الأول⁽¹⁾.
وبلغ النبي ﷺ قدومه علیهم السلام فقال: «ادعوا لي علیا!»، فقيل: «يا رسول الله، لا يقدر أن يمشي!».

فأتاه ﷺ بنفسه، فلما رأه اعتنقه، وبكى رحمة لما بقدميه من الورم، وكانت تقطران دمًا، فقال علیه السلام: «يا علي، أنت أول هذه الأمة إيمانًا بالله ورسوله، وأولهم هجرة إلى الله ورسوله، وأخرهم عهداً برسوله، لا يحبك - والذى نفسي بيده - إلا مؤمن قد امتحن قلبه للإيمان، ولا يبغضك إلا منافق أو كافر»⁽²⁾، ونزل مع رسول الله عند كلثوم بن الهدم⁽³⁾.

المسجد الأول في الإسلام: «قباء»

بقي رسول الله ﷺ بعد قدوم علی يوماً أو يومين. وفي يوم الجمعة، أمره رسول الله ﷺ⁽⁴⁾ بأن يخط لبناء مسجد، فخط لمسجد قباء موضعًا، وهو المسجد الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَجُالٌ يُجْبَوْنَ أَنْ يَتَظَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾⁽⁵⁾. وكانت قبلته إلى بيت المقدس. فلما أسسه الرسول ﷺ استتم بنائه عمار بن ياسر⁽⁶⁾، وصلّى رسول الله ﷺ بهم في المسجد الجمعة ركعتين، وخطب خطبتيهن، ثم انطلق إلى يثرب⁽⁷⁾.

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 115، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 197.

(2) الشيخ الطوسي، الألماني، ص 83، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 64، ص 85، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 183.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 115، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 197، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر متضي العاملاني، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 4، ص 276.

(4) ابن شبة التميري، تاريخ المدينة، ج 1، ص 54.

(5) سورة التوبية، الآية 108.

(6) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص 143.

(7) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 338، الحلباني، السيرة الحلبية، ج 2، ص 59، ابن شبة التميري، تاريخ المدينة، ج 1، ص 68، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر متضي العاملاني، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 4، ص 324.

رسول الله ﷺ في يثرب

انطلق رسول الله ﷺ إلى المدينة على ناقته التي كان قد قدم عليها، يحْفَهُ أهلها المسلمين بالتكبير والتهليل، وعلى عاتِقَتِه لا يفارقه، يمشي بمشيه، ولا يمرّ النبي ﷺ ببطن من بطون الأنصار إلّا قاموا إليه يسألونه أن ينزل عليهم. وكان رؤوس الأوس والخزرج على رأس المستقبلين، وكلّ واحد منهم يرغب في أن ينزل رسول الله ﷺ في داره.

كما أنّ القاعدة القبلية، وقوّة الغنى والثروة وأهميّتها في تأسيس مراكز القوّة في العصر الجاهليّ، كانت تقضي بأن ينزل النبي ﷺ في بيته من بيوت رؤوس القوم ومتنفذّيه ومتربّيه. ولكنّ الله تعالى أراد أن يخلص نبيه من الإحراب، وأن يظهر دين الإسلام على حقيقته منذ اليوم الأوّل، وفي أدقّ الساعات واللحظات والمواقف، فتجسّدت إرادته تعالى في الموقف الحاسم الذي وقفه رسول الله ﷺ، قائلاً للناس، حاسماً الموقف: «خالوا سبيل الناقة؛ فإنّها مأمورة!».

وانطلقت الناقة بالنبي ﷺ وهو واضحٌ لها زمامها، حتّى إذا وارت داربني النجار بركت على مربد لغلامين يتيمين منهم - في الموضع الذي هو اليوم باب مسجد رسول الله الذي يصلّى عنده على الجنائز - فلماً بركت ولم ينزل رسول الله وثبت، فسارت غير بعيد، ثم التفت إلى خلفها، فرجعت إلى مبركها أوّل مرّة فبركت، ثم تحلّلت ورزمت ووضعت جرانها⁽¹⁾، وذلك بالقرب من باب أبي أيوب خالد بن يزيد الأنباري، أفقر رجل في المدينة⁽²⁾، يوم الجمعة عصراً، في الثلاثين من ربيع الأوّل أو الأوّل من ربيع الثاني، في إعلان من الله تعالى عن طبيعة دين الإسلام، وأنّه دين الفقراء والمستضعفين، وأنّ لا قيمة عنده للثروة والرئاسة والسلطة.

ثم نزل رسول الله ﷺ عن الناقة، فاجتمع عليه الناس، وعادوا يسألونه أن ينزل عليهم، ولكن أمّ أبي أيوب وثبت إلى الرجل، فحملته وأدخلته إلى منزلها، فلماً أكثروا عليه، قال رسول الله: «أين الرجل؟».

(1) أي تحركت وتثاقلّت ووضعت رقبتها على الأرض لتبرك فيه.

(2) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 121، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 185.

فقالوا: «أُمْ أَبِي أَيُّوب قد أدخلته بيتها»، فقال: «المرء مع رحله». وهكذا، نزل النبي ﷺ وعليه السلام عند أبي أيوب الأنصاري، ومكثوا عنده شهراً، كان الأنصار خلاله يتناوبون في إرسال العشاء والغداء إليه، كما كان النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار خلال هذا الشهر يعملون في بناء المسجد النبوى، ومنازل النبي، ومنزل عليٍّ بجدٍ واجتهاد، ثم تحولاً بعد الفراغ من بناء البيوت إلى منازلهم. وأمّا بقية المهاجرين فقد تنافس فيهم الأنصار، فتوزعوا على بيوتهم⁽¹⁾.

(1) السمهودي، وفاء الوفاء، ج 1، 265، الحلي، السيرة الحلية، ج 2، ص 64، الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 280، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 4، ص 333.

المفاهيم الرئيسية

- أمر رسول الله ﷺ المسلمين بضرورة الهجرة إلى مدينة يثرب، فأخذوا يتسلّلون جماعات جماعات، وينزلون على المسلمين من الأوس والخزرج.
- اجتمع قريش في دار الندوة وقررت قتل النبي ﷺ غيلة، واتفقت على أن تشرك كلّ البطون في قتله؛ حتى يضيع دمه بين القبائل العربية، وبالتالي لا يستطيع بنو هاشم المطالبة بيته.
- أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ﷺ بمخطط قريش، فأبلغ رسول الله ﷺ الإمام علياً عليهما السلام بذلك، وطلب منه أن يبيت مكانه، قبل الإمام علي عليهما السلام بذلك بكل فخر واعتزاز، حتى باهى الله به الملائكة، ونزل فيه القرآن الكريم.
- حضرت قريش لتنفيذ مخططها، فانطلق رسول الله ﷺ أخذًا بيده جبرائيل عليهما السلام، وكان ذلك في الأول من شهر ربيع الأول. وبعد أن انتظرت قريش طويلاً دخلت إلى دار النبي ﷺ، فتفاجأت بأن النائم هو الإمام علي عليهما السلام، وعلمت بخروجه ﷺ من مكة.
- بعد أن نجا النبي ﷺ من قريش، سلك طريقه نحو يثرب، حتى وصل إلى الغار، فاستقرّ فيه ثلاثة أيام، وكان يأتيه الإمام علي عليهما السلام بالطعام والشراب. ثمّ بعد أن أمن طلب قريش، خرج إلى يثرب حتى وصل إلى منطقة قبا، فاستقرّ فيها منتظرًا قدوم الإمام علي عليهما السلام.
- ترك رسول الله ﷺ الإمام علي عليهما السلام في مكة، لكي يؤدي مهمته إيصال الأمانات إلى أهلها، وأخذ الفواطم معه إلى مدينة يثرب، ثم هاجر حتى وصل إلى قبا.
- بعد أن وصل الإمام علي عليهما السلام إلى يثرب قرر رسول الله ﷺ بناء أول مسجد في الإسلام (مسجد قبا)، وصلّى فيه الجمعة، واستكمل بناءه عمار بن ياسر، ثم انطلق إلى مدينة يثرب.
- وصل رسول الله ﷺ إلى يثرب، فاستقبله الناس بالفرح والسرور، وكان كلّ شخص يرغب في نزول النبي ﷺ عنده، حتى نزل عليهما السلام في دار أبي أيوب الأنباري.

الدرس العاشر

التنظيمات الأولى للدولة الإسلامية

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف لماذا اختار النبي ﷺ المسجد كمركز ومنطلق للقيادة.
2. يشرح الخطوات التي قام بها النبي ﷺ في بناء المجتمع الجديد.
3. يتعرّف إلى الأسس السياسية والعسكرية للدولة الإسلامية.

تمهيد

شكل وصول النبي ﷺ إلى مدينة يثرب حدثاً مهماً وحساساً في تاريخ شبه الجزيرة العربية عموماً، والتاريخ الإسلامي خصوصاً، فإن قدمه يعني بداية نشوء الدولة الإسلامية؛ لأن رسول الله ﷺ اعتبر أن الأرضية مهيأة تماماً لوضع بذور إنشاء الدولة الإسلامية، واعتبار مدينة يثرب عاصمة تلك الدولة.

وكان على رسول الله ﷺ أن يعمل على تأسيس معالم تلك الدولة وأسسها الدينية والاجتماعية، والسياسية، والعسكرية. لذا قام بتأسيس المسجد النبوي، وأخى بين المهاجرين والأنصار، وعقد اتفاقية المدينة بين المسلمين واليهود، لكي يضمن سلامة المدينة من الداخل، ثم تحول إلى بناء الدرع الحامي لوجود الدولة من خلال تأسيس الجيش الإسلامي في يثرب.

المسجد النبوي مركز قيادة الدولة

كان رسول الله ﷺ يصلي ب أصحابه في المربد⁽¹⁾، فسأل عن المربد، فأخبر أنه لسهل وسهيل، يتيمين لمعاذ بن عفرا من الخزرج في حجر أسد بن زرار. فقال لأسعد: «اشتر هذا المربد من أصحابه»، فاشتراه بعشرة دنانير. وكان فيه ماء مستنقع، فأمر به رسول الله فسيل، وأمر بالبن فضرب، وحفروا في الأرض، ثم أمر بالحجارة فنقلت إليه من الحرة (موقع الحجارة السود خارج المدينة)⁽²⁾، وشارك بنفسه في نقلها، الأمر الذي

(1) المربد: موضع نزول الإبل، وتجفيف التمور .

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 159، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص 338 .

دفع أصحابه إلى الدأب في العمل. ثم أمر النبي ﷺ ببناء المسجد، وعمل معه فيه المهاجرون والأنصار، وقد شاركت النساء ببناء المسجد أيضاً، وأخذ المسلمون يعملون ويرتجزون من أجل بث الحماسة والنشاط في ما بينهم، والنبي ﷺ يقول:

لَا عِيشَ إِلَّا عِيشَ الْآخِرَةِ

اللَّهُمَّ ارْحُمْ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

ثم بنيت بعض مساكنه وبيوته ملاصقة للمسجد، فانتقل من بيت أبي أيوب إليها^(١). كذلك ابتنى أصحابه مساكنهم حول المسجد، وكل قد شرع له إلى المسجد باباً. وهكذا، خرج إلى النور أول مركز للقيادة في الإسلام. ففي المسجد النبوي كانت تقام الصلوات، وتعقد الاجتماعات، وتستقبل الوفود، ويبت في أمور الحرب والسلم، ويفصل في الخصومات، وكان الناس يتلقّون في دينهم ويتعلمون ويتعارفون ويتصادقون، بل كانت تبت في أمور السلم وال الحرب، وكان منطلقاً للسرايا وعقد الرايات، وكان أيضاً مستشفى لمعالجة المصابين في الحرب.

معالجة أساس البناء الاجتماعي الداخلي

1. الوضع الاجتماعي في يثرب:

كان التكوين السكاني والديني في يثرب أحد أهم القضايا التي عمل النبي ﷺ على تركيزها، من أجل تجاوز نتائجها السيئة على الدعوة الجديدة. فقد كان الصراع الداخلي بين الأوس والخزرج يمزق وحدة المدينة، وكانت قبائل اليهود، على وحدتها الدينية، ممزقة ومحاربة، وكانت يثرب ومحيطها ميداناً رحباً للفتن والحراب، والمشاكل الأمنية اليومية، ولم تكن في يثرب سلطة سياسية حتى تحاول ضبط الوضع الأمني، وتفرض نوعاً من القوانين العامة المشتركة التي يتوافق عليها الجميع.

(١) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٨٤، ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ١٣٨، السمهودي، وفاء الوفاء، ج ١، ص ٤٦٢، ج ٢، ص ٢٦٥، للتوضيح حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملی، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج ٥، ص ٧٧.

وفي الوضع الاقتصادي، وقع اختلال حاد في موازين الثروة لمصلحة اليهود دون العرب، ونشأ واقع اجتماعي متآزم، تولّد من شعور الأوس والخزرج بالاستغلال اليهودي لهم عن طريق الriba. كما أنّ عقبات اجتماعية جديدة وصلت مع الهجرة النبوية إلى يثرب، تمثلت في الشعور بالتفوق القرشي في الحجاز، والذي حمله المهاجرون معهم من مكة، وبقوا في يثرب تحت تأثيره. بالإضافة إلى شعورهم بنحو من الامتياز حيال الأنصار، فهم المسلمون الأوائل الذين سبقو إلى الإسلام، وواكبوا الدعوة الإسلامية منذ بدايتها، وهم الذين تعرضوا للتضييق والاضطهاد، وتركوا أوطانهم وديارهم، وهاجروا في سبيل الله^(١). مما انعكس على الوضع النفسي والمعنوي للأنصار في يثرب، فشعروا بهيمنة المهاجرين وتعاليهم عليهم، وأخذت تختبئ تحت الرماد عناصر الاختلاف والشقاق بين المهاجرين والأنصار.

وكانت القبائل المحيطة بيثرب، كبني جهينة وأسلم، مصدر خطر وقلق، والتي يمكن أن تسبب للمسلمين الكثير من المشاكل، كما يمكن أن تكون رأس جسر في المستقبل لنشاط معاد تدفع إليه قريش ضد المسلمين. وبالتالي يمكن أن يصبحوا مطمعاً لأوباش الأعراب وذؤبانهم، وهدفاً لغاراتهم وعدوانهم، استضعافاً لهم واستهتاراً بشأنهم.

2. خطوات رسول الله ﷺ في بناء المجتمع الجديد:

أمام هذا الواقع الاجتماعي المعقد، وهذه الخريطة السياسية ليثرب ومحيطها فجر الهجرة النبوية، كانت أمام النبي ﷺ أهداف عدّة، عليه أن يعمل على تحقيقها:

- أ. توحيد الأمة الإسلامية الناشئة، وبناء أواصر الأخوة، والحب، والثقة بين أفرادها من مهاجرين، وأوس، وخزرج، وبقية العرب المنتسبين إلى الدين الجديد.
- ب. الوصول بالعلاقات العامة في المدينة، بين المسلمين وغيرهم، وبين الآخرين أنفسهم، إلى أفضل حال من التهادن والمصالحة، ونبذ اللجوء إلى القوّة

(١) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج. 2، ص. 591 - 605

والعنف من خلال فرض نظام يتوافق عليه الجميع.

ج. بناء عوامل القوّة عند الأُمّة الإسلامية الجديدة على قلّتها، فإنّ القوى الجاهليّة التي تعيش في يثرب ومحيطها يمكن أن تتحول في أيّ ساعة إلى وحوش مفترسة.

3. توطيد الأواصر بين القوى الداخلية:

وبعد مدّة وجيزة، قدّرت بخمسة أشهر من هجرته إلى يثرب، بادر رسول الله ﷺ إلى الدخول في نسج علاقات إيجابية بين كلّ هذه القوى، كان عنوانها العام المؤاخاة، والمواعدة، ونحوًّا من المحالفات والمعاهدات، والتتوافق على مواثيق وعهود كسب بها الأخوة بين المهاجرين والأنصار، وشكّل جبهة إسلاميّة عامّة منهم. وإليك تفاصيل هذه الخطوات كلّها، وهي:

أ. المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

كان من أول آثار الهجرة انفصال المهاجرين عن عشائرهم وقبائلهم بصورة حقيقةً وعميقة، حتّى وقع الانفصال بينهم وبين أقرب المقربين إليهم من أهليهم وإخوانهم، وبعضهم كان أقرباؤهم ممّن أساء إليهم وأذاهم؛ فأمسوا في يثرب، وقد انقطعت علائقهم بذوي أرحامهم، وصاروا في مجتمع القبليّة والعشائرية والعصبيّة، لا عصبيّة لهم تحميهم وتصونهم. وهنا، جاءت الحكمة الإلهيّة لكي تسدّ هذا الفراغ، وتحلّ محلّ العصبيّة العشائرية أخيّة الإسلام الإيمانية.

وسوف يعالج النبي ﷺ بهذه الأخوة الإسلاميّة أيضًا، ما سينجم عن الشعور بالتفوق القرشي في الحجاز عند المهاجرين من هوّة بينهم وبين الأنصار. وقد آخى رسول الله بين أصحابه مرّتين:

الأولى: في مكة، أي قبل الهجرة بسنة تقريباً⁽¹⁾؛ حيث آخى رسول الله ﷺ أولاً بين المهاجرين أنفسهم. وكانت المؤاخاة بين كلٍّ ونظيره. وكانت خطوة تمهدية للمؤاخاة الكبرى بين المسلمين في يثرب.

الثانية: في يثرب، في السنة الأولى من هجرة رسول الله ﷺ والمسلمين إليها، وبعد مضي خمسة أو ثمانية أشهر على وصولهم، آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار⁽²⁾، فجعل لكل مهاجر أخيًّا من الأنصار، فلم يبقَ من المهاجرين أحدٌ إلا آخرٌ بينه وبين أنصاريًّا. ثم استمرت هذه المؤاخاة كلما ازداد عدد المهاجرين، فقد كان عدد الأنصار أكبر من عدد المهاجرين، وكان النبي ﷺ يؤاخِي بين الرجل ونظيره؛ وكان يلاحظ التناصح والتتشابه والتلاؤم بين الأشخاص⁽³⁾.

ولكنَّ هذه المؤاخاة لم تشمل التوارث، ولعلَّ توهمًا بشموليها حصل عند بعضهم، فنزلت سورة الأنفال التي تجعل الإرث لأولي الأرحام. وقيل إنَّها شملت التوارث ثم نسخ التوارث بالمؤاخاة بعد بدر⁽⁴⁾. وكانت المؤاخاة قبل بدر، ولم يكن بعد بدر مؤاخاة⁽⁵⁾.

ب. مؤاخاة النبي ﷺ مع علي بن أبي طالب

وبعد أن آخى رسول الله بين المسلمين، بقي الإمام علي بن أبي طالب بمفرده، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما تركتك لنفسي، أنت أخي وأنا أخوك، فإن ذكرك أحد، فقل: أنا عبد الله وأخو رسوله لا يدعها بعده إلا كذاب، والذي بعثني بالحق ما أخرتك إلا لنفسي، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبيٌّ بعدي، وأنت أخي ووارثي». ثم

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 1، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 4، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 1 ص 200، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 38، ص 330، ص 347، الحلبـي، السيرة الحلبـية، ج 2، ص 23، ص 102.

(2) الخوارزمي، المناقب، ج 1، ص 151، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 122، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 210، الحلبـي، السيرة الحلبـية، ج 2، ص 92.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 102، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 151، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 396.

(4) أحمد بن حنبل، مسنـد أـحمدـ، ج 1، ص 230، ابن عبد البر، الاستيعـابـ في ج 2، ص 460.

(5) البغدادـيـ، محمدـ بنـ حـبيبـ، المحـبرـ، مطبـعةـ الدـائـرةـ، 1361ـهـ لـاـطـ، ص 70.

أخذ بيده، وقال: «هذا أخي»⁽¹⁾، فآخى رسول الله ﷺ بين نفسه والإمام علي عليهما السلام⁽²⁾، فالإمام نفس النبي ﷺ⁽³⁾.

إساءة أساس النظام السياسي للدولة

تعتبر وثيقة المدينة من أقدم النصوص ذات الصلة بتأسيس مجتمع سياسي في العالم. وهي أقدم نص سياسي إسلامي، بنيت عليه العلاقة بين مواطني دولة الإسلام في يثرب. ويُطلق على هذا الدستور «وثيقة المدينة»، أو «الصحفية».

وقد اشتملت هذه الصحفة على ما يقرب من أربعين بندًا⁽⁴⁾. وفي قراءة دقيقة لبنود هذه الوثيقة، يمكن استخلاص الكثير من النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية، منها⁽⁵⁾:

1. قامت التجربة التأسيسية للدولة في الإسلام على أساس أن التعاقد الاجتماعي هو أساس بناء المجتمع المدني.
2. ينبغي توزيع مسؤوليات البناء والدفاع على أعضاء المجتمع السياسي، بصرف النظر عن ديانتهم ومعتقداتهم.
3. أقرّت وثيقة المدينة العقائد والثقافات والتقاليد والأعراف، وجمعتها في وجهة بناء الدولة، أي اعتمدت منها العناصر الإحيائية لمشروع الدولة.

(1) ابن قتيبة الدينوري، عبدالله بن مسلم، الإمامة والسياسة، تحقيق: علي شيري، انتشارات الشريفي الرضي، قم، إيران، 1413 هـ ط1، ج1، ص13.

(2) الحلباني، السيرة الحلبية، ج20، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج3، ص14، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج7، ص211.

(3) الشيخ الطوسي، الأمالى، ص587، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص28، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج5، ص77.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص147، الشيخ الكليني، الكافي، ج1، 336، ج2، ص666، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج2، ص47.

(5) وثيقة المدينة، دراسات في التأصيل الدستوري في الإسلام، مجموعة من المؤلفين (مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي)، بيروت، لبنان، 2014م، ط1، ص11.

4. اهتممت الوثيقة بتأسيس جهاز مركزي مستقل للقضاء والفصل بين الخصومات كعامل ردعٍ، ومنظومة لحماية الحقوق العامة والخاصة، وعلاج المشاكل الجنائية الاجتماعية.

5. حُصرت الكلمة الأخيرة في المشكلات السياسية والاجتماعية التي قد تنشأ بين اليهود والمسلمين عند النبي ﷺ.

6. حُصّنت صفوف المؤمنين، وأعطت امتيازاً للإيمان على الكفر، وأظهرت المسلمين أمام أعدائهم على أنهم قوة واحدة متماسكة ومتناصرة. فقد منعت المؤمنين من قتل مؤمن بكافر أو نصرة كافر على مؤمن.

7. جعلت مسؤولية دفع الظلم جماعية، فلا تنحصر في من وقع عليه الظلم.

إِرْسَاءُ أَسْسِ بَنَاءِ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لِلْدُولَةِ

1. أهداف السرايا:

في مرحلة الاستقرار الأولى في المدينة، بدأ النبي ﷺ بتطبيق أوليات سياساته الداعية، فقام بتشكيل القوة العسكرية الإسلامية، والتي كانت بنظام السرايا المختلفة العدد والمهام، وكانت لها أغراض مختلفة في الإستراتيجية النبوية:

أ. الاستطلاع: إن مهمّة بعضهم كانت استطلاع ومراقبة تحركات قوافل قريش التجارية في المنطقة، وحجمها وقوتها العسكرية، وطرق سيرها ومواعيدها.

ب. التأهيل العسكري: بما أنّ معظم المهاجرين لم يكونوا قد شهدوا حرباً أو شاركوا في قتال، فكان على النبي أن يبدأ بتأهيلهم وإعدادهم عسكرياً، وتدرíّبهم على القتال، وإعادة الثقة إلى نفوسهم؛ ليكونوا على استعداد لمواجهة قريش، وعتاه قبائل العرب، وليحملوا على عاتقهم لواء الإسلام.

ج. المعرفة الجغرافية: التعرّف على جغرافية المنطقة، جبالها وأوديتها وينابيعها وواحاتها.

د. تطويق القبائل العربية حول يثرب: لجأ النبي ﷺ إلى تطويق هذه القبائل، إما بالضغط عليها، أو باستخدام سياسة ودية إزاءها، والدخول معها في أنماط من التآلف، والمهادنة، والمواعدة، والتحالف مع عدد منها ضد قريش، وذلك في نطاق مراقبة مباشرة لتحركاتها واتصالاتها المختلفة.

وقد كانت هذه القبائل قوّة بشرية ومخزوناً استراتيجياً، تستطيع أن تصبح في يوم ما قوّة ضاربة تلعب دوراً كبيراً في تعديل الموازين السياسية والعسكرية. وبدلًا من أن تكون هذه القبائل، وهي على شركها وكفرها، إلى جانب قريش، فقد أصبحت بالسياسة النبوية محايده بين القطبين، أو أميل لمواعدة المسلمين والتعاطف معهم.

هـ. الضغط على قريش عبر محاصرتها والتضييق عليها: كانت يثرب تقع على طريق الشام، وهذا يعني بوضوح أنها يمكن أن تهدّد مصالح قريش الحيوية. فالنظام القائم في قريش نظام استهلاكي خدماتي، يفتقد الاكتفاء الذاتي، وإن تلك العظمة التي تحيط بها قريش نفسها بسبب قوتها الاقتصادية سوف تنهار سريعاً، وبالتالي سوف يتلاشى معها التأثير على القبائل المتألفة معها.

2. حصر المشاركة بالمهاجرين:

في هذه السرايا، حصر النبي ﷺ المشاركة بالمهاجرين، ولم يبعث أحداً من الأنصار حتى كانت بدر^(١). فقد كانت البيعة بينه وبين الأنصار على منعه كما يمنعون أنفسهم وأهليهم، فكان اتفاقه معهم دفاعياً فقط، فإذا هاجر إليهم، فإنهم سوف يدافعون عنه كما يدافعون عن أنفسهم، ولم يكن النبي ﷺ يريد توريطهم ودفعهم إلى القتال خارج يثرب؛ حتى لا يفتح ثغرة في جدار علاقة المهاجرين بالأنصار، يتسرّب منها المشركون والمنافقون واليهود، ويسيرون أنه جعل أهل يثرب وسيلة لمأربه وغاياته، بينما هو

(١) الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، تحقيق: الدكتور مارسدن جونس، الناشر: دانش إسلامي، 1405هـ / 2004م، ج 1، ص 9 - 10.

يحافظ على قومه من المهاجرين. ولذلك دفع النبي ﷺ المهاجرين إلى تشكيل السرايا الأولى، لكي يعلم أهل يثرب من الأنصار أنّ المهاجرين قد بادروا إلى التضحية والإقدام، فإذا ما سخت نفوس الأنصار فيما بعد؛ فإنّها تكون قد أقدمت مختارة على القتال وبكامل إرادتها.

3. نماذج من هذه السرايا:

إنّ السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ في مهمّات مختلفة ومتعددة، بلغت - مع اختلاف بين المؤرّخين - ما يقرب من ثلث وسبعين سرية، ونحن نذكر سريتين منها فقط، وهما:

أ. سرية الحمزة بن عبد المطلب:

جاءت قافلة قريش من الشام ت يريد مكة، وفيها أبو جهل في ثلاثة راكب، فعقد رسول الله لواءً لحمزة بن عبد المطلب، وكان أول لواء عقده بعد أن قدم المدينة⁽¹⁾، وبعثه إلى سيف البحر من ناحية العيص، في ثلاثين راكباً من المهاجرين فقط. فلقي أبا جهل بن هشام، وكان مجدي بن عمرو الجهنمي موادعاً للفريقيين فاحتجز بينهم⁽²⁾، ولم يزل يمشي إلى هؤلاء وإلى هؤلاء حتى انصرف القوم، وانصرف حمزة راجعاً إلى المدينة في أصحابه.

وكان من أهم آثار هذه السرية: أنّ أبا جهل سوف يتحدث عن الكمين الإسلامي الذي حصل على الطريق، ولا شك في أنّ قريش سوف يصيّبها وجوم وقلق على طريقها التجاري، وسوف تتأكد من أنّ ما خشيته، من سيطرة محمد على هذا الطريق، قد وقع.

وهذا ما أراده رسول الله ﷺ من هذه السرايا.

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج 2، ص 402.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 245، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 69، المسعودي، التنبية والإشراف، ص 200.

ب. سرية عبيدة بن الحارث:

عقد النبي ﷺ لواءً لعبيدة بن الحارث إلى رابع، فخرج عبيدة في ستين راكباً من المهاجرين، فلقي أبا سفيان بن حرب، وكان يومئذ في مئتين، فلم يسلوا السيف، ولم يصطفوا للقتال، بل انصرفوا إلى المدينة^(١)، فأوامر النبي ﷺ كانت الاكتفاء بالظهور على الشريان الاقتصادي لقريش. هذه هي وسيلة الضغط الثانية على خناق قريش كي تسير نحو الاعتدال، وتقبل بالاعتراف بالإسلام، وتسمح للمسلمين بالحج إلى بيت ربهم، ويكفي الله الناس شرّ الحرب والاقتتال.

(١) الواقدي، المغازي، ج ١، ص ١٠، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك عنه ج ٢، ص ٤٠٢، المسعودي، التنبىء والإشراف ص ٢٠١، الشيخ الطبرسى، إعلام الورى، ج ١، ص ١٦٢.

المفاهيم الرئيسية

- بعد أن استقر رسول الله ﷺ في مدينة يثرب، عمل على بناء مركز قيادة الدولة، وهو المسجد، وقد عمل رسول الله ﷺ بنفسه في بناء هذا المسجد، وعمل معه المهاجرون والأنصار، وشاركت في بنائه النساء أيضاً.
- عمل رسول الله ﷺ على معالجة البناء الاجتماعي الداخلي في المدينة، فإن التكوين السكاني فيها كان يتشكل من تنوعات اجتماعية مختلفة ومتعددة.
- اتخذ رسول الله ﷺ خطوات عدّة في بناء المجتمع الجديد، وهي: أ. توحيد الأمة الإسلامية الناشئة. ب. بناء نظام علاقات بين مختلف مكونات مجتمع المدينة.
- بناء عوامل القوّة داخل مجتمع المدينة.
- آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين أولاً في مكة، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار ثانياً عندما قدم المدينة المنورة.
- أرسى رسول الله ﷺ أساس النظام السياسي للدولة في المدينة من خلال وثيقة عرفت بوثيقة المدينة أو الصحيفة، والتي تشكلت من أربعين بندًا.
- أرسى رسول الله ﷺ أساس بناء القوّة العسكرية للدولة الإسلامية من خلال تشكيل قوّة عرفت بالسرايا، وقد حصر رسول الله ﷺ هذه القوّة بالمهاجرين من أجل أن يبقى مجتمع المدينة مجتمعاً متاماً، ويشعر أهل المدينة بقدرة المهاجرين على الدفاع عن أنفسهم وعن أهل المدينة، ولكي يعلم الأنصار أن المهاجرين قد بادروا إلى التضحية والإقدام. وقد كان لهذه القوّة أهداف عدّة، وهي: الاستطلاع، التأهيل العسكري، معرفة محيط المدينة الجغرافي، تطويق القبائل العربية حول يثرب، الضغط على قريش عبر محاصرتها والتضييق عليها.
- لقد تنوّعت هذه السرايا، واتجهت إلى مناطق مختلفة، وقد بلغ عددها ما يقرب من ثلاثة وسبعين سرية.

الدرس الحادي عشر

معركة بدر (1)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح أسباب معركة بدر.
2. يعرّف الإجراءات التي قام بها النبي ﷺ بعد تسرّب الخبر إلى المشركين.
3. يتعرّض إلى دور المهاجرين والأنصار في المعركة وكيفية رصّ صفوفهم.

تمهيد

يدعو الإسلام إلى السلم، وعدم استخدام السلاح، إلا عند الضرورة والاعتداء من قبل الآخرين. قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَتَحُوا لِلّٰهِمْ فَأْجِنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾⁽¹⁾. وكان هذا هو المنطلق الذي سار عليه النبي ﷺ منذ بدء الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، فلم يبدأ رسول الله ﷺ بحرب، بل كان طوال فترة بقائه في مكة المكرمة لم يؤذن بالقتال. ثم انتقل إلى يثرب وتبدل المعادلات السياسية بينه وبين قريش، وتحول الإسلام من الضعف إلى القوة، وصار لازماً الدفاع عن كيان الدولة الإسلامية وجميع المنتسبين إليها، واسترداد حقوقهم المسلوبة من قبل المعتدين عليهم. ورغم الإذن بالقتال، ووجوب الدفاع عن الإسلام والمسلمين ولو باستخدام القوة، فقد بقيت جميع الحروب التي خاضها النبي ﷺ حروباً دفاعية، ابتداءً من بدر حتى تبوك، فلم تكن حروباً تمثل الجهاد الابتدائي، بل كلها حروب دفاعية.

وقد كانت معركة بدر من أهم المعارك التي قام بها رسول الله ﷺ، وهي المعركة التي كسرت شوكة قريش، ووضعت في جسدها بداية الانهيار والانكسار البطيء، حتى وصلت إلى مرحلة الانهيار والسقوط النهائي عند فتح مكة.

موقع بدر: الهوية والجغرافيا

«بَدْر»: بالفتح ثم السكون، ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، بينه وبين الجار، وهو ساحل البحر، ليلة واحدة. ويقال: إنه ينسب إلى بدر بن يخلد بن النضر

بن كنانة، به سُمِّيت بدر، وعند هذا الماء كانت الواقعة المشهورة التي أظهر الله بها الإسلام، وفرق بين الحق والباطل⁽¹⁾.

وتقع «بدر» جنوب غرب المدينة المنورة، والمسافة بينها وبين المدينة حوالي 150 كلم تقريباً. تبعد عن مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ ما يقرب من 340 كلم تقريباً جنوباً، ويفصلها عن سواحل البحر الأحمر الواقع غربها حوالي 30 كلم تقريباً.

الأسباب المؤدية إلى وقوع معركة بدر

غزوة بدر، وتُسمى أيضاً غزوة بدر الكبرى، وبدر القتال، ويوم الفرقان، وقعت في السابع عشر من شهر رمضان في العام الثاني من الهجرة، بين المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ من جهة، وبين قريش وحلفائها من العرب من جهة أخرى. وتُعدُّ غزوة بدر أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة. وقد سُمِّيت نسبة إلى منطقة بدر التي وقعت المعركة فيها، وكان عدد المسلمين في بدر ثلاثة وبضعة عشر رجلاً، وأمامَ جيش المشركين فكان يقدّر بألف رجل. ولهذه المعركة العديد من الأسباب من أهمها:

1. الاعتداء على المسلمين:

إنَّ كُلَّ السرايا التي أرسلها رسول الله ﷺ كانت تهدف إلى الضغط على قريش، ودفعها نحو القبول والمساومة، وسلوك سبيل الصلح والمهادنة، وإلا فإنَّ رسول الله لم يكن ليخوض حرباً في سبيل قافلة تجارية.

وغزوة بدر التي قام بها النبي ﷺ لم تكن إلا بعد أن قامت قريش بالاعتداء على المسلمين وعلى أموالهم في مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ، حيث كانت قريش تعتمد على المسلمين حتى في المدينة المنورة على شكل غارات ليلية. فكان هدف النبي ﷺ وقف العداون القرشي والاقتراض من قريش، فلذلك هاجم قافلة قريش التي كان يقودها أبو سفيان، وحينها نزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعْدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الْطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَيْرَ

(1) الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج 1، ص 357

ذَاتِ الشَّوَّكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحُقْقَ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكُفَّارِينَ⁽¹⁾.

وكان ذلك بعد المراقبة الشديدة لتحركات قريش، فقد جاءته عيونه بأخبار مفادها أنَّ عيراً لقرיש خرجت إلى الشام فيها خزائفهم، وذلك في منتصف جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، بقيادة «أبي سفيان بن حرب». فخرج رسول الله ﷺ للاحقتها إلى «ذات العشيرة»، ولكنَّه لم يعثر عليها، فقد كانت قد أفلتت منهم إلى الشام، فعاد إلى المدينة.

2. فشل محاولات التهدئة والصلح:

وبقي النبيُّ يرصد لها العيون متربقاً عودتها، إلى أن بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد عيوناً له لرصدها، وكان ذلك في الثاني من شهر رمضان قبل خروجه من المدينة بعشرين ليال. فلماً عادا أخبراه أنَّ البضائع يحملها ألفاً بعير، وأنَّ قيمتها تبلغ خمسين ألف دينار، وأنَّ حراسها سبعون أو أربعون رجلاً⁽²⁾.

تحرّك جيش المسلمين نحو بدر

ندب رسول الله ﷺ المسلمين للخروج إلى القافلة، وقال لهم: «هذه عيراً قريش فيها أموالهم، فاخروا إليها لعلَّ الله ينفكموها».

وخرج يوم الأحد لاثنتي عشرة خلت من شهر رمضان، حتّى انتهى إلى بيوت السقيا، وهي متصلة بالمدينة، وضرب عسکره هناك واستعرضه، ثمَّ صلَّى في بيوت السقيا ودعا لأهل المدينة، فقال: «اللَّهُمَّ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَبْدَكَ وَخَلِيلَكَ وَنَبِيَّكَ دُعَاكَ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَإِنِّي مُحَمَّدٌ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ أَدْعُوكَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْ تَبَارَكَ لَهُمْ فِي مَدْهُمْ وَصَاعُهُمْ وَثَمَارُهُمْ، اللَّهُمَّ حَبِّ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ»⁽³⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية 7.

(2) الواقدى، المغازى، مصدر سابق، ج 1، ص 20.

(3) المصدر نفسه، ج 1، ص 22.

وبعد أن جهز رسول الله ﷺ جيشه للتحرك، فكانوا ثلاثة وثلاثة عشر رجلاً⁽¹⁾، استعمل على المشاة: قيس بن عمرو، وعقد النبي ﷺ الراية لعلي بن أبي طالب ؓ. وكان في عسكر رسول الله سبعون جملًا أو ثمانون⁽²⁾ يتعاقبون عليها الاثنين والثلاثة، وكانت فيه أيضًا فرسان: فرس للزبير بن العوام، وفرس للمقداد بن عمرو، وتغيب بعضهم عن المعركة فذمّوا من قبل المسلمين⁽³⁾.

ولقد كان عشق الشهادة إلى الدرجة التي تجعل فتياناً دون الحلم يتلهفون للاشتراك في هذه المعركة، وقد ردّ النبي ﷺ بعضهم إلى المدينة لما استصرهم. ولما كان على ليلة من بدر، بعث رسول الله ﷺ بسبعين بن عمرو، وعدي بن أبي الزباء، يتجسسان خبر العير. فأتيما ماء بدر، وأناخا راحلتهما، وسمعا جاريتين تتحدثان عن عير قريش، وأنّها نزلت في الروحاء، وأنّها سوف تنزل بماء بدر. فرجع الرجالان إلى رسول الله، فلقياه في المعترضة بعد الخبرتين والخيوف وقبل بدر، فأخبراه بما سمعا⁽⁴⁾.

إجراءات أبو سفيان لحماية القافلة

كان أبو سفيان قد عرف عند توجّهه بالقافلة إلى الشام، أنّ رسول الله ﷺ يترصّد القافلة، فقد أخبره رجلٌ من جذام أدركه بالشام أنّ محمداً كان قد عرض لقافتهم، وأنّه ينتظر رجعتهم، فخاف أبو سفيان خوفاً شديداً، واتّخذ الاحتياطات الكافية عند رجوعه من الشام، ومنها:

1. تحري أخبار المسلمين:

أخذ يسأل القوافل عن رسول الله ﷺ إلا أنه لم يستطع الوصول إلى نتيجة، ففضل أن يضع قريشاً في صورة الخطر المحدق بتجارة قريش وأموالها، فاستأجر أحد حرّاس

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 257، الواقدي، المغازى، ج 1، ص 152 - 172، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 2، ص 333 - 363.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، مصدر سابق، ج 1، ص 168.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 326، ابن كثير، إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان: 1992م، ل.ط.، ج 1، ص 657.

(4) الواقدي، المغازى، مصدر سابق، ج 1، ص 21 - 51.

القافلة، وأمره أن يصيغ بهم: «يا آل غالب، اللطيمة اللطيمة، العير العير، أدركوا أدركوا، وما أراكم تدركون، فإنّ محمداً والصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرضون لغيركم»!.

2. تغيير مسیر القافلة:

وفيما كانت قريش تستنفر لحماية القافلة وتسيير لملاقاة أبي سفيان، كان أبو سفيان قد شارف منطقة بدر، فأوقف القافلة وتقدمها، وأقبل وحده حتى انتهى إلى ماء بدر، فوجد شخصاً سأله عن رسول الله ﷺ، فأخبره بأنه لم ير رسول الله ﷺ، ولا آية تحضيرات له، إلا أنه أخبره بأنه رأى راكبين أناخا راحلتهما هنا. فجاء أبو سفيان إلى مناخ إبلهما، ففت أبعار الإبل بيده، فوجد فيها النوى، وقال: «هذه عاليف يثرب! هؤلاء عيون محمد!». ورجع مسرعاً، وأمر بالقافلة، فتركت جادة يثرب مكة، واتجهت غرباً نحو ساحل البحر الأحمر، وتركوا الطريق، ومرروا مسرعين قاصدين مكة.

3. طلب المعونة من مشركي مكة:

وصلت الأنبياء إلى قريش بأنّ محمداً ﷺ وأهل يثرب يريدون أن يعترضوا على قافلتهم، فتصاير الناس في مكة، وتجهزوا سراغاً، وتهيؤوا للخروج، وأعد كل صناديد قريش ورجالها المقاتلون أنفسهم للتحرك نحو المدينة، وما بقي أحد من عظاماء قريش إلا أخرجوا مالاً وحملوا وقووا، وخرجوا على الصعب والذلول، ما يملكون أنفسهم.

وبلغ استنفار قريش لقوتها درجة أنهم هددوا من لم يخرج بهدم داره، حتى أنه من اضطر إلى التخلف، ولم يستطع دفع نفقة مقاتل آخر مكانه رجلاً⁽¹⁾.

وكان معهم سبعمئة بعير ومئات الخيول وستمائة دارع، وكان يتبرع بالإطعام رجل كل يوم، فينحررون لهم تسعاً أو عشراً من الإبل.

وحينما خالف أبو سفيان الطريق ونجا بالقافلة، ووصل إلى مكة، أرسل يطلب من قريش الرجوع، فحدث بين رجال قريش اختلاف في الاستمرار وعدمه. ولكن أبو جهل أبى ذلك وأصر على مواصلة التقدّم نحو المدينة.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص 261.

وهكذا، ليس إنقاذاً لقافلة أبي سفيان المهددة فقط، ولكن لاستعادة هيبة قريش وأمن التجارة المكية على طريق الشام. فأصرّوا على التقدّم والوصول إلى بدر، بل كانوا عازمين على الاستمرار بعد ذلك إلى المدينة، وأقبلت قريش، فنزلت بالعدوة اليمانية، في مكان مرتفع⁽¹⁾.

النبي ﷺ يتحرّى أخبار قافلة قريش

كان رسول الله يتحرّك بحثاً عن القافلة، فأمر بالرحليل، فرحلوا حتّى نزلوا عشاءً بالعدوة الشامية، وبعث النبي ﷺ الإمام عليًّا وجماعة يتجمّسون على الماء، ويلتمسون له الخبر عليه⁽²⁾.

بعد أن علم رسول الله ﷺ والمسلمون بأنّ قريشاً قد وصلت،وها هي وراء هذا الكثيب، بقي أمرٌ لم يحسّم بعد وهو أمر القافلة، ولم يكن هناك من يستطيع أن يخبره بهذه المعلومة سوى جبرئيل، والذي نزل فعلاً على رسول الله، فأخبره أنّ القافلة أفلتت، وأنّ قريشاً قد أقبلت لمنع عن قافتلتها. وأمره بالقتال، ووعده النصر.

فقام رسول الله ﷺ بجمع المسلمين وأخبرهم بأنّ القافلة قد جازت، وأنّ قريشاً قد أقبلت لمنع عن عيرها، فعرف المسلمون من المهاجرين والأنصار بإفلات قافلة قريش، وعرفوا بجمع قريش ومجيئها، وأنّ جيشها قد وصل إلى مشارف المنطقة التي يتواجد فيها رسول الله ﷺ وأصحابه.

خيارات النبي ﷺ بعد إفلات القافلة

بعد أن أفلتت القافلة، وجد رسول الله ﷺ نفسه أمام خيارين: الأول: أن يرجع من حيث أتي، وهذا يعني أن ينهار كل ما كسبوه من الهيبة والمهابة، وخاصة إذا طارتهم قريش ووصلت إلى المدينة، فمن يمنع الأعراب واليهود بعدئذ عن التفكير في العداون، والتجربة على المدينة وعلى المسلمين؟

(1) وهو ما يُسمى بالعدوة القصوى.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج.2، ص268، الواقدي، المغازي، ج.1، ص51، ابن كثير، السيرة النبوية، ج.1، ص617.

الثاني: الحرب والقتال، وإن لم يكن المسلمين متهيئين لمقاتلة جيش قريش الكبير، لا من حيث العدد، ولا من حيث العُدُّة. فقد كان أكثر الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من شباب الأنصار، وكانت بيعة العقبة التي بايع فيها الأنصار رسول الله ﷺ على الدفاع عن رسول الله ﷺ وحمايته في المدينة لا القتال وال الحرب.

إجراءات النبي ﷺ الداخلية استعداداً للمعركة

لكي يقف الأنصار موقفاً مضحياً صارماً، لا بد أن يقف المهاجرون أولاً موقفاً صارماً، فهم أصحاب القضية، والمعنيون مباشرة بقتال قريش والدفاع عن قضيتهم، فإذا تفاصس المهاجرون ولم يقفوا موقفاً قوياً، فكيف يقف الأنصار الموقف المؤمل منهم؟ طلب الرسول ﷺ من المهاجرين أن يجتمعوا مع بعضهم بعضاً إلى جانب، وطلب من الأنصار أن يجتمعوا في الجهة الأخرى. ثم التفت رسول الله إلى المهاجرين أولاً، وقال لهم: «أشروا عليّ»، فأشار عليه بعضهم بالرجوع وترك المعركة مع قريش، فلم يرتضِ رسول الله ﷺ بهذه الإشارة المحبطة للنفوس. وهنا كرر النبي ﷺ طلبه ثالثاً: «أشروا عليّ!». فقام المقداد وتكلم بكلام يحث فيه الناس على القتال، ثم قال: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون. والله لنقاتلن عن يمينك وشمالك، ومن بين يديك، ولو خضت بحرًا لخضناه معك، ولو ذهبت بنا بر الغمام لتبعناك»، فأشرق وجه النبي ﷺ ودعا له، وسر ذلك، وضحك.

وبعد أن اطمأن النبي ﷺ إلى الموقف، توجّه إلى الأنصار، وقال: «أشروا عليّ». فقام سعد بن معاذ فقال: «بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، كأنك أردتنا؟»، قال: «نعم». قال: «فلعلك قد خرجمت على أمر قد أمرت بغيره؟»، قال: «نعم». فقال: «بأبي أنت وأمي، يا رسول الله، إنا قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به حقٌّ من عند الله، فمرنا بما شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منها ما شئت، والذي أخذت منه أحبّ إليّ من الذي تركت منه. والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك. فجزاه رسول الله خيراً».

وبهذا، يكون رسول الله ﷺ قد أتّضح له موقف المهاجرين، وأخذ موقفاً واضحاً وصريحاً من الأنصار.

والذي يظهر من كلام المقداد وسعد بن معاذ أنّهما لم يشيرا على النبي ﷺ باقتراح، لا سلباً ولا إيجاباً، بل كان جوابهما إظهار التسليم والانقياد التام للنبي ﷺ، وكان هذا زائداً على ما يريده النبي ﷺ إظهاراً لدرجة من الإيمان والإخلاص والتسليم، وهو من أجل ذلك ضحك لكلام المقداد، وسرّ لكلام سعد.

أهداف استشارة الرسول ﷺ لأصحابه

إنَّ استشارة النبي ﷺ لأصحابه من المهاجرين حاجةٌ لا بدُّ منها؛ لأنَّ هذه المعركة كانت مصيرية، وتتطلّب مواقف كبيرة وجادة من كلا الطرفين.

بالإضافة إلى أنَّ المعركة كانت حتمية، وكان التراجع والانسحاب سوف يؤدي إلى هزيمة روحية ومعنوية، ستؤدي إلى تضعضع كيان المسلمين وإطعام غيرهم بهم. فقد كان المشركون واليهود والأعراب ينظرون إلى هذه المعركة بصفتها حدثاً تاريخياً انقلابياً، ومنعطفاً خطيراً، سوف يتقرر في ضوء نتائجه مصير الإسلام، ومعه مصير المهاجرين والأنصار.

ولكنَّ هذه الاستشارة لم تكن بهدف استكشاف رسول الله ﷺ دخائل نفوس أصحابه من أجل تمييز المنافق من المؤمن، والجبان من الشجاع؛ وذلك لأنَّ الأخلاق النبوية، وطريقة أدائه مع أصحابه، لم تكن تتضمّن إحراجاً لهم، وفعل ما فيه استكشاف وإبراز دخائل نفوسهم، بل كان حريراً على عدم ارتكاب ذلك، بل على التستر عليهم ومساعدتهم على مجاهدة أنفسهم.

إجراءات النبي ﷺ المعنوية والعسكرية يوم اللقاء في بدر

في يوم السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ارتحلت قريش، وهكذا سبق المشركون إلى بدر، وأناخوا في العدوة القصوى في جانب الوادي، وكان فيها الماء، ولكنَّ الأرض قد أوجحت تحت أقدامهم بسبب المطر الذي هطل عليها ليلاً، حتى

طمَسَتْ أقدامهم في الأرض. فأمر النبي ﷺ المسلمين بعدم اعتراضهم ولكنه قام بأمور عَدَّة استعداداً للمعركة⁽¹⁾، وهي:

1. التوجّه إلى الله تعالى بالدعاء:

لما رأى رسول الله قريشاً، قال: «اللهم، إِنكَ أَنزَلْتَ عَلَيْيَ الْكِتَابَ، وَأَمْرَتَنِي بِالقتال، وَوَعَدْتَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَإِنَّكَ لَا تَخْلُفُ الْمِيعَادَ». اللهم، هذه قريش قد أقبلت بخيالها وفخرها تحادك وتکذب رسولك. اللهم، نصرك الذي وعدتنِي، اللهم أحنهم⁽²⁾ الغداة⁽³⁾. وعن الإمام محمد الباقر ع عليهما السلام قال: «لَمَّا نَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى كُثْرَةِ الْمُشْرِكِينَ وَقْلَةِ الْمُسْلِمِينَ اسْتَقْبَلَ الْقَبْلَةَ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ، أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ، إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ لَا تَعْبُدْ فِي الْأَرْضِ أَبَدًا»⁽⁴⁾.

وأصبح المسلمون وقد ارتاحوا وهدأتْ أعصابهم بسبب النعاس الذي ألقاه الله تعالى عليهم، وتصبّبت أرضهم، وامتلأت قربهم بسبب المطر. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيَكُمُ الْتَّعَاصَمَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُظَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذَهِّبَ عَنْكُمْ رِجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرِبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾⁽⁵⁾.

ومن الجهة العسكرية، لم يُحدِّث المطر أي مشكلة في العددة الدنيا للMuslimين، فلم يمنع من تحركهم، بل تصبّبت الأرض بسبب المطر وتلبدت، وكان ذلك لطفاً من الله ورحمة لهم.

2. تعبئة جيش المسلمين:

وارتفعت راية الإسلام خفاقة بيد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ع عليهما السلام، وكان هو

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 123.

(2) أي أهلكهم.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، ص 453، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 3، ص 318، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 19، ص 334، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 327، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج 2، ص 54، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 3، ص 327.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 627، الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 149.

(5) سورة الأنفال، الآية 11.

صاحب لواء رسول الله ﷺ دائمًا. وأخذ النبي ﷺ يُعْبِئ أصحابه وينظم صفوفهم، ويرشدهم إلى الأصول المعنوية للنصر في الحرب: «غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ وَلَا تَبْدُؤُوهُمْ بِقَتْلٍ وَلَا يَتَكَلَّمُنَّ أَحَدٌ!».

فسكت المسلمين، وغضّوا أبصارهم امتناعاً لأمر رسول الله ﷺ. وفيما كان رسول الله ﷺ يعدّ صفوف أصحابه، فيقدم المتأخر ويؤخر المتقدم، مستعيناً بسهم كان في يده، مرّ سواد بن غزية، أحد رجال الأنصار، وهو خارج عن الصّفّ متقدّم عليه، فوضع السهم في بطنه، محاولاً دفعه به إلى الخلف برفق، وهو يقول: «استو يا سواد». فقال سواد: «يا رسول الله، أوجعوني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني!». فكشف رسول الله عن بطنه وقال: «استقد». فاعتني سواد رسول الله ثم انحنى فقبل بطنه.

فقال رسول الله: «يا سواد، ما حملك على هذا؟». قال: «يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك!»، فدعا له رسول الله بخير⁽¹⁾. وبهذا، يكون قد استعدّ الطرفان للمواجهة والقتال، فكريش رضي صفوها للقتال، ورسول الله ﷺ يقوم بذلك استعداداً للمواجهة الكبرى مع أقوى قوى الشرك في شبه الجزيرة العربية.

(1) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، مصدر سابق، ج.2، ص.278

المفاهيم الرئيسية

- بدر هي ماء يقع بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء، وتقع بدر غرب المدينة على بعد يقرب من 150 كم، وتبعد عن مكة ما يقرب من 340 كم.
- إن لمعركة بدر أسباباً عدّة، منها: أ. فشل محاولات التهدئة والصلح بعد محاولة أخذ قافلة قريش. ب. الاعتداء على المسلمين.
- بعد أن قرر رسول الله ﷺ التحرّك بنفسه نحو قافلة قريش، نادى في الناس للخروج إلى القافلة، فخرج ومعه ثلاثة عشر رجلاً، وجهز الجيش بما أمكن من العتاد والعدّة.
- عمل أبو سفيان على إجراءات عدّة لحماية القافلة، وهي: تحري أخبار المسلمين، تغيير مسار القافلة، طلب المعونة من قريش.
- علم رسول الله ﷺ عن طريق الوحي بأن أبو سفيان قد غير طريق القافلة، وكان أمامه خيارات، الأولى: أن يرجع إلى المدينة المنورة، والثانية: القتال وال الحرب.
- أخبر رسول الله ﷺ المسلمين بإفلات قافلة عبر قريش، وبعد أن قرر ﷺ خوض غمار الحرب في مواجهة الشرك، أراد أن يختبر نيات أصحابه، فجمع المهاجرين وحدهم، وكذلك الأنصار، وطلب من المهاجرين الكلام، فتكلموا وقرروا المشاركة، فالتفت إلى الأنصار، فأثبتت له الأنصار إيمانهم به.
- كان رسول الله ﷺ يهدف من خلال هذه الاستشارة إلى أن يتوجه أصحابه بأنفسهم إلى المعركة؛ لأن هذه المعركة مصيرية بالنسبة إليهم، ولم يكن يقصد تمييز المنافقين من المؤمنين.
- بعد أن وصل رسول الله ﷺ إلى موقع بدر قام بخطوات معنوية وعسكرية عدّة من شأنها أن تشد عضد المسلمين، وتقوي معنوياتهم، وهي:
 - أ. التوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والتسلّل.
 - ب. تعبئة جيش المسلمين، ورصف صفوفهم، وإرشادهم إلى أصول الحرب والقتال.

الدرس الثاني عشر

معركة بدر (2)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أحداث القتال والاشتباك العسكري مع المشركين في بدر.
2. يتعرّف إلى آثار معركة بدر على الإسلام والمسلمين.
3. يشرح أسباب وعوامل النصر في بدر.

تمهيد

نزل رسول الله ﷺ منطقة بدر، وقام بكل التحضيرات الممكنة لمواجهة جبروت قريش وكباريائها. وعلى الرغم من كل المحاولات التي عمل عليها رسول الله ﷺ لمحاولة تهدئة الأوضاع، ورد قريش عن القتال كانت المواجهة شبه محسومة بين الطرفين.

وبعد أن نزل المشركون إلى أرض المعركة، بُرِزَ لهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب والحمزة. وبِدأَت علامات الهزيمة تظهر على قريش، فقد سقط في الجولة الأولى كبار رموزها وعُنَتَّها، ولم تتمكن قريش من التراجع، فأصررت على الاستمرار حتى وصلت بها الأمور إلى الهزيمة.

وقد أعطت معركة بدر للمسلمين القوة والمنعنة، وفُرِقت بين الحق والباطل، وأثبتت أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى والاستعداد لنصرة الله عز وجل هما من أهم قواعد الثبات والانتصار على الأعداء.

رسول الله ﷺ ومحاولة التهدئة

استقرت قريش في منطقة من أرض بدر استعداداً للمواجهة، وحيث إنهم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن عددهم ومبلغ استعداداتهم، بعثوا عمر بن وهب الجمحي لينظر ذلك، وكان فارساً شجاعاً، فجال بفرسه حتى طاف معسكر رسول الله، ثم رجع إلى قريش وقال: «ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمِين، أو مدُّ». ثم

رجع إلى قريش، وقال لهم: «ما لهم مدد ولا كمين، ولكن نواضح يثرب⁽¹⁾، قد حملت الموت الناقع⁽²⁾!».

أوجدت كلماته ضجةً كبرى بين رجال قريش وسادتها وزعمائها، فبدأت تظهر قبل المعركة علامات هزيمة المشركين، حيث رأوا المسلمين مستعدّين لأن يقتل كلّ واحد منهم مشركاً، وهذا بحد ذاته مثير للرعب، حتى ولو انتهت المعركة بقتل كلّ المسلمين. كذلك أدى الصمت والسكوت في صفوف المسلمين بأمر من رسول الله ﷺ إلى إضفاء جوًّا من الرهبة على ساحة المعركة.

ثم طرح رسول الله مشروعه الديني والبناء والأخلاقي، في أنه لا يريد الحرب، ولا إذلال قريش، وأن أقصى ما يريد أن يسمح لدعوته إلى الله أن تنتشر بين العرب، وهذا هو يغري قريشاً بأنّه سوف يكون لها مكسب من انتصار دعوته! أليس هو منها؟ فبعث الرسول إلى قريش من يقول لهم عنه: «يا معشر قريش، ما من أحد من العرب أبغض إليّ ممّن بدأ بكم! خلوني والعرب، فإن أك صادقاً فأنتم أعلى بي عينًا، وإن أك كاذباً كفتكم ذوبان العرب أمري، فارجعوا».

فأثرت دعوته في دفع الخائفين والمتردد़ين من قريش نحو التراجع والانسحاب، فقام عامر الحضرمي وكشف عن رأسه، وأخذ يحثو التراب عليه، وصاح مستغيثًا: «واعماراه واعماراه»، تحرييًّا للناس، وإثارة لمشاعرهم.

ثم خرج من بين صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وقد أبصر الحوض الذي بناه المسلمون عند البئر لشربهم، وشدّ حتّى دنا منه، فاستقبله الحمزة، فشدّ عليه وقتله. وقد تسبيبت هاتان الحادثتان في توثير الأجراء وشحنها باتجاه الحرب، وفي أن يصبح القتال أمراً حتمياً⁽³⁾.

(1) النواضح جمع الناضحة، وهي الناقة على البئر يجلب عليها الماء.

(2) الموت الثابت البالغ في الإفباء.

(3) ابن حيان، الثقات، ج 1، ص 166.

القتال والاشتباك

1. المبارزة الأولى:

تقدّم عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فأخذوا يدعون إلى المبارزة، فخرج إليهم من المسلمين ثلاثة فتية وهم: «عوف» و «معوذ» ابنا الحارت، و «عبد الله بن رواحة». فقال عتبة: «من أنتم؟ انتسبوا لنعرفكم». فقالوا: «نحن بنو عفرا أنصار الله وأنصار رسول الله».

قال: «ارجعوا، لسنا إياكم نريد، إنّما نريد الأكفاء من قريش!». فأرجعهم رسول الله ﷺ، ثم بدأ رسول الله بأهل بيته من المهاجرين، ونظر إلى ابن عبيدة بن الحارت، ثم نظر إلى عمّه حمزة بن عبد المطلب، ثم نظر إلى أمير المؤمنين علیه السلام، وقال لهم: «قوموا». ثم قال لهم: «فاطلبو بحقّكم الذي جعله الله لكم. قد جاءت قريش بخيالها وفخرها ت يريد أن تطفئ نور الله». ثم قال: «يا عبيدة عليك بعتبة»، وقال لحمزة: «عليك بشيبة»، وقال لعليٍّ: «عليك بالوليد بن عتبة»، فمرّوا حتى انتهوا إلى القوم.

فحمل عبيدة على عتبة، وضربه على رأسه ضربة ففرق هامته. وضرب عتبة عبيدة على ساقه فقطعها، وسقطا. وحمل حمزة على شيبة فتضاربا بالسيف حتى اندلما، وكل واحد يتقي بدرقه. وحمل أمير المؤمنين علیه السلام على الوليد بن عتبة، فضربه على عاتقه، وأخرج السيف من إبطه، فأخذ الوليد يمينه المقطوعة بيساره، فضرب بها هامة عليٍّ علیه السلام.

ونادى المسلمين: «يا عليٍّ، أما ترى الكلب قد أبهر (أعجز) عُمّك؟!». فحمل عليٍّ علیه السلام على شيبة، وقال لعمّه حمزة: «يا عمّ، طأطئي رأسك». وكان حمزة طويلاً، فأدخل حمزة رأسه في صدره، وضرب عليٍّ على رأس شيبة فطير نصفه. وكان عتبة قد قطع رجل عبيدة، وفرق عبيدة هامته، فجاء عليٍّ إلى عتبة وفيه رمق، فأجهز عليه. فيكون أمير المؤمنين علیه السلام قد شرك في قتل الثلاثة، ثم حمل هو وحمزة عبيدة بن الحارت حتى أتيا به رسول الله، فنظر إليه رسول الله واستعبر، وقال عبيدة: «يا رسول الله، بأبي أنت وأمي ألسْت شهيداً؟»، قال رسول الله: «بلى، أنت أَوْل شهيد من أهل بيتي».

ونزل في هؤلاء السّتة قوله تعالى: ﴿هَذَا نَحْنُ خَصَّمَنَا أَخْتَصَّمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِعَتْ لَهُمْ شَيَّابٌ مِنْ تَارِيْخٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ أَحْمَمُ﴾⁽¹⁾، ونزل في عليٍ وحمزة وعيادة أيضاً قوله تعالى: ﴿مَنْ اَمْوَانِيْنَ رَجَالٌ صَدَّقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى تَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبَدِيْلاً﴾⁽²⁾.

2. الهجوم العام:

على إثر مقتل صناديد قريش الثلاثة في المبارزة الفردية، بدأ الهجوم العام. فتزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، ونظر رسول الله إلى قريش، فقال لأصحابه: «غضوا أبصاركم، وغضوا على النواخذة، ولا تسألوا سيفاً حتى آذن لكم». وأمر أصحابه بأن لا يحملوا حتى يأمرهم، وأن يكتفوا برمي القوم بالنابل إذا اقتربوا منهم ليمعنوا تقدم العدو، ثم نهى النبي عن قتل من خرج من بني هاشم، وفاءً من النبي ﷺ لهم، لأجل حمايتهم له عندما كان في مكة، ولأنهم خرجوا مُكرهين، ونهى أيضاً عن قتل أبي البختري الوليد بن هشام؛ لأنّه كان يكف الناس عنه في مكة، وهو من قام بنقض الصحيفة⁽³⁾. كذلك نهى النبي ﷺ عن قتل الحارث بن نوفل، وزمعة بن الأسود لكرهتهما الخروج. وبأمر من جبريل، قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «ناولني كفًا من حصباء»، فناوله كفًا من حصباء فرمى بها في وجوه القوم وقال: «شاهدت الوجوه»، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: «شدوا»⁽⁴⁾. فبعث الله رياحاً تضرب في وجوه قريش⁽⁵⁾، فامتلأت عيون المشركين وأفواهم ومناخرهم من الحصاء، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكَنَ اللَّهُ

(1) سورة الحج، الآية 19.

(2) سورة الأحزاب، الآية 23.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 629، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 23.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 628، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 284.

(5) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 69، الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد حبيب قصیر العاملی، مکتب الإعلام الإسلامي، 1409ھ، ط 1، ج 5، ص 93، الشيخ الطبرسي، إعلام الوری، ج 1، ص 169، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 188، ابن إسحاق، سیرة ابن إسحاق، ج 2، ص 280، الواقدی، المغازی، ج 1، ص 81، الطبری، تاريخ الأمم والملوک، ج 3، ص 424.

قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلَيُبْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَيِّعُ عَلَيْهِ⁽¹⁾، ثم ردهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم. وخلال المعركة، وعلى الرغم من شدة الموقف، كان عليٌّ يعاشر النبي باستمرار، ولا يغفل عنه لحظة واحدة، فلم يمض وقتٌ على عملية الصدم الأولى التي ترددت على أثرها صفوف المشركين، حتى جاء عليٌّ لكي ينظر إلى رسول الله ما فعل، فوجده ساجداً، يقول: «يا حيٍّ يا قيوم يا حيٍّ يا قيوم». فعاد عليٌّ إلى القتال، ثم عاد إليه ثانية فوجده يقول ذلك، ثم عاد إليه ثالثة فوجده يقول ذلك، حتى فتح الله تعالى عليه.

هزيمة المشركين في بدر

وانجلت غبرة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وظهرت بوادر انتصار المسلمين على أعدائهم المشركين، الذين انتابهم خوفٌ ورعبٌ شديدان، وإذا بهم ينهزمون أمام زحف المسلمين ويلوذون بالفرار، لا يلوون على شيء، والمؤمنون في أعقابهم يوسعونهم قتلاً وأسرًا. ولم تمض ساعة على انتهاء المعركة إلا وكانت نتائجها قد ظهرت: هزيمة منكرة للمشركين وانتصار باهر للمسلمين. فقد غادر المشركون ساحة القتال هاربين صوب مكة، مخلفين وراءهم سبعين قتيلاً من صناديدهم وساداتهم، وفتیانهم الشجعان، وسبعين أسيراً. وقد تركت جرأة عليٍّ وشجاعته في هذه المعركة أثراً في كل المعارك⁽²⁾.

إجراءات النبي ﷺ بعد معركة بدر

1. دفن الشهداء:

بعد انتهاء المعركة وفرار قريش، أمر رسول الله ﷺ بالقليل، وهي بئر هناك، أن تعمّر، ثم يقتل المشركين، فطربوا فيها. ثم بدأ بدفن شهداء المسلمين. وبعد الانتهاء من ذلك صلى الناس العصر، ثم غادر أرض بدر قبل غروب الشمس من ذلك اليوم.

(1) سورة الأنفال، الآية 17.

(2) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 68، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 152، الشيخ المفید، الإرشاد، المفید، ج 1، ص 69، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 170.

2. الغنائم:

تمثّلت الغنائم في مئة وخمسين من الإبل، وثلاثين فرساً وسلاماً، ومتأعاً، وأنطاعاً، وأدماً كثيراً⁽¹⁾.

3. قضية الأسرى:

كان أسرى المشركين سبعين رجلاً، وقال النبي ل أصحابه في الأسرى: «استوصوا بهم خيراً»⁽²⁾. ساقوهم على أقدامهم، وكانوا يحملون تارة، ويمشون أخرى⁽³⁾، وعند غروب الشمس نزلوا الأثيل⁽⁴⁾، ونظر رسول الله إلى عقبة بن أبي معيط ذي السوابق السيئة المعروفة مع المسلمين والنبي في مكة، وكان النبي قد توعّده إن وجده خارج مكة أن يضرب عنقه، والنضر بن الحارث بن كلدة الذي كان يذبّ المسلمين في مكة، فأمر رسول الله عليه السلام الإمام علي عليه السلام فقتلهما⁽⁵⁾.

ولما شاهد الأسرى ذلك، حاولوا أن يذكروا رسول الله عليه السلام بالرحم لقريش، فامتنع النبي عن ذلك. وكان قتل هؤلاء المشركين سوف يطمئن الأنصار إلى أنّ النبي قد قطع وإلى الأبد علاقته بقومه، وأنّ علاقته الإسلامية الدينية مع المسلمين هي الأقوى والأثبت والباقية. وبما أنّ الأمة الإسلامية كانت لا تزال ضعيفة، قليلة العدد، محاصرة، ويمكن أن تكون هدفاً مغرياً للأعراب واليهود، فكان ينبغي أن يزرع المسلمون الرعب في نفوس الأعراب واليهود والمشركين من قريش وغيرها، حتى يحسبوا ألف حساب قبل أن يقدموا على العداون على المسلمين. وكان هذا هو مقصود الله تبارك وتعالى في الآية: (مَا كَانَ لِتَبْيَانِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ ثُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)⁽⁶⁾.

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 118، الحلبـي، السيرة الحلبـية، ج 2، ص 183، الواقـدي، المغـازـي، ج 1، ص 102.

(2) ابن هشـام، السـيرة النـبوـية، مصدر سابق، ج 2، ص 119.

(3) الواقـدي، المغـازـي، مصدر سابق، ج 1، ص 119.

(4) الشـيخ الطـبرـسي، إعلام الورـى، ج 1، ص 169، بالصـفـراء، وهو من بـدر على ستـة أمـيـال (اثـيـ عشر كـيلـو متـراً إـلـى المـديـنة).

(5) كان من المستهزـئـين والمحـرـضـين عـلـى حـرب بـدر، راجـع: الـواقـدي، المـغـازـي، ج 1، ص 37.

(6) سـورـة الأنـفـال، الآـيـة 67.

ولهذا، فقد أراد النبي ﷺ أن يقتل هؤلاء الأسرى، فبدأ بهذين. ولكن لمّا رأى الأنصار قتل الأسيرين خافوا أن يقتل جميع الأسرى، فيخسروا الفداء الذي طمعوا به، فقالوا: «يا رسول الله، قتلنا سبعين، وأسرنا سبعين، وهم قومك وأسرتك (وأساراك) أتجدّد أصلهم؟ ولكن هبّهم لنا يا رسول الله حتّى نفاديهم وأطلقهم».

وقال جبرائيل لرسول الله: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ كَرِهَ مَا صَنَعَ قَوْمُكَ مِنْ أَخْذِ الْفَدَاءِ مِنَ الْأَسْرَى، وَقَدْ أَمْرَكَ أَنْ تُخْرِّبُهُمْ بَيْنَ أَنْ يَقْدِمُوهُمْ وَيَضْرِبُوهُمْ أَعْنَاقَهُمْ، وَبَيْنَ أَنْ يَأْخُذُوهُمْ هُؤُلَاءِ الْفَدَاءِ وَيُطْلِقُوهُمْ، عَلَى أَنْ يَسْتَشْهِدُهُمْ فِي عَامٍ قَابِلٍ بَقْدَرِ مَنْ يَأْخُذُونَ مِنْهُ الْفَدَاءَ مِنْ هُؤُلَاءِ»، فرضي المسلمين بذلك.

وأعلن رسول الله ﷺ عن قراره بشأن الأسرى وهو: إِنَّ مَنْ دَفَعَ فَدِيَةً قَدْرَهَا أَرْبَعَةَ آلَافَ دَرْهَمٍ إِلَى أَلْفَ دَرْهَمٍ خُلِّيٍّ سَبِيلَهُ، وَإِنَّ مَنْ كَانَ فَقِيرًا لَا مَالَ لَهُ أَفْرَجَ عَنْهُ دُونَ فَدَاءٍ، وَإِنَّ مَنْ لَمْ يُسْتَطِعْ دَفْعَ الْفَدِيَةِ وَعَلِمَ عَشْرَةً مِنَ الصَّبَيَانِ مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْصَارِ الْكَتَابَةِ وَالْقَرَاءَةِ كَانَ ذَلِكَ فَدَاءُهُ وَخُلِّيٌّ عَنْ سَبِيلِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُؤْخَذَ مِنْهُ مَالٍ⁽¹⁾.

نتائج معركة بدر وآثارها

لقد تحقّقت بانتصار المسلمين في بدر نتائج سياسية وعسكرية وعقائدية مختلفة، ساهمت في تحقيق نقلة نوعية للدعوة الإسلامية، أهمّها:

1. تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، وثبتت إيمان المترددين منهم في إسلامهم.
2. جعلت من المسلمين قوّة مرهوبة الجانب عند القبائل المشركة واليهود في المنطقة، وأصبح على المشركين واليهود أن يفكّروا كثيراً قبل الشروع في أيّ عمل عسكري ضدّ يثرب.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 126، 270، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 117، الشريف الرضي، محمد بن الحسين، حقائق التأويل، شرح: محمد رضا آل كاشف الغطاء، ملاحظات: دار الكتب الإسلامية، قم، إيران، الناشر: دار المهاجر، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج 5، ص 11، للتوضيح حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملاني، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 5، ص 269، ج 6، ص 7.

3. شجّعت الكثيرين على اعتناق الإسلام بعد أن كانت قريش تشكّل الحاجز النفسيِّ والماديِّ لهم.
4. أضعفت هيبة قريش ونفوذها ومكانتها بين العرب، ووضعتها أمام موقف محرج، فها هو طريقها التجاريُّ إلى الشام قد أصبح فعليًّا تحت سيطرة القوة الإسلامية المتمركزة في يثرب.
5. فتحت الأبواب أمام رسول الله ﷺ في الانطلاق بحرية أكبر في نشر الدعوة.
6. أثبتت تجربة بدر أنَّ القلة المؤمنة المجahدة الصابرة التي تملك إرادة قوية وعزيمة وإخلاصاً، تستطيع أن تحقق الانتصارات والإنجازات الكبرى بإذن الله حتى ولو كان العدو يملك الكثرة والقوّة الماديّة الكبيرة.

عوامل النصر في معركة بدر

1 - العوامل العامة:

- أ. وحدة القيادة: فقد كان للمسلمين في معركة بدر قائدٌ عامٌ واحدٌ هو خاتم النبيين ﷺ.
- ب. الطاعة والانضباط: كان المسلمون يطعون النبي ﷺ وينفذون أوامره بدقة وانضباط.
- ج. العقيدة الدينية وارتفاع المعنويات: فقد امتلك المسلمون في بدر معنويات عالية نابعة من عقيدة دينية وإرادة قوية وإخلاص وتفانٍ في سبيل الله.
- د. الصفات الإيمانية: فقد تحلى المسلمون في بدر بالإيمان والتوكّل والصبر والشجاعة والثبات والتضحية والتعاون والإيثار، وأثبتوا أنَّها عوامل تحقيق النصر، وأنَّ قوَّة السلاح والكثرة العدديَّة ليستا هما العامل الأساس في ذلك.

2 - الإمدادات الغيبيَّة:

- أ. إخفاء المعركة عن المسلمين: إنَّهم لو كانوا على ميعاد مع العدو، ومع العلم

التفصيليّ بحجم إمكانياته البشرية والقتالية؛ لامتنع المسلمين عامّة عن مقابلة المشركين. ولكن شاء الله أن لا يعرف المسلمون شيئاً مفصلاً عن المشركين مسبقاً، بل يواجه المسلمون الأمر الواقع، فيتتحقق ما أراد الله من الانتصار على قريش. وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصُوْبِيِّ وَالرَّكُبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَأَنُوْ تَوَاعِدُهُمْ لَا خَتَّافُهُمْ فِي الْمِيدَانِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهُمْ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْنَهُ وَيَحْيَى مَنْ حَيَ عَنْ بَيْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعُ عَلِيهِم﴾⁽¹⁾.

ب. تقليل عدد المشركين في أعين المسلمين: في أول القتال، لكي يستقل الأعداء قوّة المسلمين، ولكي لا يهاب المسلمين الأعداء ويستعظموا عددهم، وإليه يشير تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّقِيَّةُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِنَّ اللَّهَ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾⁽²⁾.

ج. تكثير عدد المسلمين في أعين الكفار: وذلك أثناء القتال، وإليه يشير تعالى بقوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِتَّيَنِ الْتَّقَتَّا فِتَّةٌ تُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَآخَرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنَ وَاللَّهُ يُوَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولَئِكَ الْأَبْصَرِ﴾⁽³⁾.

د. الإمداد بالملائكة: المردفين المسومين، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجِبْ لَكُمْ أَنِّي مُمْدُّكُ بِالْفِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدُفِينَ﴾⁽⁴⁾.

هـ. نعاس المسلمين ونزوول المطر: نزول المطر عليهم الذي طهرهم من الأقدار، ومكّنهم من الاغتسال. وقد أشار سبحانه إلى كل ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُعَثِّيْكُمْ

(1) سورة الأنفال، الآية 42.

(2) سورة الأنفال، الآية 44.

(3) سورة آل عمران، الآية 13.

(4) سورة الأنفال، الآية 9.

**النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُرِئُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَا شَاءَ لِيُظْهِرُكُم بِهِ وَيُدْهِبَ عَنْكُمْ
رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيُرِبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُنَيِّثَ بِهِ الْأَقْدَامَ**

تشبيت قلوب المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكفار: وإلى هذين النوعين من الإمداد الغيبي، أشار بقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَتَّلُوا الَّذِينَ لَمْ يَأْمُنُوا
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوهُمْ فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾⁽¹⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية 11.

(2) سورة الأنفال، الآية 12.

المفاهيم الرئيسية

- استقرت قريش في منطقة بدر استعداداً للمواجهة، وأرسلت بعض رجالها لجلب المعلومات عن جيش المسلمين، فجاؤوا بأخبار أدخلت الرعب في قلوب قريش.
- ابتدأ رسول الله ﷺ ببيان مشروعه الديني والسياسي، مما أدى إلى زرع البلبلة في صفوف المشركين. وكان رسول الله ﷺ قد أغلق بعض الآبار، مما حدا ببعض رجالات قريش لمحاولة جلب الماء، فشدّ عليه الحمزة فقتله، ثم حصل الهجوم، وتنادي الطرافن للقتال، ودنا بعضهم من بعض، وكان رسول الله ﷺ قد أحكم خطته بشكل كامل، من حيث التوزيع العكسي للمسلمين، وأكّد على الالتزام بأوامره، فقد نهى عن قتل من كان من بنى هاشم، وقتل الوليد بن هشام؛ لأنهم ممن دافع عنه في مكة. ولقد كان ثبات النبي ﷺ وثبات الإمام علي عليه السلام الدور البارز في انتصار المسلمين، وكذلك فإن ثبات المقاتلين المسلمين أثر بشكل مباشر على جيش المشركين.
- إن لمعركة بدر نتائج عدّة، منها: تعزيز ثقة المسلمين بأنفسهم، وجعلت من المسلمين قوة مرهوبة، تشجيع الكثيرين على دخول الإسلام، إضعاف هيبة قريش، فتح الأبواب للنبي ﷺ في نشر الدعوة، وإثبات أنّ القلة المؤمنة تستطيع أن تهزم القوى الكبرى، رغم قلة العدد والعدّة.
- إن عوامل النصر عديدة في المعركة، فمنها العوامل المادية، وهي: وحدة القيادة، الطاعة، العقيدة الدينية، الصفات الإيمانية، ومنها العوامل الغيبية، كإخفاء المعركة عن المسلمين، تقليل عدد المشركين في أعين المسلمين، تكثير عدد المسلمين في أعين الكفار، الإمداد بالملائكة، نعاس المسلمين ونزول المطر، وتثبيت قلوب المؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الكفار.

الدرس الثالث عشر

اليهود والإخلال بنظام الدولة الإسلامية (بنو قينقاع - بنو النضير)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح سياسة النبي ﷺ في مواجهة حركة المنافقين في المدينة.
2. يعرف أسباب إخراج النبي ﷺ لليهود من المدينة.
3. يشرح أسلوب النبي ﷺ في القضاء على خطر يهودبني قينقاع وبني النضير.

تمهيد

حين تكون حركة ما أو دعوة ضعيفة، فإنّ خصومها سيواجهونها بالعنف والاضطهاد. فإذا ما تسبّبت تلك الدعوة بأسباب القوّة، وانتقلت إلى نحو من أنحاء امتلاك البأس والقوّة، فإنّ خصومها سوف يتّجهون نحو استعمال أساليب المكر والخداع. فربّما يكون الطمع في الوصول إلى زعامة هذه الدعوة إشباعاً للنزعه السلطويّة، أو الطمع في الوصول إلى موقع معنويٍ فيها وبين مؤيّديها وأنصارها، أو الطمع الماديّ كالمحاصن، أو تنمية المصالح وتوسيعتها.

بالإضافة إلى ذلك، فقد واجه رسول الله ﷺ خطراً عظيماً يحقيق المكر والخدع والخيانة بالدولة الإسلاميّة ونظامها، فسعى ﷺ جاهداً إلى تحقيق الاستقرار والأمن في المدينة المنورّة، ومنع حصول خلل في بنية النظام الإسلاميّ وعلاقاته بالآخرين. ولذلك قرّر مواجهة خيانةبني قينقاع وبني النضير.

بروز وخفاء ظاهرة النفاق

لقد استخدمت حركة النفاق أساليب المكر والخداع في عهد خاتم النبيين ﷺ في المدينة، حيث هاجر النبي ﷺ إليها وكسب أنصاراً، فكان مستظهراً بهم على العدة القليلة الذين لم يؤمّنوا به من قومهم، ولم يكن يسعهم أن يعلنوا مخالفتهم، ويظهروا شركهم، فتوقعوا الشرّ بإظهار الإسلام، وأمنوا به ظاهراً وهم على كفرهم باطنًا، فدسووا الدسائس، وما فتئوا يكيدون للإسلام، وللنبي ﷺ وللمسلمين، ويترّبصون بهم الدوائر؛ فكانوا يتآمرون مع أعداء الإسلام، ويحرّضونهم، عدا عن كونهم عيوناً للأعداء. ثمّ كانوا يشاركون

في الافتراء، وحياكه الأباطيل حيناً آخر، إلى جانب تخذيلهم المسلمين، وبث الإشاعات الباطلة. ولكنهم حين قويت شوكة المسلمين لم يجدوا مناصاً من العرض على الجراح، خصوصاً بعد أن ظهر لهم أن التحرّكات العسكرية للمسلمين في المناطق المختلفة كانت تسقط مواقع العدوان والتأمر الواحد تلو الآخر، وتقضى عليها، أو تحولها إلى موقع قوّة وصمود للمسلمين.

إلا أنَّ رسول الله ﷺ لم يذهب إلى كشف حقيقة المنافقين في الإسلام، ولم يواجههم، ويقضي عليهم بداية الأمر، فلو قاتلهم النبي ﷺ وهم محسوبون عليه ومن أتباعه وأصحابه، فسوف يظهر كأنَّه يقتل أصحابه وينكل بهم، وحينئذ لن يجرؤ أحدٌ على اعتناق الإسلام، بحجة أنَّ النبي يقتل أصحابه إذا ارتاب بهم. فحينما طلب من النبي ﷺ أن يقتل ابن أبي المناافق، أجابه النبي ﷺ: «دعا، لا يتحدّث الناس أنَّ محمداً يقتل أصحابه»⁽¹⁾.

نجاح سياسة النبي ﷺ في مواجهة المنافقين

إنَّ حركة النفاق - على خطورتها - لم تكن قادرة على مواجهة التيار الإسلامي، الذي استمدَّ قوَّته من شخصيَّة النبي ﷺ، ومبادرته السريعة في التصدِّي لحركة المنافقين⁽²⁾. فقد نجحت سياسة رسول الله هذه مع المنافقين، إلى درجة أنَّ قوم ابن أبي أنفسهم قد بدؤوا يضيقون ذرعاً به وبتصرفاته، وصاروا يلومونه ويعنفونه على ما بدر منه. فعندما رجع رسول الله ﷺ من بدر إلى المدينة، جلس على المنبر يوم الجمعة، فقام عبد الله بن أبي بن سلول، وقال متسلقاً ومترزاً نفاقاً: «هذا رسول الله بين أظهركم، قد أكرمكم الله، وأعزَّكم به؛ فانصروه وعزُّروه، واسمعوا له وأطِيعوه!»، ثم جلس.

(1) عبد الرزاق الصناعي، عبد الرزاق بن همام، المصنف، المجلس العلمي، بيروت، لبنان، 1980م، ط 1، ج 9، ص 469، البخاري، صحيح البخاري، ج 3، ص 132، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 6، ص 231، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 7، ص 297.

(2) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، مصدر سابق، ج 3، ص 65.

فكان له هذا المقام يقومه كل جمعة، وكان شرفاً له لا يريد تركه. فلما كان يوم معركة أحد، وصنع عبد الله بن أبي ما صنع، إذ رجع بالناس وخذل رسول الله، ثم قام في المسجد يوم الجمعة ليقول ما كان يقوله، قام إليه المسلمين، وأخذوا بثيابه، وقالوا له: «اجلس يا عدو الله! لست أهلاً لهذا، وقد صنعت ما صنعت!»⁽¹⁾.

محور اليهود

بما أن اليهود كانوا الطرف الأكثر تضرراً من دخول الإسلام إلى يثرب، فإن العدو الجدي للدولة الإسلامية الجديدة في يثرب، كان في الواقع اليهود. وبعد نشوء حركة النفاق وتشكيلها لجبهة عدوة خفية ضد الإسلام، التقت مصالح اليهود والمنافقين في العداء للإسلام، فكان تبادل الدعم والstances أحد الأساليب التي لجأ إليها الفريقان. وكما كان اليهود هم الذين أذكوا حركة النفاق في المدينة وساعدوا على اشتعال أوارها، كذلك وقف المنافقون إلى جانبهم في الظروف الصعبة التي مرّوا بها، كما في نقض يهودبني قينقاع عهدهم مع النبي. وعندما تأمر بنو النضير على حياة النبي ﷺ وحاولوا قتله. وقد تجلّ عمل اليهود ضد الإسلام في المحاولات الآتية:

أ. الانسحاب: الانسحاب من المعارك في الساعات الحرجة؛ كأنسالهم من الجيش الإسلامي في منتصف الطريق قبل يوم أحد، وهو ثلثهم تقريباً.

ب. الحرب النفسية ضد المسلمين ومحاولة تهديم معنوياتهم: وبعد الضربة القاسية التي تلقاها المسلمون في معركة أحد، انتهز المنافقون هذه الفرصة، وأخذوا يشنّون حرباً نفسية، وأظهروا الشماتة والسرور، وجعلوا يخذلون المسلمين، ويحثّونهم على التفرق عن النبي ﷺ.⁽²⁾

ج. إثارة الفتنة والمشاكل الداخلية: كما حصل في غزوةبني المصطلق، حينما حاولوا إثارة المشاعر القبلية عند الأوس والخزرج ضد المهاجرين، وكما حصل حينما بنوا

(1) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج.3، ص 111، الواقدي، المغازي، ج.1، ص 318.

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج.1، ص 317.

مسجدًا مقابل مسجد قبا، في محاولة لتفريق صفوف المسلمين وإحداث الشقاق بينهم⁽¹⁾.

د. محاولة اغتيال النبي ﷺ: عندما كان عائداً من غزوة تبوك، أراد اثنا عشر منافقاً أن يمكروا به ويطرحوه من عقبة في الطريق، ولكنه كشف محاولتهم هذه وفضحها⁽²⁾.

أسباب إخراج النبي ﷺ اليهود من المدينة

لقد بدأ اليهود يحاربون الإسلام منذ اليوم الأول لظهوره، على الرغم من أنهم كانوا أول من بشّر بظهور نبي الإسلام محمد ﷺ. فقد رأوا هذا الدين يحارب الربا والاحتكار، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية، وشاهدوا كيف التفّ العرب حوله وقبلوه، وأصبحوا جنوداً مخلصين في صفوفه، وزالت بينهم الشحنة والبغضاء، وألف هذا الدين بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخواناً، وشكلوا قوّة اجتماعية منظمة ومتّحدة مطيعة لقائدها النبي، ولها فكرها وعقيدتها وكتابها وعلومها؛ فتحرّرت من السيطرة التاريخية لليهود على مستوى المال والعقيدة والعلم، فلطالما ادعى اليهود التفوق العلمي على الأعراب، بأنهم يحملون الكتاب، ويزعمون به الأسرار والمعارف والحقائق، فجاء الإسلام ليدحض دعواهم، ويُخونُهم في حمل رسالة موسى، ويُسفّه آراءهم، ويُسقط وجاهتهم وزعامتهم وسيطّرُتهم.

ومن هنا، تبلورت علائم المعارك التالية ضدّ اليهود، فقد كان الدور اليهودي واضحًا خلال السنوات الخمس الأولى من الهجرة، في الصراع بين الوثنية والإسلام. وقد أحرجهم النبي في الفترة الأولى لقادمه إلى المدينة، فعقد معهم المعاهدة، ووادعهم، فاستجاب اليهود في الفترة الأولى، ولم تكن مؤامراتهم وفسادهم من الخطورة بحيث إنّها تسبّب قلقاً للنبي ﷺ والمسلمين.

(1) سورة التوبة، الآيات 107 و108.

(2) سورة الأحزاب، الآية 61.

لَكُنَ الْيَهُودُ فَوْجَئُوا بِرُتْبَاتٍ بَدْرٍ، فَتَغَيَّرَتْ أَسَالِيهِمْ تَغَيِّرًا جَذْرِيًّا، وَأَحْسَسُوا بِخَطَرِ الْإِسْلَامِ الْوَجُودِيِّ الْحَقِيقِيِّ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يَهْزِمُوا قَرِيشًا الَّتِي رَاهَنَ الْيَهُودُ عَلَيْهَا، وَكَانُوا يَأْمُلُونَ بِأَنْ تَكْفُلَ هِيَ بِالْقَضَاءِ عَلَى هَذَا الدِّينِ مِنْ دُونِ أَنْ يَتَكَلَّفُوا هُمُ الْخَسَائِرِ. فَأَخْذَ التَّغَيِّيرَ فِي أَسَالِيهِمْ يَظْهُرُ بِاطْرَادٍ، كَمْ حَوْلَةٌ إِشْعَالُ الْفَتْنَةِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَاجِ مَجْدُدًا، وَالتَّآمِرُ عَلَى حَيَاةِ النَّبِيِّ وَمَحَاوِلَةُ قَتْلِهِ، وَالاتِّصَالُ بِقَرِيشٍ، كَمَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفَ، فَقَرَرَ النَّبِيُّ ﷺ تَصْفِيَةَ وَجُودِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ.

1. إجلاء بنى قينقاع عن المدينة وحضارتهم:

كَانَ بَنُو قِينِقَاعَ مِنْ أَشَهَرِ قَبَائِلِ الْيَهُودِ وَأَشْجَعُهُمْ، وَأَكْثَرُهُمْ مَالًا، وَأَشَدُّهُمْ بُغْيًا وَاسْتَكْبَارًا، وَكَانُوا يَسْكُنُونَ أَقْرَبَ الْأَحْيَاءِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَيَحْتَكِرُونَ الصَّنَاعَاتِ الْذَّهَبِيَّةِ فِي يَثْرَبِ؛ حِيثُ اتَّخَذُوا سُوقًا خَاصًا حَمْلَ اسْمِهِمْ⁽¹⁾، وَكَانُوا حَلْفَاءَ لَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْمَنَافِ، وَلِعَبَادَةِ بْنِ الصَّامِتِ.

وَهُمُ أَوْلُ مَنْ نَبَذَ الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ، بَعْدَ أَنْ كَتَبَ إِلَيْهِمْ قَرِيشٌ فِي قَتَالِ النَّبِيِّ؛ فَاسْتَجَابُوا لِطَلْبِهِ. وَبَعْدَمَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى الْمَدِينَةِ بَعْدَ بَدْرٍ، اعْتَدُوا عَلَى امْرَأَةِ مُسْلِمَةٍ كَانَتْ فِي سُوقٍ لَهُمْ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَقُتِلَ الْمُعْتَدِي عَلَيْهَا، وَاجْتَمَعَ بَنُو قِينِقَاعَ عَلَى الْمُسْلِمِ فَقُتِلُوهُ. وَبِذَلِكَ حَارَبُوا رَسُولَ اللَّهِ، وَنَبَذُوا الْعَهْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِهِ.

غَضْبُ الْمُسْلِمِينَ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا عَلَى هَذَا قَرْنَاهُمْ»، فَتَبَرَّأَ عَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ مِنْ حَلْفِهِمْ، وَكَانَ هَذَا أَوْلُ انْهِيَارٍ فِي جَدَارِ التَّحَالُفِ التَّارِيْخِيِّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْخَزْرَاجِ. وَلَكِنَّ ابْنَ أَبِي سَلْوَلَ تَمَسَّكَ بِهَذَا الْحَلْفِ.

جَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ يَهُودَ بَنِي قِينِقَاعَ فِي سُوقِهِمْ، وَقَدْ أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَلَا يَطْالِبُهُمْ بِالانتِقامِ لِلْمُسْلِمِ الْمُقْتُولِ إِلَّا قَصَاصًا بَلْ وَعْفًا، ثُمَّ يَنْذِرُهُمْ بِحَرْبِ كَحْرَبِ بَدْرٍ فَرَفَضُوا الْإِسْلَامَ، ثُمَّ تَحَصَّنُوا فِي حَصُونِهِمْ.

(1) السمهودي، وفاء الوفا، مصدر سابق، ج 1، ص 278.

استخلف النبي ﷺ على المدينة أبا لبابة، وسار إليهم يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهرًا من الهجرة، يحمل لواءه الإمام علي بن أبي طالب، فحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشدّ الحصار، وهم لزموا حصنهم، فما رموا بسهم ولا قاتلوا^(١)، ونشبت بينهم وبين المسلمين معركة الإرادة والصبر، فظنّوا للوهلة الأولى أنّه مانعهم حصونهم، وأنّ خاتم النبيين ﷺ سوف يتراجع أمام صمودهم ومناعة حصونهم، ولكن النبي ﷺ خاض معركة الصبر والعناد والإصرار على الاستمرار في المعركة. وفي قمة التحدي، قرّروا التنازل، وانهارت عزيمتهم، فاقترحوا على رسول الله ﷺ أن يغادروا حصونهم، وقالوا: «أفننزل وننطلق؟». ولكن رفض إلا أن ينزلوا منها مستسلمين، خاضعين لحكمه، وقال لهم: «لا! إلا على حكمي».

فنزلوا على صلح رسول الله وحكمه، على أن تكون أموالهم لرسول الله، ولهم الذريّة والنساء، فلما نزلوا وفتحوا حصنهم، قبض رسول الله أموالهم، وأمر بهم أن يجلوا من المدينة. وطلبوا إمهالهم أيامًا عدة حتى يستطيعوا ترتيب أوضاعهم وتحصيل ديونهم، فأمهلهم خاتم النبيين ثلاثة أيام^(٢).

ونزل بنو قينقاع في بيوت ومنازل يهود وادي القرى، وأقاموا فيهم شهرًا، ثم ساروا حتى لحقوا بأذرعات بالشام^(٣).

وهكذا خلت المدينة من أقوى وجود يهودي داخليها، وكانوا يتوقعون تدخل حلفائهم من الخرج، ولم ينتبهوا إلى أنّ عقد الولاء الجاهلي قد انفرط وحل محله الولاء للإسلام، وأنّ ابن أبي لم يكن ليستطيع حشد الخرج إلى جانبهم؛ لأنّه لم يعد يسيطر عليهم كلّيًّا، وأيّة محاولة منه ضدّ النبي كانت سوف تقسم الخرج، وتؤدي إلى حرب داخلية.

(١) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 177، ابن هشام، والسيرة النبوية، ج 3، ص 51. ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 3، ص 52.

(٢) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 177، ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج 3، ص 51، 52.

(٣) الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 48، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 33، الواقدي، المغازي ج 1، ص 176، وأذرعات كانت أول بلدة بحدود الأردن من الحجاز.

2. إجلاء بنى النضير عن المدينة:

لما أُصيب المشركون في بدر، بلغ ذلك كعب بن الأشرف، وكُبر عليه قتل من قُتل في بدر، فبكاهم وهجا النبي ﷺ وأصحابه، وكان يشّبّب بنساء المسلمين ونساء النبي أيضاً حتى آذاهم، وسار إلى مكة وحرّض على رسول الله ﷺ. ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على حرب رسول الله، فلما عاد إلى المدينة بدأ بتدبير مكيدة يقتل بها النبي. وقد ظهرت تلك المكيدة عندما قدم النبي قاصداً كعب بن الأشرف. فلما دخل عليه ومعه جمّع من أصحابه، قال له كعب: «مرحباً يا أبو القاسم وأهلاً». وقام كأنه يريد أن يصنع لهم الطعام، ثم خلا بعض اليهود إلى بعض، فتناولوا في ما بينهم، وأتفقوا على قتل النبي ﷺ بطرح حجارة عليه من فوق البيت الذي هو تحته. فإنه إن قتل تفرق أصحابه، فقال عمرو بن جحاش: «أنا أظهر على البيت فأطّرخ عليه صخرة». وقد رفض بعض اليهود ذلك؛ لعلمهم بصدق نبوة رسول الله ﷺ، حيث قال سلام بن مشكم: «يا قوم، أطّيعوني هذه المرّة، وخالفوني الدهر، والله، إن فعلتم ليخبرنّ بأنّا قد غدرنا به، وإنّ هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه، فلا تفعلوا، ألا فوالله لو فعلتم الذي تريدون؛ ليقومنّ بهذا الدين منهم قائم إلى يوم القيمة يستأصل اليهود ويظهر دينه!».

وغلب على أمر اليهود اتجاه الغدر والتآمر، فجاء رسول الله الخبر من السماء بما همّوا به. فنهض سريعاً، وانصرف راجعاً عنهم، وقد عرف أنّهم لا يقتلون أصحابه وهو حيٌّ، وأخذ طريق المدينة⁽¹⁾.

وجلس أصحابه يتحدّثون، فقال حبي: «عجل أبو القاسم، قد كنّا نريد أن نقضي حاجته وننديه». فلما يئس أصحاب رسول الله من ذلك، قاموا ورجعوا، وعلموا أنّ رسول الله ﷺ قد رجع إلى المدينة، واستقبل بعض أصحاب كعب رسول الله وهو راجع إلى المدينة، فأخبروا كعباً بذلك، فقال كنانة بن صوريا: «لقد أخبر محمّد بما همّتم به من

(1) علي بن إبراهيم القطني، تفسير القطني، مصدر سابق، ج 2، ص 358.

الغدر، والله إنّه لرسول الله، وما قام إلّا لأنّه أخبر بما همّتم به، وإنّه لآخر الأنبياء...، فأطیعوني في خصلتين والثالثة لا خير فيها!». قالوا: «ما هما؟»، قال: «تسلمون وتدخلون مع محمد، فتأمنون على أموالكم وأولادكم، وتكونون من عليه أصحابه، وتبقى بأيديكم أموالكم، ولا تخرجون من دياركم»، فرفضوا ذلك مطلقاً، وقالوا: «لا نفارق التوراة وعهد موسى!».

حصار بني النضير

أمر النبي في تلك الليلة بقتل كعب بن الأشرف، قبل أن يقوم ضدّهم بأيّ إجراء، وانتدب لذلك أبا نائلة، فقتل في صبيحة تلك الليلة⁽¹⁾. ثم أرسل محمد بن مسلمة الأنصاري إلى يهود بني النضير، ليقول: «إنّ رسول الله أرسلني إليّكم: أن اخرجوا من بلده، وإنّما أن تأذنوا بحرب⁽²⁾!».

فواافقوا على ذلك، ومكثوا أياماً يتجهّزون، في بينما هم على ذلك إذ جاءهم رسول عبد الله بن أبي بن سلول، ورفض الخروج، فانقلبت الأمور. فأبى حبي بن أخطب إلّا محاربة رسول الله. وأرسل أخاه جدياً، يقول لرسول الله: «إنا لا نبرح من دارنا وأموالنا؛ فاصنع ما أنت صانع». وأرسله أيضاً إلى ابن أبي بتعجّيل ما وعد من النصر.

فلما وصل جدي إلى رسول الله وأخبره قرارهم، أظهر رسول الله التكبير، وقال: «الله أكبر، حاربت يهود»، وكبّر المسلمون بتكبيره. وهكذا، بدلاً من الوجوم والارتباك في الموقف، والذي كان ينتظره اليهود من المسلمين، كان التكبير إعلاناً حماسياً لموقف شديد من اليهود، وبسرعة غير متوقعة، مما أربكهم هم وأوقعهم في الحيرة، وززع ثباتهم.

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 256، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 207، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 152، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 79.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مصدر سابق، ج 2، ص 359.

ونادي منادي رسول الله يأمر أصحابه بالمسير إلى بنى النضير، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وكان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة النبوية، قبل أحد، صبيحة قتل كعب بن الأشرف⁽¹⁾.

وأصبح رسول الله غادياً عليهم بالكتائب، وكانوا في قرية يقال لها «زهرة»، فوجدهم ينوحون على كعب، فقالوا: «يا محمد، واعية إثر واعية؟!»، ثم حشدوا للحرب.

وهكذا، أصبح بنو النضير وحدهم بعد أن اختار يهود بنى قريظة المحافظة على عهدهم مع النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد اختار أن يعامل بنى النضير كما عامل بنى قينقاع، أي إخراجهم من المدينة. وقد سلك بذلك طريقاً وسطاً، ولم يكن حاداً في موقفه منهم، وإن كانوا ينتظرون منه الحرب والقتال والإبادة جزاء نقضهم العهود، ولكن علاقاتهم المتشابكة في المدينة وأثرهم البليغ في نفوس كثير من الناس، جعلا النبي ﷺ يختار عدم القتل والإبادة خشية من أن يترك ذلك أثراً سلبياً في نفوس الناس وصورة الإسلام تقرن بالقتل والقسوة وسفك الدماء. ولكن عندما رفضوا الخروج سلماً اضطر إلى الضغط عليهم عسكرياً من أجل تنفيذ ذلك.

وقد سار إليهم بعد العصر، وكانت الراية بيد عليّ بن أبي طالب ؓ، مما زاد في رب اليهود وزرع الخوف في نفوسهم⁽²⁾.

واستمر حصار بنى النضير واحداً وعشرين يوماً، وقرر رسول الله، بعد أن أبوا النزول على شروطه، تشديد الحصار عليهم، وحاصرهم خمسة عشر يوماً، ومرة أخرى انتصرت إرادة خاتم النبيين ﷺ، وفشل اليهود، فاقترحوا على خاتم النبيين الحل الذي كان هو

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 258، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 160، البخاري، صحيح البخاري، ج 3، ص 10، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 253، العيني، بدرا الدين العيني، عمدة القاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج 17، ص 126، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 74، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 145، السهيلي، الروض الأنف، ج 3، ص 250، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 255.

(2) وهو مكان مسجد الفضيخت، وهو جنوب مشربة أم إبراهيم في الشارع الموصلى بين شارع العوالى وخط الحزام على طريق مستشفى المدينة الوطنى، كما ذكره عبد الرحمن خويلىد فى كتابه: المساجد والأماكن الأثرية المجهولة، راجع: ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ج 1، ص 69.

قد طرحة عليهم أولاً ورفضوه، وقالوا: «كما كنت تريده، نخرج ولنا ما حملت الإبل». وهنا، رفض رسول الله القبول بما كان هو قد طرحة أولاً، لأنّ الموازين قد تغيّرت، فهم خسروا جولة جديدة، وعليهم أن يتنازلوا بما يساوي هذه الخسارة الجديدة. فكان الاقتراح بأن يحملوا النساء والصبيان فقط، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وغير ذلك.

نتائج المعركة

خرج بنو النضير من المدينة المنورة، من دون قتال. فإنّ أرض بنى النضير لم تُفتح عنوة بالعمل الحربي المعروف، فأفاء الله أراضيهم على رسوله، وسُوّغه أموالهم، فأصبحت خاصة برسول الله يضعها كيف يشاء كما أراد الله تعالى، فجمع رسول الله ﷺ الأنصار، واقتصر عليهم أن يعطي المهاجرين ما غنمته من بنى النضير، فيخرج المهاجرون من مساكنهم وأموالهم، فقبل الأنصار بذلك، وقسّم تلك الغنائم بين المهاجرين، وأعطى ثلاثة من الأنصار فقط لفقرهم⁽¹⁾.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج2، ص 360، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملی، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج9، ص35.

المفاهيم الرئيسية

- لقد استخدمت حركة النفاق أساليب المكر والخداع، ولم يكن يسعهم أن يعلموا مخالفتهم، ويظهروا شركهم، فتوّعوا الشرّ بإظهار الإسلام.
- لم يذهب رسول الله ﷺ إلى كشف حقيقة المنافقين؛ بل ترك للناس أن تكشف حقيقتهم، ويتبيّن لهم كذبهم وخداعهم.
- لقد شكّل اليهود العدوّ الداخليّ للنبيّ محمد ﷺ والإسلام، وقد التقت مصالح اليهود مع مصالح المنافقين داخل المجتمع الإسلاميّ، واتّخذ اليهود إجراءات عدّة كان من شأنها الإساءة إلى الإسلام والمسلمين.
- يعتبر يهود بني قينقاع من أشهر القبائل اليهودية، وهم أول من نبذ العهد مع النبي ﷺ بعدما اعتدوا على امرأة مسلمة في أحد الأسواق، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فرفضوا ذلك، وأعلنوا الحرب على الإسلام والمسلمين، وتحصّنوا في حصونهم، فسار إليهم النبي ﷺ بجيشه، وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وبعد ذلك نزلوا على حكم النبي ﷺ بأن تكون أموالهم له ﷺ، ولهم الذرية والنساء.
- بعد أن أصيب المشركون في معركة بدر، قام كعب بن الأشرف بهجاء النبي ﷺ وأصحابه، وكان يشّبّب بنساء المسلمين، وخرج إلى مكة، وأجمع رأيه على حرب النبي ﷺ، فقرر أن يدعو رسول الله ﷺ إلى حيّهم، ثم يقوم بقتله ﷺ غيلة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، وأمر بقتل كعب، فقتل في اليوم التالي، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتجهز لقتال بني النضير.
- سار رسول الله ﷺ إليهم في جيشه، فدخل اليهود إلى حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ واحداً وعشرين يوماً، فلما يئسوا نزلوا على حكم النبي ﷺ كما جرى مع بني قينقاع، وخرجوا من المدينة.

الدرس الرابع عشر

معركة أحد (1)

(اختبار الطاعة والولاء)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يحلّل أسباب معركة أحد.
2. يبيّن استعدادات جيش المسلمين لمعركة أحد.
3. يعرف أحداث المعركة وسبب انتصار المسلمين ثم هزيمتهم في أحد.

تمهيد

شكلت معركة بدر مرحلة حاسمة في حياة الإسلام والمسلمين، وأثرت تأثيراً كبيراً على هيبة ومكانة قريش بين القبائل العربية. وكان من عادة الجاهلية أن لا تبيت قبيلة ولها دم مع قبيلة أخرى إلا أن تأخذ بشارها. ولذا، سعت قريش منذ وقوع الهزيمة بحقها في معركة بدر أن تثار لقتلاها من جهة، ومن جهة أخرى أن تعيد مكانتها بين القبائل العربية؛ فعملت على لملمة صفوفها لقتال المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ يترقب الأحداث، ويستجمع المعلومات عن قريش وتحركاتها، وكان يعلم أن قريشاً لن تسكت حتى تثار لقتلاها، ولو مع مرور الزمن. وقد استعدّت قريش، وحشدت المقاتلين، وخرجت بنفسها لقتال رسول الله ﷺ، ومواجهة الدولة الإسلامية.

تعريف عام بالمعركة

قال الحموي: «أُحد: بضم أوله وثانيه معاً: اسم الجبل الذي كانت عنده غزوة أُحد، وهو مرتجل لهذا الجبل، وهو جبل أحمر، بينه وبين المدينة قرابة ميل في شماليتها⁽¹⁾، وسمّي أُحد أحداً لتوحده من بين تلك الجبال»⁽²⁾. ومعركة أحد هي من المعارك المهمة في تاريخ الإسلام، فقد وقعت بين المسلمين

(1) الحموي، معجم البلدان، مصدر سابق، ج 1، ص 109.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج 4، ص 11.

وقبيلة قريش، وهي الغزوة الثانية في وجه قريش، وقد حصلت بعد معركة بدر بسنة تقريرياً، حيث وقعت في السابع من شهر شوال من العام الثالث للهجرة، وسميت بأحد نسبة إلى جبل أحد بالقرب من المدينة المنورة، والذي وقعت الغزوة عنده.

وكان السبب الرئيس لمعركة أحد هو رغبة قريش في الانتقام والأخذ بالثأر لقتلها في معركة بدر. وقد حشدت قريش عدداً كبيراً من المقاتلين من القبائل العربية، وكان عدد المشركين حوالي ثلاثة آلاف، بينما كان عدد المسلمين حوالي سبعمائة مقاتل. وقد قُتل سبعون من المسلمين، فيما قُتل من المشركين اثنان وعشرون مشركاً، وكانت نتيجة المعركة عدم تحقيق النصر على المشركين.

استعدادات قريش للمعركة

إن نتائج حرب بدر كانت قاسية على مشركي قريش، ومفاجئة لليهود والمنافقين في المدينة. فكريش لا يمكن أن تهدأ بعد الآن حتى تثار لكرامتها، ولم يقتل من أشرافها، وكانت الصدمة كبيرة فلم يتحملها المشركون، وانعكست على أعضائهم وقراراتهم فوتّرّتهم، حتى أعلنوا المنع عن بكاء قتلاهم غضباً وحنقاً. ولكنّهم عادوا فتراجعوا عن هذا القرار، وسمحوا للنساء بالبكاء؛ لأن ذلك يثير المشاعر، ويذكّر الرجال بالعار الذي لحق بهم، وقد يحرّضهم على الانتقام.

ومن جهة النبي الأعظم ﷺ ومن معه من المسلمين، استمرّوا بمحاصرة قريش بمعاهدات مع القبائل التي تواجد في المنطقة، ومواعيدات لها، وأصبحوا يسيطرؤن على طريق تجارتها، ولم يعد هذا الطريق آمناً لها؛ لأنه قد أُغلق عليها تماماً. فكان على قريش أن تبادر إلى عمل عسكري مباشر يفك الحصار عنها، ويعيد إليها هيبتها واحترامها، وإلى طريق الشام الأمن والاستقرار.

فبدأت قريش تتّصل بالقوى المعادية للنبي؛ كاليهود في المدينة الذين أصبحوا يخافون على مركزهم السياسي والاقتصادي في المنطقة، وعلى هيمتهم الثقافية أيضاً، فتحرّك منهم كعب بن الأشرف واتّصل بقريش وحرّضها كما تقدّم. وكان معهم أبو عامر،

عبد عمرو بن صيفي الأوسي الفاسق، وكان قد ترّهُب في الجاهلية ولبس المسوح⁽¹⁾، حيث جعل يحرّض قريشاً على رسول الله ﷺ. ولما سمع رسول الله بخبره، قال: «لا تقولوا: 'الراهن'، ولكن قولوا: 'الفاسق'»⁽²⁾. وكانت من مصادر الميزانية الحربية أرباح العير التي نجت من المسلمين، وكانت هزيمة بدر بسببها، كذلك قاموا بمحاولة حشد القبائل، واستطاعوا الحصول على مناصرين.

جيش المشركين إلى أحد

كان عدمة جيش المشركين ثلاثة آلاف مقاتل، واستأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش الذين كانوا من المقاتلين أيضًا، فأصبحوا خمسة آلاف، كلّهم بقيادة أبي سفيان الذي صار زعيم قريش بعد قتل أشرافها في بدر.

وقد أخرجوا معهم النساء، منهنْ هند بنت عتبة، لئلا يفرّوا وليدركنهم قتلى بدر، فيغىّبن ويضرّبن بالدفوف، حتى يحرّكّن عندهم رغبة الانتقام ويقوينها، ويرغّبّنهم بمواصلة الحرب حتى يستطيعوا أن يقفوا بشجاعة في مقابل المسلمين.

سارت قريش حتى نزلت بذى الحليفة مقابل المدينة في يوم الأربعاء، وكانت المعركة يوم السبت، وسرحوا إبلهم في زروع المدينة التي كان المسلمون قد أخلوها من آلة الزرع قبل ذلك⁽³⁾.

استعدادات المسلمين للمعركة

1. أخبار قريش عند رسول الله :

كان نفرٌ من خزاعة حلفاء عبد المطلب، فيهم عمرو بن سالم، قد سروا من مكة أربعًا، فوافوا قريشاً، وعسكروا بذى طوى، فلما وصلوا المدينة أخبروا رسول الله ﷺ.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 2، ص 234.

(2) المصدر نفسه، ج 1، ص 235.

(3) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 117، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 70، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 203، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 176، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 191، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 1، ص 202.

الخبر ثم انصرفوا، فلقو قريشاً ببطن رابغ على أربع مرووا بهم راجعين إلى مكة. فقال أبو سفيان: «أحلف بالله، إنهم جاؤوا محمداً فأخبروه بمسيرنا وعدتنا، وحدّروه منا، فهم الآن يلزمون صياصيهم»⁽¹⁾.

وسمع بهم رسول الله أنهم نزلوا حيث نزلوا، وأرسل بعض العيون لمراقبتهم، وأرسل أيضاً الحباب بن المنذر سراً، وقال له: «إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين، إلا أن ترى في القوم قلة». فرجع إليه فأخبره خالياً، وأمره الرسول ﷺ بالكتمان⁽²⁾; كي لا يعرف المسلمون بعدهم وعدهم خوفاً من هبوط معنوياتهم، ولكن الخبر فشا بعدّهم وعدهم، ووّقعت الأراجيف في المدينة.

2. النبي ﷺ يستشير أصحابه:

بِثَّ النَّبِيِّ ﷺ الْحَرْسُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَحَوْلَ الْمَسْجِدِ، وَجَمْعُ أَصْحَابِهِ لِلتَّشَافُورِ فِي الْأَمْرِ، وَأَخْبَرُهُمْ أَنَّ قَرِيشَاً قد تجمّعت ت يريد المدينة، وكان رأيه أن لا يخرج من المدينة وأن يقاتل الرجال على أفوه السكك، ويرمي الضعفاء من فوق البيوت، واستشار أصحابه، وكان يحب أن يوافقه على مثل ما رأى وعبر عن ذلك برأيا رآها⁽³⁾.

فقد كان المشركون يمتلكون قوة اقتحام ضاربة، وهي المئات من الفرسان الذين يستطيعون تشتيت أي قوة للمشاة مهما كان عددها لو كانت المواجهة في البدية والصحراء، بخلاف ما لو كان القتال في أزقة المدينة، فسوف تخسر قريش قوتها، ويضطرّ الفرسان إلى الترجّل وخوض القتال مشاة.

وأما ابن أبي والمنافقون فما كانوا ليجرؤوا أن يخونوا قومهم، ويعرضوا أبناءهم وإخوانهم للقتل، بل سيجد الجميع أنفسهم مضطرين للقتال. لذلك كله، كان النبي يرجح البقاء داخل المدينة ويكره الخروج، وهذا ما وافق عليه عبد الله بن أبي، كذلك كان ذلك

(1) الصيادي، هي البيوت المتراسدة العالية الجدران، المنيعة التي تشبه الحصون.

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج 1، ص 207.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 111، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 3، ص 67.

رأى بعض أصحاب رسول الله⁽¹⁾. ولكن الجو العام الذي سيطر على اجتماع المشاورة كان يشد باتجاه آخر، وهو اتجاه الخروج من المدينة، وكان يمثله كثير من الصحابة ممن لم يشهد بدراً وطائفة من الشباب المتحمسين الذين ذاقوا حلاوة النصر في بدر، واحتجموا لذلك بأن إقامتهم في المدينة ستجعل عدوهم يظنّ فيهم الجبن، فيجرؤ عليهم.

نزل خاتم النبيين ﷺ على رأي غالبية الناس، وكانت روح الطاعة والانضباط والولائية لله ورسوله ما زالت في أوائل تكوينها في نفوسهم، فخشى رسول الله أن يوجه إليهم أمراً صارماً بالبقاء في المدينة، فينعكس ذلك سلباً عليهم.

3. الخروج من المدينة المنورة:

بعد اتخاذ قرار الخروج من المدينة، صلى خاتم النبيين ﷺ الجمعة بالناس، ثم عزّهم، وأمرهم بالجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا. وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك، وكرهه كثير من أصحابه ممن رغب بالصمود فيها، وحضر الرجال وقد لبسوا السلاح لصلاة العصر فصلّى بهم رسول الله. ثم دخل بيته، واصطف له الناس ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه.

وفي خطوة مفاجئة، ندم الناس على استكراهم لرسول الله، فكلّموه بذلك، فقال: «دعوتك إلى هذا فأبكيتني، ولا ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه⁽²⁾. انظروا ما أمركم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم». واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أعطى اللواء لعلي بن أبي طالب ؓ⁽³⁾.

(1) الواقدي، المغازي ج 1، ص 205، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 218.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 67. الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 188، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 1، ص 324، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 25 و 26، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 202 - 214.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 15، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 5، ص 288، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 2، ص 106، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 112، الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص 48، الحاکم البیسابوری، المستدرک على الصحيحین، ج 3، ص 137، ص 111، الخوارزمی، المناقب، ص 21 - 22، ص 258، محب الدین الطبری، وذخائر العقبی، ص 75.

4. الثبات وعدم التردد:

لما صار رسول الله ﷺ على الطريق، قال له بعض المترددين: «نرجع؟». فقال خاتم النبيين ﷺ: «ما كان لنبيٍ إذا قصد قوماً أَن يرجع عنهم». وكانوا ألف رجل، فلما كانوا في بعض الطريق انخذل عنهم عبد الله بن أبي سلول، شيخ المنافقين، بثلث الناس، وقال: «والله، ما نdry على ما نقتل أنفسنا والقوم قومه!». فرجع بمن اتبّعه من قومه من أهل النفاق والريب. وقد ترك ذلك أثراً معنوياً سيئاً في نفوس المسلمين، حتى أَن بعضهم هم بالانسحاب أيضاً كبني حارثة وبني سلمة، ولكنهم عادوا قبل فوات الأوان⁽¹⁾.

المواجهة بين المسلمين والمشركين

وقد وقعت معركة أحد سنة ثلات من الهجرة، يوم السبت، للنصف، أو لسبعين خلون من شوال⁽²⁾، وإليك تفاصيل المعركة:

1. تقسيم القوات المقاتلة:

أ. جيش المشركين:

قسم أبو سفيان المشركين إلى ثلاثة مجموعات: قريش في الوسط وهي ثلاثة آلاف رجل من المشاة، وعلى الميمنة مئتا فارس بقيادة خالد بن الوليد كمياناً. وقال لهم أبو سفيان: «إذا رأيتمونا اختلطنا بهم، فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا من ورائهم»، وعلى الميسرة، عكرمة بن أبي جهل⁽³⁾. وكانت خطة المشركين تعتمد على استدراج المسلمين لكي يتبعوا عن الجبل، ويتقدموا إلى وسط ميدان المعركة، ثم تقوم الخيالة بالالتفاف بسرعة وراء المسلمين، لوضعهم بين مطرقة الفرسان وسنداً المشاة.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 112، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 176، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص 340. ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 191، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 3، ص 68.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 106، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 199 و 334، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 183.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 112، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 70.

ب. الجيش الإسلامي:

أمّا الخطة النبوية فكانت دفاعيّة إستراتيجية. فلما وصل إلى منطقة القتال، اختار أن ينزل إلى جانب أحد؛ بحيث يكون ظهرهم إلى الجبل⁽¹⁾، فيكون الجبل ملاذاً مفترضاً للانسحاب. كذلك كان الجبل مانعاً قوياً وصعباً يحدّ من قدرة فرسان المشركين على تحقيق حركة تطويق للمسلمين. ثمَّ انتقل خاتم النبيين ﷺ إلى الجنة التكتيكية، وكان على يسار المسلمين جبل، فيه ثغرة، فأقام عليها خمسين رجلاً من الرماة المهرة في إصابة الهدف، عليهم عبد الله بن جبير، وأوصاه وأصحابه أن يرددوا الخيل عنهم، لا يأتونهم من خلفهم، وقال لهم: «إن كانت لنا أو علينا، فاثبتو مكانكم لا نؤتين من قبلكم، إن رأيتمنا تخطفنا الطير، قد هزمنا حتى أدخلونا المدينة؛ فلا تبرحوا من مكانكم هذا، ولا تعينوا، ولا تدفعوا عنّا، وإن قتلنا عن آخرنا، وارشقوا خيلهم بالنبل، فإنَّ الخيل لا تقدم على النبل. والزموا مراكزكم حتى أرسل إليكم، فإنَّما نؤتي من موضعكم هذا، اللهم، إني أشهدك عليهم. وإن رأيتمنا هزمنا القوم وأوطأناه حتى أدخلناهم مكّة، فلا تبرحوا هذا المكان حتى أرسل إليكم. اتقوا الله، واصبروا»⁽²⁾.

2. القتال والاشتباك:**أ. الجولة الأولى: انتصار الإسلام وهزيمة الشرك**

كانت أولية قريش في بني عبد الدار، وكانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار، فبرز. عندها أرسل رسول الله إلى عليٍّ عليه السلام، وأمره بالتقدم. فتقدم عليٍّ وبرز إليه، وقتلته. وهكذا كلما حمل اللواء مشرك، انقضّ عليه عليٍّ عليه السلام وقتلته.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ابن اسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 3، ص 69، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 219.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 80، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 192، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 112، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 176، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص 341.

وبقي لواهُم مطروحاً على الأرض، حتّى أخذته إحدى نسائهم، وانهزم القوم، وكان عدد أصحاب اللواء الذين قتلوا أحد عشر رجلاً⁽¹⁾.

ولما قتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام أصحاب اللواء، انتكست راية المشركين، وصاروا كتائب متفرقة. ومن جهة أخرى، صمد الرماة أصحاب الثغرة، ورددوا محاولات الالتفاف من الخلف التي كان يحاول القيام بها خالد بن الوليد. واقتتل الناس قتالاً شديداً، وأمعن المسلمون في صفوف المشركين، فجعلوا يضربون وجوههم حتّى انتقضت صفوفهم، وأبعدوهם عن معسكرهم، ولم يبق في وسط ساحة المعركة إلاّ نساء قريش اللواتي كنّ يولون منهزمات، وقد انصرف المسلمون عنهنّ، ولو شاؤوا أسرهنّ لفعلوا، وأنزل الله نصره على المسلمين، وأخذ المقاتلون المسلمون ينتبهون ما تركه المشركون، وأكّروا على الغنائم، وأنزل الله نصره على المسلمين⁽²⁾.

ب. الجولة الثانية: خسارة الانتصار

لما رأى الرماة المقاتلين المسلمين يغنمون، قرر بعضهم النزول عن الجبل، فخطبهم أميرهم عبد الله جبير، وأمرهم بطاعة الله وطاعة رسوله، وأن لا يخالفوا أمر رسول الله، فتركوا أمره وعصوه، وأقبلوا على الغنائم حتّى لم يبق منهم معه إلاّ ذيافير ما يبلغون العشرة⁽³⁾، فنظر ضرار بن الخطاب الفهري إلى الجبل الذي يتواجد عليه المقاتلون الرماة، فوجده خاليًا منهم، فقال لخالد: «انظر وراءك!». فلما رأى خالد بن الوليد ذلك، أمر بالتحرك، وانضمَّ إليه عكرمة من جهة ميمنة المسلمين، فانتهوا إلى الجبل، ولم يجدوا عليه القوّة التي تستطيع صدّهم، فحملوا عليهم، وقتلواهم. ثم دخلت خيل المشركين

(1) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 293، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 2، ص 513، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 113، الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص 52، الشيخ الصدوق، الخصال ج 2، ص 121.

(2) الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص 52، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 84، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 1، ص 153، الواقدي، المغازى، ج 1، ص 229، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 239، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 2، ص 513.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 112، الواقدي، المغازى، ج 1، ص 231، ص 283.

على قوم غارين آمنين ينتهبون، فأقحموا الخيل عليهم؛ وتطايروا في كل وجه، فقتلوا فيهم قتلاً ذريعاً، وتفرق المسلمون في كل وجه، وخلوا أسرى المشركين⁽¹⁾. رأت قريش المنهزمة عودة رجالها إلى الحرب، ورفعت عمرة بنت علقمة الحارثية لواءهم، فتراجع قريش إلى لوائها وعادوا إلى الحرب من جديد.

وبعد تراجع المسلمين من ساحة المعركة، لم يثبت في أرض المعركة إلا رسول الله ﷺ، والإمام علي عليه السلام وحده⁽²⁾ يدفع عن النبي ﷺ، ولكن خلص العدو إلى رسول الله ﷺ، وكثير المشركون على النبي ﷺ.

فقال جبريل: «يا محمد، إن هذه الموساة، لقد عجبت الملائكة من موساة هذا الفتى!». فقال ﷺ: «وما يمنعه، وهو مني وأنا منه؟!». فقال جبريل: «وأنا منكما»⁽³⁾. ثم سمع منادياً من السماء، فقال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «أما تسمع يا علي مدحوك في السماء، إن ملغاً ينادي: لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتن إلا علي؟». فبكى علي عليه السلام سروراً، وحمد الله سبحانه على نعمته⁽⁴⁾.

ورأى المسلمون ثبات رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام، فبدأ بعضهم بالرجوع

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 113، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 81، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 231، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 82، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 177.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 48، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 69، الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، تعليق وملحوظات: السيد محمد باقر الغرسان، دار النعmantان، النجف الأشرف، العراق، 1966م، ل.ط، ج 1، ص 199، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 111، الخوارزمي، المناقب، ص 21.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 116، روضة الكافي، للكليني، ص 320، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 70، الشيخ الصدوق، الخصال، ج 2، ص 556، الشيخ الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج 1، ص 85، فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص 24، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 3، ص 286.

(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 251، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 194، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 124، ابن الأثير، أسد الغابة، ج 4، ص 21، الشيخ الصدوق، الأimali، ص 167، الشيخ الصدوق، معاني الأخبار، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، ق، إيران، 1379هـ ل.ط، ص 119، الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 514، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج 15، ص 192.

إلى أرض المعركة⁽¹⁾، زرافات ووحداناً، إلى أن تكاثروا، وأصبحوا ثلاثة تقربياً، فأحاطوا بالنبي ﷺ، واستطاعوا الوصول به إلى فم الشعب⁽²⁾. فعاد النبي ﷺ ينظمهم، وأرجعهم إلى مراكزهم الأولى ومواقعهم التي كان قد عينها لهم قبل المعركة⁽³⁾، وعاد بقية من كانوا في السفح، ولكن الذين كانوا على الجبل فوق الصخرة، لم يعودوا، أو أكثرهم، إلى القتال، ولا تركوا مركزهم، إلا بعد انتهاء المعركة وتوقف القتال. وتحاجز الفريقيان، وقنع المشركون بما وصلوا إليه من قتل من قتلوا في الحرب، وأملوا يوماً ثانياً يكون لهم فيه الظفر بالنبي ﷺ⁽⁴⁾.

محاولة أبي سفيان في اكتساب النصر

أراد أبو سفيان أن يعتبر هذا النصر الظاهري، وإن كان ينطوي على الرعب القاتل، مؤيداً لدینه ولإلهه هبل. فقد تقدم من بين صفوف المشركين؛ بحيث يسمع المسلمين صوته، وصرخ بأعلى صوته: «أَعْلُ هَبْل». فأمر النبي عليه السلام بإيجابته؛ فصرخ علي: «أَللّه أَعْلَى وَأَجْلٌ». فقال أبو سفيان: «يا علي، إله قد أنعم علينا»، فقال علي عليه السلام: «بل الله أنعم علينا».

فقال أبو سفيان: «إن الحرب سجال، يوم بيوم بدر». فقال علي: «لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلناكم في النار». ثم قال أبو سفيان، وكأنه يريد أن يتتأكد من أن خاتم النبيين عليه السلام ما زال حياً: «يا علي، أسألك باللات والعزى هل قتل محمد؟»، فقال له علي عليه السلام: «لعنك الله، ولعن الله اللات والعزى معك، والله ما قتل محمد، وهو يسمع كلامك»⁽⁵⁾.

(1) التستري، محمد تقى، قاموس الرجال، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، قم، إيران، 1419هـ ط 1، ج 5، ص 7، العلامة المجلسى، بحار الأنوار، ج 20، ص 83، الزمخشري، محمود بن عمر، ربيع الأبرار، تحقيق: عبد الأثير منها، مؤسسة الأعلمى، بيروت، لبنان، 1992م، ط 1، ص 833 - 834 .

(2) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج 1، ص 280.

(3) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 116، العلامة المجلسى، بحار الأنوار، ج 2، ص 54.

(4) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، مصدر سابق، ج 14، ص 246.

(5) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 117، الحلبى، السيرة الحلبية، ج 2، ص 245.

الحافظ على المدينة

وأراد رسول الله ﷺ استطلاع وضع المشركين، فقال ﷺ: «هل من رجل يأتينا بخبر القوم؟». فلم يجبه أحد، فقال عليٌّ عليه السلام: «أنا آتيك بخبرهم». قال ﷺ: «اذهب! فإن كانوا ركبوا الخيل، وجنبوا الإبل؛ فهم يريدون المدينة. والله، لئن أرادوا المدينة لا يأذن الله فيهم، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزَّنَّهم، وإن كانوا ركبوا الإبل وجنبوا الخيل؛ فإنَّهم يريدون مكَّةً».

فمضى عليٌّ عليه السلام على ما به من الألم والجرحات، حتى كان قريباً من القوم فرأهم قد امتطوا الإبل، وجنبوا الخيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال النبيُّ: «أرادوا مكَّةً»⁽¹⁾.

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج. 2، ص. 205، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج. 2، ص. 161، الحلى، السيرة الحلبية، ج. 2، ص. 244، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج. 1، ص. 124، الشيخ الطبرسى، إعلام الورى، ج. 1، ص. 181، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج. 3، ص. 100، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبيِّ الأعظم، ج. 7، ص. 51.

المفاهيم الرئيسية

- إن معركة «أحد» من المعارك المهمة والمفصلية في تاريخ الإسلام، وقد حصلت بعد معركة بدر بسنة تقربياً في السابع عشر من شهر شوال من العام الثالث للهجرة، وكان السبب الرئيس لهذه المعركة هو رغبة قريش في الانتقام والأخذ بثأر قتلها في معركة بدر.
- إن قريش استعدادت بكل قوتها لمواجهة الإسلام في هذه المعركة، فقد حشدت المناصرين؛ فاتصلت بالقوى المعادية للإسلام في المنطقة، وقد رصدت أموال ما ربحته من العير التي نجت من أيدي المسلمين قبيل معركة بدر، وقد بلغ عديد جيشهم خمسة آلاف مقاتل من العرب والأحابيش.
- استعدّ رسول الله ﷺ للمعركة، وأعدّ المسلمين لذلك، وقام بإجراءات عدّة، وهي:
أ. رصد كل تحركات قريش.
- ب. استشارة الأصحاب ببقاء داخل المدينة أو الخروج.
- ج. خرج رسول الله ﷺ من المدينة، ووعظ الناس وحثّهم على الجهاد، وملاقاة العدو.
- أثر المنافقون في الجيش الإسلامي بعد أن انسحبوا في الطريق وعادوا إلى المدينة.
- قام رسول الله ﷺ بتقسيم الجيش الإسلامي إلى مجموعات ثلاثة. وبخطة مفاجئة لقوى الشرك، قام رسول الله ﷺ بحماية ظهور المسلمين بوضع خمسين راميّاً على جبل أحد.
- بعد أن انهزم المشركون، وفرّوا هاربين؛ لحق بهم المسلمون، فانغر بذلك الرماة على جبل أحد، فنزل أكثرهم لجلب الغنائم، فالتفت مجموعة من المشركين خلف المسلمين، وبدأت بقتل المسلمين، فاختلط الأمر على المسلمين، فنظر الهاريون من قريش إلى ذلك، فأعادوا الكراهة عليهم، وبدأت الأمور تميل لصالح المشركين، فهرب المسلمون من أرض المعركة إلى الجبال، فلم يبق سوي رسول الله ﷺ والإمام علي عليهما السلام ونفر منبني هاشم، وثبتوا في أرض المعركة، ولما رأى المسلمون ذلك عاد فريق منهم، حتى استقرت الأمور بين الطرفين، وتراجع رسول الله ﷺ إلى الجبل، وحمى ظهر الجيش الإسلامي.

الدرس الخامس عشر

معركة أحد (2)

(النتائج والآثار، غزوة دومة

الجند)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف الآثار والنتائج المادية والمعنوية لمعركة أحد.

2. يستنتج خمس عبر من معركة أحد.

3. يتعرّف إلى أهداف غزوة دومة الجند وأسبابها

وآثارها.

تمهيد

لم تتحقق قريش أهدافها من معركة أحد بشكل كامل، وإن كانت هذه المعركة قد أظهرت وجود بعض التغرات في الصف الإسلامي، مما هيأ الفرصة لتسديد ضربة موجعة لل المسلمين. ولكن قريشاً على الرغم من ذلك عجزت عن تحقيق نصر حاسم، بل هي قد خسرت، بالإضافة إلى معنوياتها، كثيراً من رجالها، فإذا بمعركة أحد تزيد من قوة الإسلام والمسلمين، وتعن في إضعاف شوكة الشرك والمشركين.

نتائج معركة أحد وأثارها

1. الخسائر البشرية:

انتهت معركة أحد بسبعين شهيداً من المسلمين، وهذا ما وعدهم به النبي حين فداء الأسرى بعد واقعة بدر⁽¹⁾، ومثل نساء المشركين في جثث شهداء المسلمين. وأماماً خسائر المشركين فقد بقيت مجهرة، إلا أنّ المتيقّن أنّ علياً والحمزة قد قتلا منهم مقتلة عظيمة بلغت على ما يقولون قرابة الخمسين رجلاً.

2. الآثار المعنوية والروحية:

يمكن التوقف عند مجموعة من الدروس وال عبر التي نستخلصها مما حدث مع جيش المسلمين في معركة أحد، وكان لها آثار سلبية على المستويين المعنوي والروحي.

(1) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج 1، ص 291.

أ. عدم إطاعة أوامر القيادة: إنَّ القوَّة التي كانت بقيادة عبد الله بن جبير لم تطع أوامر القيادة، وتركت مواقعها، مما سبَّب هجوم العدو بسرعة على المسلمين من الخلف. فإنَّ السبب الأوَّل لما لحق بالنبيِّ ﷺ وللهزيمة التي لحقت بال المسلمين، وما جرى عليهم من النكبات، والقتل الذريع، حتَّى لقد قتل منهم سبعون، وجُرح أعداد هائلة هو أَنَّهم عصوا أمر الرسول الذي كان صريحاً معهم في أن لا يتركوا مراكزهم، حتَّى يرسل إليهم.

ب. الاغترار بالنفس: كان لاغترارهم بأنفسهم، وبكثرتهم، أثر كبير في حلول الهزيمة بهم. والاغترار بالكثرة يفقد العناصر المشاركة شعور الاعتماد على النفس، ويجعلهم يعيشون روح التواكل، واللامسؤولية. فقد قالوا للنبيِّ ﷺ: «قد كنت في بدر في ثلاثة رجال، فأظفرك الله بهم، ونحن اليوم بشر كثير، نتمنَّى هذا اليوم، وندعو الله له، وقد ساقه الله إلى ساحتنا هذه»⁽¹⁾.

ج. الطمع في الدنيا: إنَّهم لَمَا شاهدوا من مكان استقرارهم أنَّ المسلمين يجمعون الغنائم، وبسبب طمعهم بالحياة الدنيا، خافوا أن يفوتوا شيئاً منها، فتركوا مواقعهم، مما هيَّا لاختراق العدو لغورهم الخلفيَّة ومباغتهم. فكان لا بدَّ في هذه الحالة من إعادة التمحيق لهم، وابتلائهم، ليرجعوا إلى الله تعالى، وليميز الله المؤمن من المنافق، وليزداد الذين آمنوا إيماناً؛ لأنَّ الإنسان ربِّما يغفل عن حقيقة العنایات الإلهيَّة، والإمدادات الغيبية، حين يرى الانتصارات تتواتي، فينسب ذلك إلى قدرته الشخصية. ولأجل ذلك، نجد أنَّهم حين غلبوا شكوا في هذا الأمر، وقالوا: «هل لنا من الأمر شيء؟»؛ فجاءهم الجواب القاطع: «قل: إِنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ». نعم، لا بدَّ إذَا من إعادتهم إلى الله تعالى، وتعريفهم بحقيقة إمكاناتهم، وقدراتهم.

(1) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج، 1، ص 211.

د. عدم الانضباط: الانضباط أساس النجاح، خصوصاً حينما يكون القائد نبياً حكيمًا، ولربما تكون مخالفة أفراد معدودين سبباً في دمار جيش بкамله، كما كان الحال في قضية أحد.

هـ. الجبن والخور: وعدم الشجاعة في القتال؛ لأنّ عناية الله تعالى ليست أمراً مطلقاً غير مشروط. فهي لا تعني إلغاء جميع الأسباب الطبيعية، بل هي مشروطة قطعاً بالسعى نحو الهدف الأسمى، وبالبذل والتضحيات التي تؤهل المقاتلين لأن يكونوا موضعًا لعنایات الله وألطافه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ وَيُتَبَّثِّ أَقْدَامَكُمْ﴾⁽¹⁾. ولذلك كان ينبغي لهم الثبات في مراكزهم، والالتفاف حول قائدتهم، وعدم اللجوء إلى الفرار العشوائي الذي ربما كان هو السبب في تكبدهم هذه الخسائر الفادحة، وربما كان ثباتهم في وسط المعركة أقلّ خسارة. فلا بدّ، لاستمرار العناية الإلهية، من حفظ الحدّ الأدنى من الصبر، وعدم الفرار والارتباط بالقيادة، وتنفيذ أوامرها.

وـ. سوء الظن: إنّ الذين تركوا مراكزهم قد ظنوا أنّ رسول الله ﷺ سيغلّ، أي يخونهم، فلا يقسم لهم. وهذا يدلّ على أنّ من بين هؤلاء من لم يكن على درجة حسنة من المعرفة والوعي، ولربما الإيمان أيضاً. ولو كان كذلك، فلا أقلّ من أنّ أخلاقياته وروحياته، بما في ذلك الإعراض عن الدنيا والإيثار، لم تكن بالمستوى المطلوب. ولعلّ الآية تشير إلى ظنّهم السيئ هذا، وتقرعهم عليه بأنّه ﴿وَمَا كَانَ لَنِيٍّ أَن يَقُلَّ وَمَن يَغْلُبْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽²⁾.

(1) سورة محمد، الآية 7.

(2) سورة آل عمران، الآية 161.

ز. طمع المسلمين في معركة بدر: عندما قرر الرسول ﷺ في معركة بدر أن لا يأخذوا أسرى، ثم خالفوه وأسرموا من قريش، ثم شرع النبي ﷺ بقتل الأسرى، طمع المسلمين بالفدية وطلبوه منه أن لا يقتلهم، وأن يأخذ منهم الفدية. وقد قبل الله تعالى هذا الطلب من المسلمين، مع ما فيه من مخالفة لله وللرسول ﷺ، ولكن رتب عليه آثاراً وضعية، فنزل جبرائيل على رسول الله، واشترط أنه إذا أخذتم الفدية من المشركين، فإنه سوف يقتل منكم في العام القادم بعد الأسرى الذين افتدتتموهم، وقبل المسلمين هذا الشرط، وبسبب هذا القبول فقد قُتل في أحد سبعون نفرًا وجرح مئة وخمسون⁽¹⁾.

3. الآثار العسكرية والأمنية:

لقد فرضت معركة أحد واقعاً جديداً على الظروف العسكرية التي أحاطت بالمدينة. فقد أظهرت النكسة الجزئية التي أصيب بها المسلمون في أحد ضعفاً فيهم أطمع أعداءهم من قبائل العرب وأغراهم بغزوهم والاعتداء عليهم، فأخذوا يعدون العدة لذلك، ما وضع النبي ﷺ في حالة ضرورة اتخاذ إجراءات احترازية، والمبادرة إلى أعمال وقائية، تمنع المشركين من تسديد ضربة جديدة للمسلمين، وغزوهم في عقر دارهم، مما سوف يؤدي أيضاً إلى المزيد من إضعاف أمرهم، وإطعام أعدائهم فيهم. فاتخذ النبي ﷺ قرارات خطيرة بالمبادرة إلى مبادلة أعداء الإسلام هؤلاء في عقر دارهم، فإن ذلك أبعد للسمع، وأنكى للعدو، وأقوى لقلوب المسلمين.

وحتى إن استطاع النبي ﷺ دفع بعض المخاطر بهجمات احترازية؛ كالهجوم الاستباقي على بني أسد، واغتيال زعيم بنى لحيان، واستئصال يهود بنى النضير، لكنه لم يستطع تلافي الخسائر التي نجمت عن غدر الأعراب به وبال المسلمين في الرجيع، وبئر معونة، مستغلين الدوافع السامية عنده وعند أصحابه في الدعوة إلى الله على الرغم من المخاطر والمخاوف.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مصدر سابق، ج 1، ص 270.

غزوة دومة الجندل

1. تعريف بالغزوة:

دومة الجندل، حصن، أو مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وتبعد عن المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة، وهي بقرب تبوك⁽¹⁾، وصاحبها يدين بالنصرانية، وهو في طاعة هرقل ملك الروم⁽²⁾.

2. أسباب الغزوة:

إن دومة الجندل طرفٌ من بلاد الشام، وهي بوابة يتمّ منها العبور إلى بلاد الشام. فأراد رسول الله ﷺ أن يدنوَ إلى أدنى الشام، كمناورة استباقية تزرع الفزع في قلب قيصر الروم⁽³⁾، وليثبت لأطراف الجزيرة المتاخمة لحدود الشام، وجود حضارة إسلامية جديدة تمثلها الدولة النبوية في المدينة، وليدخل في عملية تواصل مع القبائل العربية المنتشرة في بادية الشام، والتي كانت على علاقة قوية بالروم، بل شكلوا فيالق عسكرية في الجيش البيزنطي، وكان دورهم تشكيل حزام أمني يدفع غارات الأعراب عن المدن السورية.

وكان السبب المباشر للحركة العسكرية العميقه للجيش الإسلامي في عمق بلاد الشام، معلومات متواترة نقلها التجار، تفيد بأن جمعاً من قبيلتي قضاعة وغسان اللتين تشكلان قوة ضاربة في الجيش الروماني، احتشدوا بكثرة في دومة الجندل، بقيادة أكيدر الكنديّ، عامل هرقل عليها، وأنهم يريدون أن يدنوا من المدينة. وكان في دومة الجندل سوق عظيم، وحركة تجارية نشطة، فكان الغساسنة والقضاءعيون يظلمون من يمرّ بهم، ويعرضون المسافرين إلى المدينة وتجارهم، فشكوا التجار والسابلة أكيدراً للنبي ﷺ⁽⁴⁾.

(1) الحلبـيـ، السـيـرـةـ الـحـلـبـيـةـ، جـ2ـ، صـ277ـ، ابنـ قـيـمـ الـجـوزـيـةـ، زـادـ الـمـعـادـ، جـ2ـ، صـ112ـ، ابنـ سـعـدـ، الطـبـقـاتـ الـكـبـرـيـ، جـ2ـ، صـ62ـ، الـمـسـعـودـيـ، التـنـبـيـهـ وـالـإـشـرـافـ، صـ214ـ.

(2) الـمـسـعـودـيـ، التـنـبـيـهـ وـالـإـشـرـافـ، صـ215ـ.

(3) الـوـاقـدـيـ، الـمـغـازـيـ، جـ1ـ، صـ403ـ، ابنـ كـثـيرـ، السـيـرـةـ الـنـبـوـيـةـ، جـ3ـ، صـ177ـ، ابنـ كـثـيرـ، الـبـداـيـةـ وـالـنـهـاـيـةـ، جـ4ـ، صـ92ـ.

(4) الـمـسـعـودـيـ، التـنـبـيـهـ وـالـإـشـرـافـ، صـ215ـ.

وهكذا، تجمّعت دوافع القيام بحركة إستراتيجية باتّجاه بادية الشام، هدفها المباشر الحفاظ على حرّيّة طرق المواصلات والإمدادات والتمويلين، والذي يأتي عن طريق التجارة مع المناطق الشمالية كسورية وما والاها، بعد أن أصبح هذا الطريق غير آمن.

الخروج إلى دومة الجندل

تحرّك خاتم النبّيين في السنة الخامسة في شهر ربيع الأول منها⁽¹⁾، مع ألفٍ من أصحابه، فكان يسير الليل ويكتمن النهار؛ ليتمكن من مواجهة العدوّ، وأخذه على حين غرّة، من دون أن يتکبد المسلمين خسائر قد تقع لو أنّ المشركين كانوا يعلمون بمسير المسلمين إليهم ومستعدّين للحرب. وقد غاب عن المدينة مع ألفٍ من أصحابه في هذه الرحلة، قربة شهر كامل، إلى مكان بعيد، مسافة تزيد عن خمسة عشر يوماً، مع أنّ الأعراب كانوا حول المدينة لا يزالون على الشرك، وهم يتربّقون المسلمين، ويستغلّون الفرصة المناسبة للوقوعة بهم، ومع أنّ فيها من المنافقين ما لا يقلّ عدداً عن المسلمين، وكانوا على اتصال دائم بقرىش وأحلافها من المشركين. ومع ذلك، فقد كان النبيّ مطمئناً إلى عدم وجود أخطار حقيقية على المدينة. فقد كانت أجهزة استخباراته قوية وفاعلة، لا يفوتها رصد أيّة تحركات أو تجمّعات مريبة، بل وحتى تستطيع رصد المؤامرات والنوايا أحياناً. وكانت عيونه مثبتة في مختلف الأحياء والأرجاء. كما أنّ هاجمة المدينة في غياب الرسول ﷺ تحتاج إلى جمع قوى كبيرة من مختلف القبائل، ولن يخفى ذلك على عيون خاتم النبّيين ﷺ، مع أنه كان قد احتاط وعقد تحالفات ومعاهدات كثيرة في المنطقة. وإذا كانت قريش قد عجزت وفشلت، فكيف بقبائل لا تملك ما كان لقريش من قوّة وشوكة؟

(1) ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 177، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 92، القيرواني، الجامع، ص 281، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 232، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 341، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، ص 112، الواقدي، المغازي، ج 1، ص 402، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 62.

رسول الله ﷺ في دومة الجندل

نكب دليل النبي ﷺ عن طريقهم، فلما كان بينه وبين دومة الجندل يوماً، قال الدليل: «يا رسول الله، إِنَّ سوائمه ترعنَّ عندك؛ فأقمْ حتَّى أنظُر». وسار حتَّى وجد آثار النعم، فرجع وقد عرف مواضعهم. ثُمَّ قام المسلمون بالاستيلاء على ماشيَّهم، وأصابوا من أصابوا من أعوان أكيدر، وهرب من هرب في كُلِّ وجه.

جاء الخبر إلى دومة الجندل، وأحسَّ بذلك أكيدر الكنديُّ فهرب، واحتُمل الرحل، وخلَّ السوق، وتفرقَ أهلها. ووصل رسول الله ﷺ ونزل بساحتهم، فلم يلقَ أحداً، ولم يجد إِلَّا النعم والشاء، وقد هرب من هرب، وقام المسلمون بالاستيلاء على ماشيَّهم وأموالهم، ليس حِبَا بالسلب والنهب، بل محاولة من النبي ﷺ والمسلمين لإحداث ضغط معنويٍّ كبير على القضاة والغساسنة يجرُّ في النتيجة إلى عدم سفك الدماء، والاكتفاء بالضغط الماديٍّ عبر الاستيلاء على مواشيَّهم، الذي هو أبلغ عند الأعراب، ووسيلة ناجحة في إضعافهم، وردعهم عن الاشتراك في المكائد ضدَّ الإسلام.

لقد كان الهجوم الإسلاميٌّ على دومة الجندل مخططاً له؛ بحيث يترك آثاره في المنطقة كلها. فلم يكن النبي ﷺ مستعجلًا ولا قلقاً، ولذلك فقد أقام في دومة الجندل أيامًا، وبث السرايا والبعوث أيامًا عدَّة في الاتجاهات المختلفة، وفرقها بحثاً عن قاطعي الطريق الهاريين، ثُمَّ رجعت ولم تصادف منهم أحداً⁽¹⁾.

لقد تركت غزوة دومة الجندل آثاراً مهمَّة على صعيد تطور الأحداث لمصلحة انتصار الإسلام. فإنَّ سرعة تحرك الجيش الإسلاميٍّ إلى مسافة بعيدة، وإظهاره ثقة عالية بنفسه، واطمئنانه إلى عدم جرأة أحد على مهاجمة المدينة في غيابه، أثبتَ أنَّ هذا الجيش قادرٌ على ضرب أعدائه، وأنَّ عليهم أن يحسبوا ألف حساب قبل أن يقوموا بأي عدون.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج. 2، ص. 62، البلاذري، أنساب الأشراف، ج. 1، ص. 341، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج. 2، ص. 232، المسعودي، التنبية والإشراف، ص. 215، الواقى، المغازى، ج. 1، ص. 403، ابن كثير، البداية والنهاية، ج. 4، ص. 92، ابن كثير، السيرة النبوية، ج. 3، ص. 177، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج. 10، ص. 104.

المفاهيم الرئيسية

- انتهت معركة أحد بسقوط سبعين شهيداً من المسلمين، ومثل نساء المشركين بجثث شهداء المسلمين.
- إن لمعركة أحد آثاراً ونتائج معنوية عدّة، وهي: عدم إطاعة أوامر النبي ﷺ بالبقاء على جبل أحد بقيادة عبد الله بن جبير، الاغترار بالنفس، الطمع في الدنيا، وذلك عبر جمع غنائم الحرب، عدم الانضباط، الجبن والخور، سوء الظن.
- لقد كان لمعركة أحد آثار عسكرية وأمنية؛ فقد فرضت هذه المعركة واقعاً جديداً على الظروف العسكرية التي أحاطت بالمدينة المنورة، وأدى ذلك إلى اغترار عدد من القبائل بذلك، والتجهز لقتال المسلمين.
- دومة الجندي مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال، وصاحبها يدين بالنصرانية، وهي تابعة لهرقل ملك الروم.
- نظراً إلى حساسية موقع دومة الجندي، حيث تعتبر بوابة العبور إلى بلاد الشام، أراد رسول الله ﷺ أن يدنو بقواته من بلاد الشام، وذلك كمناورة استباقية تزرع الفزع في قلب قيصر الروم، وهذا هو السبب البعيد للمعركة.
- لقد كان لغزوة دومة الجندي هدف مباشر؛ وهو أن معلومات وصلت إلى النبي ﷺ بأن أعداداً كبيرة من قبيلتي قضاعة وغسان، احتشدت في دومة الجندي بقيادة أكيدر الكندي للهجوم على المدينة المنورة.
- تحرك رسول الله ﷺ مع ألف من أصحابه متوجهاً إلى دومة الجندي، فلما وصل إليها، وجد بعض ماشيتهم فأخذوها، ووقع اشتباك بسيط بينه وبين أكيدر، وهرب آخرون، فوصلت الأخبار لأكيدر فهرب مع جيشه إلى ديارهم.
- كان هدف النبي ﷺ من أخذ هذه الأموال هو إحداث ضغط نفسيٌّ ومعنويٌّ على القبيلتين لجرهما إلى الاستسلام، وعدم سفك الدماء، والاكتفاء بالضغط المادي.

الدرس السادس عشر

معركة الخندق (الأحزاب)(1)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف قوى الشرك والأحزاب من معركة الأحزاب.
2. يشرح الخطوات الدفاعية والوقائية التي قام بها النبي ﷺ للدفاع عن المدينة.
3. يفهم أسباب عدم تحقيق الأحزاب أهدافهم في معركة الخندق.

تمهيد

إن الخطوات السياسية والاجتماعية التي اتخذها النبي ﷺ عند وصوله إلى المدينة المنورة، والتي كانت تهدف إلى بناء مجتمع متراوط داخلها، أثرت بشكل كامل على الوجود اليهودي في المدينة. وبعد الخيانة التي قام بها بنو القينقاع وبنو النضير، وقيام رسول الله ﷺ بمحاسبتهم على هذه الخيانة، تم إجلاؤهم عن المدينة المنورة. وقد أثر ذلك بشكل واضح على مستقبل اليهود في شبه الجزيرة العربية، ومع هذا حاول اليهود توجيه الأذية للمسلمين، وإن كانت بطريقة غير مباشرة. لذا اتصلوا بقريش والقبائل العربية الأخرى؛ محاولين تشجيعهم على قتال الإسلام. وقد نجحوا في ذلك، فقام الآلاف من المقاتلين المشركين لقتال الإسلام، وكانت معركة الخندق التي منعت اليهود والمشركين معًا من تحقيق الأهداف المرجوة.

تعريف بالمعركة

حصلت معركة الخندق في المدينة المنورة، حيث حفر المسلمون الخندق حول المدينة. والمشهور أن هذه المعركة كانت في ذي القعدة من أواخر السنة الرابعة⁽¹⁾،

(1) البخاري، صحيح البخاري، ج 3، ص 20، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 191، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 2، ص 29، الهيثمي، مجمع الروايد، ج 9، ص 345، يوسف المزي، تهذيب الكمال، تحقيق وضبط تعليق: الدكتور بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1985م، ط 4، ج 10، ص 31، ابن شهر آشوب،مناقب آل أبي طالب، ج 4، ص 76، عبدالله بن أسعد، مرآة الجنان، وضع حواشيه: خليل منصور، دار الكتب العلمية، 1997م، ط 1، ج 1، ص 9.

وامتدَّت إلى أوائل السنة الخامسة للهجرة، وكان اليهود هم الذين خططوا لها، واتصلوا بقريش وبغطفان، وسائر القبائل، وحرضوهم وساعدوهم على التفاهم والاتفاق، ثمَّ المبادرة إلى غزو خاتم النبيين صلوات الله عليه وآله وسلامه، والمسلمين في المدينة⁽¹⁾.

وبعد وصول الأحزاب إلى المدينة، صدوا بوجود الخندق حولها، فضربوا حصاراً عليها، وأدى الحصار إلى تعرُّض المسلمين للأذى والمشقة والجوع، وانتهى الحصار بانسحاب الأحزاب. وقد استشهد من المسلمين تسعة أشخاص، وقتل من الأحزاب أربعة بسبب بعض المحاولات للهجوم والمناوشات الجزئية والمحدودة.

تحالف قوى الشر ضد المسلمين

ابْتَدَأَتْ في خير فصوص أضخم حشد وأقوى هجوم سوف يقوم به تحالف الشرك واليهوديَّة ضدَّ الإسلام. وبما أنَّ رأس حربة الشرك ضدَّ الإسلام كان قريش الحاقدة، فقد كانت هي المحطة الأولى لليهود. حيث مضى ساداتهم ووجوههم إلى مكة يدعون قريشاً إلى حرب النبيِّ، وكان أول من قابلهم أبو سفيان، فطرحوا عليه مشروعهم. ظنَّ أبو سفيان أنها فرصته التاريخية، فحرضهم على المضي في مشروعهم، ودعاهم إلى توسيع دائرة اتصالاتهم، وبذل الجهد في إقناع قريش بحرب النبيِّ، ولو بإعطائهم العهود والمواثيق⁽²⁾. تجاوز اليهود كلَّ حدٍ، وأسقطوا كلَّ المثل والقيم، واستجابوا للمشركيَّن، وسجدوا للأوثان. وبعد الانتهاء من قريش، توجَّه اليهود إلى قبائل العرب، ثمَّ سار اليهود إلى غطفان، فدعوهם إلى حرب رسول الله، وفي سخاء غير معهود، جعلوا لغطفان تمر خير سنة، أو نصفه كلَّ سنة.

(1) الواقدي، المغازي، ج 2، 440، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 224، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 47، 4، ص 60، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 5، ص 367، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 50، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 233، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 176، البغدادي، المحبير، ص 113، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2، ص 219، السم乎ودي، وفاء الوفاء، ج 1، ص 300، القيراطيني، الجامع، ص 279، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 115، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 343، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 208، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 302 ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 180، الحموي، فتوح البلدان، ج 1، ص 23.

(2) إذ كان موضعبني قريطة بئر المطلب على ميلين من المدينة، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 3، ص 176.

لقد كانت دعاية اليهود ووعودهم إلى درجة أنها استطاعت أن تعيّن كل قبائل العرب ضدّ دولة الإسلام، فكانوا عشرة آلاف رجل⁽¹⁾، وهكذا نجحوا في التخطيط للحرب، ثم نفّذوا مخططاتهم، ونجحوا في تنفيذها.

التخطيط النبوي لمواجهة الأحزاب

قام المسلمون بإجراءات دفاعية ووقائية عدّة لحماية المدينة من غزو قوى الشرك المفترض، وهي:

1. استطلاع أخبار الأحزاب:

أخبر جبرائيل النبي ﷺ بما عزم عليه اليهود والعرب⁽²⁾، وكانت أيضًا عيون النبي ﷺ المنتشرة حول يثرب، وعلى طول المنطقة الممتدة منها إلى مكة، وخصوصًا عيون حلفاء عبد المطلب من بني خزاعة، تنقل إليه الأخبار. فجمع النبي ﷺ المهاجرين والأنصار وأخبرهم الخبر، وأمرهم بالجذ والجهاد، ووعدهم النصر إن هم صبروا واتّقوا، وأمرهم بطاعة الله ورسوله.

2. مشورة أصحاب:

استشار رسول الله ﷺ أصحابه، فقد كان يريد أسلوبًا دفاعيًّا محدّدًا يجهض الحركة العسكرية للأحزاب، فقال ﷺ: «أنبِرْزْ لَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، أَمْ نَكُونُ فِيهَا وَنَخْنَدِقُهَا عَلَيْنَا، أَمْ نَكُونُ قَرِيبِينَ وَنَجْعَلَ ظَهُورَنَا إِلَى الْجَبَلِ؟». وأخذ أصحاب رسول الله ﷺ يطرحون الاقتراحات، ولكن سلمان المحمدي تدخل مبينًا أهميّة فكرة حفر الخندق، والحكمة منها، فقال: «يا رسول الله، إنا إذ كنا بأرض فارس وتخوّفنا الخيال خندقنا علينا!، فهل لك، يا رسول الله، أن تخندق؟»⁽³⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 444، وقيل ثمانية عشر ألفًا، راجع: مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 197، وقيل: أربعة وعشرين ألف رجل، راجع: المسعودي، التنبية والإشراف، ص 216.

(2) الشيخ الصدوقي، الخصال، ج 2، ص 268، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 244.

(3) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 444، الحلبي، السيرة الحلبية، ج 2، ص 311، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 514، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 197، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 51، الأربلي، كشف الغمة، ج 1، ص 202.

فلاقت الفكرة إعجاباً لدى المسلمين، فإنْ حضارة الفرس، وتراثهم الحربي، وشهرتهم في مقارعة الروم كانت ماثلة في أذهان العرب، فأحبّ المسلمين الثبات في المدينة، وأعلنوا موافقتهم على المقترح، وتحملوا بذلك مسؤولية الخيار والاختيار، وهذا بالذات هو ما أراده خاتم النبيين ﷺ من استشارتهم⁽¹⁾.

3. حفر الخندق:

انطلقت عملية تنفيذ مشروع دفاعيّ كبير، فركب رسول الله فرساً له، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، وارتاد موضعًا كان ينزله. كانت فكرة الرسول ﷺ أن يجعل جبل سلع⁽²⁾ خلف ظهره، فيؤمن عدم إمكانية تطويقه والالتفاف عليه، ثم يخندق ما بين جبلبني عبيد من المذاذ⁽³⁾، إلى ذباب، إلى راتج⁽⁴⁾، فيكون الخندق أمامه، ومعسكره في حصن الجبل، تحت جبل سلع، في الجانب المكشوف للخندق الذي امتدَّ على طول الجهة الغربية الشمالية للمدينة، والتي كانت تتخللها فتحات واسعة صحراوية مكشوفة للبيداء، يمكن أن تستوعب ألف الفرسان، وتصلح ساحة للحرب وللحركة السريعة للجيوش. وأمام الجهتان الشرقية والجنوبية فقد تمتعنا بموانع طبيعية من جهة وجود جبال وصخور بركانية وتضاريس، وأشجار نخيل كثيفة ومتشابكة، تحدُّ من حركة الجيوش الفاعلة، وبموانع اصناعية أخرى، كبيوت المدينة التي كانت متتشابكة ومترابطة من تلك الجهات. فقد كان سائر المدينة مشبِّكاً بالبنيان، والنخيل من كلِّ ناحية، وهي كالحصن لا يتمكّن العدوُّ منها⁽⁵⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 226، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 55، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 1، ص 292.

(2) جبل سلع، ويسمى أيضًا جبل ثواب في الشمال الغربي للمسجد النبوي الشريف، هو جبل معروف بسوق المدينة، السمهودي، وفاء الوفاء، ج 2، ص 324.

(3) المذاذ: اسم اطم لبني حرام من بني سلمة غربي مسجد الفتح، راجع: السمهودي، وفاء الوفاء، ج 2، ص 370.

(4) راتج: هو جبل غربي بطحان، السمهودي، وفاء الوفاء، ج 2، ص 310، الواقدى، المغازى، ج 1، ص 450.

(5) الحلبي، السيرة الحلبيَّة، ج 2، ص 315، الواقدى، المغازى، ج 2، ص 446، السمهودي، وفاء الوفاء، ج 4، ص 1205، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 524.



وعلى الرغم من الفقر المدقع، وبدائئية الوسائل وأدوات الحفر، فقد استطاعوا القيام بعمل ضخم في أيام عدة. ويبدو أن خاتم النبيين ﷺ طلب من بنى قريظة أن ينفذوا بنود الوثيقة والمعاهدة التي عقدها معهم بالنسبة إلى تقديم المعونة إلى المسلمين. فاستعار منهم آلات كثيرة، من المساحي والفؤوس والمكاتل للحفر، ثم وزع المسافة المطلوب حفرها على المهاجرين والأنصار، وجعل على كلّ عشرين خطوة وثلاثين خطوة أو أربعين ذراعاً عشرة من المهاجرين والأنصار⁽¹⁾.

وكان النبيّ شخصياً الذي افتح الحفر⁽²⁾؛ فحفر في موضع المهاجرين. وأخذ عليّ بن أبي طالب ينقل التراب الذي يخرج بالحفر، وجعل رسول الله يعمل معهم في الخندق لينشط المسلمين، فكانوا يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو عليهم.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 177، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 235، الشيخ الطبرسى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 2، ص 427، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 179، قطب الدين الرواندى، الخرائج والجرائح، ج 1، ص 152، ابن حجر العسقلانى، فتح البارى، ج 7، ص 305.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 177.

وكان المسلمون ينقلون التراب بالمكा�تيل، ويرجعونها مملوءة بالحجارة؛ فقد كانت من أسلحتهم الناجحة في تعطيل حركة المشركين، وردعهم عن عبور الخندق. وكان عليّ بن أبي طالب وشيعته، ومنهم عمّار بن ياسر، وسلمان المحمدي، والمقداد بن الأسود، وأبو ذر الغفاري، أكثر الناس عناءً وعملاً في الخندق⁽¹⁾.

وفي اليوم الثاني من بدء حفر الخندق، ظهرت في باطن الخندق صخرة كسرت حديد المعول، فطلبوها من سلمان أن يخبر النبي ﷺ بأمرها، فهبط النبي ﷺ وبطنه معصوب بحجر بسبب الجوع، ومعه عليّ بن أبي طالب ؓ، فتناول رسول الله ﷺ المعول، وضرب به ضربة برقة أضاء منه برق بين لابتي⁽²⁾ المدينة، فكبّر النبي ﷺ وكبّر المسلمون، ثم ضربها ثانية، فكبّر وكبّروا كذلك، ثم الثالثة فكذلك أيضاً، فصدعوا وتفتّت.

وكان إذا ما فرغت مجموعة من حصتها في الحفر، انتقلت إلى حصة مجموعة أخرى لم تفرغ بعد، فأعانتها عليها، حتى تم حفر الخندق بأسرع وقت. وقد بلغ طول الخندق نحوً من خمسة آلاف ذراع (ألفين وخمسمائة متر تقريباً)، وكان عرضه تسعة أذرع (أربعة أمتار ونصف تقريباً)، وعمقه سبعة أذرع (ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريباً)، وأصبحت المدينة بسبب حفر الخندق كالحصن⁽³⁾.

ولعل مدة حفره لم تتجاوز أربعةً وعشرين يوماً. وفرغوا منه قبل وصول الأحزاب ثلاثة أيام، ثم إن النبي ﷺ جعل للخندق أبواباً، وجعل على الأبواب حرساً. فقد وزع الحراس

(1) الواقدي، المغازي، ج. 2، ص 445، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 226، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 95، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 234، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 55، السمهودي، وفاة الوفاء، ج 4، ص 1407، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 301، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 50، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 1، ص 292.

(2) اللابة: الحرج، وهي الأرض ذات الحجارة السود قد غطتها بكثرتها والمدينة بين حرجتين.

(3) الشيخ الطبرى، إعلام الورى، ج 1 ص 190، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 119، الشيخ الطبرى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 2، ص 727، وج 8، ص 534، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 3، ص 230، قطب الدين الرواندى، الخرائج والجرائح، ج 1، ص 66.

على أبواب الخندق الثمانية⁽¹⁾، وذلك حتى يقطع الطريق على أي عملية اختراق أمني لصالح المشركين.

وكان الانضباط العام بأوامر النبي ﷺ مسيطرًا على الموقف، ولكن برزت عناصر عديدة أدت إلى زلزلة هذا الموقف المتّحد، حيث تخلّفت طائفة من المنافقين كانوا يعتذرون بالضعف، وكانوا يستأذنون ل حاجات وهميّة، كالذين كانوا يتسلّلون زاعمين أن بيوتهم عورة.

4. التعبئة العسكرية لمواجهة المشركين:

بلغت رسول الله ﷺ الأخبار عن قرب وصول جيش الأحزاب، فندب المسلمين ودعاهم إلى القتال، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، ثم أعطى رايته لعلي بن أبي طالب ؓ⁽²⁾. وجُمع النساء والصبيان، وجعلهم في حصنين وأطام، وهي البيوت المتراسمة الخليفة للمدينة. وجعل حرّاساً يطوفون في المدينة حذرًا من تسلل المشركين أو غدر بني قريظة. وخرج لثمان خلوٍ من ذي القعدة، أو شوال، في سبعينية من المسلمين.

وما إن وصل إلى ناحية الخندق، ارتاد لعسكر المسلمين موضعًا من سفح جبل سلع مكشوفاً للخندق، يؤمّن الحماية للمسلمين في حال اختراق العدو. وجعل مركز قيادته في موضع عال يمكّنه من مراقبة الحركة العامة لساحة المعركة⁽³⁾.

(1) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 57، السمهودي، وفاة الوفاء، ج 1، ص 1208، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 179، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 452، الحلبى، السيرة الحلبية، ج 2، ص 312، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 50، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 515.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 191، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 6، ص 289.

(3) البلاخي، أحمد بن سهل، البداء والتاريخ، ترجمة: كلمان هوار، بطرزند - شهر باريس، طبعة مكتبة المثنى، بغداد، 1899م، ج 4، ص 217، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 2، ص 29، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 231، ابن قيم الجوزية، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، ص 117، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 343، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 237، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 180، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 307، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 102، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 342، السيد ابن طاووس، علي بن موسى، سعد السعودية، منشورات الرضا، قم، إيران، 1363هـ ش، ل.اط، ص 138. الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 340، ج 5، ص 46.

جيش الأحزاب والمفاجأة الكبرى

وصل الأحزاب إلى المدينة بعد أن فرغ المسلمون من حفر الخندق⁽¹⁾، في موسم صيف في زمان حصاد، وكان الناس قد حصروا قبل قدومهم بشهر، وأدخلوا حصادهم أتبانهم، فقدم الأحزاب وليس في الوادي زرع، بل كانت المدينة حين قدموا جديبة، وهذا ما أثّر كثيراً بالخيل والإبل، ووقف المشركون أمام التخطيط العسكري للنبي ﷺ بحفر الخندق والتوزيع العسكري عليه، وقد فوجئوا مدهوشين من هذا الإجراء الداعي، فأنكروه، وقالوا: «ما كانت العرب تعرف هذا».

فجعلوا يصولون ويتجولون على جانبه المحاذي لهم بعساكرهم وخيلهم، ورجلهم، ويدعون المسلمين للقتال وللمبارزة. فأمر النبي ﷺ المسلمين بالثبات في أماكنهم، ولزوم الخندق وعدم الانجرار وراء الاستفزاز، وعدم التحرّك من دون أوامر منه، فكانوا لا يجيرون أحداً من المشركين، ولا يرددون عليهم شيئاً، ولزموا مواضعهم كما أمرهم النبي ﷺ. وكان لذلك أثر معنويٌّ، فتهيّب المشركون العبور إليهم⁽²⁾.

تحليل الموقف العام للمعركة

1. طبيعة تركيبة جيش المشركين:

حقّ تحالف الشرك واليهوديّة أوسع إجماع يمكن الحصول عليه من القبائل المختلفة، يسودهم جميعاً حقد أسود على الإسلام والمسلمين. فسيطرت على معسكر الشرك والكفر في أول أيام نزولهم عند الخندق حالة من الزهو والغرور، بسبب ما استشعروه من القوّة والتفوّق في العدّة والعدد، والاطمئنان بإحراز النصر. ولذلك فقد احتفلوا فور وصولهم، وعقدت في خيامهم حلقات العزف، والغناء، وشرب الخمر. وأرسل أبو سفيان

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج.3، ص262، الأربلي، كشف الغمة، ج.1، ص197.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج.2، ص50، الحلباني، السيرة الحلبية، ج.2، ص315، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج.4، ص530، الواقدي، المغازي، ج.2، ص470، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج.2، ص182، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج.1، ص52، الأربلي، كشف الغمة، ج.1، ص202، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج.1، ص100، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج.1، ص292.

كتّباً إلى النبي ﷺ مهّداً إِيّاه بما جمعه من الأحزاب لقتاله⁽¹⁾.

إلا أنَّ عناصر الخلل كانت قوية داخل صفوفهم، ولكنّها لم تظهر في الفترة الأولى للحرب، إذ كانت تحتاج إلى ظروف موضوعية، وإلى تطور في سير الحرب. وقد كانت كثرة أعداد الأحزاب مشكلة في حد ذاتها، ولكنَّ هذه المشكلة لم تظهر لهم في الطريق، بل ابتدأت بالظهور فور اصطدامهم بالإجراء الداعي الذي أعدّ المسلمين، فانقلبت الكثرة من عنصر إيجابي في المعركة إلى عنصر سلبي، وأخذت هذه الأعداد الهائلة التي تراوحت بين عشرة آلاف وأربعة وعشرين ألفاً، والآلاف من الدواب التي تحتاج إلى كمية هائلة كل يوم من التموين والعلف، تضغط كل يوم باتجاه التراجع والانسحاب بعد أن أحجم الخندق فكرة الحسم العسكري.

كذلك كانت القبلية والتمزق الذاتي مفسداً ذاتياً يظهر في كل مناسبة، وب مجرد توقف حركة الجيش عن التقدُّم، وانشغاله عن الحرب الحاسمة بالانتظار، أخذ الشقاق والخلاف ينبع بعشوائية في صفوفٍ لم تكن أصلًا متّحدة إلا خلال أيام منّوا أنفسهم فيها بنصر حاسم، يحصلون بعده على الغنائم والأسلاب والأموال والتمور والثروة. ثمَّ إذا بالخندق يوْقظ هؤلاء جميعاً من أحلامهم؛ فيعودون إلى واقعهم الذي سرعان ما أثمر يأساً، ثمَّ قراراً بالانسحاب والعودة إلى أهلهم ومضاربهم وديارهم.

2. خيارات جيش الأحزاب:

بعد أن شاع بين صفوف المشركين خبر الإجراء الداعي الذي نفذه المسلمون بحفر الخندق، تلاشت فكرة خوض معركة حاسمة سريعة ضدّ المسلمين. إلا أنَّ رؤساء الكفر والشرك ابتدؤوا في جوٌ من الشعور بالتفوّق يحاولون إعادة الإمساك بزمام المبادرة، فقد اعتقادوا أنَّ الحصار الذي أحکموه على المدينة قد جمد أوصال المسلمين، وقطع مددهم، بينما كان المدد والشوكة إلى جانبهم.

(1) الشوكة: السلاح، وراجع: ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 198، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 272.

فأخذت خطتهم العسكرية بالضغط على المسلمين تتضح ملامحها عبر ثلاثة محاور:

المحور الأول: محاولة الاستفادة من الحالة اليهودية في داخل المدينة. وكان العائق أمامهم هو العهد الذي وقّعه اليهود مع النبي، والذي كان يقضي بعدم مد يد العون إلى أعداء المسلمين، فكانت خطة رؤوس الشرك والكفر تقوم على حمل يهودبني قريظة على نقض هذا العهد.

المحور الثاني: محاولة فتح ثغرة في الخندق يعبر منها المقاتلون، ويندفعون منها إلى قلب المدينة مستفيدين من تفوقهم العسكري، ومسقطين اللخط الدفاعي الأساسي الذي اعتمدته المسلمون.

المحور الثالث: الاعتماد على طول الحصار، وتضييق الخناق على المدينة، والمراهنة على عناصر الشقاق والجوع والخوف في إحداث زلزال في صفوف المدافعين قد يؤدي إلى انهيارهم. فانتشرت مظاهر الفرح والسرور في أوساط المشركين، وكانت مجالس الخمر والغناء إيحاءً منهم لأنفسهم بأن طول النفس والمكوث الطويل سلاح ماضٍ في هذه المعركة.

النبي ينتزع زمام المبادرة

برزت نتائج الأسلوب الدفاعي الذي اتبّعه النبي بحفر الخندق، فقد نجح في تغيير وجهة المعركة؛ إذ اعتمد المشركون واليهود والأحزاب على القدرة على حسم المعركة عبر المبادرة إلى الهجوم بقوّات كبيرة متفوقة عدّة وعددًا. ولكن حفر الخندق جمد هذه القوّات، وقيّد قدرتها على الحركة واختيار ساحة المعركة ووقتها. وأصبح عليها مواجهة هذه العقبة الاصطناعية مع ما يفرضه ذلك من الدخول في قتال جزئي متفرق هنا وهناك، ولن تستطيع الأحزاب الاستفادة من كامل قوّتهم فيها إذ سوف تجبرهم على عدم استعمال الآلاف في هجوم واحد ضاغط، والاكتفاء بعناصر محدودة في أمكنته محدّدة قد يحدّدها النبي، ويمنع عليهم استعمال أمكنته أخرى، حتّى يستطيع تكبّدهم خسائر في الموضع التي يختارها.

وليس معنى هذا إِلَّا أَنَّ النَّبِيَّ قد انتزع زمام المبادرة من الأحزاب في الحركة على الأرض، بعد أن حرمها من حرية الحركة التي يوفرها لها عنصر التفوق في العدد، وأصبح النبي هو الذي يفرض عليهم المعركة، وإذا ما اخترقوا الخندق، واستطاعوا تحقيق ثغرة؛ فسوف يكون قادرًا على التحكم فيها بكل قوته، وخوض معركة جزئية في موقع الثغرة فقط، فيستفيد من قوته إلى أقصى حدود الاستفادة، بينما ستكتفي في بقية قواتهم المشلولة عن الحركة بالانتظار.

المفاهيم الرئيسية

- وقعت معركة الخندق (الأحزاب) في السنة الرابعة للهجرة في ذي القعدة، وامتدّت إلى أوائل السنة الخامسة للهجرة، وكان المحرّك الرئيس لها هم اليهود.
- لقد تحالفت قوى الشرك في المنطقة ضد المسلمين، فبعد أن تحرك يهود خير نحو قريش، جرى حشد القبائل العربية ضدّ الإسلام، فكانوا عشرة آلاف رجل.
- قام رسول الله ﷺ بإجراءات دفاعية ووقائية عدّة لحماية المدينة المنورة، منها:
 - أ. استطلاع أخبار جيش الأحزاب عبر خزانة وعيونه المنتشرة في المنطقة.
 - ب. حفر الخندق حول المدينة. وقد شارك رسول الله ﷺ بنفسه في ذلك. وحفر الخندق بحيث لا يستطيع الإنسان أن يسلكه بسهولة، وكذلك تعجز الخيول عن سلوكه، وقد أحاط بالمدينة من جهة تهديد الأعداء.
 - ج. تعبئة المسلمين لمواجهة جيش الشرك، فقد حثّهم ﷺ على الجهاد، وقتل العدو، وأمن على النساء والذرية، وجعلهم في حصن، ووضع عليهم الحراسة، ووضع الحراسة على اليهود.
- وصل المشركون إلى المدينة المنورة، ففوجئوا بالإجراءات التي قام بها المسلمون، فأُحبّطت بذلك خطّتهم في القضاء على الإسلام والمسلمين.
- يمكن تحليل الوضع العام لجيش المشركين بالآتي:
 - أ. إن طبيعة تركيبة جيش المشركين غير منسجمة، فهو مشكل من قبائل مختلفة ومتنوعة.
 - ب. إنّ كبر حجم جيش العدو أثّر مباشرةً على وسائل الإمداد والدعم المادي.
 - ج. لم يعد أمام المشركين خيار سوى الحصار، واعتبروا أنّ الحصار سوف يؤدي إلى ضعف إرادة المسلمين وقوتهم، وبقي أمامهم خيارات عدّة، ومنها: الاستفادة من اليهود في الداخل، محاولة فتح ثغرة في الخندق، والاعتماد على طول الحصار.

الدرس السابع عشر

معركة الخندق(2)

(الهزيمة النهاية لقوى

الشرك)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف الخطر الداخلي على المدينة من بنى قريظة.
2. يشرح خريطة الدفاع النبوية في مواجهة الأحزاب.
3. يحلل أسباب صمود المسلمين وانتصارهم في معركة الخندق.

تمهيد

نجح رسول الله ﷺ في إيقاف الحشد العسكري للأحزاب من خلال حفر الخندق، وبهتت قريش ومن معها من اليهود والعرب بأنَّ محمداً ﷺ قد قام بخطوة أفشلت كلَّ مخططاتهم، وذهبت بأحلامهم إلى الأبد، وخصوصاً أنَّ هذا الحشد قد كلف اليهود وقريش الكثير من العنااء والتعب لحشد هذا الكمُّ من المقاتلين، وإذا ما خسر اليهود وقريش حربهم، فلم يعد بمقدورهم الحشد في المرة الثانية لقتال النبي ﷺ، وهذا ما حصل فعلاً.

فقد أدت معركة الخندق إلى هزيمة قريش واليهود والقبائل العربية المتحالفية معهم هزيمة كبيرة جدًّا، فقدوا كلَّ ما يملكونه من مقومات لمواجهة الإسلام والمسلمين، فرجعت قريش خائبة خاسرة تجرِّ أذيالها، وحققت هذه المعركة للمسلمين انتصاراً حقيقياً في وجه الأحزاب.

يهود بنى قريظة والخطر الداخلي

1. نقض العهد:

جاء حبي بن أخطب في جوف الليل إلى بنى قريظة، فكرهوا في بادئ الأمر دخوله إلى دارهم، ثمَّ فتحوا له الباب، فقال: «ويحك يا كعب، جئتكم بقريش وبغطفان على قادتهم وسادتهم حتى أنجحتم بالمدينة. يا كعب! انقض العهد الذي بينك وبين محمد ولا ترد رأيي، فإنَّ محمداً لا يفلت من هذا الجمع أبداً، فإنْ فاتك هذا الوقت فلا تدرك مثله أبداً!»، فأبى كعب، وقال: «جئتني بذلك الدهر...».

لقد كان كعب بن أسد يدرك أن تلك الجيوش الزاحفة على المدينة لن تكون قادرة على تحقيق ما تسعى إليه. وكان حبي بن أخطب يعلم جيداً أن يهودياً كعب لا يلتزم بعهده بداعف أخلاقيٍ، ولا يحترم الوفاء والصدق، ولذلك أخذ حبي يزين له نقض العهد، ويبين له المصلحة في ذلك، حتى أعطاه عهداً من الله وميثاقاً أن يكون معه إذا فشلت الأحزاب في إنهاء محمد، فرفض كعب أيضاً، ولجأ حبي إلى الكذب والخداع، فقال: «لا تقاتل حتى تأخذ سبعين رجلاً من قريش وغطفان رهاناً عندكم»، فأجابه شيخ بنى قريظة ممن كان يرغب أصلاً بنقض العهد، ولكن بعضهم لم يقبل هذا الأمر، فخرج إلى رسول الله والتحق به وأسلم⁽¹⁾.

2. النبي يواجه خيانة بنى قريظة:

بلغ رسول الله ﷺ نقض بنى قريظة للعهد، فغمّه ذلك غماً شديداً، وشقّ عليه أن يفتت ذلك أعضاد المسلمين، فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل». وبعث إلى بنى قريظة وفداً من الأوس بقيادة سعد بن عبادة، فكان موقفه ﷺ منصفاً معهم، إذ مدّ إليهم يده ثانية، مؤكداً لهم أنه ما زال على حسن الجوار وحفظ العهد. وطلب رسول الله ﷺ من الوفد أن يستخروا له الأمر، فجاؤوا إلى باب الحصن، ووجدوهم مكافحين بالغدر والنيل من رسول الله، فدعوهם إلى المواجهة، فرفضوا، وانهال اليهود بسيل من الشتائم والسباب على المسلمين. أخبر الوفد النبي ﷺ بذلك، فقام النبي ﷺ وتقنّع بشوبه واضطجع، ومكث طويلاً، ثم رفع رأسه، وكبّر يبشر المسلمين بالنصر الأكيد، وقال: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، بفتح الله ونصره وعونه، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وأأخذ المفتاح، وليهلكنّ كسرى وقيصر، ولتنفقنّ أموالهم في سبيل الله»⁽²⁾.

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، مصدر سابق، ج 4، ص 103.

(2) الواقدي، المغازى، ج 2، ص 459. الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 238، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 104، الشيخ الطبرسى، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج 8، ص 342. ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 6، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، ص 118، الصالحي الشامى، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 528، الحلى، السيرة الحلبية، ج 2، ص 317.

3. المسلمين في مواجهة نقضبني قريطة للعهد:

نجح الأحزاب في تحويل بني قريطة إلى قوّة معادية للمسلمين داخل المدينة، فاستحکم الحصار وتمّ من جميع الجهات. فمن جهة الشرق، كان بنو أسد وهوازن وفرازرة واليهود من بني قريطة والنضير، ومن جهة الغرب كانت قريش وكنانة وغطفان. فعزم الباء، واشتدَّ الخوف، حتّى ظنَّ المؤمنون كلَّ ظنٍّ، ونجم النفاق، وشغلتهم أنفسهم، فلا يستريحون ليلاً، ولا نهاراً. وكانوا يبيتون في الخندق خائفين، فإذا أصبحوا أمنوا⁽¹⁾.

وكان الخوف العامّ عند المسلمين من يهود بني قريطة أشدّ من الخوف من قريش، فلم يكن هناك خندق ولا حتّى حشد عسكري قبالتهم، بل كانت الآطام والبيوت، حيث الذراري والأطفال والنساء والأموال، مما زرع الخوف والرعب في قلوبهم، وجعل عيونهم بدلاً من أن تكون على الخندق تنحرف إلى الخلف، وتنظر بقلق إلى الآطام.

وبدأت السن المنافقين تشكيك في قدرتهم على المواجهة. ولقد حاول النبي ﷺ مواجهة ضغط المنافقين فكان ينفع روح الحماسة، ويبيث السكينة والطمأنينة في القلوب، وانتقلت عدوى النفاق إلى كثير من الناس، ولم يبقَ مع رسول الله إلّا القليل، وبعضهم انهارت عزائمها، وبعضهم الآخر استأذن الرسول، واعتلىوا بأنَّ منازلهم عورة، فأذن لهم⁽²⁾.

خريطة الدفاع النبوية

توزّعت خريطة الدفاع النبوية على مجموعة محاور، وهي:

المدحور الأول: البعد الروحي

كان رسول الله ﷺ في تلك الظروف يتوجّه إلى الله تعالى؛ حيث جثا على ركبتيه،

(1) الجوزي، عبد الرحمن بن علي، الوفا بأحوال المصطفى، مطبعة السعادة، مصر، 1386هـ / 1869م، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 528. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 2، ق 2، ص 30، الحلبي، السيرة الحلبية، ج 2، ص 317 و 318.

(2) الواقدى، المغازى، ج 2، ص 467، علی بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 186، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 2، ص 30، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، ص 118، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 2، ص 347.

باسطا يديه، باكية عيناه، ينادي بأشجع صوت: «يا صريح المكروبين، يا مجيب دعوة المضطرين، اكشف همي، وكربي، فقد ترى حالي»⁽¹⁾.

المحور الثاني: الحراسات وسد الثغرات

من أجل سد الثغرات التي قد تتحول إلى رأس جسر للعبور إلى داخل تحصينات المسلمين، قام صلوات الله عليه وآله وسلامه بتسيير الدوريات الأمنية والحراسات الليلية على طول الخندق. وكانوا ثلاثة، وعلى رأسهم علي بن أبي طالب. وتوزعت مواقع الحراسة بحيث تستطيع المراصد أن ترى الجانب الآخر من الخندق، واهتمّ المسلمون بحراسة مقر قيادة النبي كل ليلة، فكانوا يتناوبون على الحراسة.

وكان النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه يحرس بنفسه، ويشارك في كل الأنشطة العسكرية، وكان علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وآله وسلامه يشرف على العسكر كله في الليل، يحرسهم من غدر قريش، فإن تحرك أحد من قريش كان هو من يتصدى له وينابذه. وكان ينفذ لمواقع العدو ليلاً، فيجوز الخندق ويصير إلى قرب قريش حيث يraham، ويرصد تحركاتهم، فلا يزال الليل كله، فإذا أصبح رجع إلى مركزه.

في المقابل، كان المشركون عند الخندق يطبّقون إجراءات حذر ودفاع، فتوزعوا الحراسات والكمائن، وسيروا دوريات متحركة، وكانوا يطيفون بالخندق طوال الليل حتى يصبحوا⁽²⁾. وهكذا كانت العيون الحذرة من الجانبين؛ فلم يكن سهلاً اختراق الخندق.

المحور الثالث: مراقبة حصن بنى قريظة

حرص النبي على رصد تحركات ومواقع ومحصون بنى قريظة لمعرفة موضع الخل، واحتمالات الهجوم من قبلهم، فأرسل العيون والمستطلعين. وقد حصل بسبب ذلك كثير

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، مصدر سابق، ج 1، ص 198، ج 3، ص 134.

(2) البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 343، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 529، دحلان، السيرة النبوية، ج 2، ص 10، الواقدي، المغازي، ج 2، ص 464، الحلبي، السيرة الحلبية، ج 2، ص 324، وج 3، ص 327، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 58، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 163، الواقدي، المغازي، ج 2، ص 465.

من الاحتكاكات، وُقتل يهود في اشتباكات متفرقة كالذى قتله صفيّة، والذى قتله رجل من بنى حارثة. وقد كان هذان اليهوديّان إِمَّا في مهمّة استطلاعية أو بهدف السطو⁽¹⁾. وكانت الدوريات مكثّفة، تبلغ الدوريّة الواحدة مئتي رجل يحرسون المدينة من جهةبني قريظة، وكانوا طوال الليل يظهرون التكبير حتّى الصباح⁽²⁾.

المحور الرابع: قوّة التدخل

في الوقت نفسه، شَكَلَ النبِيُّ ﷺ بقيادة عليٍّ بن أبي طالب ﷺ قوّة ضاربة متحركة سريعة من بضعة وثلاثين فارساً، كانت تتحرّك باستمرار على طول الخندق ما بين طرفيه، وذلك لمنع العدوّ من القيام بأيّة محاولة اختراق للخندق عبر استغلال مسافة عمياء بين موقع الحراسة الثابتة.

الاشتباك والاقتتال

صار المشركون يتناوبون على الخندق كُلُّ يوم، يقودهم في كُلُّ مرّة رأس من رؤوس الكفر كأبي سفيان، وخالد بن الوليد، فلا يزالون يجولون بخيّلهم، يفترقون مرّة، ويجتمعون أخرى، ويناوشون المسلمين، ويقدّمون رجالهم فيرمون؛ فييادلهم المسلمون الرماية، وتنشب معارك تراشق جزئية هنا وهناك بالحجارة والنبل. وكانت الاشتباكات أحياناً تدور في الليل. وكانت تلك المناوشات تتكرّر كُلُّ يوم. وقد حاول المشركون رصد مواضع ضيّقة كما فعل أبو سفيان وعمرو بن العاص؛ فرماهم المسلمون بالنبل والحجارة حتّى ولّوا. وقد بادر سلمان المحمّدي إلى توسيع تلك المواقع⁽³⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 239، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 241، ابن الأثير، أسد الغابة، ج 2، ص 6، الشیخ الطوسي، الأمالى، ص 267، السمهودي، وفاء الوفا، ج 1، ص 301، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 208، تاريخ الإسلام، ص 240، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 181، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 109، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 347.

(2) الواقدي، المغازى، ج 2، ص 460، الحلبى، السيرة الحلبية، ج 2، ص 315، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص .58
(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 226، الواقدي، المغارى، ج 2، ص 468، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 58، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 51، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 198، الأربلي، كشف الغمة، ج 1، ص 202، وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 180، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 200، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 301.

رسول الله وتفتت معسكر الأعداء

لقد أدرك النبي ﷺ منذ اللحظات الأولى للحصار، أنه ينبغي له تفتت معسكر الأعداء، وعليه أن يعمل على الاستفادة من عنصر الفرقة، فإن الثقة معدومة بين اليهود وحلفائهم، كذلك القبائل المختلفة التي حشدتها قريش. ولذلك، فإن النبي ﷺ رسم خطته لتفكيك معسكر الأعداء على محورين، وهما:

الأول: تحويل الشك والريب الموجود بين اليهود والمشركين إلى عداء، أو على الأقل إلى نحو من تعطيل اتحادهم في أي عمل عسكري.

الثاني: هو محور تفكيك العلاقة الواهية بين قريش وأقوى حلفائها من المشركين، إلا وهي غطفان. ولم تمض أيام على وصول الأحزاب إلا وقد أخذت عوامل الإحباط تبرز هنا وهناك، فبادرت غطفان إلى الاتصال بالنبي ﷺ عارضة عليه الانسحاب مقابل بعض تمور المدينة. وقد استفاد النبي ﷺ من هذا أمرين:

1. الأمر الأول: رفض عرض غطفان:

رفض رسول الله ﷺ وبشكل مباشر عرض غطفان، وأجابهم إنه لن يعطيهم إلا السيف. ثم دبر أمر إشاعة ذلك بين صفوف الأعداء، فأحدث ذلك أثرا سلبياً في معنويات اليهود والمشركين.

2. الأمر الثاني: الاتفاق بين قريظة والأحزاب:

كان الاتفاق بين قريظة والأحزاب أن يأخذوا منهم رهناً سبعين رجلاً حتى يخرجوا لقتال المسلمين⁽¹⁾. وأخذ ينتظر الفرصة المناسبة، حتى جاءت تلك الفرصة عندما أبصر نعيم بن مسعود الغطفاني. وكان نعيم رجلاً نماماً مهذاراً، كثير الكلام، لا يكتم حديثاً، فاختاره ليقلي إليه كلاماً ينتهي بتخذيل الأحزاب، فاستدعاه إليه، وقال له: «ما وراءك؟»، فقال نعيم: «بعثت قريش وغطفان إلىبني قريظة يطلبون منهم أن يخرجوا إليهم فيناجزوك»، فقالت قريظة: «نعم، فأرسلوا إلينا بالرهن!». فقال له رسول الله:

(1) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 527، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 103، ص 113.

«فلعلنا نحن أمرناهم بذلك! إنّي مسرُ إليك شيئاً فلا تذكرة، إنّ بنى قريظة قد أرسلوا إليَّ يدعونني إلى الصلح، وقالوا: إِنْ كَانَ يرْضِيكُ عَنَّا أَنْ تَأْخُذَ رجَالًا رهَنًا مِنْ قُرَيْشٍ وغطفان، مِنْ أَشْرَافِهِمْ، فَنَدْفَعُهُمْ إِلَيْكُ فَتَقْتِلُهُمْ، وَأَنَّنَا إِذَا التَّقَيْنَا نَحْنُ وَأَبْوَ سَفِيَانَ أَمْدُونَا وَأَعْانُونَا عَلَى أَنْ أَرْدَ بْنِ النَّضِيرَ إِلَى دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»⁽¹⁾. فانصرف نعيم بن مسعود من عند رسول الله ﷺ عامداً إلى غطفان وقريش، فأخبرهم ذلك، فتفاجأت الأحزاب بذلك، وعلموا أنَّ حبي هو الذي وعد قريظة من دون تنسيق معهم في شيء، فاعتبر أبو سفيان أنَّ ذلك غدرٌ منه، وتشابكت عليهم الأخبار، وحقائق الأمور⁽²⁾.

نهاية جيش الأحزاب

بعد مضي شهر كامل تقريباً على الحصار⁽³⁾، لم يبقَ أمام المشركين إلا خوض مغامرة عسكرية. فأجمع رؤساء المشركين على أن يغدوا جميعاً إلى الخندق، وجاؤوا يريدون مضيفاً يقتربون منه، فوجدوا مكاناً ضيقاً أغفله المسلمون، فلم تدخله خيولهم. وقد نجحت في اقتحامه ثلاثة منهم عمرو بن عبد ود العماري⁽⁴⁾. فلما طفروا الخندق صاروا قبل رسول الله مباشرة، والمسلمون خلف ظهره. فأمر النبي عليه السلام ابن طالب بأن يمضي بمن خلف معه؛ ليأخذ الثغرة عليهم حتى لا يمكنهم الرجوع، وليمعن بقية قوى الأحزاب من عبورها، فخرج عليه عليه السلام في نفر من المسلمين حتى أخذ الثغرة، وسيطر عليه عليه السلام على الموقف.

(1) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 181، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 223، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 232، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 458.

(2) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 309، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 113، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 216، الشيخ الطوسي، الأimalي، ص 267.

(3) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 216، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 1، ص 293، ابن خلدون، العبر وديوان المبدأ والخبر، ج 2، ص 30، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 2، ص 11.

(4) الواقدي، المغازى، ج 2، ص 470، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 235. تهذيب السيرة النبوية، ص 193، الطري، تاريخ الأمم والملوک، ج 2، ص 239، الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص 52، الأربلي، كشف الغمة، ج 1، ص 197، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 181، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 342، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 202، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 61، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 19، ص 62، الجوزي، الوفا بأحوال المصطفى، ص 693، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 105.

في الوقت نفسه، كان المشركون الذين عبروا يجولون من جهة المسلمين، والمسلمون وقوف لا يقدم أحدُّ منهم على المشركين. وجعل عمرو بن عبد ود يدعو للبراز، وكان من مشاهير الأبطال وشجعان العرب وفارسها، ويعرف بفارس قريش⁽¹⁾، فقال النبي ﷺ: «من لهذا؟»، فلم يقم إليه أحد.

فقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: «أنا له يا رسول الله». فأمره النبي ﷺ بالجلوس. فقال رسول الله ﷺ: «أيُّكم ييرز له، وأضمن له على الله الجنة؟»⁽²⁾، فلم يجبه أحد، فقام عليّ بن أبي طالب ثانية، وقال: «أنا له يا نبِي الله». فقال له النبي ﷺ: «إنه عمرو، اجلس». ثم توجه النبي ﷺ ثالثة إلى المسلمين، وقال لهم: «من يقوم إلى مبارزته فله الإمامة بعدي؟»، فنكل الناس، فقام عليّ ثالثة، وقال: «أنا له يا رسول الله». فقال النبي ﷺ: «إنه عمرو». فقال عليّ ﷺ: «وأنا عليّ». فقال له النبي ﷺ: «ادْنُ مني يا عليّ»، فدنا منه، فقبله وعممه بعمامته، وقلده سيفه ذا الفقار، وخرج معه خطوات كالمودع له، القلق لحاله، المنتظر لما يكون منه، وقال ﷺ: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله!»⁽³⁾. ثم لم يزل رسول الله رافعاً يديه إلى السماء، والمسلمون صمود حوله، وهو يقول: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَخْذَتَ مِنِّي عَبِيدَةَ بْنَ الْحَارِثَ يَوْمَ بَدْرٍ، وَحَمْزَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ يَوْمَ أَحَدٍ، وَهَذَا أَخِي عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَلَا: لَا تَذَرْنِي فَرِداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثَيْنَ»⁽⁴⁾، اللَّهُمَّ احْفَظْهُ

(1) الشيخ الصدوق، الخصال، ج 2، ص 368، الشيخ المفيد، الاختصاص، ص 167، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار ج 1، ص 287، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 342، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 237.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 106، ابن سعيد، السيرة النبوية، ج 3، ص 204، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 3، ص 135، ابن سيد الناس، عيون الآخر، ج 1، ص 61، السهيلي، الروض الأنف، ج 3، ص 27، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 261، ج 19، ص 63، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 32، الخوارزمي، المناقب، ص 104، القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، ص 95، الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد، مكتبة المصطفوي، قم، إيران، 1369 هـ، ش، ص 137.

(3) الحاكم الحسكناني، شواهد التنزيل، ج 2، ص 10، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 59، وابن سعيد الناس، عيون الآخر، ج 2، ص 61، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 194 و 195، الواقدي، المغازي ج 2، ص 470، الأربلي، كشف الغمة، ج 1، ص 204، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص 60.

(4) سورة الأنبياء، الآية 89.

من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه، وعن شماله، ومن فوق رأسه، ومن تحت قدميه».

فدعى عليٰ عليه السلام بداعه علّمه إِيَّاه رسول الله ﷺ، فقال: «اللّهم بك أصول، وبك أجول، وبك أدرأ في نحره». وخرج عليٰ عليه السلام راجلاً، بينما كان عمرو فارساً، فسخر به عمرو، ودنا منه عليٰ ^(۱)، وعرض عليه الإمام عليٰ عليه السلام الإسلام أو الرجوع إلى بلاده، أو المبارزة، فرضي بالثالثة. وهنا وجد عمرو بن عبد وَدْ نفسه وجهاً لوجه أمام قاتل الأبطال في بدر واحد، فعلم أنه مقتول، فاستحيا أن يظهر الفشل، فبارزه الإمام عليٰ عليه السلام، وانقضّ عليه كالأسد، فسقط صريعاً ^(۲)، فقال رسول الله ﷺ: «لمبارزة عليٰ لعمرو بن عبد وَدْ أو ضربة عليٰ يوم الخندق خير من عبادة الثقلين، أو أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيمة» ^(۳).

وبمقتل عمرو، انكشف المشركون الذين عبروا الخندق معه، وفرّوا عائدين. وانقضّ عليٰ عليه السلام خلفهم، يقتل منهم. فلما رأى النبي ذلك قال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم».

وتوجّه النبي ﷺ إلى ربّه بالدعاء والعبادة، فأتى عليه السلام مسجد الفتح، فصلّى ركعتين، ثمّ قال: «اللّهم إن تهلك هذه العصابة لم تبعد في الأرض بعدها»، واشتغل بالدعاء: «اللّهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللّهم اهزمهم، وانصرنا عليهم وزلزلهم. اللّهم إني أنسدك عهdk ووعدك، اللّهم إن تشا لا تُعبد».

(۱) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 13، ص 285، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 343، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 203، وج 41، ص 88.

(۲) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 181، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 19، ص 63، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 203، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 1، ص 295 و 296، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 3، ص 139، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، من 533.

(۳) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 115، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 13، ص 19، الحكم التيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 32، الخوارزمي، المناقب، ص 58 الجرجاني، علي بن محمد، شرح المواقف، مطبعة السعادة، 1907م، ط 1، ج 8، ص 371، الحكم الحسکاني، شواهد التنزيل، ج 2، ص 14، الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج 32، ص 31، القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، ص 94، السيد ابن طاووس، سعد السعود، ص 139، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص 60، أبي الفتح الكراجكي، كنز الفوائد، ص 137، شرح المقاصد، ج 5، ص 298، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 343، الدميري، كمال الدين دميري، حياة الحيوان الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ، ط 2، ص 274.

وفي ليلة السبت، قام رسول الله يصلي، وكان ذلك في أيام شاتية، وبرد شديد، فأرسل الله تعالى ملائكة وريحاً صرراً عاتية على الأحزاب، فهتك القباب، وقلعت خيم المشركين، وكفأت القدور وأطفأت النيران، وقلعت الأوتاد، حتى لا يقر لهم قدر ولا بناء، وأرسل عليهم ظلمة دامسة وجالت خيل المشركين بعضها على بعض تزجرها الملائكة، فانطلقو هاربين لا يلوي أحد على أحد حتى ما كان في الأرض منزل أشد عليهم، ولا أكره إليهم من منزلهم ذلك، وكثر تكبير الملائكة في جوانب عسکرهم، وغضبتهم الملائكة تطمس أبصارهم، ورأوا أن لا خلاص لهم إلا بالفرار^(١).

(١) قطب الدين الرواوندي، الخرائج والجرائم، ج، ١، ١٥٦، ص ٢٣٠، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج، ٢، ص ١٨٦، مسلم التيسابوري، صحيح مسلم، ج، ٥، ص ١٤٣، عبد الرزاق الصناعي، المصنف، ج، ٥، ص ٣٦٧، ابن كثير، البداية والنهاية، ج، ٤، ص ١٠٤، البخاري، صحيح البخاري، ج، ٣، ص ٢٢، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج، ١، ص ٦٠، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج، ٢، ص ١١٥، الواقدى، المغازى، ج، ٢، ص ٤٨٨، القيرواني، الجامع، ص ٢٨١، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج، ٤، ص ٥٤٥، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج، ٨، ص ٣٣٩، السيد ابن طاووس، سعد السعوض، ص ١٣٨، البلاذري، أنساب الأشراف، ص ٣٤٥، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج، ١٠، ص ١٢٣.

المفاهيم الرئيسية

- سعى يهود بنى قريظة لنقض العهد مع النبي ﷺ، خصوصاً مع مجيء حيي بن أخطب، وسعيه لتلقيهم ضدّه ﷺ وال المسلمين، وأعطاهم العهد على نصرتهم وحمايتهم، والدفاع عنهم، فوافقوا على نقض العهد مع رسول الله ﷺ، فعلم رسول الله ﷺ بنقض بنى قريظة العهد، فأرسل لهم سعد بن عبادة للحفاظ عليه، إلا أنهم رفضوا ذلك.
- عمل رسول الله ﷺ على إحكام خطته في حماية المدينة من خلال:
 - أ. تقوية البعد الروحي للمسلمين عبر الدعاء والتتوسل.
 - ب. الحراسات وسدّ الثغرات: وكان ذلك في طول الخندق وعرضه، ليلاً نهاراً.
 - ج. مراقبة حصون بنى قريظة بشكل مستمرّ.
 - د. قوّة التدخل المباشر بقيادة الإمام عليؑ عند حصول أي خرق أو خلل في مكان ما.
- عمل رسول الله ﷺ على تفيت جبهة الشرك من خلال تحويل الشك والريب بين اليهود والمشركين إلى حقيقة وواقع، وتفيك العلاقة بين قريش والقوى الأخرى المشاركة معها.
- عرضت غطفان على النبي ﷺ الانسحاب مقابل بعض تمور المدينة، فاستغلّ رسول الله ﷺ ذلك، عبر رفض عرض غطفان من جهة، ومن جهة أخرى نشره بين قوى الشرك لإحداث التفرقة في صفوفها، وعمل أيضاً على زعزعة الاتفاق بين قريظة والأحزاب.
- سعت الأحزاب للنفاذ عبر الخندق، فنجح عمرو بن ود العامري بذلك، فتصدى له الإمام عليؑ وقتلها، فخسرت بذلك قريش قوتها المعنوية، وانهزمت نفسياً، وأثر ذلك بشكل مباشر على قوى الجيش عندها.
- تدخلت الإرادة الإلهية لكسر شوكة قوى الشرك، فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم الريح الصرقر الشديدة، والشتاء البارد، فهُتكت القباب، وقلعت خيم المشركين، وفرّوا هاربين.

الدرس الثامن عشر

حماية المدينة وتفتت جبهة قريش (يهود بنى قريظة)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح أهم الخطوات التي اعتمدتها النبي ﷺ في مواجهة قوى الشر.
2. يعرف كيف تخلص المسلمون من خطر يهود بنى قريظة.
3. يفهم الدروس وال عبر المستفادة من غزوة بنى قريظة.

تمهيد

إنَّ جميع المعارك الكبرى التي خاضها رسول الله ﷺ في وجه قريش أثُرَت بشكل مباشر على الإسلام، حيث ارتفعت رايته خفقة في شبه الجزيرة العربية، وأصبح يشكل تهديداً خطيراً على مستقبل قريش والقبائل العربية المؤيدة لها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، فإنَّ تلك المعارك أثُرَت سلباً على جميع القوى المعادية للإسلام في ذلك الوقت، وأدَّت إلى زعزعتها من الداخل، وسقوط هيمنتها أمام القبائل العربية الأخرى، وكان من أبرز تلك القوى قريش، واليهود.

وكان رسول الله ﷺ يعمل على محاولة أن لا يواجه قريشاً بشكل مباشر، وكان عليه في الوقت نفسه أن يحذر من اليهود في المدينة المنورة؛ لأنَّهم يشكّلون خطراً واضحاً على مستقبل الدعوة الإسلامية. ولذا سعى رسول الله ﷺ إلى إنهاء وجودهم والتخلص من خطرهم بطريقة سلمية، وكذلك إلى إنهاء الوجود اليهودي في المدينة المنورة لتأمين استمرارية الرسالة وعدم زعزعة استقرارها من الداخل.

الإستراتيجية النبوية في قلب موازين القوى في المنطقة

1. التحول من الدفاع إلى الهجوم:

كانت غزوة الأحزاب آخر ما يمكن لتحالف الشرك واليهودية أن يفعله في مقابل دعوة الإسلام من أجل التغلب عليه وهزيمته. وعندما قتل عليٌّ بن أبي طالب ؓ عمرو بن عبد ود العماري، قال رسول الله ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا»، تعبيراً عن

انتهاء دور الهجوم عند الشرك والدفاع عند المسلمين، ووصول الإسلام إلى دور الهجوم لإبادة الشرك في جزيرة العرب.

2. قلب موازين القوى وآثاره على قريش:

كان من الواضح أن ميزان القوة قد مال إلى مصلحة الإسلام لا إلى مصلحة الشرك. فمعسكر الإسلام يقوى بتوسيع الدعوة كماً ونوعاً، ومعسكر الكفر في حالة تراجع على المدى الطويل، ولم يعد مصير المواجهة بين الإسلام والكفر مرتبطاً بالمواجهة العسكرية فقط، وإنما بكسب تلك القبائل العربية، وسوف يشكل انضمامها إلى أحد الطرفين عاملًا أساسياً في المرحلة القادمة. ولكن حتى يستطيع الرسول استقطابها، كان بحاجة إلى الاعتراف بها أو الهدنة مع قريش.

وذلك لأنّ لقريش مكانة عالية عند العرب، وصلت إلى حد التقديس. فهي ذرية إسماعيل وإبراهيم، وهي الحامية للكعبة والأصنام، وفي أرضها حرم الله ومكة، مما أعطاها مكانة سياسية واجتماعية ودينية جعلها تستكبر الخصوص لدعوة خاتم النبيين ﷺ، الأمر الذي وضع بقية العرب الذين كانوا يراقبون المعركة بين النبي ﷺ وبينها في حالة من الانتظار ومراقبة من سوف ينتصر فيها⁽¹⁾. وكان العرب يتبعون بدقة أخبار قريش ومحمد، والمعارك الجارية بينهم، فشاهدوا هزيمة قريش في بدر، ثم سقوط هيبتها في أحد، وكذلك فشلها الذريع في معركة الأحزاب، فأصبحت قريش في وضع الاستعداد للتسلیم بوجود الإسلام، وباستحالة استئصاله، فقد استنفذت كل خططها، واستعملت كل قواها، وقد أصبحت جاهزة لخطوة رسول الله ﷺ، ولكن كان عليه هو أن يساعدها على قبولها بهذه الحقيقة، دون أن يخدش كبرياءها وغطرستها، وبحيثية لا تحرجها، وتبقى لها على شرفها وسمعتها بين العرب، فلا بد من جرّ قريش إلى مائدة المفاوضات، وإخراجها من حيرتها، لإيجاد حالة من المصالحة أو الهدنة معها للدخول في الإسلام.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 75، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 180، الحلبى، السيرة الحلبية، ج 1، ص 5.

3. إطلاق يد المسلمين في نشر الدعوة:

كان معسّر الشرك يتكون من قوتين، هما: قريش واليهود. وكانت أمّا رسول الله ﷺ مهمّتان:

الأولى: توسيع رقعة الإسلام من خلال إطلاق يد المسلمين في نشر الدعوة، وتقيد قريش واليهود من أجل إحداث الانقلاب في ميزان القوى.

الثانية: إحداث شقّ في معسّر الكفر ما يسهّل القضاء على أطرافه واحداً تلو الآخر.

فلقد كان رسول الله ﷺ يريد أن تقلب موازين، وأن يحسم الحرب لمصلحة الإسلام، ولكن كان عليه أن يصل إلى ذلك بأقل ما يمكن من سفك الدماء. إذاً لا بدّ من تقطيع أوصال قريش العسكرية وتوسيع حركة المسلمين في نشر الدعوة.

4. الخروج إلى بيت الله الحرام:

إن الطريق إلى تحقيق أهداف النبي ﷺ هو البيت الحرام، فهو مثابة للناس وأمن، تقدّسه كل قبائل العرب، فكانت تزوره، وتحجّ إليه، ولم يصدق في تاريخ البيت الحرام، أن صدّ حاج أو راغب بزيارة البيت الحرام؛ لأن ذلك كان حقاً لكل واحد من الناس. فقرر رسول الله ﷺ الخروج محراً، معظماً للبيت، زائراً له، ولا بدّ أن تنتج عن الخروج إلى مكة إحدى نتائجتين في طريق التأثير في تغيير موازين القوى، فهو من شأنه أن يطمئن أهل مكة، ومن حولها إلى أنه لا يريد الحرب، وسوف يفتح وبالتالي طريقةً للحوار مع قريش، وربّما جرّها إلى طاولة المفاوضات.

ومن جهة أخرى، سوف يكون تحدياً لزعماء الشرك، وسوف يدلّ على شعور المسلمين بالقوّة والعزة، هذا أولاً، وثانياً سوف يكسر هيبة قريش ويؤدي إلى أن يشعر الناس بقوّة هذا الدين، فيتجرون على الدخول فيه.

وأمّا عن موقف قريش، فإنّ هذا الإجراء قد جاء في الأشهر الحرم التي يمنع القتال فيها. وأمّا موقفها تجاه النبي ﷺ فإنّها لا يمكن أن تردّ رسول الله، أو تقاتلته، وقد جاءها مسالماً حاجاً يسوق هديه، وإنّ إذا رفضت دخوله لزيارة بيت ربّه، فماذا يكون جوابها لمن جاء معه من الأعراب ولغيرهم ممّن لم يأت معه، خصوصاً أنه قصد مكة في الأشهر الحرم؟

لم يكن أمّاً قريش سوى المفاوضات التي سوف تسمح بنزع فتيل المعركة بين الطرفين، سواء أ جاءَ الحلُّ من قبل رسول الله ﷺ أم من قبل قريش. ولكن العنصر الحسّاس في هذه الخطة كان احتمال وقوع الاشتباك المسلّح، وكانت مواضع الخطر في معسكر النبي ﷺ نزعة التمرّد والعصيان المحتملة. ولذلك وجّه النبي ﷺ أمراً صارماً بعدم الاشتباك وعدم القتال. وأمّا مواضع الخطر في معسكر قريش فقد كانت لا تعدّ ولا تحصى، ولكنّه اعتمد في استيعاب أخطارها على روح الطاعة والانضباط في صفوفه، وعلى أنّ قريشاً لا بدّ لها أن تحسب حساباً كبيراً لأيّ اشتباك مسلّح؛ لأنّها لا ت يريد أن تخرج نفسها أمّاً العرب عندما تقاتل زوار بيت الله الحرام.

كذلك كان هناك جانب خطر في الخطة النبوية الجديدة لقلب موازين القوى في الجزيرة العربية لمصلحة الإسلام، وهو أنّ المدينة سوف تخلو من المدافعين عنها أمّاً الطامعين والحاقدين من قبائل الشرك، ولو تحرك النبي ﷺ بال المسلمين لجسم الحرب مع قريش، فسوف تخلو المدينة من المدافعين عنها أيضاً أمّاً يهود بنى قريظة القربيين منها، ويهدون خيراً، وغيرهم.

فلكي يتمكّن النبي ﷺ من أن يتّخذ قراراً بالخروج بأكثر المقاتلين إلى مسافة بعيدة لجسم الأمر مع قريش، عليه أن يقوم بخطوات احترازية لضمان حماية المدينة.

5. القضاء على قوّة يهود بنى قريظة:

كان أمّاً رسول الله ﷺ خطوات تمهدية عدّة من أجل قلب موازين القوى، والانتقال إلى الهجوم، ثمّ مواجهة قريش في النهاية وحيدة معزولة. من هذه الخطوات: إنهاء وجود بنى قريظة، توجيه ضربة لبني المصطلق، توجيه ضربات عدّة لليهود، ضبط الوضع العام للأعراب حول المدينة.

أ. من هم بنو قريظة؟

وبني قريظة من القبائل العربية التي كانت تسكن في بلاد الشام، وقد هاجروا منها بعد أن ظهرت عليهم الروم، فوطئوهم وقتلواهم، وخرجوا من بلادهم حتى وصلوا إلى

بلاد الحجاز، فسكنوا بعالية المدينة على وادي مهزور⁽¹⁾. وكان بنو قريظة أهل شرف وأموال⁽²⁾.

وكانت لهم حصون عالية بعالية المدينة، على وادي مهزور؛ حيث يقع مسجد بنى قريظة الذي يوجد بالعلوي على باب حديقة تعرف بحاجزة، شرقي مسجد الشمس، مسجد الفضيحة الذي يقع هو الآخر شرقي مسجد قباء في الحرة الشرقية المعروفة بحرّة واقم، وتسمى حرّة بنى قريظة أيضاً لأنّهم كانوا بطرفها القبلي⁽³⁾.

ب. التوجّه إلى بنى قريظة:

بعد أن انتهت معركة الخندق التي عانى فيها المسلمون الخوف من مهاجمة ذراريهم ونسائهم من قبل بنى قريظة، وكان من المستحيل تجديد العهد معهم بعد الخيانة التي ارتكبواها، فما الذي يمنعهم من نقضه ثانية؟ بعد ذلك بدأت عملية إنتهاء وجود يهود بنى قريظة في آخر ذي القعدة، يوم الأربعاء لسبعين بقين من ذي القعدة في السنة الرابعة من الهجرة، وحاصرهم المسلمون لمدة تتراوح بين عشرة أيام أو شهر⁽⁴⁾.

ولمّا انصرفَ من الخندق ودخل المدينة، ووضع السلاح، وكان حينئذ في بيت فاطمة عليه السلام⁽⁵⁾، جاءه جبرئيل، وكان رسول الله يمسح الغبار عن وجهه، فقال له جبرئيل عليه السلام: «عذيرك من محارب، رحمك ربّك! وضعت السلاح ولم يضعه أهل السماء! انهض إلى إخوانهم من أهل الكتاب، فوالله لأدفنهم دقّ البيضة على الصخرة!». واستبشر النبي عليه السلام بالمعركة القادمة ضدّ يهود بنى قريظة، فأمر بأن يدعوا له

(1) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج 22، ص 344.

(2) الواقدي، المغازى، مصدر سابق، ج 1، ص 480.

(3) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 346، وج 5، ص 234، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 2، ص 287.

(4) ابن حزم الأندلسى، جوامع السيرة، ص 156، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 496، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 217، العيني، عمدة القاري، ج 17، ص 188.

(5) أحمد بن حنبل، مسنـد أـحمد، ج 5، ص 275، الحاكم الـنيـسابوري، المستدرـك عـلـى الصـحـيـحـين، ج 1، ص 448، وج 3، ص 155، محب الدين الطبرى، ذخائر العقبى، ص 37، البـهـيقـى، السـنـنـ الـكـبـرىـ، ج 1، ص 26، الزـرنـدىـ، الحـنـفىـ، محمد بن يوسف، نظم درر السـمـطـينـ، مكتـبةـ الإمامـ أمـيرـ المؤـمنـينـ عـلـىـ الـعـالـمـ، طـ1ـ، صـ177ـ، الشـيخـ الطـبرـسـىـ، إـعـلامـ الـورـىـ، صـ93ـ.

علياً ﷺ، فجاء، وقال له: «ناد في الناس ألا لا يصلين أحد الظهر إلا في بنى قريظة». فجاء عليٌّ ﷺ فنادى فيهم، ثمْ أعطاه الراية واللواء، وقال له: «سر على بركة الله، فإنَّ الله قد وعدكم أرضهم وديارهم». وبينما كان رسول الله في طريقه إلى بنى قريظة، دنا عليٌّ ﷺ من حصنهم، وغرز الراية عند أصل الحصن⁽¹⁾.

ج. المزيمة المعنوية لبني قريظة:

لِمَا رَأَهُ بَنُو قَرِيظَةَ أَخْذُوهُ يَتَصَارُخُونَ وَيَتَصَاحِحُونَ بَيْنَهُمْ: «أَقْبَلَ إِلَيْكُمْ قاتلُ عُمَرَ!». فَكَانَ قُتْلُ عُمَرَ سَبِيلًا لِهُزِيمَةِ بَنِي قَرِيظَةَ. وَتَمَّتْ مُحاَصَرَةُ بَنِي قَرِيظَةَ، وَكَانَ الْهُجُومُ صَاعِدًا لِدَرْجَةِ أَنَّهُ فَاجَأُهُمْ بِشَكْلِ كَامِلٍ. فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، أَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَسْتَرُوهُ بِجَحْفِهِمْ؛ لِيَقُوَّهُ الْحِجَارَةُ حَتَّى يَسْمَعُ كَلَامَ الْيَهُودِ، فَفَعَلُوا، فَدَعَاهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، فَأَبَوُا أَنْ يَجِيبُوا إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَشْرَفُوا عَلَيْهِ وَسْبُوهُ، ثُمَّ أَمَرَ فَضَرِبَتْ خِيمَتِهِ بِإِزَاءِ حَصْنِهِمْ، وَكَانَ النَّاسُ قَدْ أَخْذُوهُ بِالْتَّلَاقِ بِهِ⁽²⁾.

د. الفتح على يد الإمام عليٰ ﷺ:

لَمْ يَبِدِ الْمُسْلِمُونَ لِلقتالِ، وَكَانَ الْيَهُودُ يَرْمُونَ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّبْلِ مِنْ حَصْنِهِمْ. وَبَعْدَ أَيَّامٍ عَدِّةٍ، تَرَكَ الْيَهُودُ رَمِيَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَرْسَلُوا نَبَاشَ بْنَ قَيْسَ لِمُفَاوِضَتِهِمْ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ بَنِي قَرِيظَةَ وَاسْتَمْرَرُوا أَيَّامًا فِي العَنَادِ وَالْإِصْرَارِ، مُتَبَاطِئِينَ فِي إِجَابَةِ طَلْبِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْتَّسْلِيمِ، وَالنَّزْلَوْنَ عَلَى حُكْمِهِ، فَاسْتَنْفَرَ عَلِيًّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ: «يَا كَتِيبَةَ الإِيمَانِ»⁽³⁾.

وَطَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ عَلِيٰ ﷺ أَنْ يَحْسُمَ الْحَرْبَ، فَأَيَّقَنَ بَنُو قَرِيظَةَ بِالْهَلَكَةِ،

(1) الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 332، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي ج 2، ص 189، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 194-195، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 109.

(2) عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 5، ص 370، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 245، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 245، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 52، الأربلي، كشف الغمة، ج 1، ص 207، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 63.

(3) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 501، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 13، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 74، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 52، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 251-257، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 73، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 234.

وسرعان ما ظهرت آثار ذلك عليهم، فقد قتل عليٰ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلِيٰ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عشرة من رجالهم، وأولى النجدة منهم، وظهر السرور على وجه رسول الله ﷺ، فقال لأصحابه المحيطين به: «يا معاشر قريش، إني أوصيكم بوصية فاحفظوها عنّي، ومودعكم أمراً، فلا تضيغوه، إنْ عَلِيًّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ إِمَامُكُم مِّنْ بَعْدِي، وَخَلِيفَتِي فِيْكُمْ، وَبِذَلِكَ أَوْصَانِي جَبَرِيلُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». فانعكس الخوف سريعاً على بنى قريظة، فقد فرّ بعضهم، واعتنق بعضهم الآخر الإسلام علنًا، فأمنوا على أنفسهم، وأهلهم، وأموالهم⁽¹⁾.

ولمّا اشتدّ الحصار على بنى قريظة، وخافوا من مهاجمة عليٰ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لهم، بعد أن جاءهم وقهفهم، وقد كان ذلك في الأيام الأخيرة من الحصار، أرسل اليهود إلى حلفائهم من الأوس أن يأخذوا لهم مثل ما أخذت الخزرج لإخوانهم بنى قينقاع، ولكنّ رسول الله ﷺ أبى إِلَّا أَن ينزلوا على حكمه، فسأله اليهود أن يرسل إليهم أبا لبابة زيد بن عبد المنذر، ليشاوروه في أمرهم، فأرسله إليهم، وقال له: «يا أبا لبابة ائت حلفاءك ومواليك، وقل معروفاً»⁽²⁾، إِلَّا أَنَّهُ أَوْحى إِلَى بَنِي قَرِيظَةَ أَنَّ نَزُولَهُمْ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ يَعْنِي الذبح، فخافوا ورفضوا النزول على حكم رسول الله، وقالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ، فلم يسألوا الرسول ﷺ العفو، الأمر الذي يستبطن تشكيكاً بالنبي، وإعلاناً بعدم الثقة بحكمه بالعدل والحق، ولجأوا إلى سعد بن معاذ بن نفسه لينقذهم من ورطتهم، وذلك استناداً إلى الحلف الذي كان بينهم وبين الأوس في الجاهلية. وقد حاول سعد معالجة هذا النقض للعهد لصالحهم، فلم يفلح، وأظهروا من الخبر ما جعله يعرفهم على حقيقتهم.

وكان سعد يدرك جيداً الفرق بين حلف جاهلي أملته ظروف العصبية، وعهد إسلامي أملته القيم الإنسانية العالية. ولذلك قال رسول الله ﷺ حينما طلب منه الحكم في بنى قريظة: «آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم».

(1) الواقدي، المغازى، ج 2، ص 503، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 15.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 190، فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص 175.

نتائج الحرب

بعد أن جهدهم الحصار، واستنزلهم عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام على حكم رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه؛ فنزلوا على حكم سعد بن معاذ، أمر النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه بأسراهם، ونحو ناحية، وجعلوا النساء والذرية ناحية، وكانوا ألفاً.

تنحى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه فجلس جانباً، ودنت الأوس إليه صلوات الله عليه وآله وسلامه، وطلبوها منه أن يهب لهم حلفاءهم من بني قريظة. وكان هؤلاء الأوس مجموعة من المنافقين، كشفتهم الحادثة، وأظهرت ولاءهم الجاهلي، وقد كان يمكن أن يكون نشاط هؤلاء مؤثراً في إثارة جوّ من التشكيك والبلبلة، لولا حكمة رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، فأخرجهم، وتخلص من إلحاهم، وأفقدتهم إمكانية التأثير على السُّدُج والبسطاء، فقال صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أما ترضون أن يكون الحكم فيهم إلى رجل منكم؟!»، قالوا: «بلى!»، قال: «فذلك إلى سعد بن معاذ».

فجاءت الأوس إلى سعد، فحملوه على حمار، وطلبوها منه أن يحسن في مواليه من بني قريظة، وطبق سعد بن معاذ ينفلت إلى رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه: «أتقرّ بما أنا حاكم؟!»، «نعم!»، قال سعد: «فإنّي أحكم فيهم أن يقتل كلّ من حزب عليه، وتسبي النساء والذرية، وتقسم الأموال، وبأن تكون الديار للمهاجرين دون الأنصار». فكبّر رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، وقال لسعد: «لقد حكمت بحكم الله عزّ وجلّ من فوق سبعة أرقعة».

ثمَّ رجع رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى المدينة، في الأسبوع الأول من ذي الحجة. وسيق رجال بني قريظة إلى المدينة مقرّنين في الأصفاد، حتّى يرى ضعفاء الإسلام قوّة الدين، وعزّة ملة سيد المرسلين. وحبس الرجال في بعض دور الأنصار والنساء والذرية في دار ابنة الحارت⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج، 2، ص 509. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج، 2، ص 75، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج، 2، ص 73، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5 ص 19، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج، 2، ص 32، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 5، ص 370، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 317، الجوزي، الوفا بأحوال المصطفى، ص 695، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 8، ص 352، العيني، عمدة القاري، ج 17، ص 192، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 7، ص 317، للتوضّع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 10، ص 311، ج 12، ص 7.

الدروس المستفادة من غزوة بني قريظة

كانت لغزوة بني قريظة نتائج عديدة، منها:

1. شراء السلاح ومضاعفة القوّة التسليحية من أجل تقوية عامل الردع السليبي للMuslimين.
2. قسم رسول الله ﷺ الخيل والسلاح الذي اشتراه على المسلمين، الأمر الذي يعطي انطباعاً بأنّ على الدولة أن تخطّط للتسلیح الكافی والوافی، ولا تقصر على ما يتوفّر لدى الناس العادیین.
3. النص على مشروعیة التحكيم، وأنّ تنفيذ الحكم الصادر منوطُ بأن لا يخالف حکم الله عَزَّ وجلَّ.
4. لم يكن الإسلام مهتماً بالاسترقاق، لو لا أنه يريد دفع غاللة الآخرين عنه. وقد عامل رسول الله ﷺ بني قريظة بالمثل، إذ لو أسرّوا المسلمين لاسترقّوهم.
5. لم يكن الحكم في حقّ بني قريظة قاسياً، وذلك لأسباب عدّة، وهي:
أ. أنّ بني قريظة أنفسهم قد رفضوا النزول على حكم رسول الله ﷺ، وقبلوا بالنزول على حكم حليفهم في الجahليّة، وكانوا يرون أنّه أقرب إلى أن يعاملهم بالصفح وذلك حسب منطقهم الجاهليّ.
- ب. إنّ جريمة بني قريظة لا تفاس بجريمة بني النضير وقينقاع. فقد كانت خيانة بني قريظة إلى درجة التقدّم في خطوات عملية تهدّد أساس الإسلام وتعرّض الوجود الإسلامي للإبادة.
- ج. إنّ الدولة الإسلامية الناشئة كانت تعقد مع القبائل المشركة أو القبائل التي هي من أهل الكتاب عهوداً واتفاقات ومواثيق، وكانت تفي لهم بما تعهّدت به، وكان من الواجب على تلك القبائل أن تفي للإسلام بما تعهّدت به، ولكنّ بني قريظة لم يفوا بعهدهم، بل خانوا الله ورسوله.
- د. إنّ حکم سعد بن معاذ قد جاء وفق ما يحکم به اليهود أنفسهم على الآخرين.

فاليهود هم الذين كتبوا في توراتهم المحرفة عن المدينة التي يدخلونها عنوة: «وإذا دفعها ربُّ إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحدِّ السيف. وأمّا النساء والأطفال والبهائم وكلَّ ما في المدينة، كلَّ غنيمتها، فتغتنمها لنفسك. وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك ربُّ إلهك»⁽¹⁾.

(1) سفر التثنية، الإصلاح العشرون - الفقرة رقم 13 - 14، سفر العدد، الإصلاح 31 الفقرة 7 - 10 و 13 - 16.

المفاهيم الرئيسية

- عمل رسول الله ﷺ على بناء استراتيجية في قلب موازين القوى في منطقة شبه الجزيرة، وذلك عبر الآتي:
 1. التحول من الدفاع إلى الهجوم؛ وذلك بعد معركة الأحزاب.
 2. قلب موازين القوى وآثاره على قريش.
 3. إطلاق يد المسلمين في نشر الدعوة.
 4. الخروج إلى بيت الله الحرام.
- القضاء على قوة بنى قريظة داخل المدينة المنورة، وتوجيه ضربة لبني المصطلق، والقبائل اليهودية المترفة.
- يُعدّ يهود بنى قريظة من القبائل التي كانت تسكن بلاد الشام، ثم هاجرت إلى يثرب بعد إلحاق الأذى بها من قبل الروم.
- بعد أن انتهت معركة الخندق قرّر رسول الله ﷺ التوجه إلى بنى قريظة، وذلك لسبعين من ذي القعدة من السنة الرابعة للهجرة، وقد جاءه الأمر الإلهي بالخروج إلى بنى قريظة، وكان لا يزال غبار معركة الخندق على المسلمين.
- لما وصل رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة، وغرز الإمام علي عليه السلام الراية عند الحصن، تصارخ اليهود وتصايروا في ما بينهم.
- لم يبادر المسلمون إلى القتال، وبعد محاصرة بنى قريظة أيام عدّة، استمرّوا أيامًا في العناد والإصرار، ثم بدأوا بالتفاوض مع رسول الله ﷺ. وبعد أن قتل الإمام علي عليه السلام عدّاً منهم، وأسلم آخرهم، نزل اليهود على حكم النبي ﷺ، فحكم فيهم سعد - بطلب منهم - بقتل المقاتلين منهم وسببي ذماريهم وأخذ أموالهم. يمكن استفادة دروس عدّة من هذه المعركة، منها: تضاعف قوة المسلمين المادية، النص على مشروعية التحكيم، توزيع السلاح على كل المقاتلين، وغير ذلك.

الدرس التاسع عشر

حماية المدينة وتفتيت جبهة قريش وقوّة اليهود

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف ونتائج غزوة بنى المصطلق.
2. يشرح كيف قضى المسلمون على قوى اليهود الأخرى.
3. يبيّن أهم الإجراءات في ضبط الأعراب حول المدينة.

تمهيد

أَمَّنْ رسول الله ﷺ الحماية الكاملة للمدينة من الداخل، من خلال إنتهاء وجود بني قريظة، نظراً لعدم وفائهم بعهدهم له ﷺ، وارتکابهم خيانة عظمة بالتحريض ضد المسلمين، ومحاولة قتلهم مع الأحزاب، فكان لذلك أثُرٌ مباشرٌ في حماية المدينة المنورة من الداخل.

وكان على رسول الله ﷺ استكمالاً لخطواته الأساسية لمحاولة تعديل موازين القوى مع قريش، وجّرّها للإسلام من دون سفك الدماء، أن يستكمل حماية المدينة المنورة؛ ليستعدّ للخروج إلى قريش مطمئناً عليها.

ولذا، قام بخطوات عدّة في وجه القبائل العربية واليهودية التي تترّبص بالمدينة شرّاً من الخارج، وقد نجح رسول الله ﷺ في تطبيق خطّته، وتحقيق الأهداف المرجوة منها، واستكمل خطواته بشكل متسلّسلاً.

غزوة بني المصطلق

1. سبب غزوة بني المصطلق:

وهي المعروفة بغزوة المريسيع، وكانت بعد الخندق وبني قريظة، في شعبان في السنة السادسة⁽¹⁾، وهي ماء لبني خزاعة، وتسمى هذه الغزوة أيضاً بغزوة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة.

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 231، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 217، المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 2، ص 289، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 81، ج 8، ص 125، ابن حجر العسقلانى، فتح البارى، ج 8، ص 351، الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج 2، ص 293.

وكان سببها أنّ بنى المصطلق كانوا ينزلون على بئر يقال لها المريسع، من ناحية قديد إلى الساحل. وكان سيدهم الحارث بن أبي ضرار قد دعا قومه، ومن قدر عليه من العرب، إلى حرب رسول الله ﷺ فأجابوه، وتجمّعوا، وابتاعوا خيلاً وسلاحاً، وتهيؤوا للحرب، والمسير معه. فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي ليتحققّ من ذلك، فأتاهم، ولقي الحارث، وكلمه، مظهراً أنه منهم، وقد سمع بجمعهم، ويريد الانضمام بقومه ومن أطاعه إليهم، وعرف منهم صدق ما بلغهم عنهم، فرجع إلى رسول الله فأخبره بأنّهم يريدون الحرب.

لما أخبر بريدة النبي ﷺ بصحّة ما بلّغه، دعا ﷺ الناس فأسرعوا الخروج، وخرج معه سبعمئة، لليلتين من شعبان، وخرجت معهم زوجاته، عائشة وأم سلمة، واستختلف على المدينة أبا ذر الغفاري، وجعل راية المهاجرين مع عمّار بن ياسر، وراية الأنصار مع سعد بن عبادة. أمّا لواء الجيش ورايته فقد كانا مع علي عليه السلام؛ حيث كان صاحب لواء وراية رسول الله ﷺ في المواطن كلّها، باستثناء غزوة تبوك.

وخرج معه بشر كثيرون من المنافقين، لم يخرجوا في غزوات قبلها، ولم تكن بهم رغبة في الجهاد، إلا أن يصيروا من عرض الدنيا، ولكن قرب عليهم السفر⁽¹⁾.

2. المعركة والقتال:

سار رسول الله ﷺ باتجاه بنى المصطلق، وبلغ الحارث مسير رسول الله ﷺ إليهم، وبلغه أيضًا قتل عينه الذي كان يأتيه بأخبار المسلمين، فسيء بذلك هو ومن معه. وخافوا خوفاً شديداً، وتفرق الأغраб الذين كانوا معه فما بقي أحد سواهم. وانتهى رسول الله ﷺ إلى المريسع، وتهيؤوا للقتال، وصف رسول الله ﷺ أصحابه، وأمر ﷺ أن يقال لهم: «قولوا: لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فآبوا»⁽²⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 407، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 297، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 92، الحلببي، السيرة الحلبية، ج 2، ص 279.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 65، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 215.

فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر النبي ﷺ أصحابه فحملوا عليهم حملة واحدة، قتل منهم عشرة، قتل عليٌّ عَلِيًّا مِنْهُمْ من بينهم رجلين. وقتل أبو قتادة صاحب لواء المشركين، وقتل في المعركة زعيم بنى المصطلق الحارث بن أبي ضرار وأخوه وصهره زوج ابنته جويرية، وأسر الباقيون، ولم يفلت منهم أحد. وكان الفتح ولم يُقتل من المسلمين سوى رجل واحد. ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكانت غيبته ﷺ في هذه الغزوة ثمانية وعشرين يوماً، فوصلها لهلال شهر رمضان المبارك⁽¹⁾.

3. نتائج غزوة بنى المصطلق:

إذا كانت غزوة المريسيع قد أسفرت عن نتائج حاسمة إلى هذا الحد، فإن ذلك يعتبر ضربة مُوقعة ضد نفوذ قريش؛ لأنها قد جاءت في منطقة كانت تقع في نطاق النفوذ المكّي.

ومن جهة ثانية، فإن الطريقة التي تمت بها هذه الضربة القاسية، والنتائج التي أسفرت عنها، لا بد أن تقنع قريشاً وغيرها بأن الوقوف في وجه الإسلام أشبه بالمستحيل.

القضاء على قوى اليهود الأخرى

تفرّغ المسلمون بعد ذلك للقضاء على الخطر المحتمل من باقي قوى اليهود، لذلك قرروا التخلص منهم بإضعاف قوتهم أو القضاء عليهم، فوجّهوا السرايا إليهم، ومنها:

1. سرية عليٍّ عَلِيًّا إلى فدك:

كان أهل خير يتوقعون وقوع الحرب مع المسلمين، فأخذوا يسعون لإقامة تحالفات مع من يحيط بهم، لضمان أن يكونوا إلى جانبهم، ولتقوية موقعهم في الحرب المقبلة ضد المسلمين. والظاهر أنّ بنى سعد بن بكر في فدك استجابوا لهذه الرغبة.

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج.2، ص.53. الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج.2، ص.263. الواقدى، المغازى، ج.1، ص.407، ابن هشام، السيرة النبوية، ج.3، ص.306، ابن كثير، البداية والنهاية، ج.4، ص.158، ابن كثير، السيرة النبوية، ج.3، ص.302، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج.2، ص.65، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص.215، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج.12، ص.233.

وفي شعبان، سنة ست، بلغ رسول الله ﷺ أنّ بنى سعد هؤلاء يحشدون جمعهم، ي يريدون أن يمدوّنوا يهود خيبر، وكان بين فدك وبين المدينة ست ليال، فبعث عليه ﷺ بن أبي طالب ﷺ في مئة رجل، سار إليهم الليل وكمن النهار. وفي الطريق نزل بمن معه محلاً بين خيبر وفديك، فوجدوا به رجلاً، سأله عن القوم، فقال: «لا علم لي»، فشدّوا عليه، فأقرَّ أنه عين لهم، وأنه مرسل من قبلهم إلى خيبر، يعرض على يهودها نصرهم مقابل التمر، ثم استنطقوه عن مكان تجمّعهم، فقال: «أخبركم على أن تؤمنوني»، فأمنوه، فدلّهم على موضع تجمّعهم.

فسار على ﷺ بمن معه، فأغاروا عليهم، وهم غارون بين فدك وخيبر، فأخذوا خمسةٍ بعيير، وألفي شاة، وهرب بنو سعد بالظعن، ثم عزل على ﷺ الخمس، وقسم الباقي على السرية، وقدم بمن معه المدينة، ولم يلقو كيداً⁽¹⁾.

2. سرية أبي عتيك إلى خيبر:

كان أبو رافع، سلام بن أبي الحقيق، اليهوديُّ بخيبر، ممّن حزب الأحزاب يوم الخندق. وقد كانت أم عبد الله بن عتيك بالرضاعة يهودية في خيبر، فكان عبد الله يرطن باليهودية، فقدمه النبي ﷺ لذلك، وأرسل معه أربعة رجال هم: عبد الله بن أنيس، وأبو قتادة، وخزاعي بن الأسود، ومسعود بن سنان، وأمرهم بقتله، ونهاهم عن أن يقتلوا امرأة أو ولیداً⁽²⁾، وخرجت هذه المجموعة الخاصة من المدينة حتى انتهوا إلى خيبر. فدخلوا على أبي رافع في بيته وعلوه بأسيافهم، وخلال تناوشهم بسيوفهم في العتمة، صاحت امرأة أبي رافع، ولما تصاححت امرأته تصايخ أهل الدار، ولكنهم لم يفتحوا أبوابهم طويلاً خوفاً ورعباً، حتى نزل رجال المجموعة الخاصة من البيت واختبئوا في منهـر خيـبر⁽³⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2 ص 90. ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 107، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 562، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 97.

(2) الواقدي، المغازى، ج 1، ص 391، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 286، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 196.

(3) المنهر النافذ من خارج الحصن إلى داخله يجري منه الماء في وقته، لسان العرب، ج 7، ص 95.

ثم خرج اليهود وفي أيديهم النيران في شعل السعف يطلبون المسلمين وهم في بطن المنهر واليهود على ظهره فلا يرونهم. وتفرق دورياتهم تبحث عنهم، فلم يتركوا زاوية أو مغارة أو مكاناً إلا فتشوه، سوى المكان الذي اختبا فيه الرجال قرب البيت، ولما لم يجدوهم ولم يروا شيئاً رجعوا إلى امرأته.

ومكث المسلمون في مكانهم يومين حتى سكن عنهم الطلب، ثم خرجو مقبلين إلى المدينة، فقدموا على النبي ﷺ وهو على المنبر، فلما رأهم، قال: «أفلحت الوجوه!»، فقالوا: «أفلح وجهك يا رسول الله». ثم مسح النبي ﷺ على يد ابن عتيك، فتعافت بحيث إنها لم تكن تُعرف من اليد الأخرى، وكان ذلك في شهر رمضان من سنة ست قبل صلح الحديبية⁽¹⁾.

ضبط الوضع العام للأعراب حول المدينة

في هذه الحقبة من الدعوة النبوية، وردت في كتب الأخبار والروايات الكثير من قصص السرايا التي كان يقوم بها المسلمون، فيقتلون وينهبون ويسلبون، أو يقومون ببطولات فيها الكثير من المبالغة والشطط والتناقض، من دون ذكر واضح لأسباب تلك السرية ودوافعها الأمنية والسياسية، مما يوحى بكثير من الشك في نسيج هذه القصص، والظن أنها وضعت في مرحلة التزوير الأموي أو العباسى من أجل الإيحاء ببطولات قام بها بعض الأشخاص الذين أراد الحاكم أن يبيّن صفحاته على صفحات التاريخ، أو للإيحاء بأن سياسة الغزو والفتورات التي قامت بها دولة الخلفاء وتبعتها عليها الدولة الأموية، وما حصل في هذه الفتورات من سلب ونهب ونبي، هو منهج نبوى، وأن النبي ﷺ كان يغزو الآمنين ويسلبهم وينهفهم ويسبي بناتهم وزوجاتهم ظلماً وعدواناً، مما حدا بنا

(1) الواقدي، المغازي، ج 1، ص 391، البخاري، صحيح البخاري، ج 4، ص 23، وج 5، ص 26، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 746، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 5، ص 408، الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج 2، ص 184، البيهقي، أحمد بن الحسين، السنن الكبرى، دار الفكر، ل.ا.ت، ل.ا.ط، ج 3، ص 222، وج 9، ص 80، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج 1، ص 81، وج 4، ص 358، ابن شبة النميري، تاريخ المدينة، ج 2، ص 465، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 156، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 15، ص 17.

إلى التوقف في شأن هذه السرايا، والإشارة إليها بالعنوان لما فيها من الإشكالات الخطيرة التي تمسّ الشخصية النبوية ومكانتها وقداستها.

فهذه السرايا تعطي صورة مشوّهة عن السرايا النبوية، فتظهر أنها كانت لرصد الآمنين، والإغارة عليهم، وقتل رجالهم، وأسر ونبي ذرارتهم، ونسائهم، وغمم أموالهم، من دون أيّ مبرر، وهذا يتنافى مع خلقه ﷺ ومع تعاليم الدين الحنيف التي كان يدعو إليها.

فجميع الغزوات والسرايا التي يصحّ اعتمادها ونسبتها إلى رسول الله، إذا صحّت هذه الروايات عن حدوث هذه السرايا فعلاً، لا بدّ أن تكون أهدافها إما دفاعاً عن النفس، أو لردعون، أو لإحباط تدبير معاد، أو تفريق جموع الأعداء احترازاً، أو إضعاف قدرتهم على تنفيذ ما يخططون له، أو معاقبة مجرمين أو قطاع طرق، أو مفسدين في الأرض، وكل ذلك في سياق الخطوة الكبرى الآتية التي سوف يقوم بها رسول الله باتجاه قبيلة قريش، فقد كان يحتاج وهو يزمع على الشروع في إعادة ترتيب موازين القوى بعد فشل هجوم الأحزاب، وقلبها لمصلحة الإسلام، كان بحاجة إلى أن تكون الأوضاع السياسية والأمنية حول المدينة مستقرّة وهادئة، بحيث لا يفكّر واحد من الأعراب بشنّ هجمات على المدينة، فلم يكن رسول الله، بما عُرف قطعاً من شخصيته، يهتمّ بشنّ الغارات على الناس الآمنين، رغبة في قتلهم، والحصول على أموالهم، وأسر واستعباد من يتمكّن من أسرهم واستعبادهم. ومن تلك السرايا: سرية القرطاء، سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصّة، سرية «أبي عبيدة» إلى ذي القصّة، سرية زيد بن حارثة إلىبني بدر، سرية زيد إلىبني سليم، وغيرها⁽¹⁾.

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 71، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 85، ابن حبان، محمد بن حبان، الثقات، مؤسسة الكتب الثقافية، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، 1393هـ ط 1، ج 1، ص 283، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 219، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 96، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 16، ص 285، وج 30، ص 316، الحموي، معجم البلدان، ج 4، ص 366، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 157.

المفاهيم الرئيسية

- وقعت غزوة بني المصطلق - هي غزوة المريسيع، والمريسيع ماء لبني خزاعة، والمصطلق بطن من خزاعة - في السنة السادسة للهجرة.
- كان سبب هذه الغزوة أن بني المصطلق كانوا ينزلون على المريسيع، فاجتمعوا مع بعض الأعراب على قتال رسول الله ﷺ، فأرسل رسول الله ﷺ إليهم بريدة بن الحصيب الإسلامي، فجاءه بخبرهم، وأنهم يريدون الحرب، فدعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى الجهاد، وأخرج معه سبعينيَّة مقاتل، وخرج لليلتين من شهر شعبان.
- بعد أن سار رسول الله ﷺ خاف بنو المصطلق خوفاً شديداً، وتفرق الأعراب الذين كانوا معهم، وانتهى رسول الله ﷺ إليهم، وبعد التجهيز للقتال، وقع الاشتباك بين الطرفين، فقتل منهم عشرة، وهزموا بأجمعهم، ووقعوا بأجمعهم في أسر المسلمين، ورجع النبي ﷺ إلى المدينة.
- تُعدُّ هذه المعركة ضربة قوية لقريش، فقد كانت تقع هذه المنطقة ضمن نطاق نفوذها، وشكّلت نصراً للإسلام، مدخلة الرعب في قلوب قبائل أخرى.
- عمل رسول الله ﷺ على القضاء على قوى يهودية أخرى، من خلال:
 - أ. سرية الإمام علي عليه السلام إلى فدك.
 - ب. سرية أبي عتيك إلى خير.
- ضبط الوضع العام للأعراب حول المدينة: لقد سعى النبي ﷺ لضبط الوضع العام لدى الأعراب حول المدينة المنورة، من خلال إرساله سرايا عدّة، كان لكل منها هدفٌ محدّدٌ، ولم يكن غرض النبي ﷺ من هذه السرايا أذية الناس، أو السلب والنهب، أو الإغارة على الآمنين كما صورت بعض الروايات المختلفة، وكان من جملة تلك السرايا: سرية محمد بن مسلمة، سرية أبي عبيدة، سرية زيد بن حارثة، وغيرها.

الدرس العشرون

استدراج قريش نحو صلح الحديبية (موازين القوى بين رسول الله ﷺ وقريش)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف النبي ﷺ من التوجّه إلى العمرة.
2. يشرح الأحداث التي حصلت بين المسلمين وقريش على أطراف مكة.
3. يتعرّف إلى أهمية وأثار ونتائج صلح الحديبية.
4. يبيّن الهدف من بيعة الرضوان.

تمهيد

في السنة السادسة للهجرة، شرع خاتم النبيين في تنفيذ خطّته الإستراتيجية لإحداث انقلاب في موازين القوى استعداداً لشنّ الهجوم العام على القاعدة الأساسية للشرك في الجزيرة العربية وعاصمة الوثنية في مكة، وهذه هي الخطوة الخامسة في خطّته. وكانت مراحل هذه الخطّة هي: تجميد قريش أولاً، وقلب موازين القوى لمصلحة الإسلام ثانياً، ثمّ شنّ الهجوم العام على الشرك واستئصاله نهائياً من جزيرة العرب ثالثاً.

وكان من أهم الوسائل المساعدة على ذلك إخراج قريش بقضية أداء مناسك الحجّ. فكريش لا يمكن لها أن تمنع أحداً من ممارسة مناسك الحجّ، فهي المدافعة عن ذلك، وهي التي ترعى شؤون الحجيج في كل سنة، وبهذه الوسيلة يمكن لرسول الله ﷺ أن يخرج قريشاً؛ فإنما أن تسمح له مباشرة بدخول الكعبة حاجاً، وإنما أن تضطر للتتفاوض معه خوفاً من وقوع الحرب بين الطرفين.

وبهذه الخطوة، استطاع رسول الله ﷺ أن يحرّ قريشاً إلى الصلح وإعلان الهدنة بين الطرفين.

إعلان التوجّه إلى العمرة

أراد الله عزّ وجلّ أن يطمئن النبي ﷺ، وحتى لا يشك أحدٌ من الصحابة بالفتح، فرأى في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه⁽¹⁾، عندئذ اتّخذ النبي ﷺ قراره بأداء العمرة، وأخبر

(1) مجاهد بن جبر، تفسير مجاهد، تحقيق: عبد الرحمن طاهر بن محمد السورتي، مجمع البحوث الإسلامية، إسلام آباد، لات. لاط، ج 2، ص 603، النحاس، أحمد بن محمد، معاني القرآن الكريم، تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة القرى، المملكة العربية السعودية، 1409هـ ط 6، ج 5، ص 511، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 33.

أصحابه بذلك، وأمرهم بالخروج. وذاع خبر الرؤيا المباركة مع القرار، ففرح أصحابه فأذيعت بما رأى، وظنّوا أنّهم يدخلون مكّة في عامهم ذاك.

إنّ رؤيا رسول الله ﷺ كانت مصدر الانعطاف الكبير في حياة الإسلام، والذي سوف يغيّر وجه التاريخ، وانتشر الخبر في المدينة وجوارها، وأرسل رسول الله ﷺ الوفود إلى غير المسلمين يدعوهم إلى الخروج معه. وخرج من المدينة يوم الاثنين لهلال ذي القعدة، وكان المسلمون ألفاً وأربعمائة^(١). أُعلن النبي ﷺ أنّه سيذهب إلى مكّة معتمراً لا غازياً ولا محارباً، وترك عيون قريش وجواسيسها ينقلون إليها نيته المعلنة. وأُعطي النبي ﷺ لواءه لعليّ بن أبي طالب ؓ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وخرج معه المسلمون، وساق الهدي معه، حتّى وصلوا إلى ذي الحليفة^(٢)، فأحرم المسلمون ملبيين بالعمرمة مشعرين^(٣).

وإنما ساق معه الهدي، وأحرم بالعمرمة؛ ليعلم الناس أنّه إنّما خرج زائراً للبيت ومعظّماً له، فیامن الناس من حربه. وكان في طريقه يستنفر العرب، ومن حوله من أهل البوادي ومن الأعراب في ما بين المدينة إلى مكّة. ودعا رسول الله ﷺ بشر بن سفيان الكعبيّ ليستطلع له خبر قريش^(٤).

استعداد قريش للحرب

بلغ المشركين خروج رسول الله ﷺ فراغهم ذلك، ولم يستقبلوا الأمر كما يستقبلون

(١) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٧٩، خليفة بن خياط العصقرى، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ل.ا.ت، ل.ط، ص ٤٨ و ٤٩، الشیخ الطبری، إعلام الوری، ج ١، ص ٢٠٣، ابن هشام، السیرة النبویة، ج ٣، ص ٣٢٢، الطبری، تاریخ الامم والملوک، ج ٢، ص ١٧١، ابن سید الناس، عيون الأثر، ج ٢، ص ١١٤.

(٢) میقات أهل المدينة الذي يحرمون منه لأداء المناسك الحج.

(٣) الشیخ الصدوق، معانی الأخبار، ص ١٠٨، الحموی، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٥٥، الواقدي، المغازي، ج ٢، ص ٥٧٣، الحمیری، عبدالله بن جعفر، قرب الإسناد، تحقيق: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، إیران، ١٤١٣ھ ط ١، ص ٥٩.

(٤) ابن إسحاق، سیرة ابن إسحاق، ج ٣، ص ٣٢٢، الشیخ الطبری، الفضل بن الحسن، جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، قم، إیران، ١٤١٨ھ ط ١، ج ١، ص ٦٢٧، القرطبی، الجامع لأحكام القرآن، ج ٨، ص ٢٤٠، الشیخ الطبری، مجمع البيان في تفسیر القرآن، ج ٥، ص ٦٦، ص ١١٤.

الحجّاج؛ فاجتمعوا وتشاوروا، وأجمعوا على صده ﷺ عن المسجد الحرام، وقطع الطريق عليه قبل دخوله مكّة. فقدّموا على خيلهم خالد بن الوليد، ووضعوا العيون على الجبال. ولمّا وصل رسول الله ﷺ إلى غدير الأشطاط، لقيه بشر بن سفيان الكعبي، وقد علم خبر مكّة والقوم، فقرر رسول الله ﷺ تغيير طريق القافلة؛ لكي لا يقع قتال معهم في الأشهر الحرم، فتستثمر قريش هذا الموقف سياسياً، فأخذ طريقاً وعرّاً، والتلف بذلك حول كتبية خالد، فلما رأى خيل قريش قترة الجيش، وأن المسلمين قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش⁽¹⁾. ثم نزل رسول الله ﷺ بأقصى الحديبية⁽²⁾.

المفاوضات وتبادل الرسل

استقرَّ رسول الله ﷺ بالحديبية، ونصب المسلمين خيامهم، وتوزعوا على حراسة مداخل ومخارج المعسكر. ولم يكن ﷺ بعجلة من أمره، وهو ينتظر الخطوات التي سوف تُقدم عليها قريش، فهي محربة قطعاً، وتبث عن مخرج. ولم يمضِ اليوم الأول إلّا وجاءه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، منهم المسلم، ومنهم الموادع. ولعلَّ رسول الله ﷺ هو الذي أرسل وراءهم لكي يقوموا بدور الوسيط بينه وبين قريش، فطرح رسول الله ﷺ أصل مشروعه السياسي، وهو دعوة قريش إلى الهدنة، فوعى بديل مقالة رسول الله، وخرج إلى قريش مبلغاً للرسالة، فرفضت الاستماع إليه. وصادف أن كان مجيء عروة بن مسعود الثقفي إلى مكّة، فشاهد استنفار قريش، وعدم استماعها لرسالة النبي ﷺ، فاستغرب هذا الموقف، وحاول إقناع قريش بالاستماع لرسالة النبي ﷺ، فرفضت قريش وقررت أن ترسله إلى رسول الله ﷺ، فجاء حتّى وصل إلى معسكر

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج. 3، ص. 321، الواقدي، المغازى، ج. 2، ص. 517، الطبرى، جامع البيان، ج. 26، ص. 124، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج. 4، ص. 200، الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج. 2، ص. 270، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج. 5، ص. 37، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج. 2، ص. 310.

(2) الحديبية، بتخفيف الياء، تصغير حباء، اسم بئر أو شجرة، سمي باسمها المكان الذي تقع فيه، قرية بقرب مكّة على طريق جدّة دون مرحلة. ثمّ أطلق على الموضع فسميت المنطقة على اسمه. وهذا المكان يقع على أطراف مكّة، وهو أبعد أطراف الحرم عن البيت، ويقال إن بعضه في الحرم وبعضه في الحلّ. وأثنثها واقع في الحرم، وهناك المسجد المعروف بمسجد الشجرة، الحموي، معجم البلدان، ج. 2، ص. 229.

ال المسلمين، فأظهر له رسول الله الهدي، وأعلمهم بأنه إنما جاء لقضاء نسكه وزيارة البيت، فرجع عروة إلى قريش مبهوراً بشخصية النبي، وعمق العلاقة بينه وبين أصحابه، وأطلع قريش على حقيقة موقف النبي والغاية من قدومه. ثم أرسلت قريش مكرز بن حفص، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلّمه بنحو ما كلام به بديلاً وعروة، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بما رد عليه رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

لقد كان رسول الله ﷺ حازماً في موقفه، يطالب بحق يقر له به الجميع ألا وهو زيارة البيت، بينما كان موقف قريش مخالفًا لكل الأعراف السياسية والدينية في استقبال الناس لأداء مناسك الحج. والذي زاد في إضعاف موقف قريش الصورة التي نقلها عروة بن مسعود الثقفي عن طاعة أصحاب النبي ﷺ له، وتعظيمهم إياه. وسرعان ما ظهرت نتيجة صلابته وحزمته، فقد كسب إلى جانبه رجالاً كباراً في قومهم كانوا في صف قريش، وأخذوا يسعون لإقناع قريش بقبول عروض النبي ﷺ، فتصدّع صفوف المشركين من قريش، وظهر الخلاف العميق في ما بينهم.

خطوة عمل النبي ﷺ

لقد أدى امتناع قريش عن الاستماع لنصائح الرسل التي أرسلتهم إلى ضرورة المبادرة من قبل النبي ﷺ لكسر هذا الجمود أمام الملا في مكة. وكان أول من بعث رسول الله ﷺ إلى قريش خراش بن أمية، فقد دعاه رسول الله ﷺ وحمله على بعير له؛ ليبلغ أشرف قريش عن رسول الله ﷺ بما جاء به، إلا أن قريشاً تصرفت خلاف الأعراف والسنن السائدة، فعقرت ناقة النبي ﷺ، وحاولت قتل خراش الذي عاد إلى رسول الله ﷺ وأطلاعه على الواقع.

(1) الواقدي، المغازي، ج 2، 593، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، 274، الهيثمى، مجمع الزوائد، ج 6، ص 145، الشیخ الكلینی، الکافی، ج 8، ص 323، ابن سعد، الطبقات الکبری، ج 2، ص 95، ابن هشام، السیرة النبویة، ج 3، ص 778، ابن کثیر، البداية والنهاية، ج 4، ص 190، ابن کثیر، السیرة النبویة، ج 3، ص 316، الصالھی الشامی، سبل الهدی والرشاد، ج 5، ص 43.

لذلك دعا النبي ﷺ عمر بن الخطاب ليعثه إلى قريش، ولكن عمر رفض طلب النبي، واقتصر عليه إرسال عثمان بن عفان لعصبه وكونه أمويًّا، فبني أمية بقيادة أبي سفيان هم الذين يقودون الحرب ضد الإسلام، فكان عثمان هو المناسب لإقامة الحوار الذي تنتظره قريش، فقبل رسول الله ﷺ بذلك.

انطلق عثمان إلى مكة، وأتى أشراف قريش، وأعلمهم بما أرسله به رسول الله، والظاهر أنهم أضافوه عندهم فطاف بالبيت، وأقام في مكة ثلاثة أيام يدعوا قريشاً⁽¹⁾.

قريش تفجر الموقف

في خطوة مفاجئة من قريش لمحاولة إشعال الحرب بعثت أربعين رجلاً، وأمرتهم أن يطوفوا بالنبي ﷺ والمسلمين رجاءً أن يصيروا منهم أحداً. وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحراسة في الليل، فووَقعت تلك القوّة كاملة بأيدي المسلمين بقيادة الإمام علي عليه السلام⁽²⁾، وجاؤوا بهم إلى رسول الله ﷺ. وبلغ قريشاً حبس أصحابهم، فجاء جمع منهم إلى النبي ﷺ، حتى تراموا بالنبل والحجارة، وأسر المسلمون من المشركين اثنين عشر فارساً، وقتل من المسلمين واحدٌ فقط.

وكان عشرة من المسلمين دخلوا إلى أهاليهم في مكة بإذن رسول الله ﷺ، فنُمِي أمرهم إلى قريش⁽³⁾، فأخذتهم وحبستهم عندها، وبهذا وصلت الأمور إلى حافة الانفجار.

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 325، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 70، الطبرى، جامع البيان ج 26، ص 111، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص 200، ابن حبان، الثقات، ج 1، ص 299، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 39، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 600، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 278، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 191، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 780، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 318، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 46، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 119.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 119، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 358.

(3) الواقدي، المغازى، ج 2، ص 603، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 278، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 48، الطبرى، جامع البيان، ج 26، ص 122، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 16، ص 281، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص 207.

قبول قريش بأصل التفاوض

لقد جعلت كل هذه الأحداث القرشيين يراجعون مواقفهم المتصلبة، ورأوا قريش أن من الخير لهم أن يصلحوا محمداً ﷺ، وأن يقبلوا بما يعرضه عليهم من مدة يأمن فيها الناس، ولكن في مقابل أن ينصرف عن مكة هذا العام، ويعود في العام المقبل حتى لا تظنّ العرب أن محمداً قد دخل مكة عنوة، وبعثوا سهيل بن عمرو وآخرين لعقد الاتفاق. وصل سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، وبين أسباب الخطأ الذي حصل بالقتال بين المسلمين وتلك القوّة من قريش، وطالبه بأن يردّ عليه أصحابه، فرفض رسول الله ﷺ ذلك حتى يُرسل إليه أصحابه من المسلمين، فأرسل سهيل إلى قريش، يطالبها بفك سراح الأسرى. وعندما علم رسول الله ﷺ بأن قريشاً أطلق أسرى المسلمين أرسل أصحابهم من المشركين.

وشرع سهيل في محادثات الصلح، وجلس رسول الله ﷺ متربعاً، فبرك سهيل على ركبتيه، وكلم رسول الله ﷺ فأطّال الكلام وتراجعاً، وارتفعت الأصوات وانخفضت، والمسلمون حول رسول الله ﷺ جلوس. وبعد نقاش وحوار طويلاً بين الطرفين، رجع سهيل إلى قريش بأمر الصلح، وتمّ توقيع معاهدته الصلح⁽¹⁾.

كتابة معاهدة صلح الحديبية

دعا رسول الله ﷺ علياً عليه السلام لكتابة الصلح، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم». قال سهيل: «أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدرى ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم». فقال النبي ﷺ: «اكتب: باسمك اللهم»، فقال علي عليه السلام للنبي ﷺ: «لولا طاعتكم لما محوتها». ثم قال رسول الله: «واكتب: هذا ما قاضى عليه رسول الله سهيل بن عمرو»، فكتبتها علي عليه السلام. فقال سهيل: «فعلام نقاتلك يا محمد؟! لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتبعتك». وقال سهيل لعلي عليه السلام: «لو نعلم أنه رسول الله ما قاتلناه، امحها!!»، فغضب علي عليه السلام ورفض طلب سهيل بالمحو وقال له: «هو والله رسول الله وإن رغم أنفك، ولا والله لا أمحوها».

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 8، ص 268، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2 ص 45، ابن أبي شيبة الكوفي، عبد الله بن محمد، المصنف، تحقيق وتعليق: سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1989م، ط 1، ج 14، ص 436، المسعودي، التنبية والإشراف، ص 221، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 205، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 314، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 610.

واحتمم الجدال بين علي عليه السلام وبين سهيل بن عمرو، فأثار ذلك حفيظة المسلمين، وضجّوا، حتّى ارتفعت الأصوات، وكثُر الضجيج. فجعل رسول الله ﷺ يخوضهم، ويؤمئ بيده إليهم، أن اسكتوا! ثم قال رسول الله لعلي: «أرنيه»، فأراه إيمانه، فمحا رسول الله ﷺ بيده. وهكذا تغلب رسول الله على مشكلتين شكليتين كادتا أن تنفسا المفاوضات كلها، وأن تضيّعا الفرصة الذهبية، وتتم الكتاب⁽¹⁾، وأخذ كل طرف نسخة من الاتفاق. وكان من أهم بنوده:

1. وضع الحرب بينهم عشر سنين.

2. إن محمداً يرجع عنهم عامه هذا وأصحابه فلا يدخل عليهم مكة، فإذا كان عام قابل خرجوا عنها فدخلها بأصحابه؛ فيقيم فيها ثلاثة أيام من دون سلاح إلا سلاح المسافر، وأن ترفع الأصنام.

3. من أتى محمداً من قريش من دون إذن وليه وإن كان على دينه رده إليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.

4. لا يستكره أحد على ترك دينه، وأن يكون الإسلام ظاهراً في مكة، وأن لا يؤذى أحد ولا يعيّر.

5. من أحب من المشركين أن يدخل في عهد محمد كان له ذلك، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه⁽²⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 118، الأربلي، كشف الغمة، ج 1، ص 210، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 350، أمالى الشيخ الطوسي، ص 187، ح 315، وفي علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 313، والشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 204، 372، وقطب الدين الرواندي، الخرائج والجرائح، ج 1، ص 116، وخصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام للنسائي، ص 149، صحيح البخاري، ج 5، ص 357، أحمد بن حنبل، مسنون أحمد، ج 4، ص 328، 329، 386، وج 5، ص 23.

(2) الواقدى، المغازي، ج 2، ص 612، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 117، العياشى، تفسير العياشى، ج 1، ص 70، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 97، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 350، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 782، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 8، ص 64، ابن البطريق، يحيى بن الحسن، عمدة يعون صحاح الأخبار في مناقب إمام الأنوار، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين، قم المقدسة، 1407هـ لـ، ص 163، أحمد بن حنبل، مسنون أحمد، ج 4، ص 325، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 2، ص 314، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 4، ص 211، ابن حبان، الثقات، ج 1، ص 301، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 373، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 4، ص 691، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 179، البيعوبى، تاريخ العقوبى، ج 2، ص 54، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 16، ص 9.

نتائج صلح الحديبية

1. لقد فتح هذا الصلح الباب على مصراعيه لنشر الدعوة الإسلامية بين العرب وغيرهم، بالإضافة إلى سماحة بعقد التحالفات والاتفاقيات مع أي جهة كانت. وروي عن أهل البيت عليه السلام: «فَمَا انْقَضَتْ تِلْكُ الْمَدَّةِ (وَهِيَ سَنَتُ الْهَدْنَةِ) حَتَّى كَادَ الْإِسْلَامُ يَسْتَوِي عَلَى أَهْلِ مَكَّةِ»⁽¹⁾.
2. إن تحديد مدة الصلح بعشر سنين غير ملزم مطلقاً، فلو أن قريشاً أخلت بالاتفاق، فإن النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه سوف يكون بحل منه، ويحق له التصرف بما يريد.
3. لم يكن رجوع الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه هذا العام على أن يعود العام المقبل بنداً سليماً؛ لأن العمرة سبب للمصالحة وطريق إليها، وهي اعتراف من قريش بأحقية المسلمين بممارسة شعائرهم الدينية كغيرهم من العرب.
4. إن حرية الرجوع إلى دين قريش فيه مصلحة الإسلام، فهو يفتح المجال لرجوع المنافقين، وفي المقابل بقاء المسلمين في مكة يعني بداية ظهور الإسلام فيها، تميداً لفتحها.
5. إن وضع الحرب سوف يتتيح للنبي صلوات الله عليه وآله وسلامه الفرصة لتصفية الوجود اليهودي في الجزيرة.
6. أعطى الصلح فرصة لانضمام خزاعة إلى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، وهذا يشكل اختراقاً لقريش.

بيعة الرضوان (تجديد الولاء والعدم)

لقد ظهرت خلال هذه الرحلة التي قام بها رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه بعض حالات الاعتراض والتشكيك، واهتزت صفوف أصحاب رسول الله بعد صلح الحديبية، وظهر حجم الارتياح والشك، وأن القوم ما زال ينقصهم الكثير من تعميق الإيمان في نفوسهم، خصوصاً أن بعضهم كان يرى أن بنود الاتفاق تصب في صالح قريش لا صالح المسلمين.

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 305، الكليني، الكافي، ج 8، ص 326، قطب الدين الرواundi، قصص الأنبياء، ص 344، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 20، ص 363.

ولكي لا تستمر حالة التزلزل هذه، ولا تؤدي إلى الفرار وترك الإسلام، توهّماً أنّ ما جرى هو تنازل أساسي لقريش، وأن قريشاً هي المنتصرة في هذا الصلح، نزل الأمر الإلهي على قلب رسول الله يدعوه إلىأخذ البيعة، ولذلك بادر ﷺ إلى دعوة المسلمين إلى البيعة على عدم الفرار، فنادي النبي: «أيّها الناس، البيعة البيعة، إنّ روح القدس قد نزل وأمر بالبيعة فاخرجوا على اسم الله فبَايِعُوا»، فساروا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبَايَعُوهُ، ولم يتخلّف عنه إلّا بعض المنافقين، ومن كان ما زال في مكة.

وطرح عليّ عليه السلام ثواباً بينه وبين النساء، فبَايَعَنْه بمسح الثوب، ورسول الله يمسح الثوب مما يليه⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 604، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 119، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 632، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 3، ص 330.

المفاهيم الرئيسية

- لقد رأى رسول الله ﷺ في منامه أنه دخل مكة هو وأصحابه، وذاع خبر الرؤيا بين جميع المسلمين، وقد شكلت هذه الرؤيا بداية انعطافة كبيرة في صفو المسلمين.
- أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ للخروج إلى العمرة، فخرج ومعه ألف وأربعين مقاتل، وساق معه الهدي، وأحرم للعمرة؛ ليعلم صدق نيته وتوجهه. وكان في طريقه يستنفر من لقيه من عرب البوادي والأعراب.
- بلغ المشركين مجيء رسول الله ﷺ معتمراً، فراغم ذلك، واجتمعوا لأخذ القرار الذي يناسبهم، فقرروا صدّ النبي ﷺ وال المسلمين عن البيت الحرام، وقدّموا على خيلهم خالد بن الوليد، ووضعوا العيون على الجبال. وعلم رسول الله ﷺ بذلك فغيّر طريقه لكي لا يقع قتال مع قريش، حتى نزل الحديبية.
- بعد استقرار النبي ﷺ في الحديبية بدأت المفاوضات بينه وبين وفود قريش، وأظهر رسول الله ﷺ حقيقة مجئه، وحاول إرسال وفود عدّة من قبله لتهيئة الأوضاع إلا أن تعنت قريش منعها عن التنازل.
- قررت قريش القبول بأصل التفاوض، فأرسلت مبعوثها سهيل بن عمرو. وبعد التفاوض مع رسول الله ﷺ اتفق الطرفان على عقد اتفاق عُرف بصلح الحديبية.
- كان لصلح الحديبية بنود عدّة، شكلت مفصلاً مهمّاً في الدعوة الإسلامية، منها وضع الحرب لمدة عشر سنوات، ولا يُستكره أحد على دينه، وأن يبقى مسلمو مكة فيها، وغيرها.
- إن لصلح الحديبية نتائج عدّة منها: سمح الصلح بنشر الدعوة الإسلامية، من دون أي معارضة. وقد عُلّق الاتفاق على عدم حصول خرق من قبل أحد الطرفين. وكانت العمرة سبباً للمصالحة، مع حرية إظهار دين الإسلام في مكة المكرمة.
- عقد رسول الله ﷺ مع المسلمين بيعة الرضوان بعد حصول تشكيكات من قبل البعض.

الدرس الواحد والعشرون

استثمار صلح الحديبية باتجاه قلب موازين القوى (فتح خيبر - يهود فدك - أم القرى وتيماء)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح خطة المسلمين في معركة فتح خيبر.
2. يعرف أسباب وأثار انتصار المسلمين في خيبر.
3. يتعرّف إلى مصير يهود فدك ووادي القرى وتيماء.

تمهيد

إنَّ دخول قريش في عقد الصلح مع رسول الله ﷺ فتح أمام الإسلام الطريق إلى الدخول إلى مكَّة المكرُّمة بموافقة صريحة منها، وذلك عندما وافقت قريش أن يمارس المسلمين في مكَّة دينهم بشكل علنيٍّ. وقد كان لصلح الحديبية النتائج الطيبة التي أرخت ذيولها على مستقبل الدعوة الإسلامية.

وبعد إنتهاء قوَّة قريش بصورة سلميَّة دون قتال، تفرَّغ رسول الله ﷺ لإكمال خطَّته المتقدِّمة اتجاه تأمين محيط المدينة المنوَّرة، وليعمل على نشر الإسلام بشكل أسرع بين القبائل العربية المنتشرة خارج المدينة المنوَّرة.

ولذا، عمل رسول الله ﷺ على كسر شوكة القبائل اليهوديَّة المنتشرة خارج المدينة، والتي من القويَّ جدًا أن تقوم بالالتفاف على الإسلام مرَّة أخرى مساندةً قريشاً في الوقوف في وجه الإسلام، أو أن تقوم هي بنفسها بمحاربة الإسلام والمسلمين، فخرج رسول الله ﷺ إلى يهود خير، وفدرك وتيماء، وغيرهم.

فتح خير

1. يهود خير:

وعد الله عزَّ وجلَّ رسوله بخير وهو بالحدبيَّة، عندما نزلت عليه سورة الفتح، وبعد أن أمنَ رسول الله ﷺ جانب قريش، تفرَّغ لحرب يهود خير الذين جهزوا جيش الأحزاب ضده، واستمروا في حربه منذ وصوله إلى المدينة، وكانوا قد سكنوا خير، وبنوا فيها سبع قلاع، وثمانية حصون قوية، وكانت التربة والمناخ في تلك المنطقة قد جعلت منها مكاناً

صالحاً للزراعة، وحصل سكانها على مهارة كبرى في أمور الزراعة، وتهيئة وسائل الدفاع والقتال وإعداد السلاح. وكانوا لا يظلون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعهم، وحصونهم، وسلامهم، وعددهم⁽¹⁾.

2. الخطة العسكرية لفتح خيبر:

توجه رسول الله ﷺ إلى حرب اليهود في خيبر آخر مركز من مراكز اليهود في الجزيرة العربية في محرم سنة سبع⁽²⁾، وأمر أصحابه بالخروج فجدوا في ذلك، واستنفروا من حوله ممن شهد الحديبية، يغزون معه، وانتشر الخبر بين الناس، فجاء المخلفون من الأعراب؛ ممن تخلف عن الذهاب معه إلى الحديبية، للانضمام إليه في غزو خيبر رجاء الغنية. ولمنعهم من ممارسة هذا العمل، قرر رسول الله ﷺ حرمانهم، وتخصيص أهل الحديبية بالغنائم، حتى يشعر هؤلاء بالعزّة والكرامة، ويشعر المتخلفون بالخزي والذنب.

واستختلف على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي، ودفع لواءه إلى علي بن أبي طالب ؓ، وكان أبيض، وأمره بالتوجه إلى خيبر. ولكي تُسرع الإبل في سيرها، أذن لأحد أصحابه أن يحدو بالإبل، لأن الإبل تُسْتَحِثُ بالحداء، فقطع المسافة بين المدينة وخيبر بثلاثة أيام.

وأرسل عبد الله بن أبي بن سلول، شيخ المنافقين في المدينة، إلى اليهود يخبرهم بخروج المسلمين إليهم، فلما علموا بذلك أرسلوا وفداً إلى غطافان يستمدونهم⁽³⁾.

3. الحركة العسكرية للجيش الإسلامي:

خرج مع رسول الله ﷺ إلى خيبر ما يقرب من ألف وستمائة مقاتل. وسار الجيش

(1) الواقدي، المغازى، ج 2، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 106، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 118، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 207.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 56، سيرة ابن هشام، ج 3، ص 342، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 37، ابن سيد الناس، عيون الأثر ج 2، ص 133.

(3) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، مصدر سابق، ج 4، ص 364، ج 5، ص 116.

الإسلامي في صدور الأودية، حتى يتحاشى الظهور على قمم الجبال، وعلى جوانبها التي تظهر لعيون خيبر، وجاءهم رسول الله ﷺ بجيشه من جهة الشمال الشرقي، فقطع الطريق بينهم وبين الشام، وهي الجهة التي يمكن مbagatة خيبر منها، وقطع الإمداد من جهة غطfan؛ لأن اليهود كانوا يتوقعون الغزو من جهة الجنوب، فكانت عيونهم ومراصدhem تكُن سهرها هناك، وأمّا جهة الشمال، أي جهة الشام، فقد كانت آمنة بنظرهم، ولا تحتاج إلى الرصد والمراقبة.

وحاول رسول الله ﷺ أن يثنى غطfan عن الوقوف إلى جانب اليهود، فأرسل إليهم أن لا يعنوهم على أن يعطفهم من خيبر شيئاً، إلا أنهم جمعوا لهم أربعة آلاف مقاتل، ثم خرجوا ليعاونوا اليهود عليه، فسار رسول الله ﷺ في طريق يصل إلى مساكن غطfan. وعندما نزل الجيش الإسلامي بالرجيع، ارتفعت الأصوات والصياح في مساكن غطfan، فخافت هذه القبيلة وفضلت أولادها ونساءها على تمر خيبر، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

ولما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر، وكان وقت الصبح، قال لأصحابه: «قفوا»، فوقفوا. ثم توجّه إلى الله تعالى، فقال: «اللهم رب السموات السبع وما أطللن، رب الأرضين السبع وما أقللن، رب الشياطين وما أضللن، رب الرياح وما أذرین، فإنّا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها، وننعواذ بك من شرّها وشرّ ما فيها. أقدموا باسم الله».«

وكانت خيبر تنقسم إلى ثلاثة محاور: محور حصن النطة، ومحور حصنون الشق، ومحور حصن الكتبية بما في كل حصن من بروج، وكانت مشيدة بحيث يسيطر سكانها على خارج الحصن سيطرة كاملة، عن طريق المجانق⁽¹⁾، وغيرها من آلات الرمي⁽²⁾.

(1) وهي أجهزة حديدية تقدّف الحجر أو الحديد.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج.2، ص.216، ابن هشام، السيرة النبوية، ج.2، ص.330، الواقدي، المغازي، ج.2، ص.642، البخاري، محمد بن إسماعيل، التاريخ الكبير، المكتبة الإسلامية، ديار بكر، تركيا، ج.6، ص.472، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج.9، ص.200، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج.3، ص.254، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج.5، ص.118، المفید، محمد بن محمد، المزار، تحقيق: السيد محمد باقر الأبطحي، دار المفید، بيروت، لبنان، 1993م، ط.2، ص.52.

احتلال النقاط والطرق الهامة ليلاً:

كان القرار النبوي أن يفتح المسلمون خير حصنًا، ولهذا فإن أول عمل قام به رسول الله ﷺ وأصحابه في هذا السبيل هو احتلال كل النقاط والطرق الهامة ليلاً، وقطع أيصال خير ومنع اليهود من التواصل في ما بينهم. وقد تم هذا العمل بسرعة؛ لأن أخبار الرسول ﷺ قد عمت عليهم، حيث إنهم لما كانت صبيحة تلك الليلة خرجوا وفتحوا حصونهم، غادرين إلى مزارعهم، فلما نظروا إلى رسول الله ﷺ، وفوجئوا بال المسلمين وقد احتلوا جميع النقاط الهامة، أفزعهم ذلك وخافوا خوفا شديداً، فولوا هاربين إلى حصونهم، فقال رسول الله ﷺ وقد رفع يديه: «الله أكبر، خربت خير، إننا إذا نزلنا بساحة قوم، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْدَرِينَ»⁽¹⁾.

والمستفاد من المصادر التاريخية هو أن المسلمين حاصروا القلعة والحصون حصنًا تلو حصن، وحاولوا قطع ارتباط الحصن المحاصر ببقية الحصون الأخرى. ولقد تم فتح هذه الحصون ببطء؛ لأنها كانت مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً، وكان آخر حصونهم القموص، وقد حاصره رسول الله ﷺ قريباً من عشرين ليلة. وخلال ذلك الحصار، كان المسلمين قد أحرقوا الحصن، وقد تصاعد منه الدخان الكثيف بسبب الأخشاب، فأصيب علي عليه السلام برمد في عينيه، ولم يتمكن المسلمين أيضاً من مواصلة القتال، وعجزوا عن مقاومة اليهود، وخصوصاً مربج، فالتجأوا إلى النبي ﷺ وشكوا ذلك إليه، وسألوه أن يخرج علياً عليه السلام لمربج⁽²⁾.

4. محاولة الصمود:

لما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة، وأصبح الناس، وتجمعوا حول رسول الله ﷺ، وقام النبي ﷺ، فوعظ الناس، ثم دعا باللواه وقال: «لأبعثن رجالاً لا يخزيه الله أبداً يحب

(1) سورة الصافات، الآية 177.

(2) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 637، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 106، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 207، الشيخ الطوسي، الأمالي، ص 4، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم ج 3، ص 1426، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 9، ص 123.

الله ورسوله» فاستشرف لها من استشرف، فدعا رسول الله عليه السلام⁽¹⁾، وقال: «أين عليّ؟!»، فقالوا: «يشتكي عينيه»، قال: « فأرسلوا إليه! أرونيه، تروني رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». فلما جاء عليه السلام قال له رسول الله عليه السلام: «ما لك؟»، قال: «رمدت حتى لا أبصر ما قدامي». قال: «ادنْ مني»، فوضع على عليّ رأسه عند حجره، وبزق رسول الله عليه السلام في آلية يده، فذلك بها عيني على عليّ⁽²⁾، فبرئ وعوفي من ساعته، ثم دعا له رسول الله عليه السلام بخير، وألبسه درعه الحديد، وشدّ ذا الفقار في وسطه، ثم أعطاه الراية⁽³⁾، فخرج عليّ وهو يهرون هرولة، وال المسلمين خلفه، حتى رکزاها تحت الحصن عند الباب، فأطلع يهوديّ من رأس الحصن، فقال: «من أنت؟»، قال: «أنا عليّ بن أبي طالب»، فقال اليهوديّ: «غلبتمهم، والذي أنزل التوراة على موسى». فتقدّم إلى عليّ عليه السلام الحارت أبو زينب، أخو مرحباً، في كتبة من رجاله، فقتله وفرّقهم⁽⁴⁾.

5. الإمام علي عليه السلام يفتح خيبر:

غضب مرحباً لمقتل أخيه، وخرج سريعاً من الحصن، فخرج إليه الإمام علي عليه السلام، ولما بصر به مرحباً يسرع إليه فلم يره يعبأ به، أنكر ذلك، وأحجم عنه، فحملت اليهود على علي عليه السلام ومرحباً على رأسهم، فجعلوا يقتتلان، ثم حمل عليه علي عليه السلام فبدره بضربة على هامته، ففلقت رأسه⁽⁵⁾، وسقط من الضربة لوجهه، فانهزم اليهود بين يديه،

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 30، الشیخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص 126، الشیخ الطبری، مجمع البیان في تفسیر القرآن، ج 9، ص 201، ابن عساکر، تاریخ مدینة دمشق، ج 42، ص 93.

(2) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج 1، ص 331، النسائي، خصائص أمير المؤمنين، ص 8، محب الدين الطبرى، ذخائر العقبى ص 87.

(3) الحرانى، الحسن بن شعبة، تحف العقول، ص 346، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 220، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 124.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 798، الشیخ المفید، محمد بن محمد، الجمل، الناشر: مكتبة الداوري - قم - ایران، ل.ا.ت، ل.ا.ط، ص 196، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 128، ابن بطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص 153، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص 57، ابن حبان، الثقات ، ج 2، ص 13، ابن عساکر، تاریخ مدینة دمشق، ج 42، ص 89، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 112، ج 7، ص 373.

(5) الواقدى، المغازي، ج 2، ص 657، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 157، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 30، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 185، الحاکم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 38.

وفرّوا من فورهم، يقولون: «قتل مرحب». ولجأوا إلى الحصن، وبقي جماعة، فحمل عليهم عليٌّ عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ فقاتلهم حتى قتلهم جميعاً. وكان هناك خندق، فلم يستطع المسلمون عبوره معه، وكان باب الحصن حجراً منقوراً في صخر، فتقدّم الإمام عليٌّ عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ إلى الباب وجذبه إليه، فانهار الصخر المنقول، وفتح الباب، ثمّ جعله قنطرة على الخندق حتى دخل المسلمون الحصن، وبعث عليٌّ عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ رجالاً يبشر النبيَّ ﷺ بالنصر على اليهود⁽¹⁾.

أسباب انتصار المسلمين في خيبر

1. التخطيط النبويُّ والتكتيكي العسكريُّ الدقيق: لقد سلك المسلمون طريقاً قطعوا به ارتباط اليهود بأصدقائهم مع غطفان. وأحدثَ إظهار القوّة أمام غطفان والنزول قرب منازلها، الرعب في قلوبهم، كذلك قطع جيش المسلمين طرق الإمداد الشماليَّة على خيبر، والتقدُّم حولها بحيث عمّى على عيونها واستطلاعاتها. وكان للمباغطة، ومفاجأة العدوِّ ليلًا، دور كبير في إيقاع الرعب والخوف في قلوبهم، ثمَّ في حرمانهم من التخطيط والتفكير السليم بالحرب، والمبادرة إلى الهجوم.

2. تحصيل المعلومات حول العدوِّ: بعث رسول الله ﷺ قبل محاصرة «خيبر» طليعة من المسلمين، ووجههم إلى «خيبر»، فالتقوا بيهوديٍّ قرب حصونها، فأسر وأخذ إلى النبيِّ ﷺ، وأخذ منه رسول الله ﷺ الكثير من المعلومات عنهم، مما ساعد في فتح حصونهم.

3. تفاني الإمام عليٌّ بن أبي طالب عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ : قال الإمام عليٌّ عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ : «إِنَّا وَرَدْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ خَيْرَ رِجَالٍ مِّنَ الْيَهُودِ وَفَرَسَانَهُمْ، مِّنْ قَرِيشٍ وَغَيْرِهَا... فَأَنْهَضْنِي رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَارَكُ إِلَى دَارِهِمْ، فَلَمْ يَبْرُزْ إِلَيْيَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا قُتْلَتْهُ، وَلَا يَثْبَتْ لِي فَارِسٌ إِلَّا طَحْنَتْهُ، ثُمَّ شَدَّدْتُ عَلَيْهِمْ شَدَّدَةَ الْلَّيْثِ عَلَى فَرِيسَتِهِ، حَتَّى أَدْخَلْتُهُمْ جَوْفَ مَدِينَتِهِمْ، مَسْدِدًا عَلَيْهِمْ، فَاقْتَلَعْتُ بَابَ حَصْنِهِمْ بِيَدِي، حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ مَدِينَتِهِمْ وَحْدِي... حَتَّى افْتَتَحْتَهَا وَحْدِي، وَلَمْ يَكُنْ لِي فِيهَا مَعَاوِنٌ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ»⁽²⁾.

(1) الواقدي، المغازى، ج 2، 654، الشيخ الطوسي، الأمازي، ص 4، ابن شعبة الحراني، تحف العقول، ص 346 للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبيِّ الأعظم ، ج 17، ص 67، ج 18، ص 7.

(2) الشيخ الصدوق، الخصال، ج 2 ص 16، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 62، الشيخ الصدوق، الأمازي، ص 307.

آثار ونتائج فتح خيبر

لقد كان فتح خيبر حدثاً مفصليّاً في تاريخ الإسلام والدعوة النبوية، وكانت لذلك آثار ونتائج أهمّها:

أولاً: بعث اليأس في قلوب كلّ القوى المناوئة للإسلام في شبه الجزيرة العربية كلّها، من أن تستطيع بعد هذا اليوم إحراز أي نصر عليه.

ثانياً: سوف تعلم قريش أنَّ الإسلام قد وصل إلى نقطة من الثبات والقوة، وبالتالي فإنَّ عليها أن تحرص على تنفيذ بنود عهد الحديبية، ولا تنقضه بحال.

ثالثاً: تضاعفت قُوَّة ونفوذ المسلمين، سياسياً، اقتصادياً، وعددياً، وقدرة على استقطاب الناس وجذب الحلفاء، وأصبحوا هم القُوَّة الطاردة في المنطقة بأسرها.

رابعاً: تخلص المسلمون من اليهود، كقوّة تملّك مالاً وثقافة وسطوة تستطيع بها أن تثير الفتن والشبهات والشكوك، وتحوك الدسائس والمؤامرات على الإسلام.

يهود فدك ووادي القرى وتيماء

لما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، واستمرّاراً لسياسة السيطرة على مواضع القوّة اليهوديّة في شبه الجزيرة العربية، فقد أرسل سرية بقيادة أسامة بن زيد إلى يهود فدك ووادي القرى وتيماء، ليدعوهم إلى الإسلام. وكان رجل من اليهود يقال له نهيك بن مرداس، من أهل فدك، وكان مسلماً، ولم يُسلم من قومه غيره، فلما رأى الخيل خاف أن يكونوا من غير أصحاب النبي ﷺ؛ فألْجأَ غنمه إلى عال من الجبل، فلما تلاحت الخيل سمعهم يكْبرُون، فعرف أنَّهم من أصحاب رسول الله ﷺ؛ فكبَّر ونزل، وهو يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ. السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»، فقتله أسامة، واستنقذ الغنم.

ثمَّ رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه، فوجد من ذلك وجداً شديداً، وقال لأسامة: «أُقتلته إرادة ما معه؟! لا ما قال بلسانه قبلت، ولا ما كان في قلبه علمت». فقال أسامة: «يا رسول الله، استغفر لي، فقال رسول الله: «أُقتلته بعد ما قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟!»⁽¹⁾.

(1) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج 1 ص 272، الترمذى، محمد بن عيسى، الجامع الصحيح، تحقيق وتصحيح: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1983، ط 2، ج 4 ص 307، البهقى، السنن الكبرى، ج 4، ص 115، ابن أبي شيبة، المصنف، ج 6، ص 577.

وبعد التصرف غير المقبول الذي قام به أسامة، أراد النبي ﷺ أن يبعث قوّة عسكرية إلى حوائط فدك. وكان يهود فدك قد سمعوا ما حلّ برفاقهم في خير من معاملة طيبة، فبعثوا إلى الرسول ﷺ يعلنون رغبتهم في المصالحة، ويفاوضونه على تنازلهم عن الأرض، وما يملكون مقابل حقنه دماءهم، فصالحهم رسول الله على أن يحقن دماءهم، واتفق معهم على بقاءهم في الأرض يعملون فيها بنصف الناتج. فكانت حوائط فدك لرسول الله ﷺ ملكاً خاصاً خالصاً له ﷺ بحكم القرآن الكريم؛ لأنها ممّا لم يوجد عليه بخيل ولا سلاح بعد استسلام أهاليها للنبي ﷺ. ونزل جبريل وقال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُكَ أَنْ تُؤْتِيَ ذَا الْقُرْبَىَ حَقَّهُ». قال: «يَا جَبَرِيلَ، وَمَنْ قَرْبَىٰ؟! وَمَا حَقُّهَا؟!»، قال: «فَاطِمَةُ، فَأَعْطِهَا حَوائطَ فَدَكَ، وَمَا لَهُ وَلِرَسُولِهِ فِيهَا». فدعا رسول الله ﷺ ابنته الصديقة فاطمة الزهراء، وكتب لها كتاباً، ووهبها بأمر من الله تعالى فدكاً، وقال لها: «يَا فَاطِمَةُ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمْرَنِي أَنْ أُدْفِعَ إِلَيْكَ فَدَكًا»، فقالت: «قَدْ قَبَلتِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ وَمِنِّي، فَلَمْ يَزِلْ وَكَلَّوْهَا فِيهَا حَيَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»⁽¹⁾.

وأمّا وادي القرى فقد بقيت عاصية، فتوّجه إليها الرسول ﷺ، وفرض الحصار عليها، ودعا أهلها إلى الإسلام، ولكنّهم أصرّوا على القتال، وجرت بين الطرفين مناورات محدودة، وشدّد الحصار عليهم حتّى فتح بلدتهم عنوة، وبقي أربعة أيام قسم خلالها الغنائم على أصحابه، وترك المزارع بيد اليهود مناصفة عليها. ولمّا بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلامية صالحوا الرسول ﷺ على الجزية وأقاموا في بلدتهم⁽²⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 90، السمهودي، وفاء الوفاء، ج 3، ص 1280، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 30، ص 300. المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 219. الواقدي، المغازي، ج 2، ص 706، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن ج 3، ص 411، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام ج 4، ص 148، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 4، ص 37.

(2) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 709، البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، نشر وإلحاقي وفهرسة : الدكتور صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1956م، ل.ا.ط، ج 1، ص 39، ابن سيد الناس، عيون الآخر، ج 2، ص 151، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 148 و 149.

المفاهيم الرئيسية

- بعد أن أمن رسول الله ﷺ جانب قريش، توجه لقتال يهود خيبر، فاستنفر من حوله من الأعراب.
- خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر وجاءهم من جهة الشمال الشرقي، ليقطع بينهم وبين الشام، وقطع الإمداد عنهم من جهة غطfan. وسار ﷺ بالقرب من مساكن غطfan، فخاف أهل القبيلة، وخلعوا بينه ﷺ وبين خيبر.
- ما إن وصل رسول الله ﷺ إلى مشارف خيبر حتى دعا الله سبحانه وتعالى، ثم قام المسلمون باحتلال المناطق الهمة بجوار خيبر، فأفزع اليهود ذلك، وخافوا خوفاً شديداً، ودخلوا إلى حصنهم. وتم فتح هذه الحصون ببطءٍ، وفرق بينها، وحاول اليهود الصمود في وجه الحصار إلا أنهم فشلوا في ذلك.
- قرر رسول الله ﷺ إنتهاء الحصار عن خيبر، فأمر الإمام علي عليه السلام بأن يخرج إليهم، وجهزه للقتال، ودعا له تقدّم الإمام علي عليه السلام إليهم، فخرج له مرحباً فقتل الإمام علي عليه السلام، ثم تقدم إلى باب خيبر وقلعه وجعله جسراً للمقاتلين المسلمين، فأيقن اليهود عند ذلك بالهزيمة والخيبة.
- انتصر المسلمون في معركة خيبر لأسباب عدّة، من أهمّها: التخطيط النبوّي الدقيق للمعركة، تحصيل المعلومات حول العدوّ، تفاني الإمام علي عليه السلام في الجهاد والقتال.
- لقد كان لمعركة خيبر نتائج عدّة: دبّ اليأس في قلوب المشركين، فرض الانتصار على قريش، تنفيذ بنود الصلح بدقة، تضاعف قوّة المسلمين، تخلص المسلمين من أكبر قوّة لليهود.
- توجّه رسول الله ﷺ لمحاصرة آخر معاقل اليهود في فدك ووادي القرى وتيماء، ودعاهم إلى الإسلام. وكانت أخبار هزيمة خيبر قد وصلت إليهم فخرجوا إلى رسول الله ﷺ طالبين الصلح، فصالحهم ﷺ.

الدرس الثاني والعشرون

الدعوة الإسلامية خارج المدينة المنورة وعمره القضاء

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرف إلى سياسة النبي ﷺ في دعوة القبائل والدول العربية إلى الإسلام.
2. يفهم أهداف النبي ﷺ من توجيهه الكتب إلى ملوك العالم.
3. يعرف كيف عاد المسلمين إلى مكة في عمرة القضاء.

تمهيد

أدّت السياسة الحكيمية للنبي ﷺ إلى ترسيخ فكرة قوّة وسيطرة الدولة الإسلامية في المدينة على الوضع العام في المنطقة، وأنّها تمكّنت وضربت جذورها في الأرض، وأصبح من الخير لقبائل العرب أن تكون بينها وبين هذه الدولة الفتية هدنة، أو تحالف، أو أن تنزع، إلى الأبد، أي تفكير بغزو المدينة أو بمحاربة الإسلام، أو التآمر عليه مع أعدائه. وكان يتطلّب ذلك من رسول الله ﷺ العمل على نشر الدعوة الإسلامية بين القبائل العربية المنتشرة في جميع المناطق المحيطة بالمدينة المنورة، وكذلك العمل على توجيه رسائل إلى جميع بلدان العالم لإخبارهم وإعلامهم بأنّ الإسلام أصبح يشكّل قوّة لا يُستهان بها، وأنّ على جميع شعوب العالم أن تذعن وتتخضع لهذا الدين الخاتم لكل الأديان الإلهيّة.

انتشار الإسلام في البلدان والقبائل العربية

بعد انتصار الإسلام المدوّي على اليهود في معركة خيبر، وحتّى يؤتي صلح الحديبية ثماره المعقودة عليه، بعث النبي ﷺ سراياه وبعوثه في مهمّة الدعوة إلى الله تعالى، فانتشرت بين العرب تنقل إليهم رسالة الإسلام، ولم تبق كورة في اليمن والبحرين واليمامنة، إلّا وفيها رسل النبي ﷺ، والناس يدخلون في دين الله أفواجاً، بعد أن زال محذور قريش، واعترفت بالإسلام، وساد السلم بينها وبين المسلمين، فقطف النبي ﷺ الثمرة الأساس لصلح الحديبية⁽¹⁾.

(1) الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 283، ابن حجر العسقلانى، فتح البارى، ج 5، ص 257، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 194، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 324.

وكان الرصد الدقيق لتحركات وحشود، أو استعدادات، قبائل الأعراب واليهود وكل القوى المعادية التي كانت معنية بالوجود الإسلامي في شبه الجزيرة العربية، يساعد رسول الله على اتخاذ القرارات المناسبة، والمبادرة للتحرك، وجسم الموقف بقوة وحزم، وتوجيه ضربات استباقية لأي تجمع قبل أن يقوى ويهاجم.

لقد وضع هذا التكتيك العسكري لرسول الله قبائل العرب - الذين اعتادوا على شن الغارات وقطع الطرق - في حالة دائمة من الخوف والقلق، فكانوا يسارعون، بمجرد ورود أخبار إليهم بتحرك المسلمين نحوهم، بالفرار إلى رؤوس الجبال، والتمنع فيها، وترك أموالهم، ومواشيهم، وحتى نسائهم وأولادهم.

وقد انعكس هذا الوضع على قريش وهيمتها التاريخية على قبائل العرب، فضاق أمرها عليها، وفقدت امتيازات سياسية وعسكرية خطيرة، كانت إلى الأمس القريب رصيدها في السيادة والغطرسة، وأصبحت وحيدة لا تجد من يعقد معها حلفاً ضد المسلمين، وتنظر ذلك اليوم التاريخي الحاسم الذي سوف تجد فيه نفسها معزولة تستجدي رسول الله العفو.

وانقلبت، بسبب ما قدمنا، أسباب الاضطراب والقلق من المدينة إلى خارجها، وارتاحت أجواء المسلمين، واطمأنوا، فاستطاعوا مضاعفة أنشطة الدعوة إلى الإسلام، والتحرك بقوة وحرية، واندفاع وحماس، فانتشرت دعوة الإسلام، وبعد صيتها، وأصبحت حديث الناس في كل أصقاع الجزيرة العربية، وأخذ الناس يقبلون عليها بلا خوف ولا وجف، فقد أصبح الإسلام عنواناً للقوة والمناعة ولم يعد من يعتنق هذا الدين يخاف أحداً. وأسلم كثير من العرب، ومنهم من بقي مقيماً على شركه.

غطفان وخراءة والدخول في الإسلام

قدم على رسول الله ﷺ في هدنة الحديبية قبل خيبر رفاعة بن زيد الجذامي الضبيبي من غطفان، وأسلم، وأهدى رسول الله غلامه مدعماً، وكتب رسول الله كتاباً معه إلى قومه، فيه: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، هَذَا كِتَابٌ مِّنْ مُّحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ لِرَفَاعَةَ

بن زيد، أتى بعثته إلى قومه عامّة، ومن دخل فيهم، يدعوهم إلى الله وإلى رسوله، فمن أقبل منهم ففي حزب الله وحزب رسوله، ومن أدبر فله أمان شهرين». وقد رفاعة إلى قومه فأجابوا وأسلموا، ولم يُعِين الشهراً للأمان، ولعلهما شهراً محرّم وصفر من السنة السابعة، ولعل توقيته هذا كان لحين انتهاءه من خير ليحسبوا حسابهم ليومئذ. وقد تقدّم في أخبار خير أن اليهود حاولوا أن يكتسبوا نصرة غطfan إليهم، فلعل هذه الدعوة من الرسول ﷺ كانت مبادرة منه إليهم قبل اليهود.

وبعد أن عاد رسول الله ﷺ من الحديبية، لم يبق أحد من قبيلة خزاعة إلا مسلم مصدق به، قد اعتنقوا الإسلام، وهو في من حوله قليل، وقد أرسل لهم كتاباً، تولى كتابته الإمام علي بن أبي طالب. جعل فيه خزاعة، حتّى ولو لم يسكنوا مكة، وبقوا في أرضهم، بمنزلة المهاجرين إلى المدينة، من حيث الثواب، ومن حيث سائر الامتيازات التي تُعطى للمهاجرين، وأكّد في هذا الكتاب التزامه بعهده معهم، وأنّه لن يسرع في مجازاتهم بالسوء، لو صدر منهم ما يوجب ذلك، بل سيعاملهم بالحلم والتأني⁽¹⁾.

دعوة شعوب المنطقة إلى الإسلام

1. رسائل النبي ﷺ إلى ملوك العالم:

في سنة ست أو في سنة سبع بعد الهجرة⁽²⁾، بعد أن أصبح المسلمون في راحة من جهة قريش، وحّتى تقع دعوته في قلوب العرب موقعها، ويظهر أنها عزيزة ومنيعة، وحّتى تتسامع الشعوب بأنباء بعثته، وتلتفت إلى دعوته، وحّتى يؤكّد هيبيته في كلّ المحيط الذي يعيش فيه، قرّر رسول الله ﷺ القيام بخطوة استراتيجية سوف تترك أثراً عظيماً في نفوس العرب، وتلعب دوراً في استقطابهم وقلب موازين القوى مع قريش.

(1) ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 4، ص 234 و 260، الواقدي، المغازي، ج 2، ص 749، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 272، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج 1، ص 197، وج 2، ص 97، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 1، ص 149، ص 646.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 258، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 288، القironانى، الجامع، ص 287، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 262، المسعودي، مروج الذهب ومعادن العوهر، ج 2، ص 289، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص 225.

فقد كتب رسائل إلى ستة من ملوك وأباطرة زمانه، ممّن كانوا يتحكمون في شعوب المنطقة، وكان اسمهم يزرع الخوف في النفوس، يدعوهم فيها إلى الإسلام. وطلب من بعض أصحابه أن يحمل هذه الرسائل، فأدهشهم قراره هذا، وترك رهبة شديدة وخوفاً عظيماً لديهم، فأظهروا تناقلًا عن تنفيذ أمر رسول الله ﷺ. فقد توقعوا أن يغضب أولئك الملوك غضباً شديداً منهم حين تسليم الرسائل إليهم، فخرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «يا أيها الناس، إن الله بعثني رحمة وكافية؛ فأدّوا عنّي يرحمكم الله، ولا تختلفوا علىٰ كما اختلف الحواريون علىٰ عيسى ابن مريم...!!»⁽¹⁾.

فوفقاً ل أصحاب رسول الله ﷺ على الذهاب، وانطلق ستة منهم في ذي الحجّة الحرام، أو في أواخره هم: عمرو بن أمية الضمري، رسولًا إلى النجاشي، ملك الحبشة، ودحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل، قيسار أو عظيم الروم، وكان في الشام، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى، حاكم فارس والمدائن، وحاطب بن أبي بلترة اللخمي القرشي إلى المقوقس⁽²⁾، صاحب الإسكندرية في مصر، وكان عاملاً للروم عليها، والشجاع بن وهب الأسدية إلى الحارت بن أبي شمر الغساني، من غساسنة الشام عمال الروم، والذي كان والياً على تخوم الشام ودمشق، وسلط بن عمرو العامري إلى ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي الحنفيين، ملكي اليمامة. وكان خروجهم في يوم واحد مصطحبين يحملون رسائله التي كانت باللغة العربية، لغة القرآن والإسلام.

وكان رسول الله ﷺ في كتبه يقدم اسمه الشريف موصفاً بوصف الرسالة أو النبوة، فيكتب: «من محمد رسول الله»، ثم يصرّح بعد ذلك باسم المرسل إليه، تعظيماً منه للنبيّة، وتربيغاً لمقام الرسالة.

وكان رسول الله ﷺ قد اتّخذ خاتماً من فضة، فاقتدى به من شاء من أصحابه. فاتّخذوا خواتيمهم من فضة. وكان يختم رسائله بعد طيّها، ويجعل الختم على شيء

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 254، ابن إسحاق، سيرة ابن إسحاق، ج 3، ص 255.

(2) لقب عظيم القبط في تلك الأيام، دحلان، السيرة النبوية، مصدر سابق، ج 3، ص 70.

رطب من الطين ونحوه، من أجل أن لا يفْضُّها حاملها أو غيره، أو يطْلُع على ما فيها غير المكتوبة إليه، ولكي لا يُزَاد فيها، ولا تحرَّك بعض كلماتها⁽¹⁾.

2. مضامين كتب النبي ﷺ ونتائجها:

تضمّنت الكتب التي أرسلها النبي ﷺ إلى الملوك الدعوة إلى الإسلام دين التوحيد. ولم تكن فيها إشارة إلى حرب، ولا حديث عن جزية، لو امتنعوا عن الإسلام، فقد كان حريصاً على هدفه الأول والأسمى، ألا وهو نشر الدين، وليس الاستيلاء على بلاد الناس وقهرهم، أو إذلالهم، أو سلبهم ونهبهم.

ولذلك كانت نتائج رسائله إيجابية بالجملة، فقد قَبِلَ الإسلام بعضهم، مثل النجاشي الثاني ملك الحبشة، والمنذر بن ساوي ملك البحرين، وجิفر وعبد ابنا جلندي، ملكي عُمان، وعمّال كسرى في البحرين واليمن، وفروة عامل قيسار على عُمان، فلما بلغ قيسار ذلك أخذه واستتابه، فأبى، فقتله. وأجابه ملوك حمير ووفدوا عليه.

وتردّد بعض هؤلاء الملوك، وأجاب بجواب لِيْنَ، فيه ترُّوٌ ومرونة، وأرسلوا إليه بكتب نصحت بالإكرام والإعظام، وبعثوا إليه بالتحف والهدايا. وقد قال قيسار لأخيه حين طلب منه أن يرمي الكتاب من يده: «أترى أرمي كتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر؟!»، وقال المقوقس: «إِنِّي قد نظرت في أمر هذا النبي، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضالّ، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آلة النبوة، بإخراج الخبر، والإخبار بالنجوى، وسانظر». وأعطاه أساقفة نجران الجزية، وأجابه ملك أيلة ويهود مقنا، إِمّا بالإسلام، أو الجزية⁽²⁾.

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 8، ص 165، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 17، ص 209، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 304، ج 5، ص 356، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 505 ، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 288.

(2) الزياعي، عبد الله بن يوسف، نصب الراية، اعتنى به: أمين صالح شعبان، دار الحديث، القاهرة، مصر، 1995م، ط 1، ج 6، ص 564.

عمره القضاء والعودة إلى مكة

انقضت الأيام والنبي ﷺ والمسلمون يعملون على تركيز دعائم الإسلام. ولم تحدث تحركات عسكرية بعد فتح خيبر سوى خروج سرايا التبليغ. ومضى عامٌ على صلح الحديبية، التزم خلاله الطرفان ببنود الاتفاق، وحلَّ الوقت الذي أصبح النبي ﷺ والمسلمون فيه في حلٍّ من عهدهم عدم الدخول إلى مكة.

1. الأمر بالاستعداد للعمرة:

وهكذا، في السنة التالية للحديبية، وهي سنة سبع من الهجرة، وفي ذي القعدة، وهو الشهر الذي صدَّ فيه المشركون المسلمين عن المسجد الحرام، كانت عمرة القضاء، وذلك لأنَّ خاتم النبيين ﷺ أمر أصحابه، حين رأوا هلال ذي القعدة، أن يعتمروا قضاءً لعمرتهم التي صدَّهم المشركون عنها بالحديبية، وأن لا يتخلَّف أحدٌ ممَّن شهد الحديبية، فلم يتخلَّف منهم أحدٌ إلَّا من استشهد في خيبر، أو مات بين الحديبية وعمرة القضاء. وقد انضمَّ إليهم جمْع ممَّن لم يحضر الحديبية أيضًا، وكان منهم جعفر بن أبي طالب، كما أنَّ بعض النساء ممَّن شهدن الحديبية، قد اعتمرن معه ﷺ. فكان المسلمون في عمرة القضاء ألفين⁽¹⁾.

وساق النبي ﷺ في عمرته الهدي⁽²⁾، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفارِي، وحمل معه السلاح، والدروع، والرماح، وقد معه مئة فرس، وأحرم من مسجد الشجرة؛ لأنَّه هو ميقات أهل المدينة⁽³⁾. وكان خروجه إليها يوم الاثنين لستَّ خلون من ذي القعدة⁽⁴⁾.

2. على مشارف مكة:

لَمَّا انتهى الرسول ﷺ إلى ذي الحليفة، قدَّمَ الخيل أمامه، فقيل: «يا رسول الله،

(1) الواقدي، المغازي، ج. 2، ص 731 ، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج. 2، ص 120، العيني، عمدة القاري، ج 17، ص 262، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 59، ص 67، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 158.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 109، الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 435.

(3) الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج 2، ص 433، الشيخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 200.

(4) البغدادي، المحبير، ص 115.

حملت السلاح». فقال رسول الله ﷺ: «لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح، ولكن يكون قريباً مناً، فإن هاجنا هيج من القوم كان السلاح قريباً مناً». فعلمت بذلك عيونٌ لقريش، خرجوا سراغاً حتى أتوا قريشاً، فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح. فأرسلت قريش مكرز بن حفص بن الأخيف فلقيه بمِّر الظهران، ثم رجع مكرز سريعاً إلى قريش فأخبرهم، وقال: «إنَّ محمداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم».

فلما دنا رسول الله ﷺ من مكة وعلم قريش بخروجه، خرج كبراؤهم ومنتبعهم من مكة إلى رؤوس الجبال والتلال المجاورة المطلة على مكة، زاعمين أنَّهم لا يريدون النظر إليه يطوف بالبيت هو وأصحابه، عداوة وبغضاً وحسداً لرسول الله ﷺ، وأخلوا مكة ثلاثة أيام، وخلفوا فيها حويطب بن عبد العزى.

وجعل خاتم النبيين الكتبية التي تحمل السلاح في بطن ياجج، وهو موضع قريب من الحرم خارجه. وكان عدد أفراد هذه الكتبية مئتين من المسلمين. وكانت الخطة النبوية أن يقضي الذين كانوا معه مناسكهم، ثم يأتي هؤلاء المئتان بعدهم فيحلوا محل أولئك، فيتمكنون من السعي والطواف، وأداء مناسكهم أيضاً.

3. رسول الله ﷺ والمسلمون في مكة:

دخل رسول الله ﷺ وأصحابه مكة من الثنية بطلع الحجون، وانتهى إلى البيت وهو على راحته، وأصحابه محدقون به، قد توشحوا السيوف يلبون، وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام ناقته. فلم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى استلم الركن بمحجنه، وأمر بلاً فصعد على ظهر الكعبة، يعلن نداء التوحيد، مؤذناً لصلاة الظهر، وحتى لو أذن بلال فوق الكعبة يومئذ مرّة واحدة، ولم يعد بعد، ولكن ذلك كان كافياً لإغاثة رؤوس الكفر من قريش. وقعد جمع من المشركين، واصطفوا عند دار الندوة، لينظروا إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه معه وهم يطوفون بالبيت، وتحدثوا بينهم أنَّ محمداً وأصحابه في عسر وجهد وحاجة، وأنَّ المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب، فنزل جبرئيل عليه السلام على النبي ﷺ

فقال: «إِنَّ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْجَبَلِ، وَهُمْ يَرَوْنَكُمْ، امْشُوا بَيْنَ الْيَمَانِيِّ وَالْأَسْوَدِ». فلَمَّا دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْمَسْجَدَ، اضطَبَعَ^(١) بِرَدَائِهِ، وَأَخْرَجَ عَضْدَهُ الْيَمَنِيَّ فَفَعَلَتِ الصَّحَابَةُ كَذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَحْمَ اللَّهِ أَرْمَأً أَرَاهُمُ الْيَوْمَ مِنْ نَفْسِهِ قَوْةً»، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَرْمِلُوا الْأَشْوَاطَ الْمُلْتَهَى، لِيُرِكُوا الْمُشْرِكِينَ أَنْ لَهُمْ قَوْةً. وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ، وَالْعَرَبِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجَّ أَوْ لِلْعُمْرَةِ أَوْ لِلتَّجَارَةِ، يَنْظَرُونَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَهُمْ يَطْوِفُونَ بِالْبَيْتِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ لِقَرِيْشِ: «اْرْفَعُوا أَصْنَامَكُمْ مِنْ بَيْنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ حَتَّى أَسْعَى»، فَرَفَعُوهَا، فَسَعَى بَيْنِ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَقَدْ رُفِعَتِ الْأَصْنَامُ، وَأَقَامَ فِي مَكَّةَ ثَلَاثَةً.

وَقَدْ كَانَتْ كُلُّ مَكَّةَ تَحْتَ تَصْرِفِ الْمُسْلِمِينَ بِكُلِّ مَرَافِقِهَا، وَتَفَرَّقَ الْمَهَاجِرُونَ يَصْبِحُونَ الْأَنْصَارَ يَعُودُونَ دُورَهُمُ الَّتِي غَادُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَلْتَقِيُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَذُوِّيهِمْ بَعْدَ طَوْلِ فَرَاقٍ. وَبَعْدَ أَنْ تَتَكَلَّمَ النَّاسُ، أَدْلَجَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ سُرْفِ حَتَّى قَدْمَ الْمَدِينَةِ^(٢).

(١) اضطَبَعَ بِرَدَائِهِ: تَأْبِطُ بِهِ أَيْ جَعْلَهُ تَحْتَ إِبْطَهُ وَرَمْلَهُ هَرَوْلَهُ.

(٢) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 158، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 2، ص 40، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 284، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 827، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 227، أحمد بن حنبل، مسنَدُ أَحْمَدَ، ج 1، ص 373، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج 2، ص 923، البخاري، صحيح البخاري، ج 7، ص 581، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 192، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 84، ص 276، للتَّوْسِعَةِ حَوْلَ الْمَوْضِعِ، راجع: السَّيِّدُ جعْفَرُ مُرتَضَىُ الْعَالَمِيُّ، الصَّحِيحُ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ، ج 19، ص 151.

المفاهيم الرئيسية

- بعث رسول الله ﷺ سراياه وبعثاته في مهمّة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فانتشر الإسلام بين قبائل العرب، ولم تبق كورة في اليمن والبحرين واليمامات إلا وفيها رسل النبي ﷺ.
- دخل الإسلام إلى قبيلة غطفان وخزاعة، فقد جاء وفد من كلّ منها إلى رسول الله ﷺ، وأرسل رسول الله ﷺ مع كلّ وفد منهم أصول الإسلام ومبادئه، وانعكس ذلك لصالح صلح الحديبية، وأثر ذلك مباشرة على هيمنة قبيلة قريش التاريخية.
- بعد عقد صلح الحديبية قرر رسول الله ﷺ إرسال رسالته ورسائله إلى ملوك المنطقة من أجل أن ينشر الإسلام بشكل أوسع، ولكي تتسامع بدعوتهشعوب هذه المنطقة، فكتب رسائله إلى ستة من ملوك وأباطرة زمانه، وانطلق رسالته في شهر ذي الحجة الحرام، وكان خروجهم في يوم واحد يحملون رسائله إلى البلاد.
- تضمنت الكتب التي أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك دعوة الناس إلى الإسلام ودين التوحيد، ولم تكن فيها إشارة إلى حرب ولا حديث عن جزية، ولا الاستيلاء على بلدانهم.
- بعد أن انقضى عام على صلح الحديبية، وحان وقت العمرة، قرر رسول الله ﷺ التوجّه لأداء عمرة القضاء، وأمر أصحابه بالتهيؤ للعمرمة، وأن لا يختلف أحد ممن شهد الحديبية، وانضم إليهم آخرون أيضاً.
- ساق النبي ﷺ في عمرته الهدي، وحمل معه السلاح للحماية والدفاع عن المسلمين فقط، لا بهدف القتال والهجوم على قريش. وحين وصل ﷺ إلى مشارف مكة أبقى تلك القوة المسلحة خارجها، وأفرغت له قريش مكة، فدخلها ثلاثة أيام، وأدى عمرته كاملة، ثم أدخل من كان خارجاً وخرج مكانهم مجموعة أخرى للغاية والغرض نفسيهما.

الدرس الثالث والعشرون

الإسلام خارج ثتبه الجزيرة العربية معركة مؤتة

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف ظروف وأهداف معركة مؤتة.
2. يبيّن مجريات المعركة والأحداث التي رافقتها.
3. يحلّل نتائج معركة مؤتة.

تمهيد

قبل الانطلاقـة الكـبرـى إلى خارج الجـزـيرـة العـرـبـيـة، وـداخـل الأـرـاضـى الشـامـيـة التـابـعـة للـرومـ، بـعـث رـسـول الله قـوـة عـسـكـرـيـة إـلـى خـارـج المـحـيـط الـذـي كـان يـعـيـش فـيـه المـسـلـمـون؛ حيثـ كـانـتـ المـواـجـهـةـ الـأـوـلـىـ بـيـنـ هـذـهـ القـبـائـلـ وـبـيـنـ المـسـلـمـينـ فـيـ مـعرـكـةـ مـؤـتـةـ⁽¹⁾ـ،ـ فـيـ أـوـلـ صـدـامـ مـسـلـحـ بـيـنـ المـسـلـمـينـ وـالـقـوـاتـ الـبـيـزـنـطـيـةــ.ـ أـظـهـرـ فـيـهاـ المـسـلـمـونـ بـطـولـاتـ فـيـ مـواـجـهـةـ جـيـشـ دـوـلـةـ تـمـثـلـ أـعـظـمـ دـوـلـةـ فـيـ ذـلـكـ الزـمـانــ.ـ وـمـعـ أـنـ هـذـهـ الغـزـوـةـ كـانـتـ نـذـيرـ خـطـرـ لـدـوـلـةـ الـبـيـزـنـطـيـةــ،ـ وـكـانـ يـنـبـغـيـ أـنـ يـتـرـكـ عـنـدـهـاـ اـنـطـبـاعـاـ حـاسـمـاـ وـقـوـيـاـ عـنـ طـبـيعـةـ هـذـهـ القـوـةـ الـجـدـيـدةـ الـقـادـمـةـ مـنـ الصـحـراءــ،ـ إـلـاـ أـنـهـاـ غـفـلـتـ عـنـ ذـلـكـ فـدـعـتـ ثـمـنـاـ غالـيـاــ.

محاـولةـ التـمـددـ نـاحـيـةـ الشـمـالـ

انـقـضـتـ السـنـةـ الـهـجـرـيـةـ السـابـعـةـ،ـ وـدـخـلـتـ السـنـةـ الثـامـنـةـ،ـ وـكـانـ ثـمـةـ أـمـنـ نـسـبـيـ يـسـودـ أـكـثـرـ مـنـاطـقـ الـحـجازـ،ـ وـلـمـ يـقـ منـ نـفـوذـ الـيـهـودـ شـيـءـ،ـ وـلـمـ تـعـدـ قـرـيـشـ تـهـدـدـ المـسـلـمـينـ منـ نـاحـيـةـ الـجـنـوبــ،ـ فـتـوـجـهـتـ أـنـظـارـ النـبـيـ ﷺـ إـلـىـ الشـمـالــ،ـ حـيـثـ الـإـمـبـراـطـورـيـةـ الـبـيـزـنـطـيـةــ،ـ وـحـمـاتـهـاـ مـنـ قـبـائـلـ الشـامــ.ـ كـانـ مـحـورـ حـرـكـةـ النـبـيـ ﷺــ فـيـ النـظـرـ إـلـىـ الشـمـالــ،ـ وـإـلـىـ سـكـانـ

(1) تـقـعـ مـؤـتـةـ فـيـ وـسـطـ مـكـانـ خـصـيبـ فـيـ مـنـطـقـةـ الـبـلـقـاءـ،ـ عـلـىـ بـعـدـ أـمـيـالـ قـلـيلـةـ إـلـىـ شـرـقـ الـجـزـءـ الـجـنـوـيـ مـنـ الـبـحـرـ الـمـيـتـ،ـ وـالـبـلـقـاءـ هـيـ أـقـرـبـ مـنـطـقـةـ فـيـ الـإـمـبـراـطـورـيـةـ الـبـيـزـنـطـيـةـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ الـمـنـوـرـةـ،ـ كـانـتـ تـسـكـنـهـاـ قـبـائـلـ عـالـمـةـ وـلـخـمـ وـجـذـامـ،ـ وـكـانـتـ مـؤـتـةـ،ـ حـسـبـ يـاقـوتـ،ـ مـرـكـزاـ هـاماـ لـلـحـدـادـةـ وـصـنـاعـةـ السـيـوـفـ،ـ فـيمـكـنـ أـنـ تـكـونـ هـذـهـ النـقـطةـ ذاتـ أـهمـيـةـ خـاصـةـ فـيـ الـبـحـثـ عـنـ دـوـافـعـ أـوـ أـهـدـافـ السـرـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ إـلـىـ جـنـوـبـيـ الـأـرـدـنـ وـفـلـسـطـيـنـ،ـ وـيـمـكـنـ بـالـتـالـيـ تـفـسـيرـ مـحاـولةـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ مـؤـتـةـ كـوـسـيـلـةـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ الـأـسـلـحةــ.

المناطق الحدودية للشام، هو قضية نشر الدعوة إلى الإسلام. فأرسل مبعوثين للإعلان عن الإسلام لدى العديد من الحكام والملوك، من بينهم الإمبراطور البيزنطي، وحاول الاتصال به عبر الحكم المحلي، فأرسل أول رسول له، وهو الحارث بن عمير الأزدي، وأرسل معه كتاباً إلى «الحارث بن أبي شمر الغساني» ملك «بصري» الذي كان حاكماً الشام يومذاك من قبل القيس، ليوصله إلى هرقل عظيم الروم بالشام⁽¹⁾.

فلما نزل مبعوث النبي إلى «مؤتة»، عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وهو من أمراء قيس على الشام، وكان حاكماً لمناطق الحدودية، فأمر به، فأوثق رباطاً ثم قدمه، فضرب عنقه صبراً. ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره.

وفي جمادى الأولى⁽²⁾، بلغ رسول الله ﷺ الخبر، فاشتد عليه، وغضب لمقتل رسوله، وندب الناس، وأخبرهم بمقتل الحارث، ومن قتله. وجهز رسول الله جيشاً مبرياً وجهة سيره مخفية عن اليهود والمشرعين، ولم يخبر بها إلا الذين انتدبهم للخروج⁽³⁾.

أهداف غزوة مؤتة

كان الغرض الظاهري من هذه الغزوة هو الثأر لمبعوث النبي ﷺ إلى أمير الغساسنة في بصرى. بالإضافة إلى ذلك، كانت الخطة النبوية تدور حول أهداف عدّة لحركة واحدة، وهي:

1. رغبة رسول الله ﷺ في الحصول على السيوف المشرفية التي كانت تصنع في مؤتة ونواحيها؛ ليسلاح بها رجاله يوم الهجوم العتيد على مكة.

(1) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 165، الحلبي، السيرة الحلبية، ج 3، ص 66، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 11، ص 350.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 829، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 318، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 52، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 275، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 164، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 144.

(3) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 755، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 128، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 1، ص 304، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج 1، ص 342، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 15، ص 61، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، مصدر سابق، ج 2، ص 7.

2. توجيه تحذير للروم من تمديد وجودهم العسكري والتدخل من جهة الأردن وفلسطين، في رسالة مفادها «نحن نغزوكم ولا نخاف، فلا تحاولوا التفكير في غزونا». إذ كانت القوات البيزنطية تحاول مد سيطرتها⁽¹⁾ بعد أن حقق هرقل انتصاراً على ملك فارس، والتقي بالفرس قبل شهرين تقريباً من وقوع معركة مؤتة، في تموز 629 ميلادية في كابادوشيا للبحث في الشروط النهائية للسلم بين الطرفين. وعندما فقط قام الفرس بإجلاء جنودهم عن الأراضي البيزنطية المحتلة. وكان هرقل قد نذر أنه إن حقق انتصاراً على ملك فارس، فسوف يمشي إلى بيت المقدس، وكانت الحشود العسكرية الرومية ترافقه في مسيره ذاك، وسوف تكون وبالتالي نذير خطر داهم على تخوم الجزيرة العربية من جهة الشمال. وقد عرف النبي ﷺ بالأمر، فأرسل إلى العرب ينذرهم بالخطر، ويستنفرهم إلى الشام⁽²⁾. وهكذا، كانت معركة مؤتة، من جهة، جزءاً من سياسة بيزنطية للتغلغل في مناطق البيزنطيون يحاولون الخرق جنوباً، بمساعدة قبائل بلاد الشام العربية، الذين لم يكونوا مستقرّين في المنطقة. ولعلّهم كانوا قد انتقلوا بعد الهزيمة الفارسية ورسخوا وجودهم الجديد جنوب البحر الميت قرب مؤتة. ومن جهة أخرى، كان المسلمين يتّجهون شمالاً في هذه المنطقة، ولذلك كان الصدام حتمياً.

كان الوجود البيزنطي حديث العهد في المنطقة، فهو يرقى إلى شهرين أو ثلاثة، بعد زوال الاحتلال الفارسي، وكانت سيطرتهم غير كاملة وغير مباشرة، مع أنّ جهوزيتهم العسكرية كانت في أعلى مستوياتها، ولذلك كانت القوة الحقيقة في أيدي قبائل بلاد الشام العربية مثل عاملة وجذام ولخم. المرشح الوحيد لإعادة السيطرة على المنطقة، ويقول ثيوافانس: «إنْ قائد المنطقة كان بيزنطياً، لكنَّ الجنود في أغلبيتهم كانوا من

(1) جند الخليفة، ص 111، نقلًا عن: W.Kaegi, Byzantium and Early Islamic Conquests(Cambridge, 1992) 73.

(2) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج. 6، ص 167 و 172.

قبائل بلاد الشام. ولم يكن لدى معظم الجنود البيزنطيين الوقت الكافي للتكيّف مع المنطقة واحتياجاتها». وبما أنّ الوقت ضاق عليهم بشكل مفاجئ عند هجوم المسلمين على مؤتة، فقد اعتمد البيزنطيون على حلفائهم العرب لحماية المواقع التي استعادوها حدثاً من الفرس.

ويبدو أنَّ الغساسنة لم يقطعوا علاقتهم مع بيزنطية، وقاتلوا على الأرجح إلى جانبهم ضدَّ الفرس⁽¹⁾. ولا يوجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى أنَّ بقية قبائل الشام - عاملة وجذام ولخم - شاركت البيزنطيين في القتال ضدَّ الفرس، وربما بقوا في الصحراء بعيداً عن الفرس والبيزنطيين معاً. ولكنَّهم على أثر انسحاب الجنود الفرس عادوا ووقفوا إلى جانب البيزنطيين، مما يدلُّ على أنَّ هذه القبائل كانت ما زالت ناشطة في المنطقة الجنوبيَّة من فلسطين خلال الاحتلال الفارسيِّ.

3. أن تكون سرية مؤتة حركة عسكرية، لكنَّها في سياق تحقيق نتائج نفسية ومعنوية على صعيد توسيع الدعوة إلى الإسلام، من أجل قلب موازين القوى، في سياق صلح الحديبية، عبر التلويع بالقوَّة، للعرب ولقرיש وللمجتمع؛ مما زرع الهيبة في النفوس. وكان هذا في نظر العرب والروم معاً أمراً مذهلاً، فكيف يواجه المسلمون دولة كانت العظمى آنذاك؟.

تجهيز الجيش الإسلامي

أسرع المسلمين للاستجابة لنداء النبي ﷺ، فاجتمع له منهم ثلاثة آلاف رجل⁽²⁾، وخرجوا للقتال، وكان خروجهم في السنة الثامنة للهجرة، وخرج النبي ﷺ في إثرهم، فشيعهم مع جماعة من أصحابه حتَّى بلغ ثنية الوداع، فوقف ووقفوا حوله، ثم خطب

(1) جند الخليفة، ص 112، نقلًا عن: Noldeke, the Princes of ghassan from the house of gafna. Tr. B. Jouze & C. Zurayq (Beirut, 1933) 79

(2) الواقدي، المغازى، ج 2، ص 736، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 128، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 319، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 829، الشيخ الطبرى، إعلام الورى، ج 1، ص 213، القاضى النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 3، ص 206، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 7، وج 28، ص 124.

في المقاتلين، فقال: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً. اغزوا باسم الله، في سبيل الله، ادعوهم إلى الإسلام، فإن أجابوا، فاقبلوا منهم، وكفوا عنهم، وإنما استعينوا عليهم بالله تبارك وتعالى، وقاتلوا من كفر بالله، عدو الله وعدوك بالشام».

وعسكر الجيش الإسلامي قبل خروجه في الجرف، ولم يرض لهم أن يختاروا لأنفسهم، وقال عليه السلام: «جعفر بن أبي طالب أمير الناس⁽¹⁾، فإن قُتل فزيد بن حارثة، فإن أصيب زيد فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليترتض المسلمون بينهم رجلاً فليجعلوه عليهم»⁽²⁾.

جريات المعركة

1. الدشتباك الأول مع الغساسنة:

سمع شرحبيل بن عمرو الغساني حاكم بادية الشام بمسيرهم، فجمع الجموع من القبائل المختلفة القاطنة في الأراضي الشامية، ووجههم إلى حدود بادية الشام الجنوبية لإيقاف تقدم المسلمين. فاشتبك المسلمون مع هذه الجموع، وقتلوا قائدتها، وتقدّموا ولم يكونوا حتى هذه الساعة على علم سوى بالقدرات العسكرية التي حشدتها شرحبيل، ووصلوا إلى أرض معان، وهي من الشغور الجنوبية لبادية الشام، وهناك عرفوا باستعدادات العدو وحجم قدراته العسكرية، وأن هرقل قد نزل مآب، فبقوا ليثنين يفكرون في أمرهم، وعقدوا جلسة مشاورة، فقال بعضهم: «نكتب إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم فنخبره الخبر، فإما رددنا وإما يزيدنا رجالاً».

(1) وقعة صفين، ص 90، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 14، ص 47، ج 15، ص 77، البلاذري، أنساب الأشراف ص 281، جواهر المطالب في مناقب الإمام علي بن أبي طالب ص 360، العقد الفريد، ج 4، ص 336، مناقب علي بن أبي طالب، للخوارزمي ص 176.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 15 ص 61، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 8، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 144 و 145، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 241.

وكان هذا الرأي أن يلقى قبولاً من المسلمين لولا الموقف المتشدد لعبد الله بن رواحة الذي أصر على المواجهة وخطب الناس وحثّهم على القتال، فشدّت تلك الكلمات معنويات المقاتلين المسلمين، وبثت فيهم روح القتال والاستبسال فيه⁽¹⁾.

2. الاشتباك الثاني في مؤتة:

انتقل الجيش الإسلامي من معان، حتى إذا دنا من منطقة «مشارف»، حيث قوات شرحبيل العربية، فوجئ بجيش هرقل من الروم.

انحاز المسلمون وانسحبوا قليلاً، فخشيتهم ضربة، ولم يبصروا موقعهم بالنسبة إلى موقع العدو، حتى أصبحوا في قرية أخرى من قرى البلقاء يُقال لها مؤتة. والظاهر أن الضباب ساعد العدو على إحكام الطوق على المسلمين، ثم دنا العدو منهم حتى التقوا عندها، وأصبحت المعركة، بسرعة حتمية، وفي الموضع الذي استدرجهم العدو إليه، ونشبت معركة غير متكافئة، انقضت فيها الأعداد الكثيفة للروم وقبائل الشام من العرب على المسلمين، الذين تقدّمت طليعتهم للقتال، فكان على جعفر بن أبي طالب أن يأخذ اللواء بيده، ويوجه صفوف المقاتلين المسلمين ويقاتل في الوقت نفسه، وأخذ يقاتل حتى استشهد⁽²⁾، ثم استشهد القائد الثاني للسرية «زيد بن حارثة»، ثم القائد الثالث «عبد الله بن رواحة»⁽³⁾، واستشهد معهم اثنا عشر رجلاً من المسلمين، واختلط المسلمون والمشركون، وإذا باللواء في يد خالد بن الوليد، وانكشف بالناس، فكانت الهزيمة، واتبعهم المشركون⁽⁴⁾.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 129، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 13، السهيلي، الروض الأنف، ج 4، ص 132، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 148؛ ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 831؛ الطبراني، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 319، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 212، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 458؛ ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 166، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 6، ص 158.

(2) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج 1، ص 287، ج 3، ص 422، المزي، تهذيب الكمال، ج 2، ص 236؛ ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 1، ص 539.

(3) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 833؛ ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج 15، ص 69؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 279، الببقي، السنن الكبرى، ج 9، ص 155.

(4) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 763؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 129؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 49، ص 337.

الهزيمة والعودة إلى المدينة

انتهت معركة مؤتة بهزيمة واضحة لل المسلمين، وشهادة ثلاثة وجوه إسلامية بارزة من أصحاب رسول الله ﷺ. وأقبل خالد بن الوليد بالناس منهزمين، فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، وجعل الناس يحترون في وجوههم التراب، ويقولون: «يا فُرّار، أفررتם في سبيل الله؟».

لقد كانت ردّة فعل المسلمين في المدينة قوية جدًا على الانسحاب المنكر الذي قام به خالد ومن معه من المعركة، حتى أنَّ الرجل منهم لينصرف إلى بيته وأهله، فيدق عليهم الباب فيأبون أن يفتحوا له، يقولون: «ألا تقدّمت مع أصحابك؟».

ومن كان كثيراً منهم من أصحاب رسول الله فقد جلس في بيته استحياءً ولا يظهر في الملا، وهنا تدخل رسول الله، من أجل رفع معنويات المنهزمين، فكان يعلق على كلام الناس قائلاً: «ليسوا بفُرّار، ولکتهم كرّار في سبيل الله إن شاء الله تعالى»، ثم أخذ يشجعهم على الخروج من بيوتهم، فخرجوا^(١).

نتائج معركة مؤتة

تمكن المسلمون من الوصول إلى مؤتة قرب البحر الميت دون أن تقف في وجههم القوّة البيزنطيّة، مما يدلّ على أنَّ هذه المنطقة من شمال الحجاز أصبحت خارج السيطرة الرسميّة الرومانيّة، وعلى أنَّ الروم يحاولون إعادة انتشار قبائل بلاد الشام العربيّة فيها. وكانت الخطّة النبوّيّة تقضي بالقتال حتّى ولو أدى إلى استشهاد القادة، وأن يثبت جيش المسلمين في المعركة قدر المستطاع، فلعلَّ العدو يفقد صبره وثباته ويتضعضع، وينزل النصر من عند الله تعالى. فإذا لم يتحقق شيء من ذلك، فإنَّ الانسحاب من ساحة

(١) الواقدي، المغازي، ج 2، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 93، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 323، الشیخ الطبری، إعلام الوری، ج 1، ص 215، ابن کثیر، السیرة النبویة، ج 3، ص 469، ابن هشام، السیرة النبویة، ج 3، ص 836، ابن إسحاق، سیرة ابن إسحاق ج 4، ص 24، الصالحي الشامي، سبل الهدی والرشاد، ج 6، ص 155، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السید جعفر مرتضی العاملی، الصحیح من سیرة النبی الأعظم ، ج 19، ص 275، ج 20، ص 7.

المعركة مع الاحتفاظ بكرامة المحارب المسلم يكون في النهاية هو الحل. وبذلك تتحقق معركة مؤتة، ومن خلال صبر ساعة، إنجازاً كبيراً، على كلّ مستويات الأهداف التي قدرنا أنها كانت لرسول الله من وراء حركته العسكرية.

ولم يتحقق في معركة مؤتة عامل المفاجأة ومباغطة الروم، والذي خطط له رسول الله ﷺ. كما أنّ خالداً، بانسحابه، ضيّع ما كان يمكن الحصول عليه رغم فقدان عنصر المفاجأة للعدو، وتمكّنت القيادة البيزنطية من هزيمة المسلمين.

ويظهر أنّ القوات البيزنطية وقبائل الشام العربية التي كانت تحت إمرتها، كانت تنتظر وصول الجيش الإسلامي، وقد رصده، وهذا يوضح السبب في الخسائر النوعية غير الطبيعية في هذه المعركة، كما يوضح سبب الفرار السريع والمفاجئ للمسلمين من المعركة بقيادة خالد بن الوليد، مما يشير إلى كمين كبير خطط له البيزنطيون. ولا يوجد ذكر لذلك في المصادر العربية، بينما نجد لدى ثيوфанيس في تاريخه، وهو بيزنطي، أنّ تيودورس، نائب الإمبراطور هرقل وأخاه، كان لديه حاجب اسمه قطبة^(١) القرشي. وقطبة هذا هو الذي زود نائب الإمبراطور بتقرير وافٍ عن الحملة، فاستعدّت بيزنطة لتلقيها.

وقد أخفى هذا الخبر من المصادر الإسلامية؛ لأنّ القوافل القرشية بقيادة أبي سفيان، كانت لا تزال، بعد صلح الحديبية، تذهب إلى بلاد الشام وتأتي منها، فيمكن لنا اتهامها بأنّها زودت الروم بمعلومات وافية حول هذه الغزوة.

وحتى لو انسحب الجيش الإسلامي بنحو غير مرض من المعركة، وخسر فيها المسلمين خسارة لا تُعوض، إلا أنّ حركة الرسول ﷺ العسكرية الإستراتيجية تلك ودعوته الناس إلى الإسلام نجحت نجاحاً باهراً. فقد ازداد إقبال الناس على الدخول في الدين الجديد، وأخذت جموع العرب تزحف إلى المدينة التي تحدّت الروم.

(١) قتابة، حسب الترجمة الحرفيّة، وقطبة حسب مقالة في المصادر التاريخيّة للدكتور سهيل زكار، أستاذ مادة التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق.

المفاهيم الرئيسية

- تطلع رسول الله ﷺ إلى الشمال حيث الإمبراطورية البيزنطية ومن معها من قبائل العرب. وكان ﷺ يهدف من ذلك إلى نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية، فأرسل مبعوثه إلى الحارت الغساني أحد حكام بلاد الشام من قبل ملك الروم، إلا أنه أمر بقتل رسول النبي ﷺ، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فغضب لمقتله، وندب الناس للخروج.
- أهداف الغزو: رغبة النبي ﷺ في الحصول على السيف المشرفة، وثانياً: توجيه تحذير للروم من تمديد وجودهم العسكري نحو بلاد الأردن وفلسطين، وثالثاً: تحقيق نتائج نفسية ومعنوية على صعيد توسيع الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة.
- أسرع المسلمين للاستجابة لنداء النبي ﷺ، فاجتمع ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل، وخرج النبي ﷺ في إثرهم وشيعهم، وندبهم للقتال والجهاد والثبات والصمود، وجعل عليهم جعفرأ، ثم زيداً، ثم عبد الله بن رواحة.
- وصلت الأخبار إلى شرحبيل ملك الغساسنة بتحرك المسلمين، فتحرّك لإيقاف زحفهم، فتفاجأ المسلمين بحجم قدرات العدو، إلا أنهم صمدوا وقرروا المواجهة بقيادة ابن رواحة، ثم تراجع الجيش الإسلامي من معان، ودنا من منطقة مشارف، ففوجئوا بقوات جيش هرقل، ثم انسحبوا إلى منطقة أخرى حتى وصلوا إلى مؤتة من قرى البلقاء، وكانت حال الطقس ردية للغاية؛ ما ساعد قوات العدو في إحكام الطوق على المسلمين، ثم وقع الاشتباك بين الطرفين، واستشهد القادة الثلاثة، فتسلّم خالد بن الوليد القيادة وقرر الرجوع الناس إلى المدينة.
- كان لمعركة مؤتة العديد من النتائج، منها: أنها مكنت المسلمين من الوصول إلى مؤتة دون أن تقف في وجههم القوة البيزنطية، وهذا يكشف عن فقد البيزنطيين السيطرة على تلك المنطقة، وقد ازداد إقبال الناس على الدين الإسلامي بعد ذلك.

الدرس الرابع والعشرون

قريث تذهب حركة الصراع مع النبي ﷺ (نقض صلح الحديبية)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أهداف قريش من الانقلاب على صلح الحديبية.
2. يشرح سياسة النبي ﷺ في مواجهة قريش.
3. يتعرّف إلى الخطوات التي قام بها المسلمون في التحضير لفتح مكة.

تمهيد

مضى عامان على صلح الحديبية، وقريش تكتفي بمراقبة حركة رسول الله المطردة والمتنامية، وبقي عليها أن تُقدم بنفسها على خطوة اتجاه رسول الله ﷺ، لتعيد لنفسها الهيبة والمكانة، وتثبت للعرب جميعاً أنها قادرة على تخطي جميع الاتفاقيات مع رسول الله ﷺ.

وتلك الخطوة من قريش كانت تجيز للنبي أن ينهي هذه الحالة ويوجه الضربة القاضية إليها. ويبدو أن النكسة الجزئية التي أصابت المسلمين في معركة مؤتة هيأت الفرصة لذلك. فقد فرحت قريش بنتائج معركة مؤتة، وحاولت توجيه ضربة أولية للMuslimين من خلال الاعتداء على حلفاء النبي ﷺ من قبيلة خزاعة، فيؤدي ذلك إلى نقض صلح الحديبية؛ أي حل الاتفاق بينها وبين رسول الله ﷺ، فيؤدي ذلك إلى إضعاف رسول الله ﷺ بفقده أحد حلفائه بجوار قريش، فتتمكن قريش من التفكير في محاولة توجيه ضربة ثانية له، إلا أن نقض الصلح ارتد سلباً على قريش، وأنهى وجودها.

قريش تنقض صلح الحديبية

حاول القرشيون نقض صلح الحديبية، والتخلص من التزاماتهم مع نبي الإسلام ﷺ؛ وقد تبلور هذا التوجه في:

1. الإعانة على الحلفاء (خزاعة):

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش، دخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ. وكانت خزاعة حليفة عبد المطلب بن هاشم، وكان رسول الله ﷺ بذلك عارفاً.

ولقد جاءته خزاعة يومئذ بكتاب عبد المطلب⁽¹⁾، وقبلَ رسول الله ﷺ بهذا الحلف؛ إذ كان يدعوا إلى نصرة الحقّ، ودفع الظلم⁽²⁾، ومن جهة أخرى، كان بنو بكر قد دخلوا في حلف مع قريش.

وفي الجاهلية، كانت خزاعة وبنو بكر في حالة من العداء والكراهة لوقوع الاقتتال في ما بينهم. ولما دخل شعبان على رأس اثنين وعشرين شهراً من صلح الحديبية، هجا أحد بنى كنانة من بنى بكر رسول الله ﷺ وهجاه يتغنى به، فسمعه غلام من خزاعة فأنذرها، فلم يرتدع، فضربه الخزاعي فشجه، وثار الشرّ بين الحسينين، مع ما كان بينهما من العداوة. فكلّم بنو بكر أشراف قريش أن يعيشوهم على خزاعة، وأنّ خزاعة تستحق العقوبة، لأنّها دخلت في عهدة محمدٍ، فكان حقد قريش على رسول الله ﷺ وعلى الإسلام كافياً لتحريض قريش على المشاركة. ولكنّ بعض رؤساء قريش، لم يرضوا بالهجوم على قبيلة خزاعة، وهكذا أعانت قريش بكرًا بالسلاح والكراع والرجال، ودُسوا ذلك سرّاً لئلا تحدّر خزاعة⁽³⁾، وتوصل الأخبار إلى رسول الله ﷺ، فينتقض بذلك الصلح.

2. التراجع والندم:

ندمت قريش على ما صنعت، وعرفوا أنّ هذا الذي صنعوه نقض للذمة والعقد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ. فكان عليهم أن يحاولوا إخفاء ما جرى عن رسول الله ﷺ أو التخلّص من المسؤولية، حتّى يستطيعوا الإبقاء على حالة الهدنة القائمة بينهم وبين المسلمين. وكان على رأسهم أبو سفيان، الذي قال: «والله، والله، ليغزونا محمدً إن

(1) الواقدي، المغازي، ج2، ص781، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص200، الحلبي، السيرة الحلبية، ج3، ص70.

(2) الشيخ الطوسي، الأموي، ص263، سنن ابن ماجة، ج2، ص895، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج6 ص292، عبد الرزاق الصناعي، المصنف، ج10، ص99، ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، تحقيق وتعليق وتخريج وتقديم: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، نشر المكتب الإسلامي، 1992م، ط2، ج4، ص26، الطحاوي، أحمد بن محمد، شرح معاني الآثار، تحقيق وتعليق: محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، 1996م، ط3، ج3، ص193.

(3) فتوح البلدان، ج1، ص41، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج8، ص87، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج1، ص215، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص260، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج23، ص453، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص205.

صدقني ظنّي، وهو صادقي، ولا بد من أن آتي محمداً فأكّلمه أن يزيد في الهدنة، ويجدد العهد».

ولكن رؤساء قريش الآخرين ممن لم يرضوا بهذا العمل، قدر أنهم سوف يفشلون في ذلك، وسوف يظهر نكثهم للعهد، وأنه إذا استمرت التحولات في هذا الاتّجاه، فإن معركة في الأفق تلوح مع المسلمين، سوف تخسرها قريش بالتأكيد؛ لأنّها لم تهيّء لها ما يمنحها أملاً بالنصر⁽¹⁾.

3. قريش تطلب تجديد العهد:

انتبهت قريش إلى سوء فعلتها وتملّكتها الخوف من المسلمين، فاجتمع رأيهم على إيفاد أبي سفيان إلى المدينة ليجدد الصلح، ويطلب تمديد المدة من النبي ﷺ في محاولة لإعادة الحياة إلى هذا الصلح. فخرج أبو سفيان إلى المدينة، والتقي ببديل بن ورقاء وصحابه في عسفان، وحاول معرفة سبب خروجهم، وهل أنّهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ؟ إلا أنّه لم يفلح بذلك.

ثمَّ تابع أبو سفيان سيره حتّى دخل المدينة، فأتى إلى رسول الله ﷺ في المسجد، وطلب منه أن يجدد العهد، ويزيد في المدة، فقال: «يا محمد، إني كنت غائباً في صلح الحديبية، فاشدّد العهد، وزدنا في المدة». فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك جئت يا أبي سفيان؟»، قال: «نعم». ولكن النبي ﷺ لم يصح إلى طلب أبي سفيان وسأله: «هل كان من قبلكم من أحدث؟»، قال: «معدّ الله». فقال رسول الله ﷺ: «فنحن على مذتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغيّر ولا نبدل»⁽²⁾.

وكان هذا المبرّ الذي ساقه لطلبه هذا هو أنّه لم يكن حاضراً في صلح الحديبية، مع أنّ غيبته عن الحديبية لا توجب أيّ وهن أو ضعف في العهد، وإنّما يحتاج العهد

(1) الواقدي، المغازي، ج2، 782، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص134، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص554.

(2) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج10، ص555، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص101، الواقدي، المغازي، ج2، ص792، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج17، ص262، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج1، ص217، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج69، ص150، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص321، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص532.

إلى التقوية والتجديد فيما لو تعرّض للنقض، وهذا ما ينكره أبو سفيان. لذلك سأله رسول الله ﷺ إن كان قد حدث في مكة ما يوجب وهن العهد، أو نقضه، فأنكر أبو سفيان أن يكون قد حصل شيء من ذلك، فأسقط رسول الله ﷺ حجّته، ووضعه أمام خيارين كلّ منهما صعب: أحدهما: أن يعترف بما جرى لخزاعة، فيتحمل جميع تبعات ما جرى. والثاني: أن لا يعترف بما جرى لخزاعة، فيظهر جاهلاً بما يجري من أحداث.

4. خيبة قريش:

بعد عقد اللقاء مع رسول الله ﷺ، رجع أبو سفيان بالخيبة إلى قريش، بعد أن واجه ما لم يكن له بالحسبان، ولم يستطع الحصول على تمديد لصلاح الحديبية، إذ انقلبت الموازين، وحصل التفوّق التام للمسلمين، ووفى صلح الحديبية بالذى من أجله قام، وانتهى دوره، وها هي قريش وحدها، وهذا رسول الله قد أصبح جاهزاً لشنّ الهجوم الأخير على معقل الشرك في مكة، يطلبها فاتحاً في عملية إتمام انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، مكتفىًّا فقط بمظهر القوّة والعزة بعده تتزايد وإيمان يتربّض، وبلا سفك دماء يذكر في مثل هذه القضايا التاريخية، بينما قريش تطلب الأمان والسلامة في دمائها وأموالها، بعد أن سُنحت الفرصة بنقض الصلح.

وبعد عودة أبي سفيان إلى مكة، حيث كانت قد طالت غيبته، اتهمته قريش في دينه، وقالوا: «والله، إنا نراه قد صبا، واتّبع محمداً سراً، وكتم إسلامه». فلما دخل على هند امرأته ليلاً، قالت: «لقد احتبس حتى اتهمك قومك، فإن كنت مع الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل». ثمْ دنا منها، فقالت: «ما صنعت؟»، فأخبرها الخبر، فقالت: «قُبّحت من رسول قوم، فما جئت بخير»⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المخازى، ج 2، ص 795، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 264، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 857، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 327، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 133، ابن حبان، الثقات، ج 2، ص 40، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 320، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 531، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 184، ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 1، ص 1147، الشيخ الطبرسى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 10، ص 555، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 178، الشيخ الطبرسى، إعلام الورى، ج 1، ص 218، ابن خلدون، العبر وديوان المبدأ والخبر، ج 2، ص 42، للتوضّع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 21، ص 11.

خزاعة تستنصر رسول الله ﷺ

بعد الاعتداء على خزاعة، أرسلت بديلاً بن ورقاء سراً إلى رسول الله ﷺ ليخبره بما جرى عليها. ثم جاءت وفود خزاعة في أربعين راكباً، يستنصرون رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم، وما ظهرت عليهم قريش، ومعاونتها لبني بكر. فلما فرغوا من قصتهم دمعت عينا رسول الله ﴿١﴾، وقال: «لا نصرني الله تعالى إن لم أنصربني كعب مما أنصر منه نفسي، والذي نفسي بيده، لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي، وأهلي، وبיתי»^(٢).

ثم حَقَّ رسول الله ﷺ في حجم الجريمة وأشخاص مرتكبيها، وسألهم عن الذين يتهمونهم بما جرى. فنفوا أن يكون كل بني بكر قد شاركوا، وحصروا الجريمة في بطنه من بطونهم، وحدّدوا له رأس القوم المجرمين، ثم أمر النبي ﷺ وفود خزاعة بالعودة إلى ديارهم^(٣).

خطة تحرك النبي ﷺ لفتح مكة

١. رسول الله ﷺ يخبر قريشاً

بعث رسول الله ﷺ إلى قريش رسولاً يعلّمهم ببوار مكرهم، وافتضاح أمرهم، فوصل الرسول إلى مكة، وأناخ راحلته بباب المسجد، وأخبرهم برسالة رسول الله ﷺ إليهم، وهي أنه يخربهم بين إحدى ثلاث خلال: أن يدفعوا دية قتل خزاعة، أو يتخلّوا عن الحلف مع أولئك المعتدين، أو ينبذ إليهم على سواء. فاختلت قريش في رأيها، حتى استقرّ على الجحد بما حصل^(٤).

(١) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 182، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 527، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 43، ص 520، البيهقي، السنن الكبرى ج 9، ص 234، ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج 4، ص 105.

(٢) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 134، الهيثمي، مجمع الزوائد، ص 161، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 258، المصنف للصنعاني، ج 5، ص 374.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 855، ابن حبان، الثقات ج 2، ص 38، الطبرى، تاريخ الأدم والملوك، ج 2، ص 325، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 319، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 183، الشيخ الطبرسى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 10، ص 555، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 206، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 8، ص 64، الطبرى، جامع البيان، ج 2، ص 84، وابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 1، ص 1147.

(٤) الواقدي، المغازى، ج 2، ص 787، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 261.

2. الاستعداد والتجهيز لفتح مكة:

أ. التجهيز العسكري:

لَمَّا رجع مبعوث النبي ﷺ إليه بذلك من قولهم، أمر فورًا بالتجهيز لفتح مكة، ومن دون أن ينتظر العذر من قريش، فقد انتهى الأمر وأن الأولان لحصاد صلح الحديبية. ولم يبادر النبي ﷺ إلى دعوة الناس للتجهيز للمسير بمجرد عودة أبي سفيان، بل هو قد أهمل هذا الأمر مدة تكفي إلى غياب ما جرى لأبي سفيان عن ذاكرة المسلمين في المدينة، ثم أمر الناس بالتجهيز، وبشحذ السلاح وجمعه⁽¹⁾.

ب. المحافظة على سرية الخروج:

أخفى رسول الله ﷺ عن أصحابه الوجه الذي يريد، وذلك حتى يفوّت الفرصة على المنافقين، فلا يتمكّنون من إنذار قريش في وقت مبكر لكي تأخذ حذرها وتستعد للقتال. ولم يخطر ببال واحد منهم أنه يقصد مكة، فكيف يغزوهم وبينه وبينهم مدة وعهد؟!

ثم أمر رسول الله ﷺ مجموعات من الحرس أن تقيم بالمسالك في الجبال والأودية بصورة دائمة، ووضع الحرس والعيون على المدينة يراقبون كلّ خارج منها وداخل إليها، ويفتّشون من يمرّ ليلاً ونهاراً. كانت أوامره لهذه القوات أن لا تضايق أحداً من سالكي تلك الطرق، ولا تعترض إلا من سلك إلى مكة، وإنما يُاحتجز بمقدار ما يُتأكد من أمره، فيسأل عنه، ويراجع النبي ﷺ في أمره.

ومن أجل تضليل عيون قريش في المدينة وصرف أنظارهم عن أنه يهدف إلى السير إلى مكة، بعث النبي ﷺ قوة عسكرية إلى بطن إضم، شماليّ المدينة، ليعلن أنه توجّه إلى تلك الناحية⁽²⁾.

(1) الواقدي، المخازن، ج 2، ص 796، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 265، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 534، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 322.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 133، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 67، ص 149، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 177.

ج. دعوة الناس إلى الخروج:

كتب رسول الله ﷺ إلى جميع الناس في أقطار الحجاز، ودعا رئيس كلّ قوم، فأمره أن يأتي قومه، فيستنفرهم، وأرسل إلى أهل البادية، ومن حولهم من المسلمين، يقول لهم: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة». فوافته الوفود والقبائل من كلّ جهة⁽¹⁾، من دون أن يبيّن لهم سبب هذا الطلب، فكانت الوفود تأتي ولكنّها لا تعرف وجهة المسير، وحتّى بعد أن ظهر أنّ القصد هو التجمّع للحرب، فإنّ الأمر بقي غامضاً ومجهولاً لهم، إلى أن سار بهم مسافات طويلة.

د. الدعاء والمدد الإلهي:

بعد أن استنفذ النبي ﷺ كلّ الوسائل العادية وغير العاديه، استعان بالقدرة الإلهية على ضبط ومراقبة ما لا تستطيع القدرات الإنسانية ضبطه ومراقبته، فدعا الله عزّ وجلّ قائلاً: «اللهم خذ العيون والأخبار على قريش، حتّى نبعثها في بلادها». فلم يتأنّر المدد الإلهي للمسيرة النبوية، فأخبر النبي ﷺ بأنّ خائنًا، وهو حاطب بن أبي بلتقة، الذي كان قد أسلم وهاجر إلى المدينة تاركاً أهله في مكة، قد أرسل رسالة إلى قريش، ردّاً على رسالة وصلته من أهله يسألونه عن خبر محمد، وكان ذلك بتحريض من قريش التي صارت إلى عيال حاطب وسؤالهم أن يكتبوا إليه يسألونه عن خبر محمد وهل يريد أن يغزو مكة؟

هـ. الحصانة الداخلية والمدد الإلهي:

وعلى الرغم من كامل السرية التي اتّخذها النبي ﷺ، إلا أنّ حاطباً قد حصل على معلومة تفيد بأنّ رسول الله ﷺ سائر إلى مكة، فأرسل إلى قريش رسالة تشي بالحركة العسكرية لرسول الله ﷺ وال المسلمين، وفكّر حاطب في إيصال الخبر كثيراً؛ لأنّه خاف من تفشي الأسرار، وافتضاح أمره، فحمد إلى امرأة قينة مغنية أغراها بالمال، فخرجت

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 218، الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 249، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 359.

بالرسالة، تسلك طريقاً بعيداً عن عيون الحرّاس، توهّمهم الحشمة والحياء، وتتستر بهذه المظاهر؛ لتخفي حقيقة مهمتها على الله وعلى الرسول. فتركّت الطريق وسارت في القفار والفجاج مقداراً طويلاً، ثم عادت لتسلك الطريق في منطقة «العقيق»^(١).

ولم يكن في حسبان حاطب أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الحامي لهذه المسيرة الإلهيَّة الربانية، وأنَّ الله سبحانه وتعالى يصدق وعده، فمن ينصر الله، فإنَّ الله ينصره، ولو في أدق التفاصيل، وهنا تتحقّق النصر الإلهيُّ للمسيرة الإلهيَّة. فما إن غادرت المرأة المدينة حتّى نزل الوحي يخبر النبي ﷺ بالكتاب، وأين موضعه^(٢)، وما فعل حاطب، فدھش النبي ﷺ بهذه المفاجأة، وهذه الخيانة من أحد أصحاب بدر.

بعد علم رسول الله ﷺ بأمر الخيانة، طلب الإمام عليًّا عليه السلام^(٣)، وقال له: «إنَّ بعض أصحابي قد كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، وقد كنت سألت الله أن يعمي أخبارنا عليهم، والكتاب مع امرأة سوداء قد أخذت على غير الطريق، فخذ سيفك والحقها، فخذلوا الكتاب منها وصر به إلى، وخلوا سبيلها»^(٤).

ثم طلب الزبير بن العوام، وقال له: «امض مع ابن عمّك، عليًّا بن أبي طالب، في هذا الوجه وأعنِه على تخفيف مأربه». خرج عليًّا ومعه الزبير، وأخذَا على غير الطريق، فأدركَا المرأة، فسبق إليها الزبير، وتقدَّم منها، وسألَها عن الكتاب الذي معها فأنكرت عليه التعرُّض لها، والسؤال عما لا يعنيه.

فجعل إنكار المرأة الزبير يتردّد أولاً، ثم يعود إلى عليٍّ يُقنعه بأنه ليس معها شيء.

(١) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج. 2، ص. 242، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج. 10، ص. 555، الواقدي، المغازي، ج. 2، ص. 799، ابن هشام، السيرة النبوية، ج. 4، ص. 858، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج. 2، ص. 361، الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج. 2، ص. 327، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج. 7، ص. 400، ابن حبان، الثقات، ج. 4، ص. 41، ابن كثير، البداية والنهاية، ج. 4، ص. 323.

(٢) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج. 2، ص. 361، الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج. 2، ص. 328، ابن كثير، السيرة النبوية، ج. 3، ص. 536.

(٣) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج. 2، ص. 361، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج. 17، ص. 266، الطبرى، جامع البيان، ج. 28، ص. 76، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج. 4، ص. 370، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج. 2، ص. 184.

(٤) فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص. 183، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج. 18، ص. 51، الشافعى، محمد بن طلحة، مطالب المسؤول في مناقب آل الرسول، تحقيق: ماجد بن أحمد العطية، ل.ت، ل.ط، ص. 197.

بعدما بكت المرأة لهذا التعرض والإهانة، ولم يلتفت الزبير إلى لازم قوله هذا الذي يعني تكذيب الوحي، وتکذیب الرسول ﷺ. فقال له عليٰ عليه السلام : «يخبرني رسول الله ﷺ أن معها كتاباً، ويأمرني بأخذه منها، وتقول أنت: إنه لا كتاب معها؟!!».

ولم يلبث عليٰ عليه السلام أن اخترط السيف، وتقدم من المرأة قائلاً لها: «أما والله، لتخرجن الكتاب... ثم لأضربن عنك بسيفي هذا». حاولت المرأة أن تراوغ كما راوغت مع الزبير، ولكنها رأت عناداً وإصراراً، مما جعلها تتتأكد أن عليًّا عليه السلام قاطع بوجود الكتاب الذي تحمله، وأنها إن لم ترضخ للطلب سوف تناول عقابها، وقد يكون الموت. فقالت: «إذا كان لا بد من ذلك، فأعرض يا ابن أبي طالب بوجهك عني». فكشفت قناعها، وأخرجت الكتاب، ثم دفعته إلى الإمام عليٰ عليه السلام ، فأخذ الكتاب وعاد به إلى رسول الله ﷺ وسلمه إياه⁽¹⁾.

رحمة النبي ﷺ وعفوه

عندما أخذ الرسول ﷺ الكتاب، قرر أن يجمع المسلمين في المسجد ليحذر من مسألة الخيانة، ويعكّد ضرورة كبت العواطف مرضاه لله. فأمر أن ينادي: «الصلة جامعة»، فنودي في الناس، فاجتمعوا في المسجد حتى امتلأ بهم. ثم صعد النبي إلى المنبر، فقال: «كنت سألت الله عز وجل أن يخفي أخبارنا عن قريش، وإن رجلاً منكم كتب إلى أهل مكة يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب وإلا فضحه الوحي». فقام حاطب بن أبي بلتعة، وقام عمر بن الخطاب، وقال: «يا رسول الله مرنبي بقتله، فإنه منافق». فقال رسول الله ﷺ: «إنه من أهل بدر، ولعل الله تعالى أطلع عليهم، فقال لهم: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»⁽²⁾.

(1) النووي، يحيى بن شرف، شرح المهدب، دار الفكر، ل.ا.ت، ل.ا.ط، ج 7، ص 38، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 21، ص 187.

(2) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 266، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 9، ص 269، أبو يعلى الموصلى، أحمد بن علي مسنون أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، ل.ا.ت، ل.ا.ط، ج 1، ص 318، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 537.

المفاهيم الرئيسية

- بعد عقد صلح الحديبية، جددت قبيلة خزاعة حلفها القديم، مع عبد المطلب مع حفيده رسول الله ﷺ. ومن جهة أخرى دخلت قبيلة بنى بكر في حلف مع قريش، وكان في الجاهلية عداء قد حصل بين خزاعة وبنى بكر. وبعد عقد صلح الحديبية هجا رجل من بنى بكر رسول الله ﷺ؛ فأذن له قريش فلم يرتدع، فوقع الخلاف بين الطرفين وامتد إلى القبيلتين، فقامت قريش بنصرة حليفتها قبيلة بنى بكر، وبذلك نقضت قريش الصلح مع رسول الله ﷺ، فأرسلت خزاعة إلى النبي ﷺ رسولاً يعلمه بما جرى، فتأثر رسول الله ﷺ بذلك كثيراً، وأكد له وفاءه بالحلف.

- أدركت قريش سوء ما قامت به؛ لذا، حاولت إخفاء عملها، فأرسلت أبا سفيان موفداً من قبلها إلى النبي ﷺ لكي يطلب منه تمديد الصلح، مخفياً على رسول الله ﷺ ما فعلته قريش، فأكد له رسول الله ﷺ أنه باق على العهد ما لم يحصل خلاف الاتفاق بين الطرفين، فرجع أبو سفيان خائباً وأيقن أن رسول الله ﷺ على علم بما جرى.

- أعد رسول الله ﷺ خطة متكاملة لفتح مكة، تتلخص بالآتي:

- أ. بعث رسول الله ﷺ إلى قريش من يعلمهم ببوار مكرهم وافتضاح أمرهم.
- ب. الاستعداد والتجهيز العسكري لفتح مكة: عمد رسول الله ﷺ في ذلك إلى الآتي:
 1. التجهيز العسكري.
 2. المحافظة على سرية الخروج.
 3. كتب رسول الله ﷺ إلى جميع الناس في أقطار الحجاز للخروج معه.
 4. الدعاء والمدد الإلهيّان: استعان رسول الله ﷺ بالقدرة الإلهية لإخفاء الأمر عن قريش، فجاءه الوحي الإلهيّ بأنّ خبر خروجه قد سُرِّب عبر حاطب بن أبي بلحة الذي بعث برسالة إلى أهله في قريش بما يُحضر له النبي ﷺ، وأرسل الكتاب مع امرأة، فأرسل رسول الله ﷺ الإمام علياً عليه السلام خلفها، فأوقفها في طريقها إلى مكة، وأخذ منها الكتاب، وأعاده إلى النبي ﷺ، فعفا النبي ﷺ عن حاطب.

الدرس الخامس والعشرون

الفتح المبين

(فتح مكة)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يتعرّف إلى معالم سياسة النبي ﷺ في فتح مكة.
2. يعرف الخطوات والإجراءات التي اعتمدتها المسلمين في فتح مكة.
3. يشرح نتائج فتح مكة.

تمهيد

بعد أن أنهى رسول الله ﷺ كل التحضيرات لفتح مكة، كان لا بد من وضع خطة محكمة ومتكلمة، تحتوي على جميع عناصر النجاح والتوفيق؛ لأن فتح مكة يعتبر آخر ما يمكن للنبي ﷺ أن يقوم به في وجه قريش، وأن تلك فرصة لا يمكن تعويضها، فإن كل الأسباب صارت مؤاتية لإنهاء وجود الشرك والوثنية في مكة المكرمة، وببلاد الحجاز.

السياسة النبوية في فتح مكة

1. كان المعلم الأساس في خطة عمل رسول الله ﷺ أن يفتح مكة بسرعة وبأقل ما يمكن من إراقة الدماء، خصوصاً أن مكة محرمة على القتل والقتال وسفك الدماء. وبما أنه كان حريصاً أيضاً على أن لا يفر أحد من المشركين، لذلك فقد أعلن شعارات تفكّك عرى معسكر الشرك، وتجعله يكسب الحرب من دون سفك دماء، ولذا كان شعاره الأمن لكل الناس في حال التزامهم بتعاليمه ﷺ.

2. كانت سياسة رسول الله ﷺ في كثير من حروبها مع أعداء الدين هي اعتماد عنصر المباغة، وقد توفر هذا العنصر في فتح مكة أيضاً في اختيار شهر رمضان المبارك؛ لأن شهر رمضان لا تقع فيه أعمال عسكرية في العادة بسبب إخلاق الناس للراحة في هذا الشهر، وعكوفهم على العبادة، وعزوفهم عن الأسفار. ثم إن لشهر رمضان أثره الإيجابي في نفوس أهل الإيمان، من حيث إنه يهيئهم للعيش في كنف الله، والشعور بحضوره، ويؤكد علاقتهم به تبارك وتعالى. فكيف إذا انضم إلى ذلك أن حركتهم هذه إنما هي باتجاه بيت الله، وحرمه؟ ويقودهم أفضل الأنبياء؟!

3. كانت خطة النبي ﷺ هي أخذ مكة من دون حرب، وذلك بإقناع المشركين بعدم جدوى القتال. ولذلك أراد من أقطاب قريش الذين ألقى القبض عليهم - كما سيأتي - أن يأتوا إليه، ويعلنوا استسلامهم واعتناقهم الإسلام، كمقدمة لانهيار المقاومة القرشية.
4. كانت خطة العسكرية أن يدخل إلى مكة من جميع مداخلها وتطويقها تطويقاً تاماً، فتتفاجأ قريش بشدة الحصار وقوته وسعته، وترضخ للأمر الواقع، وتفضل الاستسلام على القتال والمواجهة التي كانت تدرك نتيجتها المحتملة مع المسلمين، فهي قد جربت شجاعتهم وقوتهم، وصبرهم.

أحداث فتح مكة

1. الخروج إلى مكة:

كان خروج رسول الله ﷺ إلى مكة في شهر رمضان لليلتين خلتا منه⁽¹⁾، أو عشرة خلون من شهر رمضان، يوم الأربعاء، في عشرة آلاف من المسلمين⁽²⁾. ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل من الظهران عشاً، وعميت الأخبار عن قريش، فلم يبلغهم عن مسير رسول الله ﷺ شيء، ولا يدركون ما هو فاعل، وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم⁽³⁾.

2. قريش تتحسس الأخبار:

خرج العباس بن عبد المطلب، عم النبي، وأبو سفيان بن حرب وغيرهما يتحسسون الأخبار، ولم يكونوا يعلمون بقدوم رسول الله ﷺ إلى مكة؛ لأن الجيش الإسلامي القادم

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 8، ص 2، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 218، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 327، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 541 و 542، خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، ص 52.

(2) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 801، 815، 822، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 139، المسعودي، التنبية والإشراف، ص 231، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3، ص 787، ج 4، ص 859، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 328، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 324، ص 539.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 315، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 859، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 328.

نفسه لم يكن يعلم بحقيقة مقصد رسول الله ﷺ، فأبعدوا عن مكة، وواجهوا الجيش العظيم القادم، وكان رسول الله قد أمر المسلمين أن ينتشروا في الصحراء، ويوقن كلّ منهم ناراً، فأضاء الليل عن جيش عظيم تضيع أمامه كلّ قوى قريش، فلما بلغ أقطاب المشركين، والنيران كأنها نيران عرفة، وسمعوا صهيل الخيل، ورغاء الإبل، أفزعهم ذلك فزعاً شديداً⁽¹⁾.

علم رسول الله بهم، فأمر رجالاً، كان بعثهم عيوناً له، بإلقاء القبض عليهم، وأنهم إذا لقوا أبي سفيان فلا يقتلوه، فداهموهم حيث هم، وهم لا يشعرون، وأخذوهم⁽²⁾.

3. تفتيت جبهة قريش:

أتى العباس، وطلب أبو سفيان منه أن يتولّ حمايته، وإصاله إلى رسول الله ﷺ ليأمن على نفسه، فحمله على البغلة التي أذن له النبي ﷺ بركرتها لعلمه بالحاجة إليها، خصوصاً في هذا المورد، وجاء بهم إلى رسول الله ﷺ.

دخل أبو سفيان ومن معه على رسول الله، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا⁽³⁾، إلا أنّ أبي سفيان رفض النطق بالشهادتين، وحاول التسويف في الإقرار بهما، ربما لأنّه كان يأمل بتجاوز هذه المرحلة، وهو يريد أن يحتفظ لنفسه بزعامة معسكر الشرك.

وفي اليوم التالي، وبعد أن فرغ رسول الله ﷺ من صلاة الصبح، جاء به العباس، فعاد النبي ﷺ ليكرر ذلك الطلب عليه، ويعود أبو سفيان إلى المراوغة مرةً بعد أخرى، حتى أقرَّ بأصل التوحيد، وبقي عليه أن يعلن إسلامه الظاهري بالكامل. حاول رسول الله ﷺ أن ينتزع ذلك من أبي سفيان من أجل إكمال عملية فتح مكة من دون خسائر بشريةٍ وسفك

(1) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 2، ص 42، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 242، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 213، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 220، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 23، ص 448، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 333، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 553، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 8، ص 5، العيني، عمدة القاري، ج 17، ص 275.

(2) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 5، ص 172، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 814، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 135، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 859، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 328، ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج 17، ص 268 الطحاوى، شرح معانى الآثار، ج 3، ص 314، ابن أبي شيبة، المصنف، ج 8، ص 532.

(3) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 10، ص 556، العلامة المجلسى، بحار الأنوار، ج 21، ص 104.

دماء، وإنما يتم ذلك باعترافه ولو ظاهريًّا بنبوة رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ صارمًا حاسماً: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يئن لك أن تعلم أني رسول الله؟». فطلب من النبي ﷺ أن يرجئ طلب الإقرار بالشهادة له بالنبوة، قائلاً: «أما هذه فوالله إن في النفس منها شيئاً حتى الآن». فوكزه العباس وقال: «ويحك! أسلم قبل أن تضرب عنقك»، فقال مرغماً ليحقن بذلك دمه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله»⁽¹⁾.

4. إعطاء الأمان للناس:

تنفيذاً لخطبة النبي ﷺ بفتح مكة بسرعة ومن دون إراقة الدماء، أعلن رسول الله ﷺ شعاره بإعطاء الأمن للناس. فقد عقد لأبي رويحة لواءً، وأمره أن ينادي: «من دخل تحت لواء أبي رويحة فهو آمن، ومن قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وشهد أنَّ محمداً رسول الله، وكف يده فهو آمن، ومن جلس عند الكعبة ووضع سلاحه فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»⁽²⁾.

وبذلك يكون قد قضى على عنصر القوّة والاتحاد في قريش، أو محاولة أي تحرك عسكريٍّ فلا تستطيع قريش الاتحاد وتجميعها قوّاتها؛ بحيث إنَّ دار أبي سفيان بأعلى مكة، ودار حكيم بن حزام بأسفلها، مما يثبت أنَّ علة هذا الشعار هي تفتت جبهة قريش، وليس مكرمة لأحد من المشركين.

5. استعراض القوّة الإسلامية:

استكمالاً للضغط النفسي على قريش كي تستسلم دون إراقة دماء، أمر النبي ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادي إلى رأس العقبة، حتى تمر عليه جنود الله،

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 221، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 4، ص 351.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 3، ص 329، أحمد بن حنبل، مسنون أحمد، ج 2، ص 292، و 538، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج 5، ص 171-173، السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق وتعليق: سعيد محمد اللحام، دار الفكر، 1990م، ط 1، ج 2، ص 38، البيهقي، السنن الكبرى، ج 6، ص 34، وج 9، ص 117، الهيثمي، مجمع الزوائد، الهيثمي، ج 6، ص 167 و 170.

فيرونه، لتقوى بذلك عزائمهم في أن رأس الشرك قد أسلم، وأن المعركة في طريقها إلى الجسم سلمياً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يرى أبو سفيان أيضاً جنود الله، فيدخله الذل والهوان، ويستيقن العزيمة، لكي يسرع إلى قريش طالباً الاستسلام والرضوخ لحكم

النبي ﷺ.

وفي تلك الخطوة من النبي ﷺ، رأى أبو سفيان كيف أن مختلف قبائل العرب التي علق في حرب الأحزاب آماله على نصرها، تنضوي تحت لواء الإسلام، وتأتي لفتح مكة التي يعتبرها أبو سفيان آخر ما يمكن أن يفك أحد بجمع الجيوش لدخولها. ولذلك كان كلما مرّت به قبيلة، يعرب عن حيرته في دوافعها لمحاربته، وكيفية دخولها إلى مكة⁽¹⁾. وفي نهاية العرض العسكري، وهو مصر على عدم الاعتراف للنبي ﷺ بالنبوة حقيقة وواقعاً، وعلى النظر إلى هذه الجموع على أنها مظهر من مظاهر السلطان والملك، يستنتاج أبو سفيان قائلاً للعباس: «ما أعظم ملك ابن أخيك»، فقال العباس: «يا أبو سفيان هي النبوة». قال: «نعم»⁽²⁾.

وبعد أن غادر أبو سفيان موقعه ذهب إلى مكة، بعدما عاين جنود الله تعالى تمر عليه، طالباً من أهله الرضوخ لحكم الإسلام، وتسليم الأمر إلى رسول الله ﷺ.

6. حماية الناس في مكة:

واصل المسلمون سيرهم، حتى انتهوا إلى ذي طوى، ووقفوا ينتظرون رسول الله ﷺ حتى تلاحق الناس، واكتملت جموع الفاتحين. أصدر رسول الله ﷺ أوامره الحكيمية بتوزيع مداخل القوات إلى مكة مؤكداً عدم اللجوء إلى القتال إلا رداً عليه، إلا أنه ﷺ أهدر دماء عدد من المشركين ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة؛ لعظيم جنائتهم ومعاداتهم للإسلام وللنبي ﷺ.

(1) الواقدي، المغازي، مصدر سابق، ج 2، ص 821.

(2) المصدر نفسه، ص 118.

الدخول إلى مكة

في شهر رمضان المبارك، يوم الجمعة، دخل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى مكة من جهاتها الأربع. وكان دخول النبي ﷺ من كداء، من أعلى مكة. وأما بقية الفرق العسكرية فدخلت مكة من محاور مختلفة، ودخلها رسول الله ﷺ فاتحاً، منتصراً، ودخل المسلمون معه، وهم يهتفون بصوت عالٍ: **﴿جَاءَ الْحُقُّ وَرَهْقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾**⁽¹⁾، فارتजّت مكة من هدير هذه الآية المباركة ومن هتافات المسلمين⁽²⁾.

أقبل خاتم النبيين ﷺ وقد طأطأ رأسه تواضعًا لله تعالى، وشكراً له على ما منحه من الفضل والنعمـة، إذ دانت له أم القرى بعد طول جهد في سبيل إعلاء كلمة الله. وما إن لاحت بيوتات مكة حتى اغـرورقت عينا النبي ﷺ بالدموع⁽³⁾.

النبي يدخل المسجد الحرام

دخل رسول الله ﷺ مكة بغـير إحرام⁽⁴⁾، وعليه السلاح، وبعد استراحة قصيرة، مكث في منزله ساعة من النهار حتى اطمأن الناس، فاغتسل، وعاد للبس السلاح ثم خرج وقد حفـّ الناس به، فركب راحلته، وكـبر، فكبـر المسلمين، ودوـي الصوت في الجبال والوهـاد، فلـما انتهى إلى الكعبة، تقدـم على راحلته، واستلم الركن بمـحـجـنه، وكـبر، فكبـر المسلمين بتـكـبـيرـه، ورجـعوا التـكـبـيرـ، حتـى ارتـجـتـ مـكـةـ تـكـبـيرـاً، فجعل رسول الله ﷺ يـشيرـ إلىـهـ أـنـ اـسـكـتوـاـ، وـالـمـشـرـكـوـنـ فـوـقـ الجـبـالـ يـنـظـرـوـنـ.

طاف رسول الله ﷺ بالبيت، ثم انصرف إلى زمزم، فشرب منه وتوضـأـ، والمـسـلـمـونـ

(1) سورة الإسراء، الآية 81.

(2) العـلامـةـ المـجـلـسـيـ، بـحـارـ الأـنـوارـ، مـصـدـرـ سـابـقـ، جـ 21ـ، صـ 114ـ.

(3) الشـيخـ الطـوـسيـ، الـاسـتـبـصـارـ، جـ 2ـ، صـ 102ـ، الشـيخـ الطـوـسيـ، تـهـذـيبـ الـأـحـكـامـ، جـ 4ـ، صـ 126ـ، اـبـنـ سـعـدـ، الـطـبـقـاتـ، الـكـبـرـ، جـ 2ـ، صـ 134ـ وـ 137ـ، الـبـلـاذـرـيـ، فـتـوحـ الـبـلـادـ، جـ 1ـ، صـ 46ـ، خـلـيـفـةـ بـنـ خـيـاطـ، تـارـيـخـ خـلـيـفـةـ بـنـ خـيـاطـ، صـ 52ـ، الشـيخـ الطـبـرـيـ، مـجـمـعـ الـبـيـانـ فـيـ تـفـسـيـرـ الـقـرـآنـ، جـ 10ـ، صـ 557ـ، الصـالـحـيـ الشـامـيـ، سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـاشـادـ، جـ 5ـ، صـ 227ـ، الـوـاقـدـيـ، الـمـغـازـيـ، جـ 2ـ، صـ 825ـ، الصـالـحـيـ الشـامـيـ، سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـاشـادـ، جـ 5ـ، صـ 227ـ.

(4) دـخـولـ مـكـةـ بـغـيرـ إـحرـامـ، مـنـ مـخـصـصـاتـ النـبـيـ مـحـمـدـ، ذـكـرـهـ الـعـلـامـةـ الـحـلـيـ فـيـ تـذـكـرـةـ الـفـقـهـاءـ، جـ 2ـ، صـ 567ـ، وـالـمـحـقـقـ الـكـرـكيـ فـيـ جـامـعـ الـمـقـاصـدـ، جـ 12ـ، صـ 85ـ، وـالـشـيخـ الـجـواـهـريـ فـيـ جـواـهـرـ الـكـلـامـ، جـ 29ـ، صـ 128ـ، وـغـيـرـهـ.

ييتدرؤن وضوءه، يصبوونه على وجوههم، فلا تسقط قطرة إلا في يد إنسان، إن كان قدر أن يشربها شربها، وإن مسح بها جلده، والمشركون ينظرون إليهم، ويقولون: «ما رأينا ملگاً قط أبلغ من هذا، ولا سمعنا به»⁽¹⁾.

نتائج فتح مكة

1. إنهاء الشرك فيها:

كان حول الكعبة ثلاثة وستون صنماً، فقال رسول الله لعلي بن أبي طالب: «يا علي، اصعد على منكبي، واهدم الصنم». فصعد على منكبي النبي صلوات الله عليه وسلم، ثم صعد صلوات الله عليه وسلم إلى سطح الكعبة، فقال له رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «ألق صنهم الأكبر». ثم ألقى على صلوات الله عليه وسلم بقية الأصنام.

ولم يكن رجل من قريش إلا وفي بيته صنم، فنادى منادي رسول الله صلوات الله عليه وسلم في مكة: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدعن في بيته صنماً إلا كسره أو حرقه»، فجعل المسلمون يكسرن تلك الأصنام⁽²⁾.

2. البيعة العامة لخاتم النبيين يوم فتح مكة:

بعد أن أنهى رسول الله صلوات الله عليه وسلم فتح مكة، كان لا بد منأخذ البيعة من الناس كافة، تأكيداً على التزامهم بالإسلام وقوانينه، وبطاعة النبي صلوات الله عليه وسلم، فقام رسول الله صلوات الله عليه وسلم على الصفا، واجتمع الناس في مكة للبيعة. فبايعه الناس على الإسلام، كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، فبايعهم على الإيمان بالله تعالى، وشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله⁽³⁾.

(1) الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، ج، 3، ص244، الواقدي، المغازي، ج، 2، ص832، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج، 5، ص235، للتوضع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملی، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج، 21، ص254، ج 22 بأكمله.

(2) القندوزي، ينابيع المودة، ص139، الواقدي، المغازي، ج، 2، ص870 و871 ، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج، 2، ص99، الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج، 3، ص103.

(3) أحمد بن حنبل، مسنـدـ أـحـمـدـ، جـ 3ـ، صـ 415ـ، الـحلـبـيـ، السـيـرـةـ الـحلـبـيـةـ، جـ 3ـ، صـ 94ـ، الصـالـحـيـ الشـامـيـ، سـبـلـ الـهـدـىـ وـالـرـشـادـ، جـ 5ـ، صـ 247ـ.

3. انتشار الإسلام:

كان فتح مكة نقطة تحول في تاريخ الإسلام، وفي الأوضاع العامة في الجزيرة العربية بأسرها. فتوسّع التنافس والتسابق على الإقبال على دين الإسلام؛ لأنّ العرب، وخصوصاً قريش، رأوا فيه القوّة والعزة، وأنّ فرّصاً جديدة أكبر وأهم وأخطر من تلك التي كانت في الجاهليّة، قد بُرِزَتْ على كلّ المستويات السياسيّة والتجاريّة والموقعيّة، وعلى مستوى الرئاسة والوجاهة والسيطرة. فطمع الجميع في الاستفادة من هذا الدين من أجل اقتناص موقع جديد لهم، أو تعزيز موقع قديم، أو تأكيد وجودهم، ومحاولة صياغة دور لهم في صنع المستقبل، ورسم مسار الأمة بأسرها.

وأصبح أعداء الأمس جزءاً من المجتمع الإسلامي. ثمّ أخذوا يزايدون على المهاجرين والأنصار في إظهار المزيد من الحرص على كسر شوكة أعداء دين الله، والاهتمام بحماية هذا الدين ومكاسبه.

4. إدارة شؤون مكة المكرمة (تعيين عتاب واليًا على مكة):

عيّن رسول الله ﷺ عتاب بن أبي سعيد واليًا على مكة، وكان قد أسلم يوم الفتح. وكان تعيين رسول الله ﷺ لأول حاكم إسلامي على مكة، من البيت الأموي، محاولة من النبي ﷺ لإدخال قريش في النظام الإسلامي الجديد، والشرع في تهديم نظمها القديم. وأبقى رسول الله ﷺ معاذ بن جبل مع عتاب في مكة لتعليم الناس أحكام دينهم⁽¹⁾، ويدلّ هذا على أنّ عتاباً لم يكن قادرًا على القيام بهذه المهمة؛ لأنّه هو بنفسه كان بحاجة إلى أن يتعلّم من معاذ نفس ما كان على أهل مكة أن يتعلّموه منه.

(1) الحلبي، السيرة الحلبيّة، ج 3، ص 59، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 422، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص 679، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 3، ص 270.

المفاهيم الرئيسية

- لقد اتّخذ رسول الله ﷺ سياسة متقدمة في فتحه لمكّة المكرّمة تتّضح معالّمها في الآتي:
 - أ. فتح مكّة بسرعة وبأقل ما يمكن من إراقة الدماء.
 - ب. اعتمد رسول الله ﷺ على عنصر المباغثة في سرية العمل ووقته.
 - ج. كانت خطّته أن يدخل مكّة من جميع الجهات، ويطوّقها بشكل كامل.
 - لقد جرى العديد من الأحداث والتفاصيل في فتح مكّة، وهي:
 - أ. سمعت قريش جاهدة لتحسين أخبار النبي ﷺ وخروجه، حتّى وصل رسول الله ﷺ إلى مكّة بطريقة مفاجئة، وأحاط بها من جهاتها كلّها، وأشعل النار، ولما رأت قريش ذلك دخلها الرعب والخوف.
 - ب. عمل رسول الله ﷺ على تفتيت جبهة قريش من خلال إعلان إسلام أقطابها كأبي سفيان، الذي جاء إلى النبي ﷺ أسيراً، فأعلن إسلامه.
 - ج. إعطاء الأمان للناس.
 - د. حماية الناس في مكّة المكرّمة، ونهي المسلمين عن قتل أحد إلّا بعض الأشخاص فقط.
 - دخل رسول الله ﷺ إلى مكّة من جهاتها الأربع، فارتّجت مكّة بصوت: « جاء الحق وزهر الباطل »، ثم دخل النبي ﷺ إلى المسجد الحرام بغير إحرام، ثم جعل يطوف بالبيت.
- نتائج فتح مكّة: كان لفتح مكّة نتائج عدّة، هي:
- أ. إنهاء الشرك فيها، حيث حطّم النبي ﷺ كلّ الأصنام.
 - ب. البيعة العامة للنبي ﷺ، فقد أخذ النبي ﷺ البيعة من الناس كافة.
 - ج. منح فتح مكّة للإسلام الفرصة بالتّوسيع والانتشار بشكل سريع جداً.
 - د. إدارة شؤون مكّة؛ فقد أصبحت مكّة تحت قيادة الدولة الإسلامية.

الدرس السادس والعشرون

معركة حنين (1)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أسباب اعتداء خالد على بني جذيمة.
2. يشرح أحداث معركة حنين.
3. يفهم أسباب النصر والهزيمة في حنين.

تمهيد

بعد أن أنهى رسول الله ﷺ القوّة الكبرى والأساسية للشرك في المنطقة وهي قريش، كان لا بد من إرسال سرايا تدعو الناس إلى التوحيد بالله وترك الشرك، وكان التحرك نحو تحطيم الأصنام - التي تقوم القبائل بتعظيمها وتقديسها من دون الله - من قبل شخصيات قرشيّة كبرى، كانت تعتبر المدافع الأولى عن تلك الأصنام، لكي يطمئنّ الناس إلى أن رأس الشرك قد دخل في الإسلام، فلم لا يدخلونهم، فيأمنون على أنفسهم وأموالهم؟ ثم بعد أن يهبي الأرضية الكاملة بجوار مكة المكرمة يتحرّك إلى هزيمة هوازن وتجمعها الشركي في مواجهة رسول الله ﷺ والإسلام.

سرايا إنتهاء مظاهر الشرك

1. سرايا متعددة:

أرسل النبي ﷺ وهو في مكة العديد من السرايا، من أجل هدم الأصنام التي كانت مقامة في مناطق من الجزيرة العربية، ومن أجل دعوة الناس إلى دين الإسلام. واختارقيادة هذه السرايا شخصيات قرشيّة، وأشخاصاً يخاف الناس بطشهم. والظاهر أن ذلك حتى يطمئنّ الناس إلى أن جبابرة الجاهلية وطغاتها قد اعتنقوا هذا الدين، فلم يعد هناك خطر على الناس في اعتناقهم للإسلام من قبل هؤلاء الجبابرة والطغاة.

فأرسل خالد بن الوليد إلى نخلة اليمانيّة، لهدم صنم العزّى فيها، وأرسل معه ثلاثين رجلاً، إلا أن خالداً خالف أمر النبي ﷺ، فلم يقلع العزّى ولم يهدمها، بل رجع إلى النبي ﷺ وكذب عليه، وأخبره أنه قد قلعها. فقال له ﷺ: «هل رأيت شيئاً!؟»، قال:

«لا». فقال النبي ﷺ: «ما قلعت! إنك لم تهدمها، فارجع إليها فاهدمها». فعاد إليها خالد متغياً ومعه المعول، فقلعها.

وأرسل رسول الله عمرو بن العاص إلى الصنم سواع، برهاط ليهدمه. وأرسل سعد بن زيد الأشهلي، وهو من الأوس، إلى صنم مناة بالمشلل، فهدمه، وغيرها من السرايا^(١).

2. سرية خالد إلىبني جذيمة:

أ. اعتداء خالد علىبني جذيمة:

بنو جذيمة هم بنو جذيمة بن عامر، وجذيمة هو المصطلق. وكان النبي ﷺ قد غزاهم قبل الفتح، وتزوج منهم جويرية، فأعتقد المسلمون كلّ من كان بأيديهم من الأسرى منهم، وقالوا: «أصحاب رسول الله ﷺ». فآمنوا، وأخذوا من رسول الله ﷺ كتاباً بإسلامهم.

أرسل إليهم النبي ﷺ خالد بن الوليد على رأس قوة من المسلمين، فلما وطئوا مواطن بنى جذيمة، ورأه القوم أخذوا السلاح، فقال خالد: «ما أنت؟»، قالوا: «مسلمون، قد صلينا، وصدقنا، وبنينا المساجد في ساحاتنا، وأذننا فيها». فقال خالد: «ضعوا السلاح، فإن الناس قد أسلموا».

قالوا: «يا خالد، إننا لم نأخذ السلاح على الله وعلى رسوله، ونحن مسلمون، فانظر، فإن كان بعثك رسول الله ﷺ ساعيًّا، فهذه إبلنا وغنمنا فاغدُ عليها». فقال: «ضعوا السلاح». قالوا: «إننا نخاف منك أن تأخذنا بإحنة الجاهلية، وقد أماتها الله ورسوله». وكانوا في الجاهلية أصابوا من بنى المغيرة من بنى مخزوم نسوة، وقتلوا عمّ خالد بن الوليد، فلما وضعوا السلاح، أمر خالد عند ذلك، فكتفوا، وباتوا في وثاق، وكانوا يؤذون

(١) الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 10، ص 141، الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج 30، ص 144، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 79، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 16، ص 232، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 196، الطبرى، تاريخ الأمم والمملوك، ج 3، ص 65، الواقفى، المغازى، ج 2، ص 870، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 146، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 208، الشيخ الطبرسى، إعلام الورى، ج 1، ص 227، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 262، اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، ج 2، ص 73.

الصلوة وهم في وثاقهم، وسلم الأسرى لرجال اختارهم من أصحابه ممن اتصف بالقسوة، وعدم الرحمة. ثم اختار وقت السحر ليأمرهم بقتل الأسرى، فقتلواهم، وكان عدد القتلى كثيراً⁽¹⁾.

ب. شكوىبني جذيمة إلى رسول الله ﷺ:

انفلت رجل من بنى جذيمة، فأتى النبي ﷺ فأخبره بما فعل خالد بهم، فرفع النبي ﷺ يده إلى السماء، وقال: «اللهم إني أبراً إليك مما فعل خالد» مررتين وبكى. ثم دعا عليه ﷺ، فقال: «يا عليّ، أئت بنى جذيمة من بنى المصطلق، فانظر في أمرهم، فأرضهم مما صنع خالد». ثم قال: «يا عليّ، اجعل قضاء أهل الجاهلية تحت قدميك». فخرج عليّ ﷺ حتى جاءهم، فودي ﷺ لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال، وبقي لهم بقية من المال⁽²⁾.

ج. لماذا لم يعاقب رسول الله ﷺ خالداً؟

لقد كان السبب في إرسال خالد خاصة لدعوة بنى جذيمة إلى الله تعالى هو طمأنة بنى جذيمة إلى أنّ أمر الجاهليّة قد انتهى، وأنّ أحداً لا يؤخذ بإحنته، ولا يلاحق بجريرة، ولولا هذه الخاصة عند خالد بن الوليد ما رأى رسول الله ﷺ أهلاً للإマارة على المسلمين⁽³⁾. ولم يبادر رسول الله إلى معاقبة خالد تطبيقاً للسياسة العامة التي يتبعها، فإن قتلته سوف يحيط مسعي النبي ﷺ في نشر الإسلام، والاستفادة من النصر الذي أحرزه بفتح مكة، واستقطاب مستضعفـي المنطقة، إذ ربما تروج قريش دعاية مسمومة تثير الشبهات ضدّ رسول الله أنه يقتل أصحابه إذا أخطأوا؛ لأنّ خالداً أدعى أنّ بنى

(1) الشيخ الصدوق، الأمالي، ص152 و153، الشيخ الصدوق، علل الشرائع، ج2، ص473، الواقدي، المغازي، ج3، ص876، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج2، ص147، البلاذري، أنساب الأشراف، ج1، ص181، ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص71، الطبراني، تاريخ الأمم والملوک، ج3، ص66، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج6، ص200، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج1، ص227، البهقهـي، السنن الكبرى، ج9، ص75.

(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج4، ص72، ابن كثير، البداية والنهاية، ج4، ص358، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص592، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج6، ص201، الباعقوبـي، تاريخ الباعقوبـي، ج2، ص61.

(3) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج1، ص139، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج21، ص139.

جذيمة كانوا كُفَارًا حين قتلهم، وخطؤه لا يبرر الاقتصاص لهم منه، بل هو يوجب أن يديهم إمام المسلمين (رسول الله) من بيت المال، وقد بادر ﷺ إلى دفع الديمة لهم وتعويضهم عن كل ما فقدوه. والقرائن والدلائل وإن كانت متضارفة على تكذيب هذه المزعومة، ولكنها مزعومة تكفي لدفع غائلة الاقتصاص من خالد^(١) فإن الحدود تدرأ بالشبهات.

معركة حنين

هوازن تحشد لقتال المسلمين:

تسكن قبيلة هوازن في الجنوب الشرقي لمكة. وحنين واد من أودية تهامة، وهو قريب من الطائف. كان سوقاً في الجاهلية، وكانت هوازن قد بدأت بالتهيؤ للحرب قبل سنة من المعركة، ت يريد قتال رسول الله ﷺ عدواً وظلماً. فأخذت تدعو قبائل العرب، وتحثّهم على مشاركتها في حربها مع رسول الله ﷺ، فنشأ تحالف قبلي جديد، هدفه قتال رسول الله ﷺ وإنهاء دعوته. وممّا زاد وتيرة استعدادهم، أنّ رسول الله ﷺ لما خرج لفتح مكة أظهر أنه يريد هوازن، فبلغهم الخبر، فبادروا إلى جمع الجموع، وتحركوا من أماكن سكناهم باتجاه المسلمين.

وكان جملة من اجتمع منبني سعد وثقيف أربعة آلاف، وانضمّت إليهم أعداد من سائر العرب، جموع كثيرة، وجعلوا أمر الجميع إلى مالك بن عوف. واعتمد مالك أسلوب القتال القديم، فأمر الناس، فخرجوها، وسير مع المقاتلين نساءهم وأطفالهم وأموالهم كي يستميتوا في القتال، ثمّ انتهى إلى أوطاس، فعسر به^(٢).

خطة المسلمين العسكرية:

١. عيون النبي ﷺ تراقب تحركات المشركين:

لِمَا عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ بِأَمْرِ هَوَازِنَ، أَرْسَلَ الْعَيْوَنَ لِمَعْرِفَةِ نَوَابِيِّهِمُ الْحَقِيقِيَّةِ فِي أَمْرِ

(١) العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 23، ص 289.

(٢) كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1968م، ط 1، ج 1، ص 150، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 344، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 310، علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص 285، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 33، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 17، ص 240.

الحرب والسلم من جهة، ثم معرفة الخطة التي سيعتمدونها في حربهم، فيما لو كان قرارهم هو إثارة الحرب ضد المسلمين من جهة أخرى. فبعث عبد الله بن أبي حدرد، فأقام فيهم يوماً وليلة، فعلم بما يخططون له للحرب.

ثم أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً، إن شاء الله»⁽¹⁾.

2. تحرك النبي ﷺ لمواجهة هوازن:

سار النبي ﷺ إلى حنين في أوائل شهر شوال، بعد أن جمع القبائل التي أنت معه إلى مكة في حملة الفتح، وتلك التي انضوت تحت رايته، ورغمهم في الجهاد. وحتى يرغّبهم في الخروج إلى الحرب، ويكون ذلك من أسباب الربط على قلوبهم، وتأكيد اليقين لديهم بصحبة النبوة، وحتى يثقوا برعاية الله تعالى لهم، ولطفه بهم، فقد أخبرهم بنتائج تلك الحرب مسبقاً، وأن الله قد وعده أن يغنمهم أموالهم، ونساءهم، وذرارיהם، وخرجوا على رياطهم، وعقد النبي ﷺ اللواء الأكبر، ودفعه إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب علیه السلام.

ثم أمر رسول الله كل من دخل مكة برأية أن يحملها. وخرج مع اثنا عشر ألفاً من المسلمين، عشرة آلاف قدموا معه من المدينة، وألفان من أهل مكة، فظنّ أكثرهم أنّهم لن يغلبوا، لما شاهدوه من جمعهم، وكثرة عدّتهم وسلاحهم، فشقّ ذلك على رسول الله ﷺ؛ لأنّه ﷺ طلب من المسلمين أن ينظروا إلى الحالة الغيبية للأمور، والمتمثلة بالنصر الإلهيّ، لا الحالة الماديّة في كثرة أعداد المسلمين.

كان الجيش الإسلامي يسير نهاراً ويستريح ليلاً؛ لأنّ المسير في الليل يحمل معه أخطار مواجهة الكمائن في المضائق والشعاب. ولمّا أمسى رسول الله من وادي حنين على مسيرة بعض ليلة، وكان قد مضى ثلثا الليل، سبقهم إليه مالك بن عوف، فأدخل

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 891، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 346، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 313، والشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 120، الواقدي، المغازي، ج 3، ص 893.

جيشه في ذلك الوادي، وعِبَّاً أصحابه وفُرِّقْهم على طرقه ومداخله. وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حملة واحدة⁽¹⁾.

3. تعبئة الجيش الإسلامي للقتال:

في السحر، عِبَّاً رسول الله ﷺ أصحابه وصَفَّهم صَفَّوْا، ووضع الألوية والرايات في أهلها، وجعل مقدمة جيش المسلمين مؤلفة من مجموعتين قبليتين هما: بنو سليم، وقريش. وأُسند قيادة هذه المقدمة إلى رجل من قريش، وهو خالد بن الوليد، طمحةً في أن يرفع جعل أبناء القبيلة الواحدة في موقع قتاليٍ واحد من مستوى التعاون على دفع العدو، حتى يطمئن رؤوس قريش إلى أنه ﷺ قد قبلهم كغيرهم، وهذا هو يمحضهم ثقته، ويسلّمهم مقدم جنده، ولا يريد أن ينتقم منهم، ولا محاسبتهم. ثم جعل لجيشه ميمنة وميسرة، وقلباً، وكان هو فيه. ثم ركب بغلته البيضاء، واستقبل الصفوف، وطاف عليها بعضها خلف بعض، فحضرهم على القتال، وبشرهم بالفتح إن صدقوا وصبروا⁽²⁾.

المعركة والقتال

1. الهزيمة الأولى للمشركين:

طلع الفجر، وبعد أداء صلاة الصبح، أمر النبي ﷺ المسلمين بالتحرك، فانحدر الجيش في وادي حنين. واصطف الجيشان، وتواجهها وجهاً لوجه، فلما نظر المسلمون إلى السود الذي في مقابلهم، وكان حشد هوازن وحلفائهم مع أنعامهم وخيولهم ونسائهم وذرارتهم، حسبوه رجالاً كلهم. وحمل جيش المسلمين على المشركين، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزم المشركون، وانكشفوا وجلوا عن الذراري⁽³⁾.

(1) اليقoubi، تاريخ اليقoubi، ج 2، ص 100، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 150، الشیخ الطوسي، التیان في تفسیر القرآن، ج 5، ص 197، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 180، ابن أبي الحدید، شرح نهج البلاغة، ج 15، ص 106، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج 42، ص 72، الأربلي، کشف الغمة، ج 1، ص 221، الصالھي الشامی، سبل الھدی والرشاد، ج 5، ص 317، الشیخ الطبری، إعلام الوری، ج 1، ص 228، علی بن إبراهیم القمي، تفسیر القمي، ج 1، ص 287.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 150، الصالھي الشامی، سبل الھدی والرشاد، ج 5، ص 316 و 317، الحلبی، السیرة الحلبیة، ج 3، ص 107.

(3) الهیثمی، مجمع الزوائد، ج 6، ص 181، والشیخ الطبری، مجمع البیان في تفسیر القرآن، ج 5، ص 34.

2. انكسار المسلمين:

بعد هزيمة المشركين، نزل المسلمون إلى أرض المعركة يأخذون الغنائم، فالفلت المشركون إلى ذلك، ونادوا بعضهم بعضاً: «يا حماة السوء، اذكروا الفضائح، فتراجعوا وعادوا إلى الهجوم، والمسلمون منشغلون بالغنائم، فشتبوا هجوماً معاكساً ورشقواهم بالسهام⁽¹⁾، فانكشف المسلمون وانهزموا. وكان من أحد أسباب التراجع والانكسار أن الجبهة التي يحتشد فيها بنو سليم كانت أولى الجبهات انكساراً. فقد كان بين بنى سليم وهوازن رحمة وتعاطف من جهة الأم، فإن أم هوازن هي «بكمة»، وهي أم سليم، بكمة ابنة مرّة، أخت تميم بن مرّة. فارتكب بنو سليم خيانة وتواطؤاً غير مباشر مع هوازن، وقاموا بدور مشبوه في إلحاد الهزيمة بالمسلمين، تمثل في عدم الإقدام على قتل بنى أمهم، فولوا فارين لا يلوون على شيء، فوقيع الهزيمة والفرار الأول من جهتهم، وانهزم من وراءهم، فانتهز الطلقاء من قريش الفرصة السانحة، فولى جماعة كفار قريش وبنى سليم فكانوا أول من انهزم، وتبعهم في الفرار المسلمين، ثم انهزم بقية الأصحاب، وانهارت صفوفهم. وهنا ظهر لهوازن وكأن المعركة قد حسمت لمصلحتها، فخرج باقي المشركين منهم من شباب الوادي، وخرجوا إلى النبي ﷺ يريدون قتله، وهو على بغلته البيضاء، ولم يبق معه إلا ثمانية من بنى هاشم⁽²⁾.

3. الثبات والقتال طريق النصر:

ثبت رسول الله ﷺ والإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام في أرض المعركة، فأنزل الله سكينته عليهما، وتصدياً لهجوم العدو المشرك وقلباً نصره إلى هزيمة، وغاص الإمام علي عليه السلام في أوساط المشركين يضربهم بسيفه. وكان أبو جرول، فارس هوازن، يتقدم باللواء أمامهم في أثر المنهزمين من المسلمين، فصمد له علي بن أبي طالب عليه السلام

(1) البخاري، صحيح البخاري، ج.3، ص233، الترمذى، الجامع الصحيح، ج.3، ص117، البىهقى، السنن الكبرى، ج.9، ص155، ابن أبي شيبة، المصنف، ج.6، ص181، وج.8، ص550. الطحاوى، شرح معانى الآثار، ج.3، ص271، الفخر الرازى، التفسير الكبير، ج.16، ص21، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج.4، ص15.

(2) الواقدى، المغازى، ج.3، ص912 و913، علي بن إبراهيم القمى، تفسير القمى، ج.1، ص287، العلامة المجلسى، بحار الأنوار، ج.21، ص149، الشیخ الطبرسى، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج.5، ص34، للتوضيح حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج.24، ص191.

فصرعه، ثمْ كانت هزيمة المشركين بقتل حامل لواهم، وسقوط اللواء، ممّا أدى إلى هزيمتهم هزيمة فعلية. وهنا، طلب خاتم النبيين ﷺ من العباس بن عبد المطلب أن ينادي المهاجرين والأنصار، وقال له: «اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، وبالأنصار الذين آروا ونصروا»، فنادى العباس بأعلى صوته: «يا أهل بيعة الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، إلى أين تفرّون؟ اذكروا العهد الذي عاهدتم عليه رسول الله ﷺ». ⁽¹⁾

ثمْ نادى رسول الله ﷺ المسلمين: «أين ما عاهدتكم الله عليه؟ أيّها الناس، هلم إلّي. أيّها الناس، هلم إلّي». وكأنه ﷺ يئس من نصر المهاجرين له، فنادى خصوص الأنصار، وقال بأعلى صوته: «يا للأنصار! يا أنصار رسول الله! يا بني الخزرج!!»، ثمْ رفع يده، فقال: «اللهم إن لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان». ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد، وإن شئت أن لا تعبد بعد اليوم لا تعبد، اللهم إني أنسدك ما وعدتني. اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا، اللهم أنزل نصرك». ولم يستجب المهاجرون للنداء أبداً، ولم يفوا بعهدهم، وإنما استجاب الأنصار، وتبادروا خاصة، وأخذ الأنصار يعودون بصورة تدريجية، ومضوا أمامه ﷺ يقاتلون، ورسول الله ﷺ سائر معهم، حتّى انهزمت هوازن. وأخذ المسلمون يطاردون المشركين الذين تفرقوا في الشعاب، واتبعهم المسلمون يقتلونهم، ونادى بنو سليم بينهم: «ارفعوا عن بني أمّكم القتل»، فرفعوا الرماح، وكفوا عن القتل، وهذا يؤكّد على تواطئهم وتعاطفهم معهم، وعلى دورهم في إلحاق الهزيمة بال المسلمين. وانتهت معركة حنين وانهزمت هوازن وحلفاؤها، وغنم الله تعالى المسلمين نسائهم، وذراريهم، وأموالهم ⁽¹⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج: 3، ص: 904، الشیخ المفید، الإرشاد، ج: 1، ص: 142، الشیخ الطبری، مجمع البیان فی تفسیر القرآن، ج: 5، ص: 17 و 18، الہیثمی، مجتمع الزوائد، ج: 6، ص: 180، أبي یعلی الموصلي، مسنّد أبي یعلی، ج: 6، ص: 290، مسلم النیسابوری، صحيح مسلم، ج: 5، ص: 167، الحاکم النیسابوری، المستدرک علی الصحیحین، ج: 3، ص: 328، ابن عساکر، تاریخ مدینة دمشق، ج: 4، ص: 15، ابن سعد، الطبقات الکبیری، ج: 4، ص: 18، ابن عساکر، تاریخ مدینة دمشق، ج: 4، ص: 17، ابن أبي شيبة، المصنف، ج: 6، ص: 75، علی بن إبراهیم القمی، تفسیر القمی، ج: 1، ص: 287، احمد بن حنبل، مسنّد احمد بن حنبل، ج: 5، ص: 152، الشیخ الطبری، إعلام الوری، ج: 1، ص: 232، للتوضیحة حول الموضوع، راجع: السید جعفر مرتضی العاملی، الصحیح من سیرة النبی الأعظم، ج: 24، ص: 11.

4. خسائر المعركة:

هرب مالك بن عوف، وكان جميع من استشهد من المسلمين أربعة، وقتل عليٌ عليه السلام من المشركين، بعد أبي جرول، أربعين رجلاً، وكان مجموع من قتل من المشركين مئة رجل.

ولما انهزم المشركون، أمر رسول الله ﷺ بالغنائم والذراري والأموال أن تجمع، وأن تحضر إلى الجعرانة، مجداً التصرف بها إلى أن يعود من مطاردة العدو الذي لجأ إلى الطائف، ثم وقف بها هناك إلى أن انصرف من حصار الطائف⁽¹⁾.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 906، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 63، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 253، الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص 142، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 604، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 21، ص 181، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 18.

المفاهيم الرئيسية

- أرسل النبي ﷺ بعض السرايا لإنهاء مظاهر الشرك في مناطق مختلفة.
- أرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في سرية أخرى إلى بني جذيمة؛ وهم بنو المصطلق، وكان رسول الله ﷺ قد غزاهم قبل الفتح، وأعلنوا إسلامهم، إلا أن خالد بن الوليد لما وصل إليهم لم يأخذ بكلامهم، بل أوثقهم، ثم قتل عدداً منهم.
- لما وصلت أخبار ما فعله خالد إلى النبي ﷺ تبرأ مما فعله خالد، ثم أرسل الإمام علي عليه السلام إلى بني جذيمة، فودي (دفع الدماء) لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال.
- لم يعاقب النبي محمد ﷺ خالد بن الوليد على ما فعله، تطبيقاً لسياسته العامة في عدم إشاعة أنَّ محمداً يقتل أصحابه، خصوصاً بعد تذرع خالد بأنه اعتقاد أنَّهم كُفَّار.
- كانت قبيلة هوازن رأس حربة من تحرك لقتال النبي ﷺ، خصوصاً بعدما فتح النبي ﷺ مكة، فجهَّزت هوازن الجيش، وخرجت للقتال.
- عمل رسول الله ﷺ على تحديد معالم خطة عسكرية يواجه فيها هوازن، وهي: أ. مراقبة تحركات المشركين.
- ب. عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وحثَّه على الجهاد والقتال في سبيل الله تعالى، وبشره بالفتح.
- تحرك الجيش الإسلامي نحو هوازن، فوقع في كمينهم في وادي حنين، واقتتل الطرفان قتالاً شديداً، وهُزمت هوازن في بداية الأمر، وبدأوا بالفرار، فقام المسلمون بجمع الغنائم، فتنادي المشركون، ورجعوا إلى أرض المعركة، فانكشف المسلمون وانهزموا ولاذوا بالفرار.
- بعد ثبات رسول الله ﷺ والإمام علي عليه السلام في أرض المعركة، بدأ المسلمون بالرجوع للقتال، وجعل رسول الله ﷺ يناديهم، ويذكرهم بعهودهم وبيعتهم له، فعادت الكُرْبة للمسلمين، وألحقوا الهزيمة بهوازن وحلفائهم.

الدرس السابع والعشرون

معركة حنين (2)

حصار الطائف وثقيف

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف ظروف وأهداف حصار الطائف وثقيف.
2. يشرح الخطة العسكرية التي اعتمدتها المسلمين في الحصار.
3. يفهم البعد الإنساني والاجتماعي في معالجة قضية السبايا والأسرى.
4. يبيّن الدروس وال عبر من معركة حنين.

تمهيد

لقد فتح انتصار النبي ﷺ في معركة حنين الباب أمامه للولوج في معركة حاسمة ضد أعداء الإسلام والمسلمين. فقد انطلق من تلك المعركة هادفًا إلى جمع كل تلك القبائل العربية تحت لواء الإسلام، تمهيداً للقضاء على الشرك والوثنية في كامل بلاد الحجاز، واستقطاب أكبر قدر ممكن من العرب حماية للإسلام والمسلمين، وتوسيعة لرقة الإسلام في الأرض.

حصار الطائف

الطائف بلد كبير، يقع على ثلات مراحل، أو على مرحلتين، من مكة، إلى الجهة الجنوبية الشرقية، وهو كثير الأعناب والنخيل، على قمة جبل غزوان. ويعتبر أهل الطائف⁽¹⁾ من المحاربين القدماء للإسلام ومن المشاركين في حرب الأحزاب. وكان عروة بن مسعود الثقفي وجمع من هوازن وثيق، قد هربوا من معركة حنين، وتفرقوا على ثلاث فرق، فرقة فيها رئيسهم مالك بن عوف، لجأت إلى الطائف، وتحصنت فيه، وأغلقوا عليهم أبواب مدینتهم، وتهيؤوا للقتال، وكان حصنهم لا مثال له في حصون العرب، وأقاموا رماتهم، وهم مئة رام، وأخرى إلى نخلة، وثالثة إلى أوطاس، وهو وادٌ في ديار هوازن. فبعث النبي ﷺ مجموعات مطاردة في أثرهم، من أجل ملاحقتهم وعدم إتاحة الفرصة لهم لكي يستردوها فيها قواهم ويعيدوا تنظيم صفوفهم. فأدرك سرايا المطاردة

(1) الحموي، معجم البلدان، ج 1، ص 281، العيني، عمدة القاري، ج 17، ص 302، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 408.

بعض المنهزمين فناوشوهم القتال، وأوقعوا بهم شر هزيمة، ثم سار رسول الله ﷺ بنفسه إلى الطائف، ولم يرجع إلى مكة.

وكان رسول الله ﷺ قد طاردهم محافظاً على التشكيلة العسكرية نفسها التي تحرك فيها من مكة إلى حنين، خشية من أن يترك إدخال أي تغيير على التركيبة القبلية للجيش أثراً معنوياً سيئاً على المقاتلين.

وكانت خطة المحاصرين المكث في حصنهم، والمراهنة على عدم صبر المسلمين على طول الحصار، وعلى قدرتهم على الصمود في حصنهم، فقاتلهم رسول الله ﷺ بالرمي عليهم، وهم يقاتلونه بالرمي من وراء الحصن، حتى قتل عدداً من الناس⁽¹⁾.

الخطط العسكرية في تشديد الحصار على الطائف

1. العامل النفسي: في محاولة من رسول الله ﷺ لتفكيك معسكر المشركين من الداخل، نادى مناديه ﷺ: «أيّما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرّ»، فبدأ الناس بالاستجابة⁽²⁾.

2. نشر الحسك: نشر المسلمون الحسك حول الحصون، وهي أوتاد من الخشب، زرعوها في ساحة المعركة بكثافة، حتى لا تتمكن خيل المشركين من الجولان فيها، إذا ما حاولوا الخروج من الحصن، فكانت بمثابة عرقلة وموانع مؤثرة في ردعهم عن التفكير بالمباغطة السريعة للمسلمين.

3. استخدام وسائل عسكرية جديدة: استفاد رسول الله من وسائل حربية لم يكن المسلمون قد استعملوها من قبل، فأمرهم باستخدام الدبابة - وهي آلة حربية توضع جلود البقر عليها، ويدخل فيها الرجال، فيدبّون إلى أسوار الحصن لينقبوها - حيث زحف المسلمون بها إلى جدار الحصن ليحفروه، فواجههم عدوهم بسکك

(1) العيني، عمدة القاري، ج 17، ص 301، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 206، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 123، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 151، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 181، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 902، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 219.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مصدر سابق، ج 2، ص 64.

الحديد المحمّاة بالنار، فاحتربت الدبابة، وخرج المسلمون من تحتها، وقتل منهم رجال⁽¹⁾، وأصيب منهم من أصيب.

4. قطع الأشجار لضرورة: لكي يمنع رسول الله المشركين من التسلل إلى قرب المسلمين ورميهم، وليعطي جيشه قدرًا أكبر من حرية الحركة، بادر إلى الأمر بقطع طائفة من الأشجار حول الطائف؛ لأنّها كانت في موضع يشكّل بقاوئها فيها خطراً على جيش المسلمين.

فظنّ أهل الطائف، وكذلك بعض المسلمين، أنَّه ي يريد قطع جميع نخيلهم، وأعنابهم وشجرهم، فنادت ثقيف، مناشدة رسول الله أن يترك ذلك: «لَمْ تقطع أموالنا؟ إما أن تأخذها إن ظهرت علينا، وإما أن تدعها لله وللرحم»، فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنِّي أَدْعُهَا لِللهِ وَلِلرَّحْمَم»⁽²⁾.

5. الاستفادة من المنجنيق: بعد أن استكمل رسول الله الضغط الخارجي، شرع في الضغط داخل الحصن، فبدأ بالاستفادة من المنجنيق⁽³⁾ الذي يجعل العدو حتّى وهو في حضنه يتربّق الكارثة ويخشأها، ليس على نفسه كمقاتل وحسب، بل على أهله وولده ونسائه. وبذلك لن يعود الحصن قادرًا على حمايته، كما سوف تسقط نظرية القدرة على الدفاع السليبي بتحمل الحصار لمدة طويلة.

6. القتال في أوقات مختلفة: بعد أن حاصر النبي ﷺ الطائف أسبوعين أو أكثر⁽⁴⁾، كان يتحرّك في أوقات لم يعتد الناس على التحرّك فيها، مثل وقت الهاجرة، كأنّه كان يريد أن يفهم أهل الطائف أنّهم غير متrocّكين، وأنّ عليهم أن يتوقّعوا مفاجأتهم في كلّ وقت وزمان.

(1) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج، 5، ص 385، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري ص 123.

(2) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج، 2، ص 64، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج، 5، ص 385، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ص 123.

(3) المنجنيق آلة حربية تصنع منجلود وخشب وحديد، تقذف الحجارة بها، وكان قد استعمله رسول الله حين حاصر خيبر.

(4) الطبراني، تاريخ الأمم والملوک، ج، 2، ص 354، ابن هشام، السيرة النبوية، ج، 4، ص 920، الشيخ المفید، الإرشاد، ج، 1، ص 153، الحاكم التیسابوری، المستدرک على الصحيحین، ج، 2، ص 120، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج، 5، ص 388، ابن عساکر، تاريخ مدينة دمشق، ج، 42، ص 343، البلاذري، فتوح البلدان، ج، 1، ص 65.

أهل الطائف يعلنون إسلامهم

في هذه المرحلة، عاد الإمام علي عليه السلام من ملاحقة الأعداء، وانضم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محاصر لأهل الطائف ينتظره، فلما رأه النبي صلى الله عليه وسلم كبر للفتح، وأخذ بيده، فخلا به، وناجاه طويلاً.

ثم أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستفيد من وجوده في جيشه لمحاولة حسم أمر الحرب عن طريق الضغط المعنوي والنفسي، فأطلق تهدياته بأنه سوف يرسل لهم الإمام علي عليه السلام ليضرب أعناق مقاتليهم، أو يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة⁽¹⁾.

وكان لخطة النبي صلى الله عليه وسلم في حصار الطائف الأثر الكبير على استمالتهم للإسلام، ودعوتهم للاستسلام والرضوخ لحكم النبي صلى الله عليه وسلم. وكان مما أثر بهم معنويًا تلك العوامل النفسية التي استعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوتهم للاستسلام، وأن من جاءه فهو آمن. ثم إن استجابة النبي صلى الله عليه وسلم لهم بعدم حرق وقطع أشجارهم لله والرحم قد تركت أثراً عند أهل الطائف، وكانت محفزاً معنويًّا لهم على الاستعداد لتقبّل فكرة ترك الحرب. ثم جاء التهديد بتکلیف الإمام علي بن أبي طالب عليهما السلام بفتح الطائف، فكان السبب الأخير الذي أدى إلى سرعة استسلامهم، وإرسال وفودهم إليه، ليعلنوا إسلامهم، وذلك بعد أيام يسيرة من هذه الواقعة. ولذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يحفظ لهم بعض ماء الوجه، فلم يخبر أحداً من الناس بمراسلة أهل الطائف له بالابتعاد عن حصنهم، لكي يأتوه مسلمين مستسلمين، فاكتفى بقوله: «لم يؤذن لنا الآن في قتالهم، وما أظن أن نفتحها الآن»⁽²⁾. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أهل الطائف، إنه لا خير في دين لا رکوع فيه ولا سجود. أما والذي نفسي بيده لتقيمن الصلاة، ولتوئن الزكاة أو لأبعثن إليكم رجلاً هو مني كنفسي».

(1) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص123، المشغرى، يوسف بن حاتم، الدر النظيم، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم المقدسة، إيران، ص185، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص605. الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص151، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 7 ص402، ابن الأثير، أسد الغابة، ج 4، ص27، الشيخ الطوسي، الأمامي، ص516.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص401، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 3، ص662، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص922، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 4، ص1832، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص387.

يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يقصعكم بالسيف». فلما صار الوفد إلى قومهم بالطائف أخبروهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ فأقرّوا له بالصلادة، وأقرّوا له بما شرط عليهم⁽¹⁾، ثم ارحل رسول الله ﷺ وأصحابه⁽²⁾.

قضية السبايا والأسرى

1. أهداف معالجة قضية السبايا والأسرى:

كان السبي يوم حنين ستة آلاف، بين امرأة وغلام، إضافة إلى ما غنم من الحيوانات. وكانت الغنائم والسبايا حقاً خاصاً برسول الله والإمام علي عليهما السلام؛ لأن النصر إنما تحقق بثبات رسول الله والتأييد الإلهي له بإذن الملائكة، وبقتال علي عليهما السلام. وكان أمر الغنائم والسبايا بيد رسول الله ﷺ، واستأنى بضع عشرة ليلة، لكي يقدم عليه وفد هوازن. وكان يرغب في إسلام هوازن وسائر القبائل في المنطقة، كما كان راغباً في إطلاق سراح السبي والذرية، فكان لتلك القبائل سبي، وتوزيعها على المسلمين سيكون عاراً وسبة عليهم. بل لو أن النبي ﷺ قام بتقسيم السبي، وانتقل إلى أيدي الناس، فلربما يشكل ذلك مانعاً لدى الكثيرين منهم عن الدخول في هذا الدين. وقد كان فيما سبي من النساء أخت رسول الله من الرضاع «الشيماء»، ابنة حليمة السعدية التي أرضعته، ثم كلمته في إطلاق سراح الأسرى والسبايا، وكان له دور بارز في ذلك، بأمر بيته وبين رسول الله ﷺ.

وقد أدركت هوازن حاجة الموقف، وأن نساءهم وأموالهم ستصبح غنيمة للمسلمين فيما لو أصرروا على موقفهم، وبنتيجة التداول فيما بينهم اتفق رأي أكثرتهم على اعتناق الإسلام.

ثم طلب رسول الله من الوفد أن يظهروا إسلامهم أمام الناس، ليأنفوا من استرقاق نساء

(1) الشيخ الطوسي، الأمالى، ص516، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج2، ص414، ابن حمزة الطوسي، الثاقب في المناقب، تحقيق : نبيل رضا علوان، مؤسسة أنصاريان للطباعة والنشر، قم، إيران، 1412هـ ط2، ص121، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج2، ص67.

(2) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، ج3، ص157، مسلم النسابوري، صحيح مسلم، ج3، ص107، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج5، ص388، ابن كثير، السيرة النبوية، ج3، ص663.

وذريّة إخوانهم من المسلمين. ولمّا صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فاستأذنوا رسول الله ﷺ في الكلام، فأذن لهم، فقامت الشيماء فتكلّمت، وتكلّم خطباؤهم، بما أمرهم به رسول الله ﷺ فأصابوا القول، وأبلغوا فيه، ورغبوا إليهم في ردّ سبّهم، ثم تكلّم رسول الله ﷺ، وبادر أولاً إلى هبة سهمه وسهمبني هاشم، تشجيعاً للناس على ذلك، فترك الناس سهامهم، وحلّت قضية السبي، وهكذا أطلق سراح الأسرى، واعتنق الآلاف الإسلام في يوم واحد ببركة رسول الله ﷺ.⁽¹⁾

2. سبايا مالك بن عوف:

كُلّمت شيماء أخاه رسول الله ﷺ في مالك بن عوف، فقال لها: «إن جاءني فهو آمن». وحينما جاءه وفد هوازن قال للوفد: «ما فعل مالك بن عوف؟»، قالوا: «يا رسول الله، هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف». فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماليه، وأعطيته مئة من الإبل». فلمّا بلغ مالكاً ما فعل رسول الله ﷺ في قومه وما وعده، وأنّ أهله وماليه موفوران، لحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة (أو بمكة)، فردّ عليه النبي ﷺ أهله وماليه، وأعطاه مئة من الإبل، وأسلم، فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، ومن في تلك البطون من هوازن⁽²⁾.

تقسيم الغنائم والأموال

لما فرغ رسول الله ﷺ من ردّ سبايا هوازن، ركب بعيره وتبعه الناس، يقولون: «يا رسول الله، اقسم علينا فيئنا». وأخذت الأعراب تسأله، وأحاطت به لتوحي له بأنّها

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 63، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص 348، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 152، ابن سيد الناس، عيون الآخر، ج 2، ص 219، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 390، أحمد بن حنبل، مسنّد أحمد بن حنبل، ج 4، ص 326، البخاري، صحيح البخاري، ج 3، السجستاني، سنن أبي داود، ج 1، ص 609، البيهقي، السنن الكبرى، ج 6، ص 360.

(2) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 56، ص 486، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 357، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 269، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 927، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 405، الشيخ الطبرسى، إعلام الورى، ج 1، ص 240، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص 348.

مسلمة، ولتحصل على جزء من الغنيمة، حتى الجؤوه إلى شجرة وأخذوا رداءه، فطمأنهم إلى أن الفيء الذي يحصلون عليه بأسيافهم وبجهادهم وتضحياتهم إنما هو لهم، ثم أمر أن يُرد كل ما غُنم حتى تكون القسمة عدلاً⁽¹⁾. ثم بدأ رسول الله ﷺ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وهم الأشراف من قريش وسائر مضر وسائر العرب. ولم يعط رسول الله من الغنائم الأنصار، لأنهم لم يكن لهم، ولا للمهاجرين، ولا لغيرهم أصلاً حق فيها، ولكن النبي ﷺ طيب نفوس الأنصار، بعدما نفذ ما أمره الله تعالى به، وعاملهم مغمساً نظرة عن هزيمتهم في أول المعركة، معتبراً كأن شيئاً مما حدث لم يحدث، حفاظاً على معنوياتهم، فغضب قوم من الأنصار، ووجدوا في أنفسهم، حتى كثروا فيهم القالة، وحتى قال قائلهم: يغفر الله تعالى لرسول الله ﷺ إن هذا له العجب، يعطي قريشاً والطلقاء والمهاجرين، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فأخذ النبي ﷺ يشرح لهم حقيقة موقفه، ويحاول أن يعيده، في هذه الساعة الحرجة، المستوى العالي من المعنويات، والحماسة والاندفاع، وأن يستثير عواطفهم الدينية ومحبّتهم له، فارتّفت أصواتهم بالبكاء، وقام شيوخهم وساداتهم إليه، فقبلوا يديه ورجليه⁽²⁾.

وهكذا، أعاد رسول الله تأليف الأنصار، واستطابة نفوسهم، والثناء عليهم في دينهم، حتى رضي أن يكون واحداً منهم لو لا ما منعه من الهجرة التي لا يجوز تبديلها. وكانت المدينة دار الأنصار، والهجرة إليها أمراً واجباً، أي لو لا أنّ النسبة الهرجية لا يسعني تركها

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 135، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 4، ص 43، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 358، الشيخ الطبرى، إعلام الورى، ج 1، ص 242، الحاكم النيسابورى، المستدرک على الصحيحين، ج 3، ص 49، أحمد بن حنبل، مسنون أحمد بن حنبل، ج 4، ص 84.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 2، ص 411، السهيلى، الروض الأنف، ج 4، ص 167، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 145، أحمد بن حنبل، مسنون أحمد بن حنبل، ج 3، ص 166، مسلم النيسابورى، صحيح مسلم، ج 3، ص 105، البخارى، صحيح البخارى، ج 5، ص 105، الترمذى، سنن الترمذى، ج 5، ص 41، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 409، البىهقى، السنن الكبرى، ج 6، ص 337، ج 7، ص 18، العينى، عمدة القارى، ج 17، ص 309، عبد الرزاق الصناعى، المصنف ج 11، ص 60، أبي يعلى الموصلى، مسنون أبي يعلى، ج 6، ص 283، الطبرانى، سليمان بن أحمد، مسنون الشاميين، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م، ط 2، ج 4، ص 153.

لانتسبت إلى داركم، وتسنّمٌت باسمكم، وانتسبت إليكم، لما كانوا يتناسبون بالحلف، لكن خصوصيّة الهجرة وترتيبها سبقت فمنعـت ما سـوى ذلك، وهي أعلى وأشرف، فلا تبـدـلـ بغيرها. فبكى القوم حتـى أخضـلـوا لـحـاـهمـ، وـقـالـوـاـ: «ـرـضـيـنـاـ بـالـلـهـ وـرـسـوـلـهـ حـظـاـ وـقـسـمـاـ»⁽¹⁾.

دروس وعبر من معركة حنين

1. إن السبب في هزيمة المسلمين في بداية المعركة هو غرور المسلمين بأنفسهم، وإعجابهم بكثـرـتهمـ وقوـتهمـ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرْكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا أَغْبَجْتُمُ الْكُفَّارَ فَلَمْ تُفْعَلُوكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيْمَ مُدْبِرِينَ﴾⁽²⁾.

2. إن الذين قاتلـوا بشـجـاعـةـ فـائـقةـ إـلـىـ جـانـبـ النـبـيـ ﷺـ وـعـلـيـ عـلـيـهـ السـلـاـمـ هـمـ القـلـلةـ المؤمنـةـ. فـهـؤـلـاءـ هـمـ الـذـيـنـ حـقـقـواـ الـانتـصـارـ فـيـ حـنـينـ، وـهـمـ الـذـيـ أـنـزـلـ اللـهـ عـلـيـهـ السـكـيـنـةـ وـالـطـمـائـنـيـةـ، وـأـوـجـدـ رـوـحـ الثـبـاتـ وـالـاسـتـقـامـةـ فـيـ نـفـوسـهـمـ وـقـلـوبـهـمـ وـأـيـدـهـمـ بـجـنـودـ مـنـ الـمـلـائـكـةـ لـمـ يـرـوـهـاـ. قالـ تعالى: ﴿تُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ وَعَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرُوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَّارِ﴾⁽³⁾.

3. لقد تـرـتـبـتـ عـلـىـ إـعـطـاءـ النـبـيـ ﷺـ الغـنـائـمـ لـلـمـؤـلـفـةـ قـلـوبـهـمـ فـيـ حـنـينـ نـتـائـجـ مـهـمـةـ وـخـطـيرـةـ، إـذـ شـعـرـواـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ الـمـصـلـحةـ لـهـ العـودـةـ إـلـىـ الشـرـكـ، فـانـضـمـواـ إـلـىـ الـجـهـدـ الـإـسـلـامـيـ الـعـامـ، وـعـمـلـواـ عـلـىـ كـسـرـ شـوـكـةـ أـهـلـ الشـرـكـ فـيـ مـنـاطـقـهـمـ، وـسـاعـدـواـ عـلـىـ اـنـتـشـارـ إـلـاسـلامـ.

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 154، ابن حبان، الثقات لابن حبان، ج 2، ص 81، أحمد بن حنبل، مسنـدـ أـحـمـدـ بنـ حـنـبـلـ، ج 3، ص 77، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 272، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 4، ص 411، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 935، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 221، للتـوـسـعـةـ حولـ المـوـضـعـ، رـاجـعـ: السـيـدـ جـعـفـرـ مـرـتـضـىـ الـعـالـمـيـ، الصـحـيـحـ مـنـ سـيـرـةـ النـبـيـ الـأـعـظـمـ، ج 25، ص 37.

(2) سورة التوبة، الآية 25

(3) سورة التوبة، الآية 26

العودة إلى المدينة

في يوم الخميس، غدا رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، فسلك في وادي الجعرانة، ثم وصل إلى المدينة يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي القعدة. وكانت مدة غيبته ﷺ من حين خرج من المدينة إلى مكة فافتتحها، وواقع هوازن، وحارب أهل الطائف إلى أن رجع إلى المدينة شهرين وستة عشر يوماً⁽¹⁾ بعد انتصارين من أعظم الانتصارات التي حققها في صراعه مع الوثنية، وهما: فتح مكة، وهزيمة جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل في حنين. وبذلك تم القضاء على أكبر معاقل الشرك والوثنية في المنطقة، وبعد فتح مكة والطائف وسقوط عاصمة الوثنية، وعوده النبي ﷺ إلى المدينة، ظن بعض المسلمين أنَّ الجهاد انتهى بدخول الإسلام إلى مكة والحجاز، وسقوط الشرك، فباعواأسلحتهم دون أن يستشيروا النبي ﷺ ليستجيبوه بذلك، بل قالوا انقطع الجهاد، فعلق النبي ﷺ على ذلك بقوله: «لا ينقطع الجهاد حتى ينزل عيسى ابن مريم»⁽²⁾.

(1) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، مصدر سابق، ج 5، ص 407.

(2) المصدر نفسه، ج 12، ص 72.

المفاهيم الرئيسية

- يعتبر أهل الطائف من المحاربين القدماء للإسلام ومن المشاركين في حرب الأحزاب. والطائف بلد كبير يقع في الجهة الجنوبية الشرقية لمكة المكرمة. وبعد أن هربت هوازن وثيفي من معركة حنين انتشروا في مناطق مختلفة، وخرج مالك بن عوف إلى الطائف وتحصن فيها. وكان مالك يطمع في عدم صبر المسلمين على طول الحصار.
- لقد عمل المسلمون على تشكيل خطة متكاملة في محاصرة الطائف، تتشكل من:
 - أ. العامل النفسي. ب. نشر الحسك. ج. استخدام وسائل عسكرية جديدة كالدبابة.
 - د. قطع الأشجار. هـ. الاستفادة من المنجنيق. وـ. القتال في أوقات مختلفة.
- بعد أن أنهى الإمام علي عليه السلام ملاحقة الفارين، التحق بالنبي عليه السلام، فقام رسول الله عليه السلام وهدد أهل الطائف بأنه سوف يرسل لهم الإمام علي عليه السلام؛ ما أحدث رعباً وخوفاً في صفوفهم، ومضافاً إلى تنفيذ الخطة السابقة بإتقان فأدى ذلك إلى رضوخ ثيفي لحكم النبي عليه السلام وإعلان إسلامها.
- كان السبي والأسر حقاً للنبي عليه السلام، وكان أمر التصرف فيهما بيده، وكان رسول الله عليه السلام راغباً في إسلام هوازن، فلو قسم الغنائم بين العرب، لأدى ذلك إلى منع هوازن من الإسلام، فقرر النبي عليه السلام أن يطلق سراح الأسرى والسبايا. وقد تدخلت الشيماء أخت النبي عليه السلام بالرضاة في شأن مالك، فقد قال رسول الله عليه السلام: إن جاءني فهو آمن، فجاء إلى النبي عليه السلام وأعلن إسلامه، فرد عليه النبي عليه السلام أهله وماله.
- قسم النبي عليه السلام الغنائم والأموال على المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، ثم أرضاهم النبي عليه السلام بأنه سوف يخرج إلى المدينة ويبيقى فيها.
- إن لهذه المعركة دوراً وعبرة، منها: أنَّ الغرور والعجب سببان للهزيمة والخسارة، أنَّ الذين قاتلوا بجانب النبي عليه السلام والإمام علي عليه السلام هم القلة المؤمنة، أن توزيع الغنائم على العرب منعهم من العودة إلى الشرك.

الدرس الثامن والعشرون

غزوة تبوك

(سرايا الدعوة والتبلیغ
والردع)

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يفهم أهداف إرسال السرايا والكتب لدعوة القبائل إلى الإسلام.
2. يعرف ظروف وأهداف ونتائج غزوة تبوك.
3. يشرح الخطوات التي اعتمدتها النبي ﷺ في الحفاظ على المدينة.

تمهيد

إنَّ من النتائج العظيمة التي ترَبَّت على فتح مُكَّة بعد القضاء على قريش وجبروتها فسح المجال أمام النبي ﷺ للبدء بالاتجاه نحو دعوة باقي القبائل العربية إلى الإسلام. وكان من تلك المناطق التي اتجَّه إليها رسول الله ﷺ بلاد اليمن، وكان من ضمن خطَّة عمل النبي ﷺ الاتجاه نحو بلاد الشام، ولكن عبر قوَّة مسلحة تؤدي إلى عرض قوَّة المسلمين من جهة، ومحاولة إخضاع تلك القبائل العربية وإدخالها في الإسلام.

إضافة إلى توجيه رسائل إلى الإمبراطورية الرومانية مفادها أنَّ الإسلام يستطيع أن يمتلك القوَّة والعتاد الذي يستطيع به أن يحمي نفسه من كُل الاعتداء.

سرايا الدعوة والتبلigh والرد

بدأ رسول الله ﷺ بإرسال السرايا في الاتجاهات المختلفة، بهدف الدعوة إلى الإسلام، أو تحطيم صنم هنا أو وثن هناك، أو من أجل جمع الصدقات من أطراف الجزيرة. وأمرهم أن يأخذوا من الناس العفو، ويتوَّقُّوا كرائم أموالهم. ومن هذه السرايا سرية أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى طيء⁽¹⁾، وسرية إلى ذي الكفين، وبعث سرية بقيادة كعب بن عمير إلى ذات أطلاح من الشام⁽²⁾، وسرية قبيلة القرطاء بقيادة الضحاك الكلابي⁽³⁾.

(1) الواقدي، المغازي، ج 3، ص 984. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 164، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 2، ص 271، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 11، ص 359، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 218، ابن حجر العسقلاني، الإصابة، ج 4، ص 329، ابن الأثير، أسد الغابة، ج 5، ص 474.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 63، ج 7، ص 503. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 34، ص 345، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 272.

(3) البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 382، ابن سعد، الطبقات الكبرى ج 2، ص 163.

رسائل النبي ﷺ إلى اليمن

1. الإمام علي عليه السلام أمير الجيшиين إلى اليمن:

كتب النبي ﷺ في سنة تسع كتاباً، وأرسل رسلاً إلى جميع أذواء اليمن وأقالها، وبعث دعاته إلى تلك البلاد ليفقهوا الناس، ويعلمونهم معالم الإسلام. فبعث مهاجر بن أبي أمية، والأقرع بن عبد الله الحميري إلى ملوك حمير، فأجابوا إلى الإسلام، ووفدت إليه وفودهم، فكتب لكلّ الوفدين كتاباً، وأمّنهم على دورهم، وزروعهم وأموالهم وأنفسهم⁽¹⁾. وقدم إليه عمرو بن معدى كرب الزبيدي فأسلم، ثم ارتد عن الإسلام، حين لم يرض رسول الله ﷺ بالاقتراض له من قاتل أبيه؛ لأنّه قتله قبل أن يسلم، فانصرف عمرو مرتدًا، وأغار في طريقه على قوم مسلمين، ثم مضى إلى قومه، فأرسل النبي ﷺ جيшиين، لإخضاعه، ودعوة أهل اليمن إلى الإسلام، جيش من المهاجرين وأمر عليه عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ووجهه إلى بني زيد على مشارف اليمن، وجيش من الأعراب أمر عليه خالد بن الوليد، وجعل عليّ عليهما السلام هو أمير الجيшиين.

2. خالد بن الوليد وقبيلة جعفي:

أما خالد فقد صد قبيلة جعفي، فلما سمعت هذه القبيلة بالجيش افترقت فرتقين، بلغ ذلك عليّ عليهما السلام حيث كتب إلى خالد بن الوليد: «أن قف حيث أدركك رسولي!». فتمرد خالد على أمر الإمام عليهما السلام بالحزم والحكمة، وأرسل إليه خالد بن سعيد بن العاص الذي لا يستطيع خالد مناؤاته لموقعه ومكانته في قريش، وأمره أن يتعرض له حتى يحبسه ويمنعه من الاستمرار في السير.

وبعد أن التقى الجيشاً، سار عليهما السلام حتى لقي بني زيد وعلى رأسهم عمرو بن معدى كرب، فهزمهما. ثم انصرف خالد بن سعيد وأمر شخصاً ليقبض صدقاتهم، وبيؤمن من عاد إليه من هراهم مسلماً. ثم عاد عليهما السلام إلى المدينة، وبقي خالد

(1) ابن الأثير، أسد الغابة ج 4، ص 422، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 1، ص 283، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 67، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 279.

في بلاد اليمن لكي يسعى لأسلمة أهلها، فلم يفلح. ثم أرسل النبي ﷺ بعد ستة أشهر علىه السلام إلى اليمن، ليدعو أهلها، فلما دنوا من قبيلة همدان خرجت إليهم، فصلى علي عليه السلام بال المسلمين، ثم صفهم صفا واحداً، وتقدم بين أيديهم وقرأ على المشركين كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً في ساعة واحدة⁽¹⁾.

3. قضية غنائم اليمن:

كان خالد بن الوليد قد أصاب من المشركين في اليمن غنائم وسبايا، فأرسل إلى النبي ﷺ أن يرسل إليه من يقابله منه، تجاوزاً منه لأميره علي بن أبي طالب عليه السلام. ولكن رسول الله ﷺ بعث إلى علي عليه السلام ليقبض من خالد الخمس، ويقسم الفيء. التقى علي عليه السلام خالداً، وتسلّم منه السبي والغنائم، وقسمها على المقاتلين، ثم اصطفى من مجموع السبي سبية، وجعلها له، فاعتراض عليه جمع من الناس منهم خالد وبريدة بن الحصيب الأسلمي، ومن شدة بغضهما لعلي، لم يصبرا حتى يقدما على رسول الله ﷺ، بل اجتمعوا يتآمران على الإيقاع بين علي عليه السلام ورسول الله ﷺ، فكتب خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ يشي بعلي عليه السلام وينم عليه، فسار بريدة بالكتاب.

دخل بريدة على رسول الله ﷺ وناوله الكتاب⁽²⁾. وجعل رسول الله ﷺ يقرأ الكتاب، حتى إذا فرغ رفع بريدة بصره إليه، فإذا وجه النبي ﷺ قد احمر، وتغير لونه، وغضب غضباً شديداً، ثم قال بريدة: «ويحك يا بريدة، أحدثت نفاقاً؟ إن علياً بن أبي طالب يحلّ له من الفيء ما يحلّ لي! إن علياً بن أبي طالب خير الناس لك ولقومك، وخير من أخلف بعدي لكافة أمتي! يا بريدة، احذر أن تبغض علياً فيبغضك الله».

(1) البخاري، صحيح البخاري، ج 7، ص 663. البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 384، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 427، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 300، الطبراني، تاريخ الأئمّة والمملوك، ج 3، ص 131، ص 132، البيهقي، السنن الكبرى، ج 2، ص 369. ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 129، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 28.

(2) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 93. البخاري، صحيح البخاري، ج 1، ص 110، مسلم التيسابوري، صحيح مسلم، ج 1، ص 156، سنن أبي داود، ج 2، ص 277. ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 386. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 4، ص 61، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 8، ص 93.

فتتحول بريدة من النفاق إلى الإيمان، وقام من لقائه ذاك مع رسول الله ﷺ وما من الناس أحد أحب إليه من الإمام علي⁽¹⁾.

غزوَةُ تَبُوكَ

كانت آخر مجازي النبي ﷺ، وهي المعروفة بغزوَة العسرة، وتُعرف أيضًا بالفاضحة لافتضاح المنافقين، وكانت في رجب سنة تسع قبل حجّة الوداع⁽²⁾.

1. أهداف غزوَة تَبُوكَ:

أ. ثبيت إمامَة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ:

عمل النبي ﷺ على بناء العوامل التي يحفظ بها الإسلام ويحصنه من الداخل والخارج، وخصوصاً من الداخل. فإن المعركة القادمة سوف تكون مع المنافقين، فكان لا بدّ من مجموعة إجراءات تفضح نواياهم، وتكشف حقيقتهم، وكان من هذه الإجراءات ممارسة مباشرة إظهار شخص الإمام الجديد علي⁽³⁾.

ب. نشر الإسلام في شمالي الجزيرة العربية:

بعد الانتهاء من نشر الإسلام في وسط الجزيرة وجنوبها، كان على الدولة الإسلامية لتبثيت نفوذها خارج تخوم الجزيرة العربية، أن تبذل جهوداً لإخضاع هذه القبائل التي ظلت مستقلة عن الدولة في صحراء بلاد الشام والجزيرة⁽³⁾.

ج. القيام بحملة وقائية في مواجهة احتمالات الحرب من الشمال:

كان البيزنطيون يحاولون إعادة بناء تحالفاتهم مع القبائل العربية في الشمال، وكان الهدف هو حماية بلاد الشام من إغارة القبائل العربية من جهة، ومن جهة أخرى حمايتها

(1) الهيثمي، مجمع الزوائد، ج.9، ابن كثير، السيرة النبوية، ج.4، ص.202، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج.6، ص.235، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج.8، ص.52، وص.53، ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص.198 و275، الشيخ المفید، الإرشاد، ج.1، ص.160.

(2) العيني، عمدة القاري، ج.18، ص.259، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج.8، ص.280، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج.1، ص.163، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج.5، ص.479.

.F. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton, 1981) , 98 – 99 (3)

من الدولة الإسلامية. فإن معركة مؤتة وذات السلسل أثبتت للبيزنطيين أن تلك الدولة الإسلامية باتت تشكل تهديداً واضحاً لها على تخوم دولتها، فلا بد من التحالف الداعي لحراسة بلاد الشام.

إضافة إلى ذلك، إن الموضوع التجاري والاقتصادي كان حاضراً في الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية، فلا بد من تأمين علاقة مع تلك القبائل لحفظ الخط التجاري بين بلاد الحجاز وببلاد الشام، فكان لا بد من حملة عسكرية - وإن لم تؤد إلى الاقتتال والاشتباك - تظهر فيها الدولة الإسلامية حضورها وقوتها، وأن تعقد اتفاقيات مع تلك القبائل العربية المنتشرة شمالاً⁽¹⁾.

د. حسم مادة النفاق في المدينة:

كان أكيدر ملك دومة الجندي، أحد زعماء القبائل المرتبطة بالروم في شمال الجزيرة. ويبدو أن نصارى العرب كتبوا إلى هرقل يحرّضون على قتال النبي ﷺ. فبعث هرقل رجلاً من عظمائهم، أبا عامر الفاسق، وجهز معه أربعين ألفاً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، وبقي المنافقون يرصدون قدومه⁽²⁾، وجعلوا يتخلّلون أصحاب النبي ﷺ ويخوّفونهم من قوته، ثم قدمت جماعة من التجار الأنبياط من الشام إلى المدينة، فذكروا للمسلمين أن الروم جمعوا جموعاً كثيرة بالشام، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء لحربهم⁽³⁾.

العقبات التي سبقت غزوة تبوك

1. الخوف والرعب من الروم:

المشكلة الأساسية التي سبقت الغزوة الخوف والرعب من الروم⁽⁴⁾، فلم يكن

(1) F. Donner, The Early Islamic Conquests (Princeton, 1981), 102.

(2) الطبراني، جامع البيان، ج 11، ص 33، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 470 و 471.

(3) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 3، ص 338، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 3، ص 381، ابن الأثير، أسد الغابة، ج 4، ص 271، العيني، عمدة القاري، ج 18، ص 45، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 165، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 34.

(4) البهقي، السنن الكبرى، ج 9، ص 33، الواقدي، المغازى، ج 2، ص 992.

المسلمون يتوقعون من تلك الغزوة غنائم ولا سبياً، ولا فتح بلاد؛ لأنهم كانوا يعرفون أنَّ الحرب ستكون مع الروم، ومع الروم لا يسهل الحصول على شيء من ذلك.

2. المنافقون:

بلغ رسول الله ﷺ أنَّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويم اليهودي، يشبوطون الناس عن رسول الله ﷺ. فأبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق⁽¹⁾ عليهم بيت سويم اليهودي. ففعل طلحة، واقتصر الضحاك بن خليفة من ظهر البيت هارباً⁽²⁾.

خطوات النبي في الحفاظ على المدينة

1. استخلاف الإمام على علية السلام:

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة علياً بن أبي طالب، فإن حركة النفاق أخذت تنمو بعد اندحار المشركين داخل الدولة الإسلامية بعد فتح مكة، وهذا يشكل خطراً كبيراً جدًا على الإسلام، ويطلب أن يبقى في المدينة شخص قادر على مواجهة هذا الخطر في حال حصول أي حادثة قد تؤدي إلى زعزعة الاستقرار في مركز الدولة الإسلامية، فإماماً أن يبقى رسول الله ﷺ، وإنما أن يبقى الإمام على علية السلام كما جاء الأمر الإلهي، فقد أوحى الله تعالى إليه: «يا محمد، إنما أن تخرج أنت وقيم على، وإنما أن يخرج على وقيم أنت». فقال علي علية السلام للنبي ﷺ: «أخرج معك؟»، فقال له النبي ﷺ: «لا! إنه لا بد من أن تقيم أو أقيم، يا علي، إن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك»⁽³⁾.

وبذلك فوت رسول الله ﷺ على المنافقين فرصة ثمينة باستخلاف الإمام على علية السلام. ولذا لما خرج رسول الله ﷺ خاض المنافقون في ذلك، وقالوا إن رسول الله ﷺ لم يستخلفه إجلالاً ومودة، وإنما خلفه استثقالاً له، أو كره قربه وساء فيه رأيه، فلما بلغ

(1) لقد عالج العلامة المحقق السيد جعفر مرتضى العاملي، قضية قطع الأشجار وإحراقها، وإحراق البيوت بشكل مسهب ومفصل، راجع: الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 29، ص 203.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 7، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 4، ص 6، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 437.

(3) المصنف للصنعاني، ج 5، ص 406، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 442، الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ص 115، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 94.

أمير المؤمنين عليه السلام ذلك، أراد تكذيبهم، وإظهار فضيحتهم، فلحق بالنبي صلوات الله عليه حتى انتهى إليه، فقال له رسول الله صلوات الله عليه: «ما جاء بك يا علي؟!»، فقال صلوات الله عليه: يا رسول الله، إني سمعت ناساً يزعمون أنك خلّفتني لشيء كرهته مني. فقال رسول الله صلوات الله عليه: «ارجع يا أخي إلى مكانك، فإن المدينة لا تصلح إلا بي أو بك. فأنت خليفي في أهل بيتي، ودار هجرتي وقومي، ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟! إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفي». فقال علي صلوات الله عليه: «رضيت».

⁽¹⁾.

2. كشف زيف المنافقين:

ضرب عسكره فوق ثنية الوداع بمن تبعه من المسلمين⁽²⁾، وعسكر عبد الله بن أبي سلول، في الجرف. فلما تحرك النبي صلوات الله عليه تخلف المنافقون بقيادة ابن أبي، وقفلوا راجعين إلى المدينة، فقال خاتم النبيين صلوات الله عليه: «حسبي الله، هو الذي أيدني بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم»⁽³⁾.

خطوات النبي صلوات الله عليه وأعماله في تبوك

أوحى الله تبارك وتعالى إلى نبيه صلوات الله عليه وعرفه ما اجتمع عليه المنافقون وغيرهم، وأمره بالمسير إلى تبوك، وأن يستنفر الناس للخروج معه، وأعلمته أنه لا يحتاج فيها إلى حرب، وأن الأمور تنقاد له بغير سيف، فأمر المسلمين جميعاً بالجهاز والاستنفار استعداداً لحرب الروم.

ثم سار رسول الله صلوات الله عليه بأصحابه، وكان ذلك في زمان عسراً من الناس، وشدة من

(1) الشيخ المفید، الإرشاد، مصدر سابق، ج 1، ص 156، ابن عساکر، تاریخ مدینة دمشق، ج 42، ص 151، ابن سعد، الطبقات الکبری، ج 3، ص 24.

(2) مسلم النیسابوری، صحيح مسلم، ج 4، ص 2120 - 2128. الصالحی الشامی، سبل الهدی والرشاد، ج 5، ص 473، العینی، عمدة القاری، ج 18، ص 45.

(3) الواقدی، المغازی، ج 3، ص 990. الشیخ الطبرسی، إعلام الوری، ج 1، ص 243. البیکوی، تاریخ البیکوی، ج 2، ص 58، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 182.

الحرّ، فتخلّف عنه كثيرون، متعلّلين بعلل شتّى، وفي طريقه مرّ بالحجر، وهي أطلال قوم صالح، فتفقّع بردائه وهو على الرحل، راكبًا على ناقته، ثم أمر رسول الله ﷺ المسلمين أن لا يحملوا من مائتها شيئاً ثم ارتحل. بعدها نزل منزلًا آخر وليس معهم ماء، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فقام وصلّى ركعتين، ثم دعا، فأرسل الله سبحانه وتعالى سحابة، فأ茅طّرت عليهم حتّى استقوا منها⁽¹⁾.

وقد أقام رسول الله ﷺ في تبوك عشرين ليلة يقصّر الصلاة⁽²⁾، وقيل بضع عشرة ليلة، وقام بأعمال تأسيسية عدّة لزرع بذور الإسلام في تلك المنطقة، وهي:

1. بناء مسجد تبوك:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، خطب بالمسلمين ووعظهم⁽³⁾، ثم قام ببناء المسجد والصلاحة فيه، وتعيين قبلته بواسطة وضع حجر فيها، ليعرف الناس موضع صلاتهم، ويكون المسجد هو نقطة الارتكاز في تحركهم في تلك المنطقة.

2. عقد الاتفاقيات والمعاهدات:

لما وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك، ألقى الله تعالى الرعب في قلوب أعداء الإسلام، وأرسل قبائله وكتبه لدعوتهم إلى الإسلام، فبادروا إلى إعلان إسلامهم أو استسلامهم. وقد تم ذلك عبر عقد معاهدات مختلفة مع القبائل الكبرى المستوطنة جنوبى بادية الشام، فوفد إليه كثيرٌ من أهلها. وكذلك أسلم بعض العرب ممّن كتب لهم

(1) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 154، الواقدي، المغازى، ج 3، ص 1009، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 370، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص 279، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 13، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 949، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 448.

(2) ابن حزم، علي بن أحمد، المحملى، دار الفكر، لات. لاط، ج 5، ص 25، السجستانى، سنن أبي داود، ج 1، ص 276، البيهقي، السنن الكبرى، ج 3، ص 15، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 2، ص 532، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 953، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 373.

(3) أحمد بن حنبل، مسنّد أحمد بن حنبل، ج 3، ص 37، الحاكم التيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج 2، ص 67، البيهقي، السنن الكبرى، ج 9، ص 160، ابن أبي شيبة، المصنف، ج 4، ص 592، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 4، ص 23، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 1، ص 437، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج 9 ص 273، ج 5 ص 452.

رسول الله ﷺ⁽¹⁾، وكان اليهود قد ارتكبوا تجاوزات واعتداءات على المسلمين، فغفر لهم ذلك رسول الله ﷺ وأحسن إليهم وأجارهم، وأجرى فيهم حكم التوراة. ثم صادر آلة حربهم وما يتقوون به على العدوان، وشرط لهم أن لا أمير عليهم إلا من أنفسهم، أو من أهل رسول الله ﷺ.

3. رسالة النبي ﷺ إلى هرقل:

أرسل النبي ﷺ كتاباً إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام أو دفع الجزية⁽²⁾. ويبدو أن هرقل وصلته أخبار الحملة النبوية، وأن أبي عامر مات في الشام الذي كان قد جهزه⁽³⁾. فهاب محاربة رسول الله ﷺ، ولم يلق النبي كيداً، وأتته رسل هرقل، فكساهم وردهم⁽⁴⁾.

النتائج العامة لغزوة تبوك

- شُكِّلت معركة تبوك نصراً حاسماً للمسلمين على الإمبراطورية الرومانية.
- استطاع رسول الله ﷺ بحكمته في العمل السياسي أن يجعل القبائل العربية المناهضة للإسلام، تعلن إسلامها، أو تعقد معااهدات واتفاقيات مع المسلمين⁽⁵⁾.
- برز المسلمون في هذه الغزوة كقوة منظمة تملك العقيدة القوية والعتاد القوي، فكان هذا إنذاراً حقيقياً لكل القوى خارج دار الإسلام، وتحذيراً لها من التعرض للمسلمين.

محاولة اغتيال النبي ﷺ

حين رجوع الجيش الإسلامي من تبوك، ولما كان رسول الله ﷺ بعض الطريق،

(1) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 3، ص 338، ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 3، ص 381، ابن الأثير، أسد الغابة، ج 4، ص 271.

(2) الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، تحقيق وتخریج: حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، ل.ت، ط 2، ج 12، ص 442، الهيثي، مجمع الزوائد، ج 5، ص 306، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 457.

(3) ابن شبة التميري، تاريخ المدينة، ج 1، ص 55، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 471، ج 12، ص 72.

(4) البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 368.

(5) البلاذري، فتوح البلدان، ج 71، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 146.

مكر به ناس من قريش ومن المنافقين، وكانوا قد أجمعوا أن يقتلوه، ولما سلك رسول الله ﷺ العقبة أرادوا أن يسلكوها معه، وقالوا: «إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي»، فأخبر الله تعالى رسوله بمكرهم، فأمر مناديه فنادى: «ألا لا يسبق رسول الله أحد على العقبة ولا يطؤها حتى يجاوزها رسول الله، وأن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد، واسلكوا بطن الوادي، فإنه أسهل لكم وأوسع».

وهكذا، سلك الناس بطن الوادي، إلا المتآمرين الذين مكروا برسول الله ﷺ، فإنهم لما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا، وسبقوا رسول الله إلى العقبة، فرأهم حذيفة، ثم وصل رسول الله ﷺ وسلك العقبة، وأمر عمّار بن ياسر أن يأخذ بزمام الناقة ويقودها، وأمر حذيفة بن اليمان أن يسوق من خلفه. وبينما رسول الله ﷺ يسير من العقبة، إذ سمع حسّ المتآمرين قد غشوه، ودحرجو الدباب المليئة بالحصى، فنفروا ناقة رسول الله حتى سقط بعض متاعه، ولكن الله تعالى قد حفظ نبيه، ولم يتم لهم ما أرادوا، وجاز العقبة غاضبًا، وأمر حذيفة أن يردهم، فرجع حذيفة إليهم⁽¹⁾، فعلم المتآمرون أن رسول الله ﷺ قد أطلع على مكرهم، فانحاطوا من العقبة مسرعين حتى خالطوا الناس⁽²⁾، وقد أعلم الله تعالى النبي ﷺ بأسماء أولئك المجرمين، فأعلم بها حذيفة⁽³⁾.

تهديم مسجد الضرار

ابنى سعد بن أبي خيثمة وبنو عمرو بن عوف مسجداً في قباء، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يأتيهم فيصلي فيه. أتاهم فصلٍ فيه، فحسدهم إخوتهم بنو غنم بن عوف⁽⁴⁾، وقاموا ببناء مسجد، وكان هدفهم هو الإضرار بأهل الإسلام، وأن يتستّروا على مكائد them، ومؤامراتهم، والاستغناء عن الحضور في مسجد النبي ﷺ. ولما فرغوا من بناء مسجدهم،

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص 64، ص 116 - 132.

(2) الواقدي، المغازي، ج 3، ص 1043، الشيخ الطبرسي، إعلام الوري، ج 1، ص 245، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 5، ص 466.

(3) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص 128، الشيخ الصدوق، الخصال، ج 2، ص 499.

(4) الفخر الرازي، التفسير الكبير، ج 16، ص 195، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 403، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 2، ص 373، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 956.

كان رسول الله ﷺ قد عزم على الرحلة إلى تبوك، فطلبوه منه أن يصلي فيه ليأخذوا شرعية لأعمالهم بذلك، إلا أن رسول الله ﷺ أخبرهم بأنه يريد الخروج إلى تبوك⁽¹⁾. فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ أَتَحْدُوا مَسْجِداً ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا لَحْسَنَى وَاللَّهُ يَشْهُدُ إِنَّهُمْ لَكَذِيلُونَ﴾⁽²⁾، فدعا رسول الله ﷺ عمّار بن ياسر وآخرين، وقال لهم: «انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فهدموه، وحرقوه»⁽³⁾، فخرجوه حتى أتوا المسجد بين المغرب والعشاء، وهدموه حتى وضعوه بالأرض، وتفرق عنه أهله، وأمر أن يُتخذ كنasseة تلقى فيه الجيف⁽⁴⁾.

(1) الطبرى، جامع البيان، ج 11، ص 32، الشعابى، يحيى بن محمد، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، 2002م، ط 1، ج 5، ص 92، البعوى، معالم التنزيل في تفسير القرآن، تحقيق : خالد عبد الرحمن العك، دار المعرفة، بيروت، لبنان، لات، لاط، ج 2، ص 326.

(2) سورة التوبة، الآية 107.

(3) الشيخ الصدوق، الخصال ص 562، الشيخ الطوسي، الأمالى، ص 318، الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 298، الشيخ الطبرى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 126.

(4) الشيخ الطبرى، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 26، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 8، ص 258، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 29، ص 59، ج 30 بأكمله.

المفاهيم الرئيسية

- بدأ رسول الله ﷺ بإرسال سرايا الدعوة والتبليغ، وأرسل إلى اليمن رسائل عدّة:
 - أ. أرسل النبي ﷺ رسلاً إلى أذواه اليمن وأقىالها لدعوتهم إلى الإسلام.
 - ب. عَيْنُ النَّبِيِّ ﷺ الإمام علياً عليهما السلام على رأس سراياه إلى اليمن لمقاتلة عمرو بن معدى كرب، الذي اعتدى على المسلمين بعد ارتداده، فخرج الإمام علي عليهما السلام إلى بني زبيد، وخرج خالد بن الوليد إلى قبيلة جعفي، فافترقت فرقتين، فبلغ الإمام علي عليهما السلام ذلك، فأرسل إلى خالد بالتوقف عن السير، فتمرد خالد فأرسل له خالد بن سعيد، فمنعه من السير، ثم قاتل عمراً وهزمه.
 - ج. كان خالد بن الوليد قد أصاب غنائم من مشركي اليمن، فأرسل إلى النبي ﷺ من يقبض منه ذلك، فأرسل له الإمام علي عليهما السلام، فقسم الغنائم.
- لقد كانت لغزوة تبوك أهداف عدّة، منها: تثبيت إمامية أمير المؤمنين علي عليهما السلام، نشر الإسلام في شمال الجزيرة العربية، مواجهة احتمالات الحرب من الشمال، حسم مادة النفاق في المدينة.
- لقد واجهت غزوة تبوك عقبات عدّة، وهي: الخوف والرعب من الروم، وأعمال المنافقين وتحركاتهم.
- خطوات الحفاظ على المدينة: أ. استخلاف الإمام علي عليهما السلام. ب. كشف زيف المنافقين.
- لما وصل النبي ﷺ إلى تبوك قام بأعمال عدّة، هي: بناء مسجد تبوك، عقد الاتفاقيات والمعاهدات مع قبائل العرب، إرساله ﷺ رسالته إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام.
- كان لمعركة تبوك نتائج عدّة: شكلت نصراً على الإمبراطورية الرومانية، إسلام الكثير من القبائل العربية، بروز الإسلام كقوة منظمة في المنطقة.
- حاول المنافقون اغتيال النبي ﷺ في طريق العودة من غزوة تبوك إلا أن إرادة الله حالت دون ذلك وتم افتتاح أمرهم.

الدرس التاسع والعشرون

عام الوفود وتصفية الوجود الوثني داخل الجزيرة

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف كليات السياسة العامة لرسول الله ﷺ مع الوفود الواقفة.
2. يفهم فلسفة إعلان البراءة من المشركين وآثارها.
3. يشرح دور الإمام علي عليه السلام في اليمن.

تمهيد

ما إن استقرَّ النبِيُّ ﷺ قليلاً، حتَّى بدأت الوفود تتقدَّم على عليه، معلنة استسلامها أو إسلامها على يديه، أو منظاهرة بذلك. وخلال هذه الفترة، كان النبِيُّ يتقدَّم ما بقي من جيوب الشرك، ويرسل سراياه وبعوته ورسله لتطهيرها وهداية أهلها. وارتاحت نفسه الشريفة وهو يرى أنَّ بلاد العرب قد توحَّدت حول دين التوحيد، ولأول مرة في التاريخ، وبكلفة بشرية لا تتجاوز أربعين قتيلاً، وبمدة زمنية لم تتجاوز تسعة سنين، واطمأنَّ قلبه الطاهر وهو يرى دين الإسلام قد أصبح ديناً لكلِّ سُكَّان بلاد العرب. وصرَّح النبِيُّ علَّنا بأنَّ الشيطان قد يئس من أنْ يُعبد في بلاد العرب، وكان فتح مَكَّة بأيدي المسلمين، ثم هزيمة التحالف الوثني في حنين آخر ضربتين حاسمتين للوجود الوثني في الجزيرة، انهار بعدها جدار الكفر وانطلقت حركة الإسلام بسرعة إلى كلِّ مكان. وأدركت القبائل العربية أنَّ لا مناص لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته المنفردة بالحكم والسلطان في الجزيرة كلَّها، فراحَت تتتسابق هذه القبائل في إرسال وفودها إلى قاعدة الإسلام، مدينة الرسول ﷺ لمبايعته على الإسلام أو مصالحته، وكانت كلَّ هذه الوفود تأتي إلى المدينة بعنوان أنَّها تعهَّد بإسلام قومها الذين لم يحضروا. ولكثرَة هذه الوفود في العام التالي لفتح مَكَّة ومطلع العام الذي يليه سَمَّاه المؤرخون «عام الوفود».

السياسة العامة لرسول الله ﷺ مع الوفود

خَصَّصَ النبِيُّ ﷺ داراً لنزول الوفود فيها، وهي دار رملة بنت الحارث. وكان بلال يأتيهم بغداء وعشاء إلى أن يلتلقوا برسول الله ﷺ. وحين كان يلتقي بهم كان يسألهم

عن أحوال بلادهم وشؤونهم، وكان غالباً ما يساعدهم بالدعاء لهم، وبالاستعانة بالقدرة الإلهية. وكان ﷺ يجيبهم عن مختلف تساؤلاتهم ويبعد شكوكهم وأوهامهم، وكان يغير أسماءهم الشخصية إذا كانت من مخلفات الجاهلية. ثم كان في النهاية يجيز لتلك الوفود بأوامرٍ من الفضة، هدية منه وعطاءً نبوياً ترغيباً بالإسلام وتحبيباً بالنبي ﷺ، وحتى يُظهر لهم الكرامة الإلهية لكي يلمسوها بأنفسهم، ليسهل عليهم أمر الإيمان بالغيب، وبالرعاية الإلهية.

وربما أعطى رسول الله ﷺ من هذه الهبات والهدايا زعيم القبيلة منهم أكثر من غيره من أفراد القبيلة، ولكن ذلك لم يكن تكريساً للزعamas الجاهليّة، بل كان لا بدّ من الاعتراف به كواقع موضوعيّ قائم، ويسعى في الوقت نفسه إلى استصلاح تلك الزعامات، وإعطائهما الفرصة للتغيير أووضعها بما ينسجم مع دين الإسلام وثقافته الجديدة، وبما يخدم الأهداف العليا البعيدة المدى، إذ إن إسقاط تلك الزعامات دفعة واحدة لن ينتج إلا هرجاً ومرجاً، ودفع تلك الزعامات إلى العبث بأمن الناس وبراحتهم، وربما السعي إلى تضليلهم، وإخراجهم من الإسلام في النهاية.

كذلك كان هناك محذور خطير من تجاوز الزعامات التقليديّة للقبائل العربيّة، فإذا ظهر لقبائل العرب أنّ السياسة النبوية هي إسقاط الزعامات واستبدالها بأخرى، فسوف يصبح من الصعوبة بمكان اتخاذ قرار بدخول القبائل في هذا الدين، خصوصاً إذا سعت تلك الزعامات إلى إبعاد أفراد قبيلتهم عن كلّ ما من شأنه أن يزعزع أركان زعمتهم، وسوف يتسلّلون من أجل ذلك إلى إثارة العصبيّات، وشحن النّفوس، مما سوف يؤدي إلى أن يصبح دخول القبائل في الإسلام من أصعب الصعاب، وسوف يصبح السيف هو الوسيلة الوحيدة إلى ذلك، ولن يكون من السهل أن تقبل القلوب عليه، وهذا يتنافي مع المبدأ الإسلاميّ: ﴿لَا إِكْرَاهٌ فِي الدِّينِ﴾^(١).

كذلك كان النبي ﷺ يكتب لهم إقطاعاً ومراعيًّا لأنعامتهم، ربما لأنّ أهلها تركوها، أو

(1) سورة البقرة، الآية 256.

ليس لها من يهتم بها، أو ربّما كان هؤلاء هم الأقرب أو الأقدر على إحيائها من غيرهم، فلم يعط أحد حُقاً لمسلم، كما أن هذا الإقطاع كان دائمًا مشروطًا بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة، فمتى لم يقوموا بهذه الشروط سقطت مالكيتهم.

وكان النبي ﷺ يشترط على وفود قبائل العرب ضيافة جيوش المسلمين في الكتب التي كان يكتبها لهم، حتّى يخفّف عن تلك الجيوش، فلا تتكلّف بحمل زادها، وحتّى يضمن لها الدعم اللوجستي في كلّ مكان تصل إليه. كما كان ذلك يؤتي ثماره على مستوى تلك القبائل، فيصبح لها نحو مشاركة في الجهاد الإسلامي العام، ونصيب من التضحية في سبيل الله، وتترسّخ محبتها للمجاهدين، مما سوف يرسّخ الأخوة الإسلامية في المجتمع الجديد، ويزيل من القلوب روح العصبية الجاهلية، والشحنة والحداد.

وفي النهاية، كان رسول الله ﷺ يؤمّر عليهم واحداً منهم، يكون نقيباً ومسؤولاً من قبله ﷺ عن أحوالهم وشؤونهم، وداعياً إلى الله تعالى في قبيلته، فإنّ الدعوة حين تأتي من خارج القبيلة تبقى هناك حالة من التراخي في مناصرتها، ولا تحظى بالحرص والاندفاع الذي تحظى به لو كان لها في داخل القبيلة مؤيد ونصير ومحسوب عليها. وكانت الوفود قد بدأت ترد على رسول الله بعد عام الخندق، زرافات ووحداناً، بعضهم يمثلون أنفسهم، وبعضهم يمثلون قبائلهم، فقدّمت قبيلة أشجع وقدم أبو صفرة على رسول الله ﷺ وبأيّده، ثمّ وفد رفاعة بن زيد الجذامي، ثمّ وفدبني عامر وغيرهم^(١).

بعثة الإمام علي عليه السلام إلى اليمن

بعد مرّجع النبي ﷺ من تبوك في سنة تسع، كان أهل اليمن قد شعروا بحاجتهم إلى من يفقّههم في الدين، فجاء وفد همدان إلى رسول الله ﷺ مع وفود مملوك حمير، وكان الوافد من كلّ بطن من همدان سيدّهم. وكان مجموع وفد همدان مئة وعشرين نفساً، وطلّبوا منه ذلك، فقالوا: «ابعث فينا من يفقّهنا في الدين، ويعلّمنا السنن، ويحكم

(١) الواقدي، المغازي، ج 2، ص 557. الطبرى، تاريخ الأمم والملوک، ج 2، ص 398، ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 992، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 7، ص 185، للتوضّع حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم، ج 27، ص 75، ج 28 بأكمله.

فيينا بكتاب الله»، فقال النبي ﷺ لعليٍّ رضي الله عنه: «انطلق يا عليًّا إلى أهل اليمن، ففقههم في الدين وعلّمهم السنن، واحكم فيهم بكتاب الله». فقال عليٌّ رضي الله عنه: «إنَّ أهل اليمن قوم طغام، يأتوني من القضاء بما لا علم لي به».

فوضع يده على صدره وقال: «اذهب، فإنَّ الله سيهدي قلبك، ويثبت لسانك. يا عليًّا، إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر»⁽¹⁾. فما شَكَّ عليٌّ رضي الله عنه في قضاء بين اثنين⁽²⁾.

فكان الإمام عليٌّ رضي الله عنه أول قاضٍ بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ليدعوهم إلى الإسلام، وليخمس ركاذهما، ويعلمهم الأحكام، ويبين لهم الحلال والحرام، وإلى أهل نجران ليجمع صدقاتهم، ويقدم عليه بجزيتهم.

مصالحة أهل نجران

تقع منطقة نجران على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن. وكل أهل نجران نصاري، صالحهم رسول الله ﷺ، وكتب إليهم قبل أن ينزل عليه: {طس} ⁽³⁾، وإنَّهُ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ⁽⁴⁾، ما يلي: «بسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي إلى أسقف نجران وأهل نجران، إن أسلتم فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولية الله من ولية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم فقد آذنتم بحرب والسلام»⁽⁵⁾.

(1) أحمد بن حنبل، مسنَدُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، ج 1، ص 83، ابن سعد، الطبقات الْكَبْرَى، ج 2، ص 337، البهقي، السنن الْكَبْرَى، ج 10، ص 140، النسائي، خصائص أمير المؤمنين رضي الله عنه، ص 12، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 2، ص 236، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 1، ص 259، ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار ص 256، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 8، ص 52، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 124.

(2) وكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج 1 ص .86.

(3) سورة النمل، الآية 1.

(4) سورة النمل، الآية 30.

(5) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 415، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 53، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 65. ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، ج 3، ص 39، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 2، ص 50.

فاجتمع زعماء نصارى نجران وحكماً لهم يتدارسون أمر كتاب النبي ﷺ الذي يدعوهم فيه إلى الإسلام، فأجمع أهل الرأي منهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة الهمданى، وجماعة، فيأتياه بخبر رسول الله ﷺ.

فاستقبلهم النبي ﷺ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم آيات من القرآن، فامتنعوا وكثروا الحجاج معهم. فلما أصبحوا عادوا إليه، فقرأ عليهم الآيات، فأبوا أن يقرؤوا. فأمر تعالي نبيه الكريم ﷺ بمباهلتهم، فأقبل رسول الله ﷺ مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له، وفاطمة الزهراء ؓ تمشي خلفه، وعلى بن أبي طالب ؓ خلفها، فقال النبي ﷺ: «اللهم هؤلاء أهل بيتي»، «إن أنا دعوت فأمنوا أنتم»⁽¹⁾.

وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبي ﷺ أقبل بمن معه، سأله عنهم فقيل له: «هؤلاء أعز الناس عليه، وأقربهم إلى قلبه»، فقال له أهل نجران: «لم لا تباهلكن بأهل الكرامة والكبر، وأهل الشارة ممن آمن بك واتبعك؟!»، فقال ﷺ: «أجل، أبا هلكم بهؤلاء خير أهل الأرض، وأفضل الخلق». ولم يصحب النبي ﷺ أحداً من المسلمين سوى أهل بيته ؓ هؤلاء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. فقال أسقفهم: «إني لأرى وجوهاً لو سألا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لازله، فلا تباهلو فتهلكوا»⁽²⁾. وبعد امتناع وفد نصارى نجران عن الدخول في الملاعنة، وتقرر ضرب الجزية عليهم، انصرفوا. وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً أقرّهم فيه على دينهم، ولم يتدخل في شؤونهم،

(1) ابن البطريق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص132، ص188، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص45، ص129، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6 ص419، 64.

(2) علي بن إبراهيم القمي، تفسير القمي، ج 1، ص104، العياشي، تفسير العياشي، ج 1، ص176، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص166، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج 7، ص120، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص54، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 3، ص368، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، دلائل النبوة، ل.ت، ل.ط، ص298، الحاكم الحسكناني، شواهد التنزيل، ج 1، ص123، الخوارزمي، المناقب، ص59، فرات بن إبراهيم الكوفي، تفسير فرات الكوفي، ص14، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحاحين، ج 3، ص150، ابن الأثير، أسد الغابة، ج 4، ص26، البهقي، السنن الكبرى، ج 7، ص63، الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 2، ص485، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 2، ص392.

فأعطاهم ذمته في أمور كثيرة كلها لمصلحتهم، وكان الكاتب لهذا الكتاب هو علي بن أبي طالب عليه السلام. ولما قبض النجرانيون كتابهم انصرفوا إلى نجران⁽¹⁾.

إعلان البراءة من المشركين

1. فلسفة إعلان البراءة من المشركين:

فتحت مكة في سنة ثمان، وانتشرت العقيدة الإسلامية في الجزيرة العربية، وكان لا بد من إعلان صريح حازم يلغى كلّ مظاهر الشرك والوثنية في مناسك أكبر تجمع عبادي سياسي، فقد كان المشركون يحجّون مع المسلمين ويعارضونهم برفع أصواتهم ليغلوthem بذلك، وكان العهد بين رسول الله صلوات الله عليه وسلم والمشركين عاماً وخاصة؛ فالعام أن لا يصد أحد عن البيت جاءه، ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم، فانتقض ذلك بسورة براءة. والخاص بين رسول الله صلوات الله عليه وسلم وبين قبائل من العرب إلى آجال مسمّاة⁽²⁾.

ثم جاء الحكم الإلهي الصريح بشأن البراءة من الشرك والمشركين، حين نزول سورة براءة، فلم ينقض رسول الله صلوات الله عليه وسلم عهداً مع أحد، عاماً كان أو خاصّاً، بل أعلن، تبعاً لآيات سورة براءة، أن كلّ من كان بين النبي وبينه عهد فعده باقي إلى انتهاء مدته، ولكن مع المنع من تجديد العهد معه. وأماماً من لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر من أجل إعطاء المشركين مهلة لكي يحسموا خياراتهم بروية وهدوء، بعيداً عن أيّ ضغط أو إكراه. وفي السنة التاسعة للهجرة في ذي الحجة، اختار النبي صلوات الله عليه وسلم يوم النحر في منى مكاناً لإعلان البراءة.

2. رسول الله يكرّس خلافة الإمام على عليه السلام:

لم يكن تبليغ سورة «براءة» تبليغاً عادياً؛ لأنّ النبي صلوات الله عليه وسلم أرسل مئات الرسائل مع

(1) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 82، البلاذري، فتوح البلدان، ج 1، ص 78، الحموي، معجم البلدان، ج 5، ص 269، ابن أبي شيبة، المصنف، ج 14، ص 550.

(2) ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 275.

مختلف الأشخاص إلى الملوك، وإلى القبائل، والبلاد، والفتات والجماعات، وقد كان هذا تبليغاً عنه، ولم يكن هو شخصياً المبلغ ولا رجل منه. بينما كان المقصود من تبليغ سورة «براءة»، التبليغ عنه في ما هو من شأنه كمبلغ عن الله، وهذا يرتبط بالشريعة والكتاب، وليس ما كان رسول الله ﷺ يبعث الرسل فيه من هذا القبيل.

فإن الذين كان يرسلهم إلى الملوك والجماعات برسائله لم يكونوا هم الذين يبلغون عنه، بل كانت الرسالة هي التي توصل مراد رسول الله ﷺ إلى الأشخاص أو الجماعات. وأما في تبليغ سورة «براءة»، فقد كان المطلوب من حامل الآيات أن يتولى هو مهمة التبليغ عن رسول الله ﷺ، وأن يعلن الحرب على من يصر على انتهاك حرمة المسجد الحرام بعد ذلك العام، وأن يبلغ أحكاماً وقرارات حازمة وحاسمة، ترتبط بمستقبل الدولة الإسلامية، وتقطع أمل كل أهل الشرك من أن يجدوا في الإمام الخليفة بعد النبي ﷺ أدنى ضعف أو خور أو تعاطف معهم بعد وفاته، وأن تقطع قريش أملها بمجيء خليفة خاضع لها، وأن الخليفة بعد النبي هو هذا الخشن في ذات الله، والذي لم يشرك بالله طرفة عين، والذي هو نفس الرسول ﷺ بنص القرآن، وهو أخوه، وهو منه بمنزلة هارون من موسى.

إذا كان علي عليه السلام هو المبلغ عن رسول الله ﷺ فإنه سوف يكون هو الأعمق أثراً، وهو الأولى بإعلان براءة الله ورسوله من الشرك والمشركيين.

فقد نزل جبريل على رسول الله ﷺ وقال له عن «براءة»: «يا محمد، إن الله تعالى يأمرك أن تبعث علياً بن أبي طالب، وإنه لا يؤديها عنك غيره».

فولى رسول الله علي عليه السلام الموسم، وانطلق علي بن أبي طالب ﷺ يرافقه عمار بن ياسر. ودخل الإمام مكة، وأخذ الصحيفة، وأتى الموسم، وكان يطوف على الناس، وأبلغ الناس سورة «براءة».

ولما أذن علي عليه السلام بـ«براءة» في مكة أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك

العام، جزعت قريش جزعاً شديداً. وبعد أن انتهى علیٰ ﷺ من تبليغ رسالة رسول الله ﷺ انصرف إلى المدينة يقصد في السير، وخرج أبو ذر يستقبل علیٰ ﷺ فلقه ببعض الطريق، فالتزمه وقبله، وسبقه إلى رسول الله ﷺ وبشره بقدومه، فقال النبي لأبي ذر: «لك بذلك الجنة».

ثم ركب النبي ﷺ وركب معه الناس، فلما رأه أناخ ناقته، ونزل رسول الله، فتلقاءه والتزمه وعانقه، ووضع خده على منكب علیٰ ﷺ، وبكى النبي ﷺ فرحاً بقدومه. وبكى علیٰ ﷺ معه. ثم سأله عما صنع، فأخبره قائلاً: «كان الله عزّ وجلّ أعلم بك مني حين أمرني بإرسالك»⁽¹⁾.

(1) السيد ابن طاووس، علي بن موسى، إقبال الأعمال، تحقيق: جواد القمي الأصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، 1414هـ ط 1، ج 2، ص 39، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 9، الشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 5، ص 169، الحكم النيسابوري، المستدرك على الصحاحين، ج 3، ص 51، الحكم الحسكناني، شواهد التنزيل، ج 1، ص 318، العلامة المجلسي، بحار الأنوار، ج 35، ص 288، للتوضعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملی، الصحيح من سیرة النبي الأعظم، ج 30، ص 233.

المفاهيم الرئيسية

- بدأت الوفود تتقاطر على النبي ﷺ في المدينة، فخصص لها داراً لنزولها، وكان النبي ﷺ يجيب أفرادها عن مختلف تساؤلاتهم ويبدّل شكوكهم، وكان قد كتب لهم إقطاعاً ومراعيًّا لأنعامهم، وكان يشترط عليهم ضيافة جيوش المسلمين، وكان يجعل عليهم نقيناً له فيهم.
- كان أهل نجران من النصارى، فكتب لهم النبي ﷺ كتاباً يدعوهم فيه إلى الإسلام، فتدارسوا كتاب النبي ﷺ، وأرسلوا له وفداً، فاستقبلهم ﷺ وعرض عليهم الإسلام، وجرت الأيام إلى زمن حصول المباهلة، فقبلوا بها، فخرج النبي ﷺ وأخرج معه الإمام علي عليهما السلام والسيدة فاطمة والإمامين الحسينين عليهما السلام، فلما رأى نصارى نجران ذلك، امتنعوا عن المباهلة، وقبلوا بدفع الجزية.
- بعد استقرار الإسلام، نزلت على النبي ﷺ سورة براءة، فقرر ﷺ أن يعلن البراءة من الشرك والمشركين، على أن من كان له عهد يستمرّ عهده حتى تنتهي مدةه، ومن ليس له عهد فلا عهد له. فلم ينقض النبي ﷺ عهداً مع أحد من الناس، وقد كان وقت إعلان البراءة في موسم الحجّ، حتى يعلم بذلك كل الناس.
- لم يكن تبليغ براءة أمراً عادياً، بل كان يمثل حدثاً مهماً وحساساً على المستوى الإسلامي، فلا بد أن من يبلغ عن النبي ﷺ من يكون من شأنه أن يبلغ عن الله تعالى.
- إنّ في تبليغ سورة براءة تكريساً لخلافة الإمام علي عليهما السلام، فسوف تعلم قريش أنّ علياً عليهما السلام هو الممثل الرئيس للنبي ﷺ في هكذا مواقف تحتاج إلى أن يكون النبي ﷺ حاضراً بنفسه فيها.
- بأمر من النبي ﷺ تولى الإمام علي عليهما السلام موسم الحجّ، وأخذ سورة براءة وبلغها للناس كافة، فجزعت قريش من ذلك جزاً شديداً. ولما قدم الإمام علي عليهما السلام إلى المدينة فرح النبي ﷺ بقدومه حتى خرج من المدينة واستقبله خارجها.

الدرس الثالثون

رسول الله ﷺ ومنتقب الدولة الإسلامية حجة الوداع وإعلان خلافة الإمام

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

عليّ

1. يشرح أهداف ونتائج ما قام به النبي ﷺ في حجّة الوداع.
2. يعرف مجريات يوم الغدير.
3. يحفظ خطبة الغدير للنبي ﷺ.

تمهيد

بعد أن أنهى النبي ﷺ وجود قريش السياسي بفتح مكة، كانت الأمة بحاجة إلى تجمع جماهيري كبير وحاشد، يستطيع فيه رسول الله ﷺ أن يبلغ أكبر قدر ممكناً من أبناء الإسلام تعاليم دينهم، وأن يتعرّفوا بأجمعهم تلك المعالم، وأن يروا رسول الله ﷺ. وكان رسول الله ﷺ يرغب في أن يستفيد من هذا التجمع الكبير في شأن مستقبل الأمة الإسلامية، فيحفظ بذلك الأمة من الضياع من بعده من خلال الحفاظ على مستقبلها السياسي والديني بإبلاغها أمر الولاية، وتعريفها بالإمام عليؑ، وأنه خليفة الأمة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك من خلال إرسال رسائل للأمة عبر الرسل، بل لا بد أن ترى الأمة، كلّ الأمة، شخص عليؑ وتباعيده، وكلّ ذلك إنما يمكن أن يحصل من خلال البيعة العامة في ظلّ الحشد الجماهيري في موسم العبادة.

حجّة الوداع: الأسباب الدينية والهدف التاريخي

كان رسول الله ﷺ قد اعتمد ثلاث عمر متفرّقات، هي: الحديبية، والقضاء، والجعرانة، بعد رجوعه من الطائف من غزوة حنين⁽¹⁾، حتّى كان في ذي القعدة سنة عشر فأجمع الخروج إلى الحجّ، فأذن في الناس أنه حاج في هذه السنة حجّة الوداع، وقد سمي هذا الحج بحجّة الوداع؛ لأنّه ودع المسلمين في هذه الحجّة التي أشعروا فيها دنو وفاته، كما سُمي بحجّة البلاغ؛ لأنّه بلغ فيها ما أنزل إليه من ربّه في شأن الخلافة من بعده، ومنهم من سماها بحجّة الإسلام لأنّها الحجّة الأولى للنبي ﷺ، والتي

(1) ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1، ص 152، الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 235

بَيْنِ فِيهَا أَحْكَامٌ مَنَاسِكُ الْحَجَّ، وَالكَثِيرُ مِنْ تَعَالِيمِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَأَحْكَامِهِ، خَاصَّةً وَأَنْ مُعْظَمَ النَّاسِ كَانُوا قَدْ أَعْلَنُوا إِسْلَامَهُمْ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، وَكَانَ إِسْلَامُ الْأَكْثَرِينَ مِنْهُمْ سَطْحِيًّا، حِيثُ لَمْ يَكُونُوا يَعْرُفُونَ عَنْ هَذَا الدِّينِ الشَّيْءَ الْكَثِيرَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعِيشُونَ فِي بَوَادِيهِمْ، وَوَفَقُ تَقَالِيدِهِمُ الْجَاهِلِيَّةِ، وَعَادَاتِهِمُ الْقَبْلِيَّةِ. وَكَانَ هُنَاكَ طَامِعُونَ وَطَامِحُونَ قَدْ أَذْكَرَ طَمْوِحُهُمْ هَذَا التَّوْسُّعُ السَّرِيعُ وَالْهَائِلُ لِلْإِسْلَامِ. وَلِهَذِهِ الْحَجَّةُ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَهْدَافِ وَالنَّتَائِجِ مِنْ أَهْمَّهَا إِظْهَارُ عَظَمَةِ الْإِسْلَامِ، وَتَوْلِيهِ خَلِيفَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

فَقَدْ أَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُظْهِرَ الْعَظَمَةَ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ لِكُلِّ النَّاسِ، وَخَصْوَصًا أُولَئِكَ الْمُتَمَرِّدِينَ مِنْهُمْ، وَالْمُنَافِقِينَ، وَالَّذِينَ يَحْلِمُونَ بِالْإِرْتِدَادِ عَلَىِ الْإِسْلَامِ عَنْدَ أُولَى فَرَصَةٍ تَسْنَحُ لَهُمْ، وَأَنْ يَظْهُرَ أَيْضًا أَنَّ مَوَازِينَ الْقُوَى قدْ انْقَلَبْتُ لِمَصْلَحةِ الْإِسْلَامِ إِلَىِ غَيْرِ رَجْعَةٍ، ثُمَّ أَرَادَ، أَخِيرًا لَا آخَرًا، تَعْلِيمَ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ مَنَاسِكَ الْحَجَّ الْمُحَمَّدِيَّ الْأَصِيلِ؛ لِأَنَّ الْحَجَّ عِبَادَةٌ أَمْمِيَّةٌ جَمَاعِيَّةٌ عَامَّةٌ، وَهُوَ عَنْوَانُ وَحدَةِ الْأَمَّةِ، وَأَعْظَمُ شَعَارٍ عَلَيِّ التَّوْحِيدِ عَبْرِ الْعَصُورِ.

وَإِلَىِ جَانِبِ كُلِّ تَلْكَ الْأَمْورِ، كَانَ هُنَاكَ السَّبُبُ الرَّئِيسُ، أَلَا وَهُوَ إِعْلَانُ الْوَلَايَةِ الْكَبِيرِيِّ وَالْإِمَامَةِ الْإِلَهِيَّةِ عَلَىِ النَّاسِ، وَتَعْبِينُ عَلَيْهِ بْنَ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام إِمامًا هَدِيًّا لِلْأَمَّةِ بَعْدَ النَّبِيِّ صلوات الله عليه وسلم. فَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ صلوات الله عليه وسلم الْإِسْتِفَادَةَ مِنَ الْحُضُورِ الْكَثِيفِ فِي الْحَجَّ، وَالَّذِي يَعْدُ أَعْظَمَ حَشْدَ جَمَاهِيرِيَّ لِلْأَمَّةِ مُوَحَّدَةً لِلَّهِ مِنْذَ آدَمَ، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْحَجَّةُ التَّأكِيدُ عَلَىِ أَمْرَوْنِ اُسَاسِيَّةٍ وَحَسَّاسَةٍ جَدًّا، وَمَصِيرَيَّةٍ، أَهْمَّهَا التَّأكِيدُ عَلَىِ إِمَامَةِ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام وَإِعْلَانِهَا رَسِمِيًّا فِي أَعْظَمِ تَجْمُعٍ بَشَرِّيٍّ يُمْكِنُ أَنْ يَحْصُلَ فِي تَارِيخِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَفِي تَارِيخِ الدُّعَوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلوات الله عليه وسلم قَدْ كَتَبَ إِلَىِ مَنْ بَلَغَهُ كِتَابَهُ، مَمْنُونَ دَخْلِ الْإِسْلَامِ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ يَرِيدُ الْحَجَّ فِي تَلْكَ السَّنَةِ»⁽¹⁾، حَتَّىَ بَلَغَتْ دُعَوَتِهِ إِلَىِ أَقْاصِي بَلَادِ الْإِسْلَامِ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ،

(1) الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 245، ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة في معرفة الأئمة، ج 1، ص 49.

وتجهـُّزوا للخروج معـهـ، فخرجـ بهـمـ، وأخـرـجـ معـهـ نـسـاءـهـ كـلـهـنـ فيـ الـهـوـادـجـ، وـسـارـ معـهـ أـهـلـ بيـتـهـ، وـالـمـهـاجـرـونـ وـالـأـنـصـارـ عـامـةـ⁽¹⁾.

وـجـعـلـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ عـلـىـ المـدـيـنـةـ أـبـاـ دـجـانـةـ، سـمـاـكـ بـنـ خـرـشـةـ السـاعـدـيـ، وـخـرـجـ نـهـارـاـ لـأـرـبـعـ بـقـيـنـ مـنـ ذـيـ الـقـعـدـةـ. فـلـمـاـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ ذـيـ الـحـلـيفـةـ زـالـتـ الشـمـسـ، فـاغـتـسـلـ، ثـمـ صـلـىـ الـظـهـرـ فـيـ مـسـجـدـ الشـجـرـةـ، وـأـحـرـمـ، وـأـهـلـ بـالـحـجـ، فـلـبـىـ بـالـحـجـ قـارـنـاـ، وـمضـىـ يـسـيرـ الـمـنـازـلـ، وـيـؤـمـ أـصـحـابـهـ فـيـ الـصـلـوـاتـ. وـكـانـ الصـحـابـةـ يـبـنـونـ مـسـاجـدـ فـيـ الـمـوـاـضـعـ التـيـ كـانـ يـصـلـيـ فـيـهـاـ يـتـبـرـكـونـ وـيـتـأسـسـونـ بـهـ، بـمـرـأـيـ وـبـمـسـعـ منـ النـبـيـ نـفـسـهـ⁽²⁾.

رسـوـلـ اللـهـ ﷺ فـيـ مـكـةـ

1. تعـلـيمـ النـاسـ منـاسـكـ الـحـجـ:

دخلـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ وـمـعـهـ الـمـسـلـمـونـ إـلـىـ مـكـةـ لـأـرـبـعـ مـضـيـنـ مـنـ ذـيـ الـحـجـةـ. فـلـمـاـ اـنـتـهـىـ إـلـىـ بـاـبـ الـمـسـجـدـ الـحـرـامـ، وـهـوـ الـذـيـ تـسـمـيـهـ النـاسـ «ـبـاـبـ بـنـيـ شـيـةـ»ـ، اـسـتـقـبـلـ الـكـعـبـةـ، فـحـمـدـ اللـهـ وـأـثـنـىـ عـلـيـهـ، وـأـدـىـ بـعـضـ مـنـاسـكـ الـحـجـ، وـفـيـ كـلـ مـوقـفـ كـانـ يـعـلـمـ الـمـسـلـمـينـ أـحـكـامـ الـحـجـ. وـكـانـ يـقـولـ لـلـنـاسـ حـيـنـ وـصـوـلـهـ إـلـىـ مـكـةـ، وـشـرـوـعـهـ بـالـأـعـمـالـ، بـلـ قـبـلـ ذـلـكـ: «ـخـذـوـاـ عـنـيـ مـنـاسـكـكـمـ، فـإـنـيـ لـأـدـرـيـ لـعـلـيـ لـأـحـجـ بـعـدـ حـجـتـيـ هـذـهـ»ـ⁽³⁾.

2. خطـبـةـ النـبـيـ ﷺ فـيـ عـرـفـاتـ:

فيـ عـرـفـاتـ، نـزـلتـ عـلـىـ النـبـيـ ﷺ سـوـرـةـ الـمـائـدـةـ، فـقـرـأـهـاـ النـبـيـ ﷺ عـلـىـ النـاسـ، وـجـاءـهـ جـبـرـيلـ يـأـمـرـهـ عـنـ اللـهـ بـإـعـلـانـ وـلـاـيـةـ أـمـيـرـ الـمـؤـمـنـينـ عـلـىـ النـاسـ، وـكـانـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ يـخـشـيـ

(1) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج 1، ص 171، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 80، ص 396، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 3، ص 225.

(2) الشيخ الكليني، الكافي، ج 1، ص 233، الشيخ الصدوقي، علل الشرائع، ج 2، ص 412، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 5، ص 454، ابن إدريس الحلي، محمد بن أحمد، مستطرفات السرائر، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، إيران، 1411هـ ط 2، ص 591، العياشي، تفسير العياشي، ج 1، ص 89، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 8، ص 459.

(3) الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 245، الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط، تحقيق ونشر: دار الحرمين، 1995م، لـاطـ، ج 3، ص 238.

قومه من قريش، ويها بهم، ويختلف أهل النفاق والشقاق أن يتهموه، ويكتذبوا، فقال: «إنّ قومي قريبو عهد بالجاهلية، وفيهم تنافس وفخر، وما منهم رجل إلّا وقد وتره ولّهم، وإنّي أخاف متى أخبرتهم بهذا في ابن عمّي أن يقول قائل: حابي ابن عمّه، وأن يطعنوا في ذلك...»⁽¹⁾.

ثم قام النبي ﷺ قبل زوال الشمس، وهو على راحلته القصواء، وخطب في الناس خطبة عظيمة، بين فيها معالم الدين وفضل أهل البيت علیهم السلام. ثم بدأ رسول الله ﷺ يتعربّض لموضوع الإمام، وهنا ضجّ الناس وصرخوا، وكبروا ثم أخفى صوت النبي ﷺ، ثم لغط القوم وتكلّموا، فجعل الناس يقومون ويقعدون، ولم يفهم قول رسول الله ﷺ بعد (كلمة): فقد تكلّم بكلمة لم يفهمها، ولم يسمع ما قال. فقال جابر بن سمرة لأبيه، وكان أقرب إلى راحلة رسول الله ﷺ منه: «ما قال رسول الله ﷺ ما بعد كلّهم؟»، فقال له: قال رسول الله ﷺ: «كلّهم من قريش كلّهم من بنى هاشم»⁽²⁾.

3. خطبة رسول الله ﷺ في مني:

بعد أن رمى النبي ﷺ الحجرات، رجع إلى مني، ثم خطب في الناس، وبعد أن علمّهم الكثير من معالم الدين ومناسك الحجّ، وبين شأن الولاية قال: «أيّها الناس، إن الله عزّ وجلّ أمرني أن أنصب لكم إمامكم، والقائم فيكم بعدي، ووصيّي، وخليفي، والذي فرض الله عزّ وجلّ على المؤمنين في كتابه طاعته، فقرب بطاعته طاعتي، وأمركم بولايته، وإنّي راجعت ربّي خشية طعن أهل النفاق وتكذبهم، فأوعدنا لأبلغها، أو

(1) راجع: الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص 67، ابن طاووس، علي بن موسى، اليقين، الأنصارى، مؤسسة دار الكتاب، 1413هـ ط 1، ص 343، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 2، ص 15، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، 46، ص 318، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ج 2، ص 15، الطبرى، جامع البيان، ج 6، ص 54، وص 106، الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 3، ص 223.

(2) الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ص 384، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ج 1، ص 272، ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، 1405هـ لـ ط، ج 12، ص 343، مسلم النسائي، صحيح مسلم، ج 6، ص 4، السجستاني، سنن أبي داود، ج 4، ص 106، الشيخ الطوسي، الغيبة، ص 88، وص 129.

ليعذبني»⁽¹⁾. ولكن ما جرى في عرفات جرى أيضًا في منى، فقد تجرّأوا على الله تعالى وعلى النبي ﷺ، وحاولوا أن يمنعوا الناس من الاستماع والإنصات إليه ﷺ. ففور انتهاء مراسم الحجّ مباشرةً، ومن دون إبطاء، نفر النبي ﷺ والمسلمون في اليوم الثالث عشر من منى بعد الزوال. ولم يطف بالبيت، ولا زاره، بل هو لم يدخل إلى المسجد الحرام أصلًا، ولو لإلقاء نظرة الوداع على بيت الله تبارك وتعالى⁽²⁾.

غدير خـم والبيعة للإمام عـلـيـ عـلـيـهـ الـسـلـاـمـ

1. مشروع قريش:

حينما انضمّت قريش إلى العائلة الإسلامية العامّة أخذت تنفّذ مشروعها الكبير والخطير، وبدأـت تعارض المشروع الإلهيـ، وتحاولـ إعاـقـتهـ وـمنـعـهـ منـ التـنـفـيـذـ،ـ تـارـةـ باـتـهـامـ شخصـ النـبـيـ ﷺـ عـبـرـ الطـعـنـ وـالـتـشـكـيـكـ فـيـ نـزـاهـتـهـ،ـ وـأـخـرـىـ فـيـ خـلـوـصـ عـمـلـهـ وـنـيـتـهـ،ـ وـثـالـثـةـ بـأـنـهـ يـتـأـثـرـ فـيـ كـلـامـهـ بـالـرـضـاـ وـالـغـضـبـ.ـ وـقـدـ ظـهـرـ ذـلـكـ جـلـيـاـ حـينـماـ اـضـطـرـ ﷺـ لـتأـخـيرـ إـبـلـاغـ مـاـ أـنـزلـ إـلـيـهـ فـيـ شـأنـ الـإـمـامـةـ وـالـوـلـاـيـةـ،ـ بـسـبـبـ الـمـعـارـضـةـ الـكـبـيرـةـ الـتـيـ وـجـدـهـ لـدىـ قـرـيـشـ،ـ وـالـتـيـ لـمـ تـتـورـعـ عـنـ مـوـاجـهـتـهـ بـالـضـجـيجـ وـالـصـخـبـ،ـ وـوـقـفـتـ فـيـ وـجـهـ مـبـاشـرـةـ،ـ وـسـعـتـ لـعـرـقـلـةـ حـرـكـتـهـ،ـ وـمـنـعـهـ مـنـ بـيـانـ أـمـرـ الـإـمـامـةـ،ـ وـإـقـامـةـ الـحـجـةـ فـيـهـاـ.ـ وـجـاءـ التـخـطـيطـ النـبـويـ الـحـكـيمـ لـيـقـضـيـ بـأـنـ يـخـرـجـ ﷺـ مـنـ مـكـةـ فـورـ اـنـتـهـاءـ مـرـاسـمـ الـحـجـ مـبـاشـرـةـ كـمـاـ تـقـدـمـ؛ـ لـأـنـ أـيـ تـأـخـيرـ سـوـفـ يـكـونـ مـعـنـاهـ أـنـ يـخـرـجـ أـشـتـاتـ مـنـ النـاسـ إـلـىـ بـلـادـهـمـ،ـ وـلـاـ يـتـمـكـنـ النـبـيـ ﷺـ مـنـ إـيـصالـ مـاـ يـرـيدـ إـيـصالـهـ إـلـيـهـمـ.

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص 214، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص 277، ابن طاووس، علي بن موسى، التحسين، تحقيق: الأنصارى، مؤسسة الثقلين لإحياء التراث الإسلامي، مؤسسة دار الكتاب، قم، إيران، 1413، ط 1، ص 634.

(2) البهقي، السنن الكبرى ج 3، ص 149، الشيخ الكليني، الكافي، ج 4، ص 248، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج 5، ص 457، للتوضيح حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضى العاملى، الصحيح من سيرة النبي الأعظم ، ج 30، ص 235، ج 31، ص 7.

2. الأمر الإلهي بضرورة تبليغ ولالية الإمام على عليه السلام:

خرج رسول الله ﷺ من مكةً آملاً أن يتمكن من إبلاغ أمر الولاية للناس، مع خوفه الشديد أن تعيد قريش الكراة من جديد. وفي طريق العودة إلى المدينة وجموع المسلمين تحفه من كل جانب، كان النبي ﷺ يحتاج إلى ما يطمئنه إلى عدم إثارة قريش للشبهات التي تضيّع جهده، فاحتاج إلى طلب العصمة من الله سبحانه، فسأل جبرائيل أن يسأل ربه العصمة من الناس. فلما بلغ مسجد الخيف، جاءه جبرائيل، وأمره بضرورة إبلاغ شأن الولاية، ولم يأته بالعصمة، ثم جاءه مرة أخرى في كراع الغميّم، موضع بين مكة والمدينة، وأمره بذلك، ولكنّه لم يأته بالعصمة⁽¹⁾.

ويظهر أنّ قريشاً قد أحسّت بأنّ رسول الله ﷺ يخطّط لأمر مهمٍ خارج مكة. وقبل افتراق الناس وبعد أن أتمّ المسلمون حجّهم الأكبر، وحينما بلغ الكديد، جعل ناس من أصحابه يستأذنون، في محاولة منهم لفرط الجمع الذي ينوي رسول الله الاستفادة منه، أو للفرار من مسؤولية الاستماع لتبليغ الإمامة. فجعل ﷺ يأذن لهم، وقال متضايقاً من تصرفهم: «ما بال شقّ الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليكم من الشقّ الآخر؟». فجعل المخلصون منهم، ولعلّهم الذين كانوا يعلمون بخطّته من مقربي أصحابه ييكون تأثراً⁽²⁾.

ومع ذلك، فقد أصرّ النبي ﷺ على خطّته، وقطع المسافة ما بين مكة والجحفة، حيث غدير خمّ، بسرعة قياسية، من أجل الابتعاد عن مركز الثقل النفاقي في مكة قدر الإمكان، واللحاق بأعداد المسلمين الراجحة إلى مدنها وقرابها. ولما بلغ موكب الحجيج العظيم «رابع» قرب «غدير خم»، قريباً من الجحفة، التي تتشعب فيها طرق المدينين

(1) ابن البطريرق، عمدة عيون صحاح الاخبار في مناقب إمام الأبرار، ص107، الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص73، السيد ابن طاووس، اليقين، ص349.

(2) أحمد بن حنبل، مسنّد أحمد بن حنبل، ج 4، ص 16، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 1، ص 20، ج 10، ص 408، الضحاك، عمرو بن أبي عاصم، الآحاد والمثنوي، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الدرية، ط 1991م، ط 1، ج 5، ص 24، الأمير علاء الدين علي بن بلبان، صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، 1993م، ط 2، ج 1، ص 444، الطبراني، المعجم الكبير، ج 5، ص 51.

وال المصرىين وال عراقيين، وقبل أن يتفرقوا إلى بلدانهم من هذه المنطقة، وذلك يوم الثامن عشر من ذي الحجـة، جاءه جبرائيل بالعـصمة في قوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكُفَّارِ﴾^(١)، وأمره أن يقيم علياً ﷺ عـلـماً للناس، ويلـغـهم ما نـزلـ فيـهـ من الـولـاـيةـ، وفرض الطـاعـةـ علىـ كـلـ أحدـ.

أزال الله بهذه الآية الشريفة ذلك الخوف وتلك الهيبة التي كانت في صدر النبي ﷺ من قريش والمنافقين ومخططاتهم، وكانت هذه الآية تشجيعاً له على القيام بما أمره الله بأدائه^(٢). وهذه الآية، وإن كان الخطاب فيها للنبي ﷺ، فإن المقصود منها أولئك الذين كان يخـاـهمـ رسولـ اللهـ ﷺـ كماـ صـرـحـ بـهـ هوـ نـفـسـهـ ﷺـ،ـ فـلـمـ يـكـنـ النـبـيـ ﷺـ مـمـتـنـعـاـ عـنـ الإـبـلـاغـ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـ مـمـنـوـعاـ مـنـهـ.

3. رسول الله ﷺ وإعلان الولاية:

لـمـ وـصـلـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ إـلـىـ الجـحـفـةـ،ـ كـانـ أـوـاـلـ الـقـوـمـ قـرـيـباـ مـنـ الـجـحـفـةـ.ـ أـمـرـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ أـنـ يـرـدـ مـنـ تـقـدـمـ مـنـهـ،ـ وـيـحـبـسـ مـنـ تـأـخـرـ عـنـهـمـ فـيـ ذـلـكـ الـمـكـانـ،ـ وـكـانـ ذـلـكـ دـاعـيـاـ إـلـىـ إـثـارـةـ فـضـوـلـهـ وـاهـتـمـامـهـ لـمـعـرـفـةـ مـاـ الغـاـيـةـ مـنـ فـعـلـ النـبـيـ ﷺـ،ـ وـكـانـ فـيـ الـمـكـانـ بـضـعـ شـجـرـاتـ،ـ نـهـيـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ الـمـسـلـمـيـنـ مـنـ النـزـولـ تـحـتـهـ،ـ ثـمـ أـزـيلـ الشـوـكـ مـنـ تـحـتـ تـلـكـ الـأـشـجـارـ،ـ وـتـمـ تـمـهـيدـ الـمـكـانـ،ـ وـنـوـدـيـ بـالـصـلـاـةـ،ـ فـعـمـدـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ إـلـىـ الـشـجـرـاتـ،ـ فـصـلـىـ بـالـنـاسـ تـحـتـهـ،ـ وـكـانـ مـوـقـعـهـ وـمـوـقـعـهـ ظـاهـرـاـ لـلـنـاسـ؛ـ بـحـيـثـ إـنـهـ مـاـ كـانـ فـيـ الـدـوـحـاتـ أـحـدـ إـلـاـ رـأـهـ بـعـيـنـيهـ،ـ وـسـمـعـهـ بـأـذـنـيـهـ^(٣).

(١) سورة المائدة، الآية 67.

(٢) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 3، ص 223، السيد ابن طاووس، سعد السعدي، ص 69، والشيخ الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج 3، ص 588.

(٣) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 12، النسائي، خصائص أمير المؤمنين ﷺ، ص 21، البهقي، السنن الكبرى، ج 5، ص 130، الشيخ الصدوق، كمال الدين، ص 235، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 9، ص 164، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 4، ص 416، الخوارزمي، المناقب، ص 154، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 228، البلاذري، أنساب الأشراف، ص 111.

وفوجئ النبي ﷺ هناك أيضاً بأن حركة النفاق أدركت سر حركته السريعة، وأنها ارتبكت في تنظيم حركتها، فارتبت خطأ كشف حقيقتها حين نزل بخـم، ونزل معه علي بن أبي طالب، فقد تناهى الناس عنه، وشق على النبي تأثير الناس، فأمر عليه، فجمعهم. ولما اجتمعوا قام فيهم متوسداً يد علي بن أبي طالب ﷺ، وخطب في الناس إلى أن قال: «...، فاعلموا معاشر الناس، فإن الله قد نصبه لكم ولـي وإماماً، وفرض طاعته على كل أحد، ماض حكمه، جائز قوله، ملعون من خالقه، مرحوم من صدقـه، اسمعوا وأطـيعوا، فإن الله مولاكم، وعلى إمامكم، ثم الإمامة في ولـي من صـلبه إلى القيـمة، لا حلال إلا ما أحلـه الله ورسـوله، ولا حرام إلا ما حرم الله ورسـوله وهم».

ثم أخذ رسول الله ﷺ بـيد علي ﷺ، فرفعـها حتى رؤـي بيـاض آبـاطـهما، وعرفـهـ القومـ أـجمـعونـ، فـقالـ: «ـأـيـهاـ النـاسـ مـنـ أـوـلـيـ النـاسـ بـالـمـؤـمـنـينـ مـنـ أـنـفـسـهـمـ؟ـ»، قـالـواـ: «ـالـلـهـ وـرـسـولـهـ أـعـلـمـ». قـالـ: «ـإـنـ اللـهـ مـوـلـايـ، وـأـنـاـ مـوـلـىـ الـمـؤـمـنـينـ، وـأـنـاـ أـوـلـىـ بـهـمـ مـنـ أـنـفـسـهـمـ، فـمـنـ كـنـتـ مـوـلـاهـ فـعـلـيـ مـوـلـاهـ، فـمـنـ كـنـتـ مـوـلـاهـ فـعـلـيـ مـوـلـاهـ فـعـلـيـ مـوـلـاهـ فـلـيـلـغـ الشـاهـدـ الغـائـبـ»⁽¹⁾.

ثم قال: «اللهم وال من والـهـ، وـعـادـ من عـادـهـ، وـأـحـبـ من أـحـبـهـ، وـأـبـغـضـ من أـبغـضـهـ، وـانـصـرـ من نـصـرـهـ، وـاخـذـلـ من خـذـلـهـ، وـأـدـرـ الحـقـ معـهـ حـيـثـ دـارـ، وـالـعـنـ مـنـ أـنـكـرـهـ، وـاغـضـ عـلـىـ مـنـ جـحـدـ حـقـهـ، فـهـوـ أـفـضـلـ النـاسـ بـعـدـيـ، مـاـ نـزـلـ الرـزـقـ، وـبـقـيـ الـخـلـقـ، مـلـعـونـ مـنـ خـالـقـهـ، قـوـيـ عنـ جـبـرـئـيلـ عنـ اللـهـ، فـلـتـنـظـرـ نـفـسـ ماـ قـدـمـتـ لـغـدـ»⁽²⁾.

فعند ذلك، بادر الناس بقولهم: «نعم، سمعـنا وأطـعـنا لـمـاـ أـمـرـنـاـ اللـهـ وـرـسـولـهـ، بـقـلـوبـنـاـ، وـأـنـفـسـنـاـ، وـأـلـسـنـتـنـاـ، وـجـمـيعـ جـوـارـحـنـاـ».

ثم انكبـواـ عـلـىـ رـسـولـهـ ﷺ، وـعـلـىـ عـلـيـ ﷺ بـأـيـديـهـمـ، وـكـانـ أـوـلـ منـ صـافـقـ

(1) ابن الصياغ المالكي، الفصول المهمة، ج 1، ص 238، ابن شاذان، شاذان بن جبرئيل القمي، الروضة في فضائل أمير المؤمنين، تحقيق: علي الشكرجي، ل.د، 1423 هـ، ط 1، ص 118، السيد ابن طاووس، سعد السعود ص 71، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تميز الصحابة، ج 1، ص 34.

(2) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص 133، السيد ابن طاووس، التحصين، ص 579، الفتال النيسابوري، محمد بن الفتال، روضة الوعاظين، منشورات الشـرـيفـ الرـضـيـ، قـمـ، لـاـتـ، لـاـطـ، ص 100.

رسول الله أبو بكر وعمر، وطلحة والزبير، ثم باقي المهاجرين والأنصار وبباقي الناس على طبقاتهم، ومقدار منازلهم، إلى أن صلوا الظهر والعصر في وقت واحد، والمغرب والعشاء الآخرة في وقت واحد، ولم يزالوا يتواصلون البيعة والمصافحة ثلاثة، ورسول الله كلاماً بايعه فوج بعد فوج، يقول: «الحمد لله الذي فضّلنا على جميع العالمين»⁽¹⁾.

ثم قال الشاعر حسان بن ثابت، ي يريد تسجيل حادثة الغدير في سجل الأدب والتاريخ: «ائذن لي يا رسول الله أن أقول في عليٍ أبياتاً تسمعهن». فقال: «قل على بركة الله». فقام حسان، وقال: «يا معاشر مشيخة قريش، أتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية». ثم قال:

«يناديم يوم الغدير نبيهم بخم فأسمع بالرسول منادياً

يقول: « فمن مولاكم ووليكم؟»

«إلهك مولانا وأنت ولينا

فقال له: «قم يا عليٌ فإنني

فمن كنت مولاه فهذا وليه

هناك دعا: «اللهم وال عليه وكن للذي عادا علياً معادياً»

ثم تفرقـت جمـوع الحجـيج من غـدير خـم نحو العـراق والـشـام والـيـمن، ويـمـم النـبـي ﷺ بأصحابـه صـوب المـدـيـنـة⁽²⁾.

(1) الشيخ الطبرسي، الاحتجاج، ج 1، ص 84، واليقين لابن طاووس، ص 360.

(2) الشريف المرتضى، رسائل المرتضى، تقديم: السيد أحمد الحسيني، إعداد: السيد مهدي الرجائي، دار القرآن الكريم، قم، إيران، 1405هـ لـاط، ج 4، ص 131، السيد ابن طاووس، الشيخ المقيد، محمد بن محمد، الجمل، مكتبة الداوري، قم، إيران، لـات، لـاط، ص 117، الخوارزمي، المناقب، ص 136، الشيخ الصدوق، الأمالي، ص 670، الفتال النيسابوري، روضة الوعاظين، ص 103، الشيخ المفید، الإرشاد، ج 1، ج 1، ص 177، وأقسام المولى، ص 35، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 2، ص 230، الكراجي، كنز الفوائد، ص 123، الشيخ المفید، محمد بن محمد، مسار الشيعة، دار المفید، بيروت، لبنان، 1993م، ط 2، ص 39، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج 1، ص 262، المشغري، الدر النظيم، ص 253 و 396، للتوصـعـة حول المـوـضـوـعـ، راجـعـ: السـيـدـ جـعـفـرـ مـرـتضـيـ العـالـمـيـ، الصـحـيـحـ من سـيـرـةـ النـبـيـ الأـعـظـمـ، جـ 31ـ، صـ 119ـ، جـ 32ـ، صـ 7ـ.

المفاهيم الرئيسية

- قرر النبي ﷺ أن يذهب إلى بيت الله الحرام حاجاً بعد تبليغ سورة براءة، فخرج حاجاً، وقد سميت هذه الحجة «حجّة الوداع»؛ لأن النبي ﷺ ودع المسلمين في هذه الحجة، وسميت «البلاغ»، لأنه ﷺ بلغ فيها ما أنزل عليه في شأن خلافة الإمام علي عليه السلام، وسميت «بحجّة الإسلام»؛ لأن النبي ﷺ بلغ فيها الكثير من أحكام الدين الإسلامي.
- لقد كان لهذه الحجة العديد من الأهداف والنتائج، والتي كان من أهمها إظهار عظمة الإسلام، وتولية خليفة المسلمين الخلافة قبل وفاة النبي ﷺ؛ فلقد كان إعلان الولاية الكبرى على الناس وتعيين الإمام علي عليه السلام خليفة أمّام جميع الناس بمثابة تأكيد على أهمية هذه البيعة وعظمتها، حيث كان النبي ﷺ قد كتب بهذه الحجّة إلى كلّ من بلغه كتابه وكان قد دخل في الإسلام.
- رسول الله ﷺ في مكة المكرّمة: لما وصل النبي ﷺ إلى مكة المكرّمة قام بأعمال عدّة، منها:
 - أ. تعليم الناس مناسك الحجّ.
 - ب. خطب في الناس في عرفات، وأبلغ الناس أن الأئمة من قريش من بنى هاشم.
 - ج. خطب النبي ﷺ في منى وعلمهم الكثير من تعاليم الدين، وبين أهمية شأن الولاية.
 - د. غدير خمّ والبيعة للإمام علي عليه السلام.
- أ. مشروع قريش: عملت قريش على معارضته المشروع الإلهي بتعيين الإمام علي عليه السلام خليفة على المسلمين.
- ب. كان الأمر الإلهي للنبي ﷺ حاسماً بضرورة التبليغ، وأن الله سيعصمه من الناس؛ ولذا حاولت قريش التهرب من التبليغ والخروج بسرعة من موسم الحجّ، فقطع النبي ﷺ المسافة بسرعة حتى وصل إلى غدير خم، فأمر باجتماع الناس، وصنع له منبر، فوقف هو والإمام علي عليه السلام عليه، وبين للناس ولاليته عليهم، ثم بين لهم أن ولاية الإمام علي عليه السلام هي فرع ولايته عليهم، فقبل الناس بذلك، وبابعوا الإمام علي عليه السلام.

الدرس الواحد والثلاثون

رحيل المصطفى

كَلِمَاتُهُ مُبَارَكَةٌ
وَلِلَّهِ الْحَمْدُ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ

أهداف الدرس

على المتعلم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أسباب تجهيز جيش أسامة.
2. يشرح ملابسات كتابة وصية رسول الله ﷺ.
3. يوضح مجريات تغسيل رسول الله ﷺ ودفنه.

تمهيد

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة في العشرة الأخيرة من شهر ذي الحجة؛ حيث مكث حتى انتقاله إلى الملائق الأعلى. وكان رسول الله ﷺ، بعد أن انبسط سلطان الدين الإلهي في ربوع الجزيرة العربية، يعمل جاهدًا لأن يهيئ الظروف لتلقي الأمة فاجعة الرحيل عنها، وكذلك عمل على تهيئة الظروف المناسبة لإبعاد شبح قريش عن المدينة المنورة لإنتمام عملية انتقال الخلافة بطريقة سلمية وسلسلة منه إلى الإمام علي عليه السلام؛ لأنَّه كان يعلم جيدًا أنَّ قريشاً سوف تسعى جاهدة لمنع تسلُّم الإمام علي عليه السلام الخلافة من بعده.

جيش أسامة وخلافة الإمام علي عليه السلام

1. التخطيط النبوِّي لانتقال الخلافة:

كان النبي ﷺ يخطط لتهيئة الجو السياسي في المدينة لتولي الإمام علي عليه السلام الخلافة من بعده خوفاً من وجود أشخاص، وحصول أحداث، سوف تعيق تسلُّم وصيه علي عليه السلام زمام الدولة من بعده. واعتبر رسول الله ﷺ أنَّ المدينة لو خلت من المنافسين والمناوئين للإمام علي عليه السلام، فسوف تتم له البيعة بطريقة سلمية وسريعة، فلا يتهيأ لأحد فسخها، ومنازعة الإمام علي عليه السلام فيها. وكان الحل المناسب لتنفيذ ذلك هو تشكيل حملة عسكرية، يأمر رسول الله ﷺ الذين يريد أن يكونوا خارج المدينة عند موته بالسير فيها.

2. تأمير أسامة وإخراج كبار الصحابة:

تنفيذًا للتخطيط النبوى لانتقال الخلافة للإمام على عليه السلام، أمر رسول الله بالتهيّء لغزو الروم، وأهل أبى خاصة؛ لأنّهم كانوا معلين الحرب على الإسلام وأهله، وقد كان لهم دور بارز في مؤنة، فدعا أسامة بن زيد، وقال له: «يا أسامة، سر على اسم الله وبركته، حتّى تنتهي إلى موضع مقتل أبيك، فأوّلتهم الخيل، فقد ولّيتك هذا الجيش، فاغزْ صباحاً أهل أبى⁽¹⁾، وأسرع السير تسق الأخبار، فإن أظفرك الله، فأقلل اللثث فيهم، وخذ معك الأدلة، وقدم العيون والطائع أمامك».

ثم عقد له لواءً بيده، فخرج أسامة بلوائه معقوداً، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأوّلين والأنصار إلّا انتدبه رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه في تلك الغزوة، منهم أبو بكر، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وغيرهم⁽²⁾.

وكان تأمير أسامة وهو شاب ابن سبع عشرة سنة⁽³⁾ لم يخض حرباً، ولم يتسلّم قبل ذلك قيادة، على جيش يضمّ كبار الصحابة، من شيوخ الأنصار والمهاجرين، والزعماء، والقادة، صعباً وثقيلاً على قلوبهم، وفيه إشارة بلاغة إلى أهميّة الكفاءة في القيادة، ودليلًا عملياً على أنّ النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه أراد أن ينسف قاعدة الشهرة، وكبر السنّ، والانتماء إلى عشيرة معينة، في استحقاق الإمارة والولاية، وحتّى لا يستطيع أن يحتاج من يريد أن يحتاج على تولية عليّ بن أبي طالب عليه السلام الإمامة بأنّه صغير السنّ.

3. الإمام عليه السلام يبقى في المدينة:

من جملة تخطيط رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه أنّه لم يجعل عليّ عليه السلام في ذلك الجيش؛ لأنّ

(1) أبى: ناحية بالبلقاء بين عسقلان والرملة، وهي قرب مؤنة.

(2) العيني، عمدة القاري، ج 18، ص 76، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 352. الواقدي، المغازي، ج 3، ص 1117، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 190. السجستاني، سنن أبي داود، ج 3، ص 38. أحمد بن حنبل، مسنّد أحمد بن حنبل، ج 5، ص 205. ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 54. الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 248.

(3) ابن عبد البر، الاستيعاب، ج 1، ص 34. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 1، ص 46. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج 2، ص 113. ابن الأثير، أسد الغابة، ج 1، ص 64.

علياً ﷺ لم يكن في جيش إلا وهو أميره، ولو كان في هذا الجيش ل كانت الإمارة له لا لسواه⁽¹⁾، ولأنه هو المقصود أولاً بالإبقاء في المدينة لتسلم منصب الخلافة بعد النبي ﷺ. وأبقى رسول الله ﷺ أيضاً في المدينة شيعة عليٰ ﷺ ومحبيه، ولم ينتدبهم في هذه الحملة، فلم يذكر المؤرخون مثلاً سلمان الفارسي، ولا المقداد، ولا أبا ذر، ولا أحداً منبني هاشم، ولا أبا الهيثم بن التيهان، في جملة من فرض عليهم النبي ﷺ الخروج في ذلك الجيش.

4. صلاحية أسامة لقيادة الجيش:

بعد أن أمر رسول الله ﷺ بتهيئة الجيش، خشي أن يتقاوم الناس، فخرج عاصباً رأسه، وكانت الحمى قد اشتدت به، فقال: «أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة». ثم دخل إلى بيته، معتمداً على أن يبادر أسامة إلى التحرك بجيشه والخروج، فكترت المقالة في أوساط الجيش، وطعنوا في تأمير أسامة، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فغضب غضباً شديداً، وقال: «لئن طعنتم في إمارة أسامة لقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وأيهم الله، كان للإمارة لخليقاً، وإن ابنه من بعده لخليق للإمارة»⁽²⁾.

5. التأكيد على إنفاذ جيش أسامة:

مضى الناس إلى المعسكر، وثقل النبي ﷺ في مرضه، ولكن لم يشغله ثقل المرض عن الاهتمام الكبير منه لخروج الجيش، فجعل يقول لكل من يعوده من أصحابه: «جهزوا جيش أسامة، أنفذوا جيش أسامة، أرسلوا بعث أسامة»، يكرر ذلك، ويزيد إصراراً بقوله: «لعن الله من تخلف عن جيش أسامة»⁽³⁾.

ومنذ الساعة التي حمّ فيها النبي ﷺ، ثم قرر بعث أسامة بن زيد، وصولاً إلى يوم وفاته ما

(1) السيد ابن طاووس، علي بن موسى، كشف المحقق لثمرة المهجنة، المطبعة الجيدية، النجف الأشرف، العراق، 1950، ل.ط، ص 176.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى ج 2، ص 190، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 6، ص 248، الواقدي، المغازي، ج 3، ص 119، ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج 1، ص 159، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج 2، ص 55، ابن سيد الناس، عيون الأثر، ج 2، ص 352.

(3) الشهرياني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ل.ت، ل.ط، ج 1، ص 23، ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج 6، ص 52، الجوهري، أحمد بن عبد العزيز، السقيفة وفك، تقديم وجمع وتحقيق: الدكتور الشيخ محمد هادي الأميني، شركة الكتبية، بيروت، لبنان، 1993، ط 2، ص 77.

يقارب خمسة عشر يوماً، كان رسول الله يصرّ على أسامة بالمبادرة والخروج، فـيتحرّك أسامة متباطئاً متأثلاً، ثم لا يكاد يمضي اليوم حتى يصل خبر حساس مثير من بيت النبي ﷺ إلى المعسكرين خارج المدينة أن رسول الله يموت، فـتتعثر مسيرة الجيش، ويقف، ويعود أسامة إلى المدينة، يدخل إلى بيت رسول الله ﷺ فيفتح رسول الله عينيه ليجد أسامة واقفاً فوق رأسه، وعيناه تهملان بالدموع، فيفاجأ النبي ﷺ بعودته، وهو ثقيل مغمور، وعنه الناس والنساء حوله، فيطأطىء عليه أسامة فيقبله، والنبي ﷺ لا يتكلّم، ثم يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها على أسامة، كأنه يدعوه له، يحثّه على المضي نحو هدفه الذي رسمه له قائلاً له: «اغز بـاسم الله في سبيل الله فقاتل من كفر بالله»، فيرجع أسامة إلى معسكره، ولكنّه يبقى ولا يتحرّك بالجيش. وهكذا، كان هذا المشهد يتكرّر يومياً.

ولكنّ أسامة لم يتحرّك، وظهر كأن قريشاً وحلفاءها يسيطران على ساحة الفعل السياسي في المدينة عشية خلوّ قيادة الدولة الإسلامية من خاتم النبيين.

ملابسات كتابة وصيّة رسول الله ﷺ

في يوم الخميس الذي سبق وفاة النبي ﷺ بأربعة أيام، أراد رسول الله أن يوجّه ضربة نحو مطامع قريش ومكائدـها السياسية، وكان أن وقعت الرزية، وـحيل بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب الذي كان يريد أن يضمن فيه حفظ الأمة الإسلامية من الانحراف والضياع من بعده. وفي ذلك اليوم، وفي البيت نساء ورجال قد ضرب بينهم حجاب، وقد اجتمع الصحابة في داره، ولحق بهم من تخلّف عن جيش أسامة الذي كان قد تناقل ولم ينفذ أمر رسول الله بالتحرّك، وفي الرجال عمر بن الخطاب، وكان قد اشتَدّ بـرسول الله ﷺ وجعه، وأدرك أنّ المتآمرين قد أحبطوا خطّته، وهذا هم قد مكثوا في المدينة وحضروا داخل بيته، فـحاول أن يعرقل المؤامرة السياسية التي كان يتوقّعها من بعد وفاته، فقال للحاضرين عنده: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده»، «أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده». وهنا انتبه عمر بن الخطاب إلى أنّ رسول

الله ي يريد أن يكتب كتاباً ينصّ فيه على ولادة عليّ بن أبي طالب عليهما السلام⁽¹⁾، فحاول تعطيل الحركة النبوية، وأن يلقي شبهة أنّ رسول الله لن يموت، فلا داعي لهذا الكتاب. فقال: «من لمدائن الروم؟ إنّ رسول الله ليس بمبين حتى يفتحها، ولو مات لانتظرناه كما انتظر بنو إسرائيل موسى!»، فقالت زينب بنت جحش والنسوة: «ألا تسمعون النبي عليهما السلام⁽²⁾ يعهد إليكم؟ أتوا رسول الله ب حاجته».».

وأمام إصرار النساء، رفع عمر مستوى ردّ فعله على محاولة النبي كتابة هذا الكتاب، وخطب نساء رسول الله بتصرف يعده تجاوزاً للأداب كافة في محضر رسول الله عليهما السلام، فقال لهنّ: «اسكتنْ فإنكُنْ صواحبه إذا مرض عصترنْ أعينكُنْ وإذا صَحَّ أخذتنْ بعنقه!»، فقال رسول الله عليهما السلام: «هُنْ خيرٌ منكُمْ». ولعل كففة المواقفين على طلب رسول الله قد رجحت بعد أن قال النبي للرجال هُنْ خيرٌ منكُمْ، وهنا قال عمر: «إِنَّ النَّبِيَّ يَهْجُرُ، وَعِنْدَنَا كِتَابُ اللَّهِ، فَتَنَازَعُوا، وَاخْتَصَمُوا، وَاتَّخَلَفُوا، أَوْ كَثُرَ الْلَّغْطُ، ثُمَّ قِيلَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ: «أَلَا نَأْتُكُمْ بِمَا طَلَبْتُمْ؟»، فقال: «أَوْ بَعْدَ مَاذَا؟، قَوْمًا عَنِّي، دَعْوَنِي، وَلَا يَنْبَغِي عِنْدَنَا نِزَاعٌ»⁽²⁾. ومع أنّ كتابة الكتاب كانت ضرورية، لأنّها كانت هي التي سوف تحفظ الأمة من الضلال، فقد صرف النبي عليهما السلام النظر عن كتابته، ولم يصرّ على ذلك، مع أنّ نفع الكتاب الذي سوف يكتبه لا يقتصر على أهل ذلك الزمان، بل سيكون شاملًا للأمة بأسرها إلى يوم

(1) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 1، ص 186، ج 8، العيني، عمدة القاري، ج 2، ص 171، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 12، ص 20، السيد ابن طاووس، كشف اليقين، ص 472، يحيى بن الحسين، التحفة العسجدية، الناشر: أبو أيمن للطباعة، الجمهورية اليمنية، 1343هـ ش، لـاط، ص 144، وص 147.

(2) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 244، أحمد بن حنبل، مسنون أحمد بن حنبل، ج 1، ص 325، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج 5، ص 76، الشهريستاني، الملل والنحل، ج 1، ص 22، البلاذري، أنساب الأشراف، ج 1، ص 562، الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، ج 3، ص 193، عبد الرزاق الصنعاني، المصنف، ج 5، ص 439، الأمير علاء الدين علي بن بلبان، صحيح ابن حبان، ج 14، ص 562، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج 2، ص 55، وج 6، ص 51، ابن كثير، البداية والنهاية، ج 5، ص 248، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج 3، ص 171، ابن كثير، السيرة النبوية، ج 4، ص 451 ، ص 498 ، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج 1ص 203، الشيخ المفید، محمد بن محمد، الأمالى، دار المفید، بيروت، لبنان، 1993م، ط 2، ص 37، السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص 433، السيد ابن طاووس، اليقين، ص 521، السيد ابن طاووس، سعد السعود، ص 297، السيد ابن طاووس، كشف المحجة، ص 65، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج 12، ص 247.

القيامة، وذلك خوفاً من تماديهم في الإساءة ونكرانهم لما هو أكبر، فقد علم ص بما في نفوسهم، فقال لهم حين راجعواه ثانية بشأن الكتاب: «أَبْعُدَ الَّذِي قَلْتُمْ؟!»⁽¹⁾.

رسول الله ﷺ في جوار الله

دخل يوم الاثنين، وشقق رسول الله ﷺ، فبادرت عائشة وحفصة إلى تعيين أبويهما. والظاهر أنّ عائشة هي التي غلت فأمرت بلاً أن يأمر أبا بكر فليصل بالناس، وكانت صلاة الصبح. فخرج رسول الله ﷺ وهو في آخر رمق يتهدى بين عليٍّ والفضل بن العباس، واستدركها بخروجه، حتى قام في المحراب، وصرف أبا بكر عنه، وعزله عن نفس تلك الصلاة، وصلّى هو إماماً في الناس⁽²⁾.

وفي اليوم نفسه الذي توفي فيه رسول الله ﷺ، وهو يوم الإثنين، انتقل رسول الله ﷺ من دار عائشة إلى دار ابنته فاطمة ص⁽³⁾. فقد خرج في ذلك اليوم، حين صلاة الفجر، من بيت عائشة، فصلّى بالناس، وخفف الصلاة، ثم قال: «ادعوا لي علياً بن أبي طالب، وأسامة بن زيد، انطلقوا بي إلى فاطمة».

وفي اللحظات الأخيرة، قال رسول الله ﷺ: «ادعوا لي أخي»، وكان قد بعثه في حاجة، فجاءه علي ص فقال له ص: «أدن مني»، فدنا علي ص، فاستند إليه فلم يزل مستنداً إليه يكلمه حتى بدت عليه علامات الاحتضار، فأخذ علي ص رأسه، ووضعه في حجره، فأغمي عليه، وكان واضعاً رأسه في حجر علي ص على صدره. وكان آخر ما قاله: «الصلاه، الصلاه»⁽⁴⁾، فأخذ علي ص رأسه، ووضعه في حجره،

(1) العلامة المجلسي، بحار الأنوار، مصدر سابق، ج 22، ص 469.

(2) ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج 9، ص 197، يحيى بن الحسين، ثبيت الإمامة، دار الإمام السجاد، بيروت، لبنان، 1419هـ، ط 2، ص 23، الشيف المفيض، الإرشاد، ج 1، ص 182، الشيخ المفيد محمد بن محمد، الإنصاص، تحقيق: مؤسسة البعثة، دار المفيد، بيروت، لبنان، 1993م، ط 2، ص 206، الفضل بن شاذان الأزدي، الإيضاح، تحقيق: السيد جلال الدين الحسيني الأرموي المحدث، مؤسسة انتشارات وجایپ دانشگاه تهران، إيران، 1363 هـ، ش، ط 1، ص 346، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج 2، ص 241، والفصل المختار، ص 124، والجمل لابن شدق، ص 40.

(3) التستري، قاموس الرجال، ج 11، ص 36.

(4) الشريف الرضي، نهج البلاغة، ج 2، ص 172، الشيخ المفيد، الأمالي، ص 23، ابن أبي الحميد، شرح نهج البلاغة، ج 10، ص 179، القندوزي الحنفي، ينابيع المودة، ج 3، ص 436، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج 2، ص 263، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 8، ص 107، العيني، عمدة القاري، ج 18، ص 66، الشيخ الصدوقي، علل الشرائع، ج 1، ص 168، الهيثمي، مجمع الروائد، ج 1، ص 293.

فقبض ملك الموت روح رسول الله ﷺ ويد أمير المؤمنين تحت حنكه، وفاضت نفسه بين نحر عليٰ عَلَيْهِ السَّلَام وصدره⁽¹⁾، ففاضت نفسه في يد أمير المؤمنين اليمني، رفعها إلى وجهه، ومسحه بها. ثم وجَهَهُ، وأغمضه، ومدّ عليه إزاره، واشتغل بالنظر في أمره⁽²⁾. وكان ذلك يوم الاثنين⁽³⁾ لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة⁽⁴⁾.

الإمام على عَلَيْهِ السَّلَام واستكمال إجراءات الدفن

تغسيل رسول الله عَلَيْهِ السَّلَام وتكفينه:

بعد أن قبض رسول الله عَلَيْهِ السَّلَام ستره عَلَيْهِ السَّلَام بشوب، وغسله عَلَيْهِ السَّلَام وحده وهو في قميصه، لم يجرّد⁽⁵⁾هـ، فغسله⁽⁶⁾ من وراء الثياب. وكانت الملائكة تساعد عَلَيْهِ السَّلَام على تغسله⁽⁷⁾. وبعد أن فرغ عَلَيْهِ السَّلَام من تغسيل رسول الله عَلَيْهِ السَّلَام، تولى عَلَيْهِ السَّلَام

(1) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج، 2، ص200، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج، 11، ص260، ج، 12، ص303، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج، 3، ص58، أحمد بن حنبل، مسنون حنبل، ج، 1، ص381، أبي يعلى الموصلي، مسنون أبي يعلى، ج، 9، ص132، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج، 9، ص34، الطبراني، المعجم الكبير، ج، 10، ص109، ابن كثير، البداية والنهاية، ج، 5، ص247، ابن كثير، السيرة النبوية، ج، 4، ص449، البلاذري، أنساب الأشراف، ج، 1، ص576، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج، 3، ص175، قطب الدين الرواندي، الخرائق والجرائح، ج، 1، ص241، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج، 6، ص1، الفتال النيسابوري، روضة الوعاظين، ص71.

(2) الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة 197، الشيخ المفيد، الإرشاد، ج، 1، ص94، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج، 1، ص267، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج، 1، ص203، قطب الدين الرواندي، قصص الأنبياء، ص357، المشغري، الدر النظيم، ص194.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج، 2، ص441، المسعودي، التنبيه والإشراف، ص244، ابن كثير، البداية والنهاية، ج، 5، ص292، الشيخ الطبرسي، الحسن بن الفضل، تاج المواليد، الناشر: مكتب آية الله العظمى المرعشي النجفي - قم، 1406هـ ل.ط، ص7.

(4) الشيخ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج، 2، ص214، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج، 6، ص2، الفتال النيسابوري، روضة الوعاظين، ص71.

(5) السيد ابن طاووس، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ص44، القاضي النعمان المغربي، شرح الأخبار، ج، 2، ص418.

(6) ابن عقدة الكوفي، أحمد بن محمد، كتاب الولاية، تحقيق: عبد الرزاق حرز الدين، ل.د، 1421هـ ل.ط، ص165، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج، 12، ص322، الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ج، 1، ص362، البيهقي، السنن الكبرى ج، 3، ص387، ابن كثير، البداية والنهاية، ج، 5، ص280، ابن كثير، السيرة النبوية، ج، 4، ص517.

(7) الشيخ الطوسي، الأموال، ج، 2، ص660، الشيخ الصدوق، الخصال، ج، 2، ص573 و 574

وحده تكفين رسول الله ﷺ أياً، وكفنه في ثلاثة أنواع: ثوبين صغارين، وبردة حبرة (١).

الصلة على رسول الله:

بعد أن فرغ علي عليه السلام من تغسيل النبي ﷺ، كفنه وسجّاه، ونفذ ما أمره به رسول الله ﷺ، فخرج ساعة من الحجرة، ثم تقدّم فصلّى عليه وحده، ولم يشرك معه أحداً في الصلاة عليه. ثم دخل فاطمة الزهراء والحسن والحسين عليهما السلام، وسلمان وأبا ذر والمقداد، فتقدّم علي عليه السلام وصفّوا خلفه وصلّى عليه. ثم أمر الناس أن يدخل عليه فوج بعد فوج منهم، فيصلون عليه بغير إمام، وينصرفون.

الدفن:

قيل لأبي طلحة زيد بن سهل: «احفر لرسول الله ﷺ»، فحفر له لحداً، ودخل أمير المؤمنين عليهما السلام والعباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس وأسامه بن زيد ليتولوا دفن رسول الله ﷺ. فطلب بعض الأنصار وبعض المهاجرين من الإمام علي عليه السلام أن ينالوا شرف المشاركة في مراسم دفن رسول الله ﷺ ليدخل أوس بن خولي، ونزل علي عليه السلام القبر فكشف عن وجه رسول الله ﷺ، ووضع خده على الأرض موجهاً إلى القبلة على يمينه، ثم وضع عليه اللبن وأهال عليه التراب^(٢)، وأخذ يسوّي قبر رسول الله ﷺ بمساحة في يده، اتكأ على مساحاته. ورفع علي عليه السلام قبر رسول الله ﷺ من الأرض قدر شبر وأربعة أصابع ورشّ عليه الماء، وجعل عليه لبناً.

قال رسول الله ﷺ: «إني أدفن في البقعة التي أقبض فيها»، وقد دلّنا على موضع

(١) وصحاب: قرية باليمن، علي بن باويه، فقه الرضا، تحقيق: مؤسسة آل البيت للإحياء التراث - قم المشرفة، الناشر: المؤتمر العالمي للإمام الرضا عليه السلام - مشهد المقدسة، 1406هـ ط ١، ص ٢٠، الشيخ الكليني، الكافي، ج ٤، ص ٤٠٠، القاضي النعمان المغربي، النعمان بن محمد، دعائم الإسلام، تحقيق: أصف بن علي أصغر فيضي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م، ل.ط، ج ١، ص ٢٣١، الشيخ الطوسي، تهذيب الأحكام، ج ١، ص ٢٩١، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، ج ١٢، ص ٣٢٦، عبد الرزاق الصناعي، المصنف، ج ٣، ص ٤٢١، ص ٤٧٤.

(٢) الشيخ المفيد، الإرشاد، ج ١، ص ١٨٨، الشيخ الطبرسي، إعلام الورى، ج ١، ص ٢٧٠، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبي طالب، ج ١، ص ١٥٢، المشغري، الدر النظيم ص ١٩٦، الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد ج ١٢، ص ٣٣٤، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٣٢٨.

قبره في الحديث المشهور: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة»⁽¹⁾، وأنه قريب من المنبر⁽²⁾. وقد تقدّم معنا أنه انتقل في اليوم الأخير إلى بيت ابنته فاطمة الزهراء عَلَيْهَا السَّلَامُ فيكون مكان قبره في بيتها عَلَيْهَا السَّلَامُ⁽³⁾.

(1) السمهودي، وفاء الوفاء، ج 2، ص 427، 428، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 11، ص 228، الشيخ الصدوقي، معاني الأخبار، ص 267، الشیخ الصدوق، من لا يحضره الفقيه، ج 2، ص 568، البهقی، السنن الكبرى، ج 5، ص 246، ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 3، ص 55، الهيثمي، مجمع الزوائد، ج 4، ص 6.

(2) أبي يعلى الموصلي، مسنن أبي يعلى، ج 1، ص 109، عبد الرزاق الصنعاوي، المصنف، ج 3، ص 182، الطبراني، المعجم الكبير، ج 23، ص 255، البخاري، صحيح البخاري، ج 1، ص 399، ج 2، ص 667، مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ج 3، ص 179، أحمد بن حنبل، مسنن أحمد بن حنبل، ج 2، ص 469.

(3) الشيخ الصدوق، الأمالی، ص 569، للتوسيعة حول الموضوع، راجع: السيد جعفر مرتضی العاملی، الصحيح من سیرة النبی الأعظم ، ج 32، ص 129، ج 33، ص 7.

المفاهيم الرئيسية

- جيش أسامة وخلافة الإمام علي عليه السلام:
 - أ. كان النبي ﷺ يعمل على تهيئة كل الظروف السياسية لتولي الإمام علي عليه السلام الخلافة من بعده، ولذا جهز جيش أسامة، وأخرج معه كبار من كان له طمع في الخلافة من بعده.
 - ب. أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيؤ والخروج لغزو أهل أبني؛ لأنهم كانوا معلميين الحرب على الإسلام وأهله، وأمر عليهم أسامة بن زيد. وقد كان تأمير هذا الشاب أمراً حساساً وخطيراً وثقيلاً على عدد كبير من المهاجرين والأنصار.
 - ج. أبقى رسول الله ﷺ الإمام علي عليه السلام في المدينة المنورة لتسليم الخلافة من بعده.
 - د. أمر رسول الله ﷺ الناس بالخروج مع جيش أسامة عندما رأى منهم الامتناع والهروب، فبين أنه أحق بإمارة الجيش وخليق بها.
 - ه. أكد النبي ﷺ على ضرورة إنفاذ جيش أسامة، بل لعن من تخلف عن الالتحاق بهذا الجيش، إلا أن أسامة بن زيد لم يتحرك بهذا الجيش نظراً إلى ضغوط قريش بمنعه من الخروج.
- واجهت الوصية التي أراد النبي ﷺ أن يكتبه العديد من العرقيل، خصوصاً من قبل قريش، فقد منع ﷺ من كتابة الوصية؛ لعلم قريش بأنّ النبي ﷺ أراد أن يوصي للإمام عليه السلام بالخلافة والولاية.
- ثقل مرض رسول الله ﷺ وأوشك على الرحيل، وكان ذلك يوم الإثنين، فانتقل النبي ﷺ إلى دار السيدة فاطمة عليها السلام، ثم دعا عليه الإمام علي عليه السلام، فجلس إلى جانبه، ووضع الإمام عليه السلام رأس النبي ﷺ في حجره، حتى فاضت روحه يوم الإثنين لليلتين بقيتها من شهر صفر.

- قام الإمام علي عليه السلام باستكمال إجراءات الدفن من خلال:
أ. تغسيل النبي عليه وتكفينه.
- ب. الصلاة على النبي عليه وحده، ثم دخل عليه الناس فوجاً فوجاً، يصلون عليه بغير إمام.
- ج. قام الإمام علي عليه السلام بحفر قبر النبي عليه وحده، ثم دفنه في المكان الذي قبض فيه عليه.

مَرْكَزُ الْمِعْرَافِ الْإِسْلَامِيِّ لِلتَّالِيفِ وَالْتَّحْقِيقِ

مِنْ مُؤْسَسَاتِ جَمْعِيَّةِ الْمِعْرَافِ الْإِسْلَامِيَّةِ
الثَّقَافِيَّةِ، مُتَخَصِّصٌ بِالْتَّحْقِيقِ الْعَلَمِيِّ وَتَأْلِيفِ
الْمَتَوْنِ التَّعْلِيمِيَّ وَالثَّقَافِيَّ، وَفَقَدَ الْمَنْهَجِيَّةِ
الْعَلَمِيَّةِ وَالرَّوْءَيَّةِ إِلَّا إِسْلَامِيَّةً أَصْبِلَّةً.

ISBN: 978-614-467-046-0



9 786144 670460



مَرْكَزُ الْمِعْرَافِ الْإِسْلَامِيِّ لِلتَّالِيفِ وَالْتَّحْقِيقِ
AL-MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان - بيروت - المهمزة - النخاع العام
تلفون: +961 1 471070 • فاكس: +961 1 476142
www.almaaref.org.lb
Email: info@almaaref.org.lb